جامعـــــــة الأزهــــر
كـــلية اللغـــة العربيـــة
المنصــــورة

دراســـــات تـحـليليـــــة
فـــى
السيـــرة النبـــويـــة

الجزء الثانى
(العهــــــد المــــدنى)

تأليف الدكتور
محسـن سعـد عبد اللـه ناصــر
أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة
بكلية اللغة العربية بالمنصورة

١٤١٨هـ/١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمـــة:

الحمد لله الممن على عباده بـــالفيض والإحســان،والصـــلاة والســلام على صفوة الأنبياء وإمام الأتقيــاء سـيدنا محمــد،وعلـــى آلـــه وصحبـــه الكرام البررة الطاهرين الذين سبقوا فى ميــــادين المجـد فــاعتلوا أرائــك الحمد واحتلوا دارات الخلـــد.

وبعــــــــد

فهذا مؤلـــف نعــرض فيـــه لسـيرة رســول الله-صلـــى الله عليـــه وسلم-مُذْ هاجر إلى المدينـــة حَتــىّ لحوقـــه بـــالرفيق الأعلـــى،قـــاصدين إتمام ما بدأناه وعرضنا له فى كتابنـــا " دراســات تحليليــة فـــى الســيرة النبوية "حيث وقفنا فيه عنـــد الحديـث عـــن مُقدّمــات الـــهجرة النبويـــة المباركة،فكان لزاماً علينا أن نتمم مـــا بدأنـــاه فكـــان الكتـــاب الـــذى بيـــن يديك حلقة فى سلســـلة، نعــرض فيـــها لسـيرة رســول الله- صلـــى الله عليه وسلم-دراسة وتحليلا، فقمنا بجمع ما قيـــل فيـــها ومـــا نقـــل إلينـــا من روايات نـــاظرين فيـــها بعيـــن الـــدارس المحقـــق والنـــاقد المنصـــف المدقّـق.

ولما كانت الروايات قد تعـــددت فـــى القضيـــة الواحـــدة أو الموقـــف الواحد عمدنا إلى اختيار الصحيح منها معرضيـــن عـــن غيرهـــا،مؤيديـــن اختيارنا بالحجج والبراهين التى لا تقبـــل شـــكاً ولا ريبـــة،فكـــانت الآيـــات القرآنية ، والأحاديث النبوية الصحيحة أســـاس حجتنـــا وعمـــاد برهاننـــا، فقدمناهما على غيرهما مـــن النصـــوص التـــى دونـــها أصحـــاب الســـير والمغازى ، ولم نَغْفَلْ عمّا كتبه المحدثون ذاكرين مـــا توصلـــوا إليـــه مـــن آراء حول الموقف الواحد،مبينيـــن نظرتـــهم إلـــى المواقـــف والمشـــاهد،

فقضينا بأنّهم كانوا فريقين:-فمنهم مـــن نظـــر إليـــها بمنظـــور إســـلامى جاعلاً الآيات القرآنية والأحاديث النبوية دليلاً علــى صـدق نظرتـــه ومـــا توصل إليه من عبر ونتائج ، ومنهم من نظــر إليــها نظــرة عنــى فيــها بتغليب الفكــر العســكرى فســجل نتائجــه ومـــا توصــل إليــه بأســلوب عسكرى عصرى يجعــل القــارئ كأنـــه شــاهدُ عيــان للمعركــة والأرض التى تدور عليها رحى الحرب وما فيها من كـــرّ وفــر.

وهذه النظرة أو تلك بالإضافة إلــى مــا كتــب عــن الســيرة قديمـــاً يمكننا من خلالها تقديم مواقف وقضايـــا الســيرة النبويــة بصــورة تــبرز الحقيقة وتدحض الفرّية، خاصة أننا عُنينا بتقديم رأينـــا فــى كّـلّ القضايـــا والمواقف بعد ما نعرض لآراء كُتّاب الســيرة قُدامــى ومحدثيــن.

علما بأننا لم نغْفل فـــى الحواشــى عــن تخريــج مبــهمات الألفـــاظ الواردة فى الحوارات التى كانت دائــــرة بيــن النبــى -(ﷺ) -وأصحابــه كالتى تكون بين مُسْلمٍ وأخيه،أو كالتى بين مُســلم ومشــرك،عنــد التــهيّؤ لحرب أو فى ميادين المعركة،وما إلـــى ذلــك مــن دواعــى الحــوار عنــد حدوث مـــا يســتوجب اســتلهام الــرأى والمشـــهورة أو المفـــاخرة عنــد المبارزة أو المعاتبة،وغيرها من الدواعى التـــى تكشـف عنـــها صفحـــات هذا الكتـــاب.

كما عنيت فى الحواشى بتخريج البلدان ليكـــون القـــارئ علـــى علـــم ودراية بجغرافية المكان ، فتأتى حكمــــة الحــدث والنتـــائج التـــى تـــترتب عليه أقرب ما تكون إلى الصـــــواب.

ولما كان عملنا فى هذا الكتاب قائمـــا علـــى العــرض التحليلـــى فـــى ترجيح رواية على أخـــرى مـــن الروايـــات المتعـــددة،وعــرض تســـاؤلات غير مسبوقة فى كثير من القضايا والأحـــداث فقـــد أســـميناه:

"دراسات تحليلية فـــى الســـيرة النبويـــة " الجـــزء الثـــانى " " العـــهد المدنى" ليكون على نهج سلفه، لما بينـــــهما مـــن صـــلات ووشـــائج،فقـــد اتفقا في الموضوع والغاية،وهدفنا انتقـــاء الروايـــة الصحيحـــة مـــن بيـــن روايات السيرة النبوية الشـــــريفة.

هذا ، وقد اشـــتمل الكتـــاب علـــى ســـبعة فصـــول يســـبقها مُقَدمَـــة ويعقبها خاتمة ثـــــم جـــاء مُذيّـــلاً بثبـــت المصـــادر والمراجـــع.وفـــهرس الموضوعات.ففى المقدمة تحدثت عـــــن الدواعـــى التـــى دفعتنـــى لإعـــداد هذا الكتاب المعنى بســـيرة النبـــى -(ﷺ)-مـــن هجرتـــه إلـــى وفاتـــه.ثـــم ذكرت بعض ملامح المنهج الذى سلكناه فى عرضنـــا لـــهذا الكتـــاب.

أمّا الفصول السبعة؛فقد راعينا فـــى تقســـيمها الـــترابط الـــذى كـــان بين أجزاء الفصل الواحد،بحيث شكل كُـــل منـــها مرحلـــةً ممـــيزة لســـيرة النبى -(ﷺ)-خلال الحقبة المدنيـــــة.

ولم نعرض ضمن فصول كتابنا،لأحـــــوال النبـــى-(ﷺ)-فـــى بيتـــه وبما كان من أمر بنائه-(ﷺ) بأكثر من زوج خـــــلال تلـــك الفـــترة،كمـــا لم نعرض للحديث عن صفاتـــه الخُلُقِيَّـــة والخَلْقِيَّـــة،لأنَّ ذلـــك كُلـــه يفتقـــر إلى دراسة مستقلة.يتحقق بها النفع إن شـــاء الله تعـــالى.وهـــذه الدراســـة هي ما أزمعنا الحديث عنــــها فـــى الجـــزء الثـــالث مـــن كتابنـــا،ســـائلين المولى عَزّ وجَلّ أن يحقق رغبتنـــا فـــى إتمـــام دراســـة الســـيرة النبويـــة على النهج الذى سلكناه؛لنبيـــن للنـــاس كافـــة ولقـــارئى الســـيرة خاصـــة عظمة الصادق المصدوق محمـــد -(ﷺ)-وندحـــض حجـــج المستشـــرقين رادين عليهم كيدهــــم وافتراءاتـــهم التـــى اختلقوهـــا بقصـــد النيـــل مـــن المعصـــوم-(ﷺ).

وبعـــــــد

فهذا كتابنا... لا أدّعى فيــــه الكمـــال؛ فـــإن الكمـــال لله وحـــده!!! إن كنت قدْ وفقت فيه؛ فما توفيقـــــى إلاّ بــــالله، وإن كــانت الأخــرى فحســبى أننى اجتهدت وكفانى أجر المجتهد،خاصة وأننـــــى لا أبغــى بجــهدى هــذا إلا تعبيد الطريق للباحثين اللاحقين: ليكونــــوا علـــى درايـــة إذا مـــا أرادوا الكتابة فى سيرة سيد المرسلين وخير خلـــق الله أجمعيــن.

فإن ســـيرته-(ﷺ)-َمعيــنُ لا ينضُــب،وبحـــر لا ينفــد،ومــداد لا ينتهى!!ولذلك شَـــدَّتْ إليـــها أقـــلام الكتـــاب والمؤرخيـــن عـــبر العصـــور والأزمان!!وما تزال تجذبهم إليها؛يستدرك اللاحـــق علـــى الســـابق أشـــياء لم يقف عليها!!وهذا أكـــبر دليـــل علـــى كمـــال بشـــرية النبـــى-(ﷺ)- وتأييد الله له ونصرته إيـــــاه!!!

وصدق الله إذ يقول"واللَّهُ يَعْصِمُكَ مـــن النـــاس"

وقال عزّ وجلّ" ويَأْبَى الله إلاّ أنْ يُتمَّ نُورَهُ ولـــو كـــره الكـــافِرُونَ"

" ربنا لا تُؤاخذنا إن نســـينا أو أخْطَأْنـــا،ربَّنَـــا ولا تحمـــل علينـــا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنـــا ولا تُحَمّلنَـــا مـــالا طاقـــة لنا به وأعْفُ عنّا واغفر لنا وارْحمنـــا أنـــت مولانـــا فانصرنـــا علـــى القوم الكـــافرين"

أ.د./ محسن سعد عبد الله

أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة

فى كلية اللغة العربية بالمنصورة

الفصل الأول

مقدمات الهجرة

الرسول يلتمس النصير فى القبائل

لم يتسلل اليأس إلى فؤاد النبى محمـــد-(ﷺ)-بعـد تلـك النـوازل المتلاحقةِ التى أصابته لَمّا فقد عمَّـه " أبـا طـالب " وزوجَـه " خديجـة " ثم إمطاره بوابل من الحجـارة بـأيدى سـفهاء" ثقيـف"وصبيانـها حيـن كان"بالطائف" !!! فراح يهتبل فرصـة اجتمـاع القبـائل للاتجـار وتبـادل الأخبار فى الأسواق القريبة من "مكة"قبل أن يـؤدوا حجـهم عنـد الكعبـة ليدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام والإيمان بوحدانيـة الواحـد الديـان!!!

فيذكر رواة السـيرة أن الرسـول -(ﷺ)- كـان يقـول لـهم وهـو يمر عليهم فى تلك الأسواق:{ يا بنى فلان،إنـى رسـول الله إليكـم،أمركـم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعـوا مـا تعبـدون مـن دون الله من هذه الأنـداد، وأن تؤمنـوا بـى وتمنعونـى حتـى أبلّـغ رسـالة ربـى}[1].

ويقول:{ من يحملنى حتـى أبلّـغ رسـالة ربـى، ويقـول:يـا أيـها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بـها العـرب وتديـن لكـم بـها العجم وتصبحوا ملوكاً فى الجنة"وخلفه عمه"أبو لـهب" عبـد العـزى بـن عبد المطلب" يقول: لا يغرنكـم هـذا عـن دينكـم:وديـن آبـائكم، إنمـا يدعوكم أن تسلخوا "اللات" "والعزى"من أعنـاقكم،وحلفـاءكم مـن الجـن ، إلي ما جاء به من البدعة و الضلالة فلا تطيعـوه و لا تسـمعوا لـه [2]

---

[1] ابن كثير:البداية والنهاية ج٣/١٣٨،١٣٩.

[2] ابن كثير : البداية و النهاية ج٣ /١٣٨، ١٣٩- الذهبي : السيرة النبوية/١٨٩ ، المقريزي : إمتاع الإسماع صـ ٥١ ، ٥٢ ، أبو شهبة : السيرة النبوية / ج١ / ٤٢٩ .

ولم يقتصر تصدى "قريش"لرسول الله-(ﷺ)-وهو يدعو تلك القبائل إلى الإسلام خلال مدة إقامتها فى هذه الأسواق للتجارة!بل تعداه!!بحيث كانت"قريش"تبعث مَنْ عندها من يحذر أفراد تلك القبائل قبل قدومهم إلى"مكة"من حديث رسول الله-(ﷺ)-إليهم حتى إذا ما حدثهم الرسول عن أمر الإسلام لم يجد منهم إلا آذاناً صماً وأعيناً عمياً لا ترى الحق.

فها هو ذا جابر بن عبد الله " يقول:{مكث رسول الله -(ﷺ)"بمكة"عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم"بعكاظ"و"مجنة" وفى المواسم"بمنى" يقول:من يأوينى؟من ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة؟

حتى إن الرجل يخرج من "اليمن" أو من"مصر".فيأتيه قومه فيقولون:احذر غلام " قريش" لا يفتنك،ويمشى بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع}[٣].

وعلى الجملة؛فإن أحياء العرب كانت تتحاشى رسول الله (ﷺ)؛ لما يسمعون من "قريش"فيه{إنه كاذب،إنه ساحر،إنه كاهن،إنه شاعر، أكاذيب يقترفونها!!فيرمونه بها حسداً من عند أنفسهم وبغياً!! فيصغى إليهم من لا تمييز له من أحياء العرب!! وأمَّا الألبَّاء منهم،فإنهم إذا سمعوا كلامه-(ﷺ)وتفهموه؛شهدوا بأن ما يقوله حقاً وصدقاً،وأن قومه يفترون عليه الكذب؛فيسلمون[٤] !!

---

[٣] ابن كثير: البداية والنهاية ج٣/صـ١٥٩.

[٤] المقريزى:إمتاع الأسماع/صـ٥٢.

ومن هــؤلاء العقــلاء الذيــن وجــدت كلمــات رســول الله-(ﷺ)- سبيلاً معبداً إلى أفئدتهم وهـــو يدعــو النـــاس فـــى الأســواق إلـــى ديــن الإسلام"سويد بن الصامت[*] ".الــذى قــدم"مــكة"حاجــاً أو معتمــراً،وكــان قومه يسمونه الكامل لجلّده ، وشــعْره ، وشــرفه ، ونســبه.

فتصدى له رســـول الله -(ﷺ)-حيــن ســمع بــه؛فدعــاه إلــى الله والإسلام؛فقال له "سويد"فلعل الذى معك مثل الذى معى؟فقـــال لــه رســول الله-(ﷺ)-"وما الذى معــك"؟فقــال:"مجلــة لقمــان".فقــال لــه الرســول اعرضها علىّ فعرضها عليه،فقــال إن هــذا الكــلام حَســن:والــذى معــى أفضلُ من هذا ،قرآن أنزله الله على؛هو هدى ونـــور، فتـــلا عليــه رســول الله-(ﷺ)-القرآن،ودعاه إلى الإسلام؛فلم يَبْعُدْ منــه،وقــال:إنَّ هــذا لقــولٌ حسنٌ.

ثم انصــرف عنــه،فقــدم"المدينــة"علـــى قومــه فلــم يلبــث أن قتلتــه " الخزرج" و قد كان رجال من قومـــه يقولــون:إنــا لــنراه قتــل وهو مسلم،وكان قتله قبل "يــوم بعــاث"[٦].

ومنهم "إياس بن معاذ " فإنه قدِمَ"مكـــة" مــع قومـــه ؛ليطلبــوا مــن "قريش" المحالفة،والنبى محمد -(ﷺ)-يدعو القبـــائل التـــى تأتيــهم؛ فــلا مجيب !

---

[*] "ابن خالد بن عقبة بن خوط بن حبيب بن عمرون بن عوف الأنصارى الأوســى"ابــن خالة عبد المطلب بن هاشم"أمه"ليلى بنت عمرو من بنى عدى بن النجار".ابن الأثير: أســد الغابة/ج٢/ صـــ ٣٥٦، المقريزي إمتاع الإسماع / ج١ / صـــ ٥٢

[٦] ابن الأثير : أسد الغابة /ج٢/صـــ٣٥-ابن القيم : زاد المعاد/ج٣/٤٤ ، أبو شهبه :السيرة النبوية -ج٤٣٢/١

فلما لقى الرسول قوم"إياس بن معاذ" حدثهم عن الإسلام قائلاً:هل لكم إلى خير مما جئتم له ؟ قالوا وما ذاك ؟ قال:أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا،ثم ذكر له الإسلام وتلا عليهم القرآن .

فلما وجد "إياس" منهم صدوداً عن رسول الله -(ﷺ) قال لهم:{هذا والله خير مما قدمنا له}!!فضربه"أبو الحيسر"انتهره؛فسكت!!ثم لم يتم لهم الحلف وانصرفوا إلى بلادهم،ومات"إياس بن معاذ" !!فقيل:إنه مات مسلماً" [٧] !!

وإذا كانت هذه بعض النماذج لأفراد قبلوا دعوة رسول الله-(ﷺ)-وإن لم يعلنوا ذلك صراحة ؛ خوفاً من قومهم؛فإن الثمرة الكبرى التى أثمرتها جهود رسول الله -(ﷺ)- فى الأسواق لدعوة القبائل إلى الإسلام تمثلت فى ستة نفر من "الخزرج".

التقى بهم رسول الله-(ﷺ)-عند عقبة منى"وهم يحلقون رءوسهم سنة عشر من البعثة وقال لهم:{من أنتم؟قالوا:نفر من الخزرج.قال: "أمن موالى يهود؟"قالوا:نعم،قال:"أفلا تجلسون أكلمكم؟"قالوا:بلى من أنت؟ فانتسب لهم وأخبرهم خبره؛فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل،وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن!!

كان لهذا الحوار أثر"عظيم"على أنفس النفر الستة!!فقد أعاد إلى أذهانهم ما كان اليهود يحدثونهم به من أن زمن ظهور نبى منهم قد حان،وأنهم سيسومونهم به سوء العذاب ويجعلونهم مثل"عاد"وإرم".

---

[٧] السمهودى: وفاء الوفا/ج١/٢٢١-ابن حجر:الإصابة/ج١/صـ٩١.

فقالوا لرسول الله -(ﷺ)-: (قد علمت الذي بيننا من الاختلاف، وسفك الدماء ونحن حراص على ما أرسلك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشير عليك برأينا؛ فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا؛ فنذكر لهم شأنك. وندعوهم إلى الله ورسوله؛ فلعل الله يصلح ذات بينهم، ويجمع لهم أمرهم؛ فإنا اليوم متباغضون، متباعدون، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل. فرضي بذلك رسول الله -(ﷺ)- وانصرفوا، راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا.[8] !!

ولقد ذكر أحد الباحثين أن قبول النفر الستة دعوة رسول الله لهم وأخذهم العهد على أنفسهم بأن يدعوا قومهم إلى هذا الدين الحنيف يرجع إلى أسباب، منها:

١. استشعار الأنصار لحاجتهم إلى عقيدة تربط بينهم بعد التمزق والعداوة التي خلفتها واقعة "بعاث" قبل سنتين فقط من هذا اللقاء.
٢. أن مقتل رؤسائهم في "بعاث" خفف من التزاحم على الزعامة والأنفة من الدخول في الإسلام، خوف فقدان السلطان والزعامة.
٣. إن الأنصار كانوا يجاورون اليهود وهم أهل الكتاب؛ فكانوا يعرفون قضايا الوحي والنبوة، والبعث والجنة، والنار؛ فلا شك أن أذهانهم كانت مهيأة لفهم الإسلام أكثر من سواهم[9].

---

[8] الذهبي السيرة النبوية /١٩٣
-المقريزي: إمتاع الأسماع/٥٢، ٥٣
-ابن حزم الأندلسي: جوامع السيرة النبوية/٥٥، ٥٦
-الصالحي: سبل الهدى والرشاد/جـ٣/١٩٤

[9] ابن القيم: زاد الميعاد/جـ٣/٤٤ -أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة/جـ١ /٢٠٠

ومما يجدر ذكره هنا أن ذلك الاتفاق الذى تم بين النبى محمدٍ-(ﷺ)-والنفر الستة الذين التقوا به عند"عقبة منى".لم يكن اتفاقاً مكتوباً،وإنما كانت بيعةٌ معقودة حلَّ فيها مشافهةُ الخطاب محل الكلام المسطور على القراطيس.

ولم يكن هذا بالوضع غير المألوف عند العرب،بل كانت هذه البيعة تتمشى،والسائد فيهم،فإنه نظراً إلى الأمية المتفشية بينهم كانوا يعقدون البيعة أو المحالفة مشافهة،يورثها جيل لآخر،ولا يخشى عليها والحالة هذه من الضياع؛لأنهم قوم حُفَّاظ واعون لسلسة الأنساب فى أفئدتهم!!على الرغم من طولها،فمن باب أولى أن يحفظوا مثل تلك الاتفاقيات،كما أنه لم يمكن كِتَابَتُها وإن أرادوا؛لأن ذلك اللقاء لم يضم سوى ستة أفراد من قبيلة واحدة ، فهو إذن لقاء مبدئى،ناهيك عن السرية والعجالة اللتين أحاطتا به حتى لا ينكشف أمر هذا الاجتماع للقرشيين من ناحية وقومهم من ناحية أخرى وقد حلا لبعض الباحثين أن يسمى هذا اللقاء الذى تم بين النفر الستة والنبى محمد-(ﷺ)-ببيعة العقبة الأولى[١٠].

ولست مع هذا الرأى؛لأن ما تم لم يكن بيعة بقدر ما هو دعوة أدت إلى استجابة النفر الستة؛فجاءوا رسول الله معلنين إيمانهم معربين عن التعاون معه فى نشر هذا الدين بين قومهم،والذى يدعم ما قلناه أن مصادر السيرة لم تذكر نصوصاً لتلك البيعة حين تناولت

---

[١٠] محمد حميد الله:الوثائق السياسية/٤٦-أحمد فريد: وقفات تربوية/١٢٣.

هذا اللقاء بالحديث،وكل ما جاء بها حديث متبادل بين-رسول الله-(ﷺ)-وبين أولئك النفر أدى إلى ما أومأنا إليه من نتيجة أدخلت السرور فى فؤاد النبى محمد -(ﷺ)-ومن ثمَّ؛فإن ما تم عند"العقبة"فى هذا اللقاء كان بمثابة مقدمة للبيعة الأولى فى العام التالى له.وليس بيعة كما ذكره بعضُ الكُتَّاب.

بيعتا العقبة الأولى والثانية

لما قفل النفر الستة إلى"المدينة"طفقوا يحدثون الناس عن محامد الصفات التى جاءهم بها محمد -(ﷺ)-من عند ربه داعين إياهم إلى نبذ عبادة الأوثان التى ورثوها عن الآباء واعتناق هذا الدين الجديد حتى ينأوا بأنفسهم عن الرذائل ويتحلوا بمزيدٍ من الفضائل؛فأثمرت تلك الجهود فى المدنيين ثمرة تمثلت فى قدوم اثنى عشر رجلاً إلى رسول الله-(ﷺ)- فى العام التالى للقائهم الأول برسول الله ليبايعوه بيعة"العقبة"الأولى[١١] .

ولقد اختلفت الروايات حول نصوص تلك البيعة؛فذكر غير واحد من رواة السيرة أن الأنصار بايعوا رسول الله-(ﷺ)- بيعة"العقبة"الأولى على ذات النصوص التى بايع بها النساء الرسول-(ﷺ)-بعد فتح "مكة"، ومنهم من ذكر خلاف ذلك.

---

[١١] قال بعضهم(أنها العقبة التى تضاف إليها الجمرة إذا ليس أظهر منها وعن يسار الطريق لقاصد "منى"من"مكة"شعب قريب منها فيه مسجد مشهور عند أهل مكة انه مسجد البيعة وهو على نشيز من الأرض ويجوز أن يكون المراد من العقبة،وعلى الأولى يكون قد نسب إليها لقربه منها"قال فى النور"وجزم بعضهم بأن العقبة التى وقعت عندها البيعة هى العقبة التى تضاف إليها الجمره" ،الصالحى:سبل الهدى والرشادجـ٣،ص١٩٥.

فمن الأول ما رواه"عبادة بن الصامت"[١٢]رضى الله عنه من إنهم حين كانوا"بالعقبة"بايعوا رسول الله على{أن لا يشركوا بالله شيئاً،ولا يسرقوا،ولا يزنوا،ولا يقتلوا أولادهم،ولا يأتون ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوه فى معروف".

وقال النبى-عليه الصلاة والسلام-لهم:"فإن وفيتم فلكم الجنة،وإن غَشيتُمْ من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل،إن شاء عذب،وإن شاء غفر".

وفى رواية أخرى"ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو له كفارة وطهور،ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر"فبايعناه على ذلك[١٣].

ومن الثانى : ما روى عن النبى محمد -(ﷺ)-أنه قال للنفر الذين جاءوه عند"العقبة" لمبايعته البيعة الأولى :بايعونى على (السمع والطاعة فى النشاط والكسل ،وعلى النفقة فى العسر واليسر ،وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،وعلى أن تقولوا فى الله لا

---

[١٢] ابن قيس بن أصرم بن أصرم بن فهر بن ثعلبه،كان نقيباًعلى القوافل لبنى عوف ابن الخزرج،آخى النبى بينه وبين مرثد الغنوى لما هاجر الرسول إلى المدينة،شهد المشاهد كلها مع رسول الله،واستعمله على بعض الصدقات،أول من تولى قضاء فلسطين فى الإسلام،توفى سنة أربع وثلاثين بالرملة،وقيل بالبيت المقدس،وهو ابن اثنتين وسبعين سنة - ابن الأثير :أسد الغابة،ج٣ صـ٥٥،٥٦.

[١٣] ابن هشام:سيرة النبى/جـ٢/٤١،٤٢-الصالحى:سبل الهدى و لرشاد/جـ٣/١٩٧،أبو شهبة:السيرة النبوية/جـ١/٤٣٧.

تأخذكم لومة لائم،وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم،وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة)[١٤] .

لقد انبرى غير واحد من القدامى والمحدثين لمناقشة ما جاء من نصوص،أتت الرواية الأولى على ذكرها؛لأن المجمع عليه عند علماء التفسير هو أن آية بيعة النساء إنما نزلت بعد صلح الحديبية"،وما نحن بصدده هنا،كان فى البيعه الاولى عند "العقبة"فكيف يوافق القرآن الكريم ما سبق للصحابة أن بايعوا النبى-(ﷺ)-به مع ما بين البيعة ونزول الآية من فاصل زمنى؟

قال"ابن كثير":"إن المراد بقول من قال ببيعة النساء أى وفق ما نزلت به آية النساء بعد"عام الحديبية"وليس هذا بعجيب؛فإن القرآن نزل بموافقة"عمر بن الخطاب"فى غير موطن،وإن كانت هذه البيعة وحيا غير متلو ؛فهو أظهر والله أعلم"[١٥].

وذكر الإمام الحافظ"ابن حجر"أن نصوص البيعة الأولى عند العقبة غير تلك التى جاءت بها آية بيعة النساء بعد"الحديبية"وقال:إن الذين قالوا باتفاق نصوص البيعتين وقعوا فى أخطاء؛لأن"عبادة بن الصامت،ممن شهدوا الموقفين؛فلعل الذين رووا عنه ما رووا اختلط عليهم الأمر؛فنقلوه لنا على هيئة توافق فى نصوصها بيعة"العقبة الأولى" "بيعة النساء"[١٦].

---

[١٤] ابن كثير:البداية والنهاية/جـ٣/١٥٩-محمد حميد الله:الوثائق السياسية/٤٨.

[١٥] ابن كثير :البداية والنهاية/جـ٣/١٥١.

[١٦] ابن حجر فتح البارى/جـ١/١٢،١٣

ولقد مال إلى هذا القول بعض الباحثين المحدثين،فقال:{إن ما ذكره الحافظ:هو الذى يجب أن يصار إليه؛فهو رحمه الله من أعلم الناس بالقرآن الكريم وتنزلاته،والسنة وطرق الجمع بين رواياتها المختلفة،وبالسيرة وتواريخ الصحابة وله انتقادات كثيرة صائبة على"ابن إسحاق"وغيره من كتاب السيرة وتاريخ الرجال[١٧].

ونحن نميل للأخذ بهذا الرأى الذى يجعل الرواية الثانية لنصوص بيعة العقبة راجحة والأولى مرجوحة.

إلا أن رأينا هذا يبدو/فى ظاهره معارضاً لما قاله"ابن كثير"وهو يتحدث عن"بيعة العقبة الكبرى"لقد ذكر رواية"تتفق مع تلك التى رجحتها فى بيعة العقبة الأولى،وقال:إن ذلك قد كان من النبى حين التقاه سبعون رجلاً عند العقبة؛ليبايعوه البيعة الثانية.ولكن الذي يمعن النظر فى حقيقة الأمر لا يجد وجودا لهذا التعارض؛لأن من يقرأ نصوص بيعتى"العقبة الأولى" "والثانية"،يجد الأخيرة متفقة تمام الاتفاق مع الأولى فى نصوصها؛إذا أخذنا بترجيح الرواية الثانية على الأولى،وكل ما تمتاز به على سابقتها هو كثرة أعداد المبايعين للنبى محمد -(ﷺ)-من قبيلتى "الأوس" "والخزرج" كما سنبينه فى حينه؛فتكون والحالة هذه الكثرة العددية التى جاءت للقاء النبى"للعقبة الثانية"أعطته البيعة بناء على أسس بينها لهم النفر الذين بايعوه"البيعة الأولى" عند "العقبة".

---

[١٧] أبو شهبة السيرة النبوية/جـ١/٤٣٩.

ولقد اختلف المؤرخون وكتاب السيرة حول ما إذا كان النبى محمد قد أرسل"مصعب بن عمير[١٨]" مع الرجال الذين بايعوه بيعة"العقبة الأولى".أم أنه-(ﷺ)-قد بعث به إليهم ومعه "عبد الله بن أم مكتوم"بعد مغادرتهم"مكة"إلى"المدينة"لما كتبوا إليه يطلبون إشخاص رجل من عنده ليصلى"بالأوسيين" و"الخزرجيين"[١٩]حتى لا يكون لقبيلة على أخرى سبيل تفتخر به على جارتها.

والذى نراه أن الرأى الثانى أقرب إلى القبول من الأول؛لأن العصبية لم تكن قد أُطفِئَت نارها بعد بين القبيلتين حتى يقدموا واحداً من رجال"الأوس" أو"الخزرج"؛ليصلى بالمسلمين جميعاً فى المدينة لأن الإسلام لم يكن قد استقر بعد فى أفئدة المدنيين الاستقرار القوى الذى يجعل الناس سواسية أمام الله.

ولا شكَّ أنَّ أمراً كهذا،..يبعث العصبية من جديد لتأكل بنارها المسلمين المقيمين"بالمدينة" "أوسيين" كانوا أو "خزرجيين"ولأن من بين المبايعين البيعة الأولى عند العقبة رجال عقلاء يحسنون استقراء الأمور،فإنهم فضلوا الكتابة إلى رسول الله(ﷺ)؛ليطلبوا منه رجلاً يصلى بهم ويعلمهم أمور دينهم لا ينتسب "للاوس"ولا "الخزرج" حتى

---

(١٨) ابن هاشم بن عبد مناف القرش العبدوسى اسلم ورسول -صلى الله عليه وسلم -فى دار الأرقم،وكتم إسلامه،هاجر إلى "الحبشة"ثم"المدينة"،وأسلم على يده غير واحد،شهد أحدا،واستشهد بها عن عمر بلغ أربعين سنة. - أسد الغابة/جـ٣٨٧،٣٨٨،٣٨٩،٣٩٠.

(١٩) السمهودى وفا بأحوال دار المصطفى /جـ١/٢٢٤، ابن الاثير /أسد الغابة جـ٤،٣٨٨/ المقريزي ، إمتاع الأسماع / جـ ١ /٥٣،٥٤

يكون ذلك معيناً على نشر الدين بين قاطنى البلد من ناحية ومن ناحية أخرى يغلق باب الفتنة أمام اليهود،إذا ما أرادوا بذر بذور الشقاق بين القبيلتين من جديد مستندين فى ذلك إلى تفضيل قبيلة على أخرى حين يعهد بالصلاة لفرد بعينه من "الأوسيين" أو "الخزرجيين".

وسواء أصح ما ذهبنا إليه أم لم يصح؛فإن"مصعب بن عمير" قد استطاع التغلب على العقبات التى كانت تواجهه وهو يدعو للدين الجديد فى "المدينة"التى كان من أهمها موقف"سعد بن معاذ"[٢٠] منه. فإن الرجل حين علم بقدوم "مصعب" إلى "المدينة" عقد الخناصر على التصدى لدعوته قبل أن يلقاه ويستمع منه إلى ما جاء به من عند رسول الله -(ﷺ)-من قرآن نزل به الروح الأمين فيه خير للناس أجمعين؛ فكان"مصعب"و"أسعد بن زرارة"[٢١] يدعوان الناس فى "المدينة" سراً إلى هذا الدين الجديد حتى لا يصطدما "بسعد بن معاذ"فبينما هما يدعوان رهطاً من الأنصار إلى هذا الدين الجديد،جاءهما"سعد بن معاذ"الذى علم باجتماعهما بواسطة عيونه المنبثة فى "المدينة"؛ لترقب حركات"مصعب بن عمير"فقال "سعد" له:

---

[٢٠] ابن النعمان بن امرئ القيس الأنصارى،أسلم على يد "مصعب بن عمير"شهد "بدراً واحداً الخندق" توفى فى غزوة"بنى قريظة"ابن الأثير:أسد الغابةجـ٢/٢٣٩،٢٤٢.

[٢١] ابن عدس بن غنم بن مالك،يكنى بأبى أمامه،أول من أسلم من الأنصار،شهد العقبة الأولى والثانية،والثالثة،وكان من النقباء الأثنى عشرة،توفى فى السنة الأولى من الهجرة فى شوال قبل بدر. -ابن الأثير: أسد الغابة جـ١/٩٩،١٠٠،١٠١.

غلام يأتينـــا فـــى دارنـــا،هـــذا الوحيـــد الفريد الطريد الغريـــب،ليســـفه ضعفاءنـــا بالبـــاطل ويدعوهـــم،لا أراكمـــا بعـــد هـــــذا بشـــــىء مـــــن جوارنا؛فرجعوا ثم إنهم عادوا الثانية"ببـــئر مـــرق"أو قريـــب منـــها فـــأخبر بـــهم"ســـعد بـــن معـــاذ" ثانيـــة؛فَتَوَعَّدَهُـــم بوعيـــد دون الأول؛فلمـــــا رأى "أسعد"منه اللين قـــال:يـــا ابـــن خالـــة،اســـمع مـــن قولـــه؛فـــإن ســـمعت منكراً؛فاردده بأهدى منه،وإن سمعت خيراًفأجب إليـــــه،فقـــال:مـــاذا يقـــول؟ فقرأ عليه"مصعب": حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ،إِنَّـــا جَعَلْنَـــاهُ قُرآنَـــاً عَرَبِيَّـــاً لَّعَلَّكُـــمْ تَعْقِلُـــونَ[٢٢].

فقال "سعد":وما أسمع إلا مـــا أعـــرف؛فرجـــع وقـــد هـــداه الله،ولـــم يظهر أمر إسلامه حتى رجع إلى قومـــــه،فدعـــا"بنـــى عبـــد الأشـــهل"إلـــى الإسلام وأظهر إسلامه،وقال من شك فيه صغـــيرٌ أو كبـــيرٌ فليأتنـــا بـــأهدى منـــه؛فوالله لقد جـــاء أمـــر لَتُحَـــزَّنَّ فيـــه الرقـــاب؛فأســـلمت"بنـــو عبـــد الأشهل"عند إسلامه ودعائـــــه إلا مـــن لا يذكـــر؛فكـــانت أول دار مـــن دُور الأنصار أسلمت بأســـرها[٢٣].

وبذلك النجاح الذى حققه"مصعب بن عمير "فـــى دعـــوة "ســـعد بـــن معاذ"وأمثاله من كبار المدنيين إلى هذا الديـــن الجديـــد،فشـــا الإســـلام فـــى دور"المدينة"بحيث لم تعد فيها دار إلا وأسلمت أو كـــان بـــها مـــن اعتنـــق الدين الحنيف[٢٤].!!فأصبح الطريق ممهداً لجماعـــات الأنصـــار لتفـــد إلـــى

---

[٢٢] من سورة الزخرف الأيات(١-٣).

[٢٣] ابن الأثير:أسد الغابة/جـ٢/٢٣٩،ابن حجرتهذيب التهذيب/جـ٣/٤٨١،٤٨٢/السمهودى:وفاء الوفا جـ١/صـ٢٢٥.

[٢٤] السمهودى:وفاء الوفا/جـ١/٢٢٥،٢٢٦-الصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٣/١٩٩.

رسول الله -(ﷺ)-مبايعة له داعيـة إيـاه إلـى القـدوم عليـهم والعيـش بين ظهرانيهم ينعم فيها بـالأمن والأمـان فـي ظـل حمايـة يبسـطونها عليه تدفع عنه كيد الكائدين من القرشـيين الذيـن صبـوا عليـه وعلـى أصحابه العذاب صبا،فجاء "مصعـب بـن عمـير" بعـد عـام قضـاه فـي "المدينة "يحمل إلى رسـول الله-(ﷺ)- الأخبـار السـارة و يعمـل علـي ترتيب هذا اللقاء التاريخي بين النبـي محمـد (ﷺ)وسـبعين رجـلاً مـن الأنصار وامرأتين عنـد"العقبـة"حتـى يبـايعوه بيعـة"العقبـة الثانيـة" أو الكبرى،فكان ثانى أيام التشريق زمناً لـهذا الاجتمـاع ولأن النبـى محمـداً -(ﷺ)-كان يدرك البعد الخطير الذى سـيترتب علـى هـذا اللقـاء الـذى يضمه والأنصار،أخذ معه "العباس" وكان ما يـزال علـى شـركه،ليشـاوره في الأمر ويستوثق له من الجمع ما استطاع إلـى ذلـك سـبيلاً.

فلما التقى النبى وعمه بالأنصار عند "العقبة"وقـد لـف ظـلام الليـل المكان،خاطب "العباس" المجتمعين ،فقال:{يا معشـر"الخـزرج"،إن محمـداً منا،حيث قد علمتم،وقد منعناه من قومنـا ممـن هـو علـى مثـل رأينـا فيه؛فهو فى عز من قومه،ومنعة فـي بلـده،وأنـه قـد أبـى إلا الانحيـاز إليكم، واللحوق بكم ؛فـإن كنتـم تـرون أنكـم مسـلموه وخـاذلوه بعـد الخروج به إليكم؛فمن الآن فدعـوه،فإنـه فـى عـز ومنعـة مـن قومـه وبلـده}[٢٥].

فلما سمع الأنصار كلام"العبـاس" أقبلـوا علـى رسـول الله؛ فقـالوا له:{ يا نبى الله اشترط لربك ولنفسك ولأصحـابك مـا تحـب،فقـال لـهم النبـى محمـد -(ﷺ)-{أشـترط لربـى:أن تعبـدوه ولا تشـركوا بـه شيئاً،واشترط لنفسى:أن تمنعونى مما تمنعـون منـه نسـاءكم وأبنـاءكم ،وأشترط لأصحـابى :المواسـاة مـن ذات أيديكـم،قـالوا:هـذا لـك؛فمـا

---

[٢٥] الصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٣/٢٠٣.

لنا؟.قال:الجنة،قالوا:أبسط يدك}أما"البراء بن معـــرور"[٢٦]؛فإنــه كــان لــه فى هذا اليوم موقف محمود فقد ضرب على يــد رســول الله مبايعــاً وهــو يقول له:{والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنــع منــه أزرنــا فبايعنــا يــا رسول الله فنحن و الله أهل الحروب وأهــل الحلقــة ورثناهــا كــابراً عــن كــابر[٢٧].

ومن الأنصار من أدرك أن إيمانهم بـــهذه الدعــوة ســيجعل اليــهود يحنقون عليهم ويعمدون إلى نقد التحالفات المبرمــة بينــهم وبيــن بعــض العرب المقيمين فـــى "المدينــة"فــأراد أن يســتوثق لقومــه مــن النبــى محمد-(ﷺ)-حتى لا يَدَعَـــهُمْ بعــد أن يقــوى جانبــه يجابــهون اليــهود وحدهم ويذهب إلى مكان آخـــر...

فهذا هو أبو الهيثم بن التَيِّـــهان[٢٨]يقــول:يــا رســول الله إن بيننــا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها-يعنـــى اليــهود-فــهل عســيت إن نحــن فعلنا ذلك،ثم أظفرك الله،أن ترَجع إلـــى قومــك وتَدَعَنــا؟،فتبســم رســول الله-(ﷺ)-ثم قال:"بـــل الــدم،والــهدم والــهدم،أنــا منكــم،وأنتــم منى،أحارب من حاربتم،وأسالم مـــن ســـالمتم [٢٩]"

---

[٢٦] ابن ضخر بن كعب بن جشم الأنصارى يكنى أبو بشر،كان أحد النقباء الاثنى عشرة،وأول من بايع رسول الله-(ﷺ)-ليلة العقبة الأولى،أول من استقبل الكعبة في الصلاة، توفـى أول الإسـلام على عهد النبى-(ﷺ)- . -ابن الأثير: أسد الغابة/جـ١/٢٤٠/٢٤١/٢٤٢.

[٢٧] ابن هشام:سيرة النبى/جـ٢/صـ٥٠-ابن عبد البر:الدرر/٧٠،٧١-الصالحى:سـبل الـهدى والرشاد/ج٣/٢٠٣/٢٠٤.

[٢٨] ابن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زعوراء بن جشم بن الحارث،شـهد المشاهد مع رسول الله-(ﷺ)-ومات سنة عشرين أو إحدى وعشرين،وقيـل إنـه أدرك صفيـن وشهدها مع على وقتل بها وهو الأرجح. ابن الأثير:أسد الغابة ج٥/صـ٣٢٦.

[٢٩] ابن هشام:سيرة النبى/جـ٢/٥٠،٥١-ابن سيد الناس:عيون الأثر/ص/٢٧٣،أبو شهبه :

وبعد أن تحاور المجتمعون مع الرسول-(ﷺ)-اختار -صلوات الله وسلامه،عليه من بينهم اثنى عشر [٣٠] نقيباً،اقتداءً بموسى عليه السلام جعلهم على قومهم كُفَلاء،وانفض الاجتماع،وأخذت أخباره تصل إلى "قريش" فنزلت عليها نزول الصاعقة!!فساروا إلى "عبد الله بن أُبَىّ"وكان زعيم"الخزرج"؛ليقفوا منه على جَلِيَّة الأمر،فلما حَدَّثُوه بما قدموا من أجله،قال لهم:{والله إن هذا لأمر جسيم ما كان قومى ليتقولوا على بمثل هذا وما علمته؛فلما تبينوا الصدق فى قوله انصرفوا عنه}.

بيد أن قريشاً" ظلت تتبع هذا الخبر الذى وصلها عن مبايعة الأنصار للرسول-(ﷺ)- حتى علمت صدقه بعد رحيلهم"عن مكة"فأرسلت الرجال في أثرهم حتى يلحقوا بهم فلم يمسكوا إلا"سعد بن عبادة"؛ فجذبوه من شعره وكان غزيراً وأوسعوه ضرباً وسباً وكادوا يزهقون روحه لولا أن أجَاره "جبير بن مطعم بن عدى"، "والحارث بن حرب بن أمية"؛فقد كان"سعد"يؤمن لهم التجارة المارة من مكة" إلى"الشام"؛فبفضل تدخلهما لدى قومهما وتحذيرهما لهم من

السيرة النبوية/جـ١/ ٤٥٠.

[٣٠] ذكرت المصادر أسماء هؤلاء النقباء وهم:{أبو إمامة أسعد بن زرارة-وسعيد بن الربيع-وعبد الله بن رواحه. ورافع بن مالك بن العجلان-البراء بن مغرور-وعبد الله بن عمرو بن حرام وعبادة بن الصامت-وسعد بن عبادة والمنذر بن عمرو.وهم من الخزرج .

وأسيد بن حضير-وسعد بن خيثمة-ورفاعة بن عبد المنذر وهم من الأوس.

-السمهودى:وفاء الوفا/جـ١/ ٢٣٠-ابن القيم الجوزى:زاد المعاد/جـ٣//٤٨.

غائلـــة إلحـــاق الأذى"بســـعد"علـــى تجارتـــهم وافقـــوا علـــــى إطــــلاق سراحه؛فمضى إلى بلاده آمنـــــا[٣١].

فأنت تـــرى كيـــف أن"قريشــا عـــارضت الدعـــوة الإســـلامية عنـــد ظـــهورها خشـــية تدهـــور مكانتـــها الاقتصاديـــة،وهـــا هـــى ذى تطلـــق سراح"سعد"لذلك السبب؛فإن الـــذي يعنـــى القـــوم تحصيـــل المنفعـــة ولـــو كانت بتغليب الباطل على الحـــق.

وصار على"قريـــش"التصـــرف بســـرعة حتـــى تحـــول بيـــن النبـــى محمد-(ﷺ)-وبين الهجرة إلى أولئك الذين جـــاءوا مـــن "يـــثرب"لمبايعتـــه؛ كى لا تشكل هجرته خطراً عليـــهم فـــى حالـــة إتمامـــها؛فكـــان اجتماعـــهم بدار النـــدوة.

المؤامرة القريشية فى دار الندوة

أذن رسول الله -(ﷺ)-للمُسلمين المُقيمين"بمكـــة"فـــى الـــهجرة منـــها إلى "المدينة"المشرفة بعد أن تمت له البيعة الثانيـــة عنـــد"العقبـــة"؛فبـــدءوا في الهجرة منها جماعات وأفـــرادا تحـــت جُنـــح الظـــلام ملتمســـين مـــن وسائل التعمية على"قريش" ما استطاعوا إلى ذلـــك ســـبيلا حتـــى لا تحـــول بينهم وبين الخروج من"مكة"؛ليكونوا تحـــت ســـمعها تصـــب عليـــهم مـــا تشاء من العـــذاب!!

ولسنا هنا بصدد الحديث عما كـــان مـــن هجـــرة هـــؤلاء الصحابـــة الأعلام،وكيف أنهم ضربوا المثل للتضحية والفـــداء مـــن أجـــل أن يعبـــدوا

---

(٣١) ابـــن هشـــام:ســـيرة النبـــى/جـــ٢/٥٦: ٥٩.،ابـــن ســـيد النـــاس:عيـــون الأثـــر جـــ١/٢٧٥،٢٧٦،الصالحى :سبل الهدى والرشاد جـــ٣/٢٠٧.

الله فى جو آمن مضحيـــن فـــى ســبيل تلــك الغايـــة الســامية بــالنفيس والرخيص !!!لأن ذلك يفتقر إلى دراسة مســتقلة،إنمـــا الـــذي يعنينـــا هـــو أن"أبا بكر الصديق"لما وجد المسلمين يتوافـــدون علـــى "المدينـــة" اســـتأذن رسول الله فى اللحاق بهم ؛فقال النبى له:{ لا تعجـــل لعـــل الله يجعـــل لـــك صاحباً}؛ فيطمع"أبو بكر"أن يكونـــــه[٣٢]

لم يكن من المعقول أو المقبـــول أن تقـــف"قريـــش" مكتوفـــة اليديـــن أمام هذا الخطر المتفاقم يوماً بعد آخـــر؛فدعـــا ذلـــك كبـــار رجالـــها إلـــى اجتماع في "دار الندوة"، ولم تكن الدعـــوة لعقـــد مثـــل هـــذا الاجتمـــاع إلا إذا نزل بالقبيلة نازل يحتاج إلى عاجل المعالجـــة؛فـــإن هـــذه الـــدار منـــذ بناها[٣٣]." قُصَىُّ بن كـــلاب" كـــانت المكـــان الـــذى تتخـــذ فيـــه القـــرارات المهمة فى كُبريات الأمور التى تـــهم القبيلـــة.

أمَّ" القرشيون" "دار الندوة" فـــى "يـــوم الزحمـــة" إذ كـــانوا يســـمون أيام اجتماعهم فيها بهذا الاســـم؛نظـــراً لـــتزاحم النـــاس فـــى الطريـــق

وكدأب القـــوم فـــي مثـــل هـــذه الاجتماعـــات فتحـــوا بـــاب الحـــوار والمشـــاورة حتـــى يتوصلـــوا لقـــرار فـــى شـــأن القضيـــة المعروضـــــة عليهم،وقضيتهم هذه المرة من أصعب ما واجـــهوا؛إذ هـــى تخـــص واحـــداً من بينهم يتمتع بسمعة طيبة فيـــــهم،ينتمـــى إلـــى"بنـــى هاشـــم" وهـــم ذو مكانة عُليا اعترفت لهم بـــــها عشـــائرهم،وهـــو كذلـــك مبـــايع مـــن قبـــل قبيلتيـــن تتحكمـــان فـــى شُـــريان حياتـــهم القائمـــــة علـــــى التجـــــارة

---

[٣٢] ابن كثير:البداية والنهاية/جـ٣/١٧٥،أحمد فريد:وقفات تربوية/١٤٢.

[٣٣] الذهبى:السيرة النبوية/٢١٦،المقريزى :إمتاع الأسماع/جـ١/٥٧

هما"الأوس"والخزرج ، ومن ثـــم كـــان المتحدثـــون فـــى هـــذا الاجتمـــاع يجتهدون فى إبراز رأى يرضى القوم ؛ليعملـــوا بـــه ممـــا يكســـبهم فخـــرا بين بنى جلدتهم من ناحية، ومن ناحيـــة أخـــرى يجعلـــهم مـــن المشـــهود لهم بالحكمة ورجحان الرأى بين القبـــائل المجـــاورة؛لأن قضيـــة محمـــد – (ﷺ)-المعروضة على دار النـــدوة لـــم تكـــن علـــى غـــرار غيرهـــا مـــن القضايا الداخلية القرشية؛إذ صارت حديث الألســـنة فـــى القبـــائل العربيـــة بعدما عرض النبى نفسه عليها غير مـــرة وهـــو يـــوم الأســـواق القريبـــة من "مكة" كما ألمعنا إلى ذلك فيما اسلفناه مـــن الحديـــث.

فكان أول المتحدثين"أبو البخترى"الذى قـــال :احبســـوه فـــى الحديـــد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به حتـــى يمـــوت.

ثم تكلم رجل من"نجد" يقال : إن إبليس تصـــور علـــى هيئتـــه؛ فقـــال (لا والله ما هذا لكم بـــرأى، والله لـــو حبســـتموه كمـــا تقولـــون ليخرجـــن أمره من وراء الباب الـــذى أغلقتـــم دونـــه إلـــى أصحابـــه فلأوشـــكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكـــاثروكم بـــه حتـــى يغلبوكـــم علـــى أمركم ،ما هذا لكم برأى؛فانظروا فـــى غـــيره)(٣٤)لـــم يـــرق رأى النجـــدى القوم !!! فغضوا الطرف عن الآخذ بهذا الرأى،فقـــال"أبـــو الأســـود ربيعـــة بن عمرو"(نخرجه من بين أظهرنا فننفيه مـــن بلادنـــا فـــإذا خـــرج عنـــا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيـــث وقـــع،إذا غـــاب عنـــا وفرغنـــا منـــه؛ فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت)وكما أبطـــل ذلـــك الرجـــل النجـــدى الـــذى جاء إبليس فى هيئته وجلس بين القـــوم ليشـــاركهم الـــرأى القـــول الأول؟

---

(٣٤) الذهبى:السيرة النبويـــة/٢١٦،ابـــن القيـــم:ذاد المعـــاد/ص ـــ٣ صـــ٥٠،التـــاجى:ســـيرة النبى/جـــ١/٢٩٦،٢٩٧.

فإنه انبرى لإبطال الرأى الثانى؛ فقال:{لا والله،وما هـذا لكم برأى ألم تروا حسن حديثة وحلاوة منطقه،وغلبته قلوب الرجال بما يأتى به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب؛فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه؛حتى يبايعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى بطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ،دبروا فيه رأياً غير هـذا؟}

ثم قال "أبو جهل بن هشام" والله إن لى فيه لرأياً لم أركم وقعتم عليه بعده فقالوا: وما هو يا أبا الحكم؟قال :أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً،ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه بأجمعهم،فيضربوه بها ضربة رجل واحد؛فيقتلوه فنستريح منه؛فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر"بنو عبد مناف" على حرب قومهم جميعاً؛فرضوا منه بالعقل فعقلناه لهم} [٣٥]؛فلما فرغ"أبو الجهل " من رأيه وحسنه لهم الشيخ النجدى،أخذوا به وأزمعوا على تنفيذه وهم يعتقدون أن ما بيتوا فطه بمحمد سيبقى حبيس أفئدتهم لا يقف عليه محمد،وقد وهموا فى اعتقادهم هذا ؛لأنهم لم يفهموا ما أخبرتهم به آيات القرآن الكريم،تلك التى ذكرت "أن الله يعلم خائنة الأعين وما تُخْفِى الصدور وأنه سميع

---

[٣٥] ابن هشام:سيرة النبى /جـ٢/٩٤،٩٥،ابن الأثير:الكامل/جـ٢/١٠٢،١٠٣،ابن كثير:البداية والنهاية/جـ٣/١٧٥-١٧٦،الصالحى:سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد / جـ ٣/ ٢٣١ ،٢٣٢.

بصير،فنزل جبريل الأمين على سيد المرسلين مطلعاً إيــاه علــى مــا كــان من أمر اجتماع دار الندوة،وما انتهى إليه مـــن قــرارات.

ولقد ذكر غير واحـــد مـــن البــاحثين [٣٦]المحدثيــن مــا يشــعر أن جبريل نزل إلى الرسول فى ذلك الوقت بقــول الله تعــالى:"وَإِذْ يَمْكُــرُ بِــكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُــوكَ أَوْ يَقْتُلُــوكَ أَوْ يُخْرِجُــوكَ،وَيَمْكُــرُونَ وَيَمْكُــرُ اللَّــهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَــاكِرِينَ؛ وهــذا غــير صحيــح مــن وجهــة نظــر بعــض المفسرين حيث إن الحافظ"ابــن كثــير"ذكــر أن تلــك الآيــة نزلــت علــى رسول الله-(ﷺ)-وهو"بالمدينة" مذكراً إياه بالنعمـــة التــى امتــن الله بــها عليه حين هيأ له سبل الخروج من بيته علــى الرغــم مــن تحلــق القــوم له[٣٨].

ومهما يكن من أمر،فإن الرسول-(ﷺ)-ظــل يدعــو ربــه بقولــه: (ربى أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعــل لــى مــن لدنــك سلطاناً نصيراً) حتى استجاب الله له!! فأذن له بالــهجرة مــن "مكــة" إلــى "المدينة[٣٩]:فتوجه الرسول من فوره إلــى بيــت الصديــق،ليخــبره بــإذن ربه له بالهجرة تقول السيدة"عائشـــة: كــان رســول الله-(ﷺ)-لا يخطئــه أحد طرفى النهار، أن يأتى بيت"أبــى بكــر" إمــا بكــرة أو عشــية، حتــى كان اليوم الذى أذن الله فيـــه لرســوله بالــهجرة،فأتــاه بالــهاجرة فلمــا

---

[٣٦] التاجى:سيرة النبى العربى /جـ١/٢٩٨،أكرم العمرى:السيرة النبوية/جـ١/٢٠٧ أحمد فريد وقفات تربوية /١٤٢

[٣٨] الصابونى:مختصر تفسيرين كثير/ج٢/١٠٠.

[٣٩] ابن كثير:البداية والنهاية/جـ٣/١٧٥.

رآه"أبو بكر" قال ما جاء هذه الساعة إلا لأمر قد حدث؛ فلما دخل جلس على السرير وقال أخرج من عندك .قال:يا رسول الله إنما هما ابنتاى،وما ذاك؟. قال:إن الله أذن لى فى الخروج ، فقال"أبو بكر":الصحبة يا رسول الله فقال:الصحبة ،فبكى" أبو بكر" من الفرح؛فاستأجر"عبد الله بن أريقط"-وكان مشركا-يدلهما على الطريق ،ولم يعلم بخروج رسول الله-(ﷺ)-غير "أبى بكر،فأما"على" فأمره رسول الله-(ﷺ)- أن يتخلف عنه حتى يؤدى عن رسول الله-(ﷺ)- الودائع التى كانت عنده ثم يلحق بهما[٤٠]

وعلى كل حال فإن"قريشاً" أشخصت شباب القبائل إلى بيت رسول الله-(ﷺ)-فالتفوا حوله وجلسوا يرقبونه حتى إذا ما خرج عليهم عمدوا إليه بسيوفهم؛فيضربونه ضربة واحدة تزهق روحه ولم يكن يداخلهم شك فى جنى ثمرة خطتهم هذه فإن لهم الغلبة من ناحية العدد بالإضافة إلى أنهم وقفوا على بيت النبى معتقدين أنه بداخله ولا سبيل أمامه للخروج منه إلا إذا مر بهم؛فتقع أعينهم عليه؛فيكون ما يكون من أمرهم معه .

وإذا كان هذا الذى صورناه مسلماً به من الناحية المادية بقدر ما تفهمه عقول هؤلاء النفر الذين جعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله

---

(٤٠) ابن هشام: سيرة النبى/جـ٢/٩٧،٩٨ ابن الأثير:الكامل/جـ٢/١٠٣،١٠٤،ابن القيم:زاد المعاد /جـ٣/٥١-باشميل:الغزوات الكبرى جـ١/٧٦،٧٧،التاجى:سيرة النبى العربى/جـ١/٢٩٩،٣٠٠.

وأبوا توحيده،فإن الله الذى أرسل نبيه أراد أن يعلم هؤلاء أن قدرة المولى وإرادته لا تقف عندها إرادة ولا تمنعها احتياطات؛ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ،وذلك ما كان،!!فإن النبى حين رآهم على حالتهم سالفة الذكر أمر عليا بن أبى طالب"رضى الله عنه - أن ينام على فراشه ويتسجى ببرده الحضرمى الأخضر،وأن يؤدى عنه ما عنده من الودائع والأمانات ونحو ذلك،فقام"على"مقامه عليه السلام وتغطى ببرد أخضر،فكان أول من شرى نفسه،وفيه نزلت"ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله[٤١].وخرج رسول الله-(ﷺ)- وأخذ حفنة من التراب وجعله على رؤوسهم وهو يتلو"يس والقرآن الحكيم إلى قوله تعالى فهم لا يبصرون"فطمس الله تعالى أبصارهم فلم يَرَوْه وانصرف وهم ينظرون"عليا"فيقولون إن محمداً لنائم حتى أصبحوا؛فقام"على"من الفراش،فعرفوه[٤٢].

وسأله هؤلاء الرهط عن رسول الله -(ﷺ)-قال :لا أدرى ،أمرتموه بالخروج؛ فخرج !فضربوه وأخرجوه إلى المسجد،فحبسوه ساعة ثم خلو عنه،فأدى أمانة رسول الله(ﷺ)[٤٣]ليبدأ الرسول-(ﷺ) أولى خطواته بعد ما خرج من بيته فى طريقه إلى "المدينة المنورة".

---

[٤١] سورة البقرة:آية٢٠٢.

[٤٢] المقريزى:إمتاع الأسماع/جـ١/٥٧-ابن سيد الناس عيون الأثر جـ١/٢٩٤،المباركفورى:الرحيق المختوم/١٨١.

(٤٣) المقريزى: إمتاع الأسماع جـ١/٥٧،٥٨. - القرطبى: الجامع لأحكام القرآن -جـ٤ : صـ٣٠٧٠.

الفصل الثانى

الهجرة إلى المدينة

بادئ ذى بدء نقـــول إن خـــروج النبـــى محمـــد مـــن بيتـــه ســـالماً والمشركون يحيطون بالمكان جعل قريشا تفقد صوابـــها!يتبيـــن لنـــا ذلـــك جلياً إذا ما ألقينا الضوء على ما لقيــــه النبـــى وهـــو فـــى الطريـــق مـــن "مكة"إلى "المدينـــة".

فى الطريق إلى المدينـــة

من نافلة القول الإشارة إلـــى الأهـــوال والصعوبـــات التـــى واجـــهت النبى محمداً-(ﷺ)-منذ خرج من بيته حتـــى وصـــل إلـــى"المدينـــة" ؛ فـــإن من يمر بهذا الطريق فى عصرنا بعدمـــا عُبّـــدَ ،يـــدرك كيـــف أن رســـول الله-(ﷺ)-تحمل ما تحمل فى قطع هـــذه المســـافة التـــى تفصـــل"المدينـــة" عن "مكة"فى طريـــق غـــير معبـــد وغـــير مـــألوف المـــرور فيـــه للقـــوم ،بالإضافة إلى قسوة المناخ إن صيفـــاً وإن شـــتاءً،فذلـــك يدلنـــا علـــى أن النبى وصاحبه قد ضحيا بكل شئ فى سبيل إعـــلاء شـــأن الديـــن ضـــاربين لنا أروع الأمثال فى هذا البـــاب.

أزمـــع الرســـول-(ﷺ)- المكـــث فـــى"غـــار ثـــور"أيامـــــاً حتـــــى تكف"قريش"عن مطاردته،والجدير ذكـــــره هنـــا أن"أبـــا بكـــر"تقـــدم النبـــى محمـــداً فـــى دخولـــه الغـــار حتـــى يســـتبرئه لـــــه مـــــن الحشـــرات والـــهوام،وأن"قريشـــاً"وصلـــت فـــى مطاردتـــها للنبـــى-(ﷺ)-إلـــى ذلـــك الغار،وقد نسج العنكبوت خيوطه علـــى بابـــه .

ووضعت الحمامة بيضها عند فمه [١] والنبي وصاحبه يسمعان قرع نعال المشركين وهم يطوفون حول الغار ،فتصبب "أبو بكر "عرقاً والنبي يطمئنه بقوله ما ظنك باثنين الله ثالثهما"،ونزل في ذلك قوله تعالى"إلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إذ أخْرَجهُ الذين كفروا ثاني اثنين إذْ هُمَا في الغار إذْ يَقُولَ لصَاحبه لا تَحْزَنْ إنَّ اللَّه مَعَنَا ،فَأنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهَ عليْه وأيَدَه بجُنُود لَمْ تَرَوْهَا"[٢] .

ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت عند"غزوة تبوك"وأن المراد بالجنود الملائكة الذين جاءوا لنصرة النبي محمد -(ﷺ)-في غزوتي"بدر ثم"حنين"[٣].بيد أن أحد الباحثين المحدثين لم يرتض الأخذ بهذا الرأى؛فذكر أن الآية المذكورة تشير إلى حماية الله لنبيه بجنود غير مألوفة للبشر ،ممثلة في نسيج العنكبوت[٤]والحمامتين الوحشيتين اللتين كانتا نائمتين في فم الغار ؛فقال:{إننا نستشف من قوله سبحانه "فقد نصره الله" أى أيده بعنايته،ومن قوله"وأيده بجنود لم تروها" أن نسيج العنكبوت ووجود الحمامتين الوحشيتين وإخفاء هذه الأشياء لمحمدٍ وصاحبه عن عيون الأعداء إنما هو أثر من عناية الله ورمز لجنود الله،إن جنود الله هي القوى التي يمتلئ بها الكون ويسخرها الله إذا شاء للقضاء على الظالمين،أو إعانة الضعفاء،أو إغاثة

---

[١] الذهبي:السيرة النبوية/٢٢٢،القرطبي:الجامع لأحكام القرآن جـ٤/٣٠٧.

[٢] سورة التوبة/آية ٤٠والآية مدنية تتحدث عن تأييد الله ونبيه في هذه المناسبة وسواه.

[٣] القرطبي:الجامع لأحكام القرآن /جـ٤/٣٠٧،الصابوني:مختصر تفسير بن كثير/جـ٢/١٤٤.

[٤] روى أبو نعيم أن العنكبوت نسجت خيوطها مرتين أولاهما على داود حين كان جالوت يطلبه،وثانيهما على النبي-(ﷺ)-في الغار ، الصالحي سبل الهدى والرشاد جـ٣صـ٢٤١.

الملهوفين وقد يتمثل ذلك في إنسان أو حيوان أو طائر أو أى كائن صغير أو كبير}.

ومن عجب ،أن المفسرين حينما يفسرون قوله سبحانه{وأيده بجنود لم تروها} يقولون عنها:إنها الملائكة التى نزلت فى يوم"بدر" وفى يوم"حنين"..!ولا شك أن الآية تتحدث عن الغار وما وقع من رعاية إلهية لمحمد وصاحبه،وكل الأفعال الواردة فى الآية الكريمة من إنزال السكينة وتأييد الرسول بالجنود وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ،كل ذلك،إنما تتعلق به الظروف التى اختصها الله بالذكر فى هذه الآية وأعنى بها"إذ أخرجه"و"إذ هما فى الغار" و"إذ يقول لصاحبه لا تحزن ".

ومن هنا يسوغ لنا أن نقول والله أعلم إن تأييد الله لرسوله بالجنود يقصد به فى هذه الآية ما سخره الله من القوى لنصرة محمد تيسير طريقه إلى "يثرب"،وإخفاء المعالم التى تدل عليه حتى يصل إلى غايته فى أمن وسلام[٥]،وكان"أبو بكر" حين خرج من بيته مع النبى إلى "غار ثور" أمر "عامر بن فهيرة" مولاه أن يرعى غنمه نهاراً ثم يأتيهما بالليل، وكانت"أسماء بنت أبى بكر"تأتيهما بطعام وماء فأقاما فى الغار ثلاثاً وكان"عبد الله بن أبى بكر " يتسمّع لهما ما يقال عنهما"بمكة" ثم يأتيهما بذلك، إذا غدا من عندهما تبع"عامر بن فهيرة،أثره بالغنم حتى يعفى عليه[٦] .

---

[٥] محمد الطيب النجار:القول المبين/١٤٢.

[٦] السمهودى:وفاء الوفا/جـ١/صـ٢٤٠-ابن القيم الجوزى:زاد المعاد/جـ٣/٥٣،٥٤،٥٥، القرطبى :الجامع لأحكام القرآن/جـ٤/٣٠٧٠

ولم تكن مهمة آل أبى بكر فى الغدو والرواح من منزلهم إلى"غار ثور"خلال مدة إقامة النبى-(ﷺ)-والصديق فيه بالأمر الهين ،فإن"قريشاً" كانت ترقب بيت الصديق راصدة لأخبار توصلهم إليه والنبى محمد؛حتى يجهزوا عليهما؛وآية ذلك ما ذكرته "أسماء بنت أبى بكر"من أن(نفراً من قريش"منهم" أبو جهل بن هشام"وقفوا على باب "أبى بكر " فَخَرَجْتُ إليهم فقالوا:أين أبوك يا بنت"أبى بكر"؟قالت:قلت لا أدرى والله أين أبى ،قالت:فرفع"أبو جهل"لعنه الله-يده-وكان فاحشاً خبيثاً،فلطم خدى لطمة فطرح منها قرطى ثم انصرفوا)[٧].دون أن يقفوا على شئ من أخبار النبى وصاحبه وعلى الرغم من ذلك ،فإن"أسماء بنت أبى بكر" كانت تأتيهما بالطعام فى غار ثور،وبينما هى كذلك،إذ بها تحتاج إلى عصام تربط به ما تحمله من طعام وشراب فحلت نطاقها وشقته نصفين وجعلته عصاماً لما تَحْمِلَ !!فسميت بذات النطاقين[٨] .

وأما "أبو قحافةَ والد "الصديق"،:فإنه لما علم بخروج ولده مع محمد-(ﷺ)-أَمَّ بيت ولده؛فدخل على أحفاده وكان قد ذهب بصره؛فقال لهم:{والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه،فقالت له"أسماء {كلا يا أبت ،إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً}!فأخذت أحجاراً،فوضعتها فى كوة فى البيت كان"أبو بكر"يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوباً ،ثم أخذت بيد

[٧] ابن هشام :سيرة النبى/جـ٢/١٠٠-باشميل:الغزوات الكبرى/جـ١/٨٠.

[٨] ابن سعد :الطبقات الكبرى/جـ٨/١٩٦،٢٠٠،ابن الأثير:أسد الغابة/جـ٦/٩،١٠، باشميل: الغزوات الكبرى/جـ١/٨٤،٨٥.

جدها فقالت له:يا أبت ضع يدك على هذا المال؛فوضع يده عليه؛فقال لا بأس إن كان ترك لكم هذا؛فقد أحسن ،وفى هذا بلاغ لكم،تقول "أسماء-رضى الله عنها-:والله ما ترك لنا شيئاً،ولكن أردت أن أسكت الشيخ بذلك [٩]!!

فلما انقضت الأيام الثلاثة،خرج النبى و"الصديق"من "الغار"ومعهما "ابن أريقط"حتى يهديهما السبيل للوصول إلى"المدينة"؛فسار بهما فى طريق متعرج،وكان"أبو بكر"فى سيرهم يمشى تارة عن يمين رسول الله وتارةً أخرى عن يساره وثالثة أمامه،ورابعة خلفه،فلما سأله النبى عن سبب ذلك أخبره"أبو بكر"أنه يخشى على رسول الله من المطاردين لهما،فإذا تذكر الطلب للنبى سار من خلفه أو عن يمينه أو يساره،وكلما تذكر وعورة الطريق سار أمامه حتى يسير النبى فى طريق ممهدٍ وقد جنبه"أبو بكر" ما يعتور سير رسول الله-(ﷺ)-فى الطريق من نتوءات وما إليها من العقبات الأخرى التى تعوق سرعة السير أو تجعله غير سهل .ولما وصل إلى صخرة وقد أجهدهما السير-أعد-"أبو بكر" عندها مكاناً ليقيل فيه رسول الله -(ﷺ)-وليستظل بظلها ؛فنام رسول الله-(ﷺ)-،وحرسه "أبو بكر" حتى رحلوا بعدما زالت الشمس،وكانت"قريش"قد جعلت لمن يأتى بالنبى-(ﷺ)- دية.فوقف رجل على القوم فى ناديهم وقال:والله لقد رأيت ركب ثلاثة مروا على آنفاً،إنى لأراهم محمداً وأصحابه،وهنا أشار"سراقة"[١٠]بعينه إلى الرجل أن أسكت ،ثم قال"سراقة"ليضلل الحاضرين ويفوز هو بالمكافأة الضخمة، إنما هم

---

[٩] ابن هشام:سيرة النبى/جـ٢/١٠٢،الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٣/٢٣٩/٢٤٠.

[١٠] يكنى بأبى سفيان ، كثير شعر الساعدين،يحسن قولَ الشعر، توفى سنة أربع وعشرين أول خلافة عثمان،رضى الله عنه ،وقيل أنه مات بعد عثمان والله أعلم ،ابن الأثير:أسد الغابة/جـ٢/١٩٧،١٩٨.

بنو فلان يبتغون ضالةً لهم،وبعد أن تغير الحديث فى النادى انسحب"سراقة بن مالك" وذهب إلى بيته فى الحال،فأمر بفرسه،فأسرج له،ثم أمر أحد مواليه بأن يربطه له فى الوادى فى مكان عينه له،ثم أخذ سلاحه وخرج من بابٍ خلفى فى بيته.لئلا يراه أحد،ثم امتطى صهوة جواده وأركضه فى اتجاه المكان الذى ذكر الرجل أنه رأى فيه النبى؛ليعتقله أو يقتله؛ليفوز بالجائزة القريشية وحده؛فسار "سراقة بن مالك بن جعشم المد لجلى"؛فلحقهم وهم في أرض صلبة فقال"أبو بكر":يا رسول الله أدركنا الطلب؛فقال:"لا تحزن إن الله معنا"،ودعا عليه رسول الله-(ﷺ)-،فارتطمت فرسه إلى بطنها وصار تحتها مثل الدخان فقال:ادع لى يا محمد ليخلصنى الله ولك على أن أرد عنك الطلب؛فدعا له فتخلص !!!فعاد يتبعهم فدعا عليه الثانية فساخت قوائم فرسه فى الأرض أشد من أولى!!فقال:يا محمد قد علمت أن هذا من دعائك على،فادع لى ولك عهد الله أن أرد عنك الطلب ؛فدعا له ؛فخلص!!

وقرب من النبى -(ﷺ)-وقال له:{يا رسول الله خذ سهماً من كنانتى،وإن إبلى بمكان كذا فخذ منها ما أحببت.فقال:لا حاجة لى فى إبلك؛فلما أراد أن يعود عنه قال له رسول الله-(ﷺ)- كيف بك يا سراقة إذا سورت بسوارى"كسرى"؟قال"كسرى بن هرمز"؟.قال :نعم؛فعاد"سراقة"؛فكان لا يلقاه أحد يريد الطلب إلا قال:كفيتم ماها هنا،ولا يلقى أحداً إلا رده[١١].

---

[١١] ابن الأثير الكامل /جـ٢/١٠٥،١٠٦،الذهبى السيرة النبوية/٢٢٣،٢٢٤،الصالحى سبل الهدى والرشاد/جـ٣/٢٤٩ ،باشميل:الغزوات الكبرى/جـ١/٨٦،٨٧،أبو شهبة:السيرة النبوية/جـ١/٤٩١،٤٩٢.

ولم تكن قصة"سراقة"إلا آية من آيات أيد الله بها نبيه محمداً وهو فى طريقة من "مكة"إلى"المدينة"؛فقد سبق لنا الإلماع إلى العنكبوت والحمامتين الوحشيتين،ثم موقف"سراقة"من النبى.

وها نحن أولاء أمام موقف آخر كان بمثابة معجزة جديدة أيد بها الله نبيه، ذلك أنه وصحبه حين بلغ منهم الظمأ مبلغه،وأخذ منهم الجوع مأخذه،وهم يسيرون فى الطريق من "مكة" إلى "المدينة" رأوا خيمةً لراعى أقامها فى صحراء يرقب منها أغنامه التى تأكل الكلأ المتناثر هنا وهناك؛فأموها ليلتمسوا طعاماً يقيمون به أودهم فلم يجدوا بها سوى امرأة تسمى"أم معبد"[١٢]فسألوها لحماً وتمراً؛ليشتروه فلم يصيبوا عندها شيئاً،وكان القوم مرملين مسنتين"مجدبين" فنظر رسول الله-(ﷺ)-إلى شاه فقال:ما هذه الشاه يا أم معبد؟قالت:شاه خلفها الجهد عن الغنم،فقال:هل بها من لبن؟قالت:هى أجهد من ذلك؛فقال:أتأذنين لى أن أحلبها،قالت:نعم،إن رأيت بها حلباً فحلبها ،فدعا بها فمسح بيده ضرعها وسمى الله ودعا لها فى شاتها؛فتفاجت عليه ودرت واجترت؛فدعا بإناء يربض الرهت فحلب سجاً حتى علاه البهاء،ثم سقاها حتى رويت،ثم سقى أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم ،ثم حلب فيه حتى مُلئ الإناء وبايعها وارتحلوا[١٣] عنها}؛فلما جاء زوجها"أبو معبد" يسوق أعنزاً حيالاً[١٤]عجافاً.

---

[١٢] عاتكه بنت خالد الخزاعية،روى عنها غير واحد،لم نقف لها على تاريخ وفاه ،ابن الأثير:أسد الغابة/جـ٦/١٨٥.

[١٣] الذهبى:السيرة النبوية/٢٢٧،٢٢٨،٣٠٧،ابن حجر:الاصابة/جـ٤/٤٩٨.

[١٤] بالفتح جَماعَةُ المَزَ،وقال الحيانى.القطيع من الغنم،فلم يخص معزاً من ضان ولا ضأناً من معز ان ابن منظور:لسان العرب مادة حيلا.

فلما رأى اللبن عجب!! فقال:{من أين لك هذا اللبن يا"أم معبد"والشاة عازب،ولا حلوب فى البيت؟قالت:{لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا}،قال:صفيه لى؛فوصفت له النبى بأكمل الصفات البشرية؛فقال لها زوجها:{هذا والله صاحب"قريش"الذى ذكر لنا من أمره"بمكة"،ما ذكر،ولقد هممت أن أصحبه،ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً}[١٥].

ظلت "أم معبد"تنهل من خير وبركة نزول النبى محمد-(ﷺ)- بخيمتها حتى عام الرمادة سنة ثمانى عشرة للهجرة،إذ كانت تأخذ اللبن من الشاه التى مسها النبى محمد منذ نزوله عندها إلى هذا التاريخ؛فكانت تحلبها مرتين فى اليوم صباحاً ومساءً.

لقد وردت قصة"أم معبد"هذه من عدة طرق ضعفها[١٦]جميعها علماء الرجال،خلا رواية الصحابى"قيس بن النعمان السكونى"تلك التى اعتمدنا عليها فى إيرادنا لقصة"أم معبد" وما كان من معجزة النبى محمدٍ عند خيمتها[١٧].

وعلى كل حال؛ فإن رسول الله-(ﷺ)-قضى أحد عشر يوما فى السير من "غار ثور" حتى وصل تخوم"المدينة"وكان الأنصار قد دأبوا على الخروج فى كل يوم تشرق شمسه عليهم يرقبون وصول

---

[١٥] الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٣/٢٤٥

[١٦] ذكر ابن حجر أربع طرق وردت فيها قصة أم معبد،أولها طريق ابن الاشعث حفص بن يحيى التميمى،ثانيها:طريق أبى النضر،هاشم بن القاسم،وطريقان آخران عن الواقدى ابنُ الأثير أسد الغابة: جـ٦/١٨٥ ،الإصابه:جـ٤/٤٩٨.

[١٧] الصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٣/٢٤٥،أكرم العمرى:السيرة النبوية الصحيحة/جـ٢١٢،٢١٣.

المصطفى إليهم منذ ترامت الأخبار إلى مسامعهم بأنه خرج من"مكة"يريد ديارهم؛فكانوا يمكثون الأوقات الطويلة فى جموع غفيرة تحدق أعينها فى آفاق السماء تلهج ألسنتها بالدعاء وترمق أبصارها الطريق حتى ينالوا شرف النظر إلى المصطفى حين قدومه إليهم،وما كانوا يأوون إلى مساكنهم إلا بعد زوال الظل عن المكان بالكلية،واشتداد لهيب الشمس.

فلما كان يوم وصول النبى إلى تخوم"المدينة"،لم يكن أحد فى انتظاره؛فقد انصرف الجميع كما ذكرنا إلى دورهم بسبب الحر الشديد يبتهلون إلى ربهم أن يصل إليهم رسول الله سالماً؛فبينما هم فى قيلولتهم إذا برجل من اليهود يصرخ بأعلى صوته قائلاً:يا بنى قيلة،هذا جدكم قد جاء؛فخرج الأنصار إلى رسول الله -(ﷺ)-وهو فى ظل نخلة ومعه"أبو بكر"رضى الله عنه فى مثل سنّة ،وأكثرهم لم يكن رأى رسول الله -(ﷺ)-قبل ذلك ، ولقيه الناس وما يعرفونه من"أبى بكر" حتى زال الظل عن رسول الله -(ﷺ)-،فقام"أبو بكر"فأظله بردائه؛فعرفوه عند ذلك.

ونزل النبى محمد دار"كلثوم بن هدم[١٨] " "بقباء" وقيل فى دار "سعد بن خيثمة"[١٩].

---

[١٨] ابن امرئ القيس بن الحارث بن مالك بن عوف الأنصارى.اسلم قبل قدوم النبى محمد إلى"المدينة"-وكان أول الصحابة وفاة بعد إقامة النبى على أرضها-إذ توفى رضوان الله عليه قبل بدر بقليل دون أن يشهد مشهداً واحداً مع المسلمين فى مواجهة المشركين،-ابن الأثير:أسد الغابة/جـ٤/١٨٥:١٨٤.

ولقد حاول بعض العلماء التوفيق بين الروايتين؛فقال لعل السبب فى اختلاط الأمر على الرواة راجع إلى أن رسول الله إنما كان يقيم فى "دار كلثوم بن هدم "فإذا خرج منها جلس للناس فى بيت "سعد بن خيثمة"وذلك أنه كان عزباً لا أهل له،وكان منزل العزاب من أصحاب رسول الله-(ﷺ)-من المهاجرين،فمن هنا يقال :نزل على "سعد بن خيثمة"وكان يقال لبيت"سعد بن خيثمة"بيت العزاب[٢٠].

ولقد اختلف العلماء حول التاريخ الذى وصل فيه النبى محمد إلى"قباء"فذكروا لنا أقوالاً عدة منها:أنه وصلها يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من المبعث؛فنزل عند الحرة وقت الضحى.

وقيل:قدم-(ﷺ)-يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول،وقيل دخل "المدينة"يوم الجمعة لاثنتى عشرة منه حين اشتد الضحى،وقيل :دخل لهلال ربيع الأول،وقيل يوم الاثنين لليلتين خلتا منه،وقال"ابن شهاب" للنصف من الشهر المذكور؛فكان بين المبعث إلى أول يوم من المحرم الذى كانت الهجرة بعده اثنتا عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرون يوماً،وذلك ثلاث وخمسون سنة تامة من أول عام الفيل[٢١].

---

[١٩] ابن الحارث بن مالك بن كعب بن امرئ القيس الأنصارى،عقبى بدرى،من النقباء الإثنى عشر،اختلف وأبوه حول من يخرج مع النبى فى بدر ،ومن يبقى منهما مع نسوة البيت ليقضى لهم الحاجيات،فلما قال له أبوه أثرنى بالخروج وأقم أنت،قال سعد:{ألو كان غير الجنه لآثرتك به إنى أرجو الشهادة فى وجهى هذا}فاستهما فخرج سهم سعد،فخرج مع رسول الله -(ص)- إلى بدر،واستشهد ،ولا عقب له على أرجح الأقوال.،ابن الأثير:أسد الغابة/جـ٢/صـ٢١١،صـ٢١٢.

[٢٠] السمهودى:وفاء الوفا/جـ١/٢٤٤،٢٤٥،٢٤٦،أبو شهبه:السيرة النبوية /جـ١/٤٩٥، ٤٩٦، التاجى:سيرة النبى العربى/جـ١/٣١٦،٣١٧،باشميل:الغزوات الكبرى/جـ١/٨٨.

[٢١] المقريزى:إمتاع الأسماع/جـ١/٦٠،٦١.

ظل النبى مقيماً"بقباء"أياماً أربعة،أســـس فيـــها مســـجدها ثـــم خـــرج منها وقد أدركته الجمعة فى"بنى ســـــالم بـــن عـــوف"فصلاهـــا فـــى بطـــن الوادى[٢٢] ثم وصل"المدينة"ليكون من أمـــر الإســـلام مـــا يكـــون وتتغـــير أحوال البلد بشكل جعـــل الســـعادة والـــهناء والســـرور يحيطـــون بأهلـــها ،وتبدأ صفحة جديدة بين جنباتـــها فـــى تـــاريخ الدعـــوة الإســـلامية تلـــك التى صارت فيها للإسلام دولة وضع أسسها ســيد الأنـــام وخـــاتم الأنبيـــاء عليهم الســـلام.

---

[٢٢] ابن الأثير:أسد الغابة/جـ٤/١٨٥.

الفصل الثالث

أسس بناء الدولة الإسلامية

لما نجح النبى محمد -(ﷺ)-بتوفيق من الله له فى الوصول إلى "المدينة"أزمع وضع أسس قوية لدولة إسلامية تكون قاعدتها "المدينة"فيها بعد ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل لإرهاب أعداء الله ،ومنها ينطلق الدعاة بالحكمة والموعظة الحسنة إلى العرب فى جزيرتهم والفرس والروم،ومن بعدهم فى ديارهم يدعونهم إلى التوحيد الخالص لله الخالق-سبحانه وتعالى.

والدارس لهذه الأسس التى أقام عليها النبى الدولة الإسلامية فى "المدينة"يجدها قامت على دعائم يرتبط بعضها ببعض ؛من أجل إقامة مجتمع قوى فى الناحيتين الداخلية والخارجية وهى:بناء المسجد-المؤاخاة والمعاهده بين المسلمين واليهود وتحول القبلة، ولسوف نلمع بالتفصيل إلى كل واحدة منها فيما يلى:-

أولا: بناء المسجد:

لما فصل النبى ورفاقه من"قباء" يريدون"المدينة"وجد جماعات الأنصار فى استقباله وقد علا الفرح وجوههم وشقت أصواتهم الآفاق معلنة عن سرورهم وترحيبهم بذلك القادم إليهم،ليعيش بين ظهرانيهم فى منعة من أعدائه؛لينشر دين ربه فى أرجاء المعمورة،وكان رسول الله -(ﷺ)-إذا مر بناقته على محلة من محالهم،أو دار من ديارهم اعترضوا طريقه،وسأله أصحابها أن ينزل عندهم؛فيقول لهم:دعوها فإنها مأمورة.

أى أنها ستبرك من نفسها فى المكان الذى يختاره الله منزلاً لنبيه،وأخذ الرسول يسير فى طريقه حتى بركت ناقته فى ساحة لغلامين يتيمين من بنى النجار،فسار النبى-(ﷺ)-بالناقة برهة دون أن ينزل من فوقها،ثم قامت،وسارت قليلاً ،ثم عادت وبركت فى مكانها الأول واستقرت فيه؛فنزل عنها رسول الله-(ﷺ)-وهو يقول:ها هنا المنزل إن شاء الله[1]!! ثم قرأ" رَبِّى أَنْزِلْنِى مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ[2]".

فسأل النبى محمدُ-(ﷺ)-عن مالك هذه الأرض الفضاء التى ألفت الناقة جيرانها فيها،فذكر بعض الرواة لنا أن الأنصار أجابوا النبى محمداً على ذلك بأنها لغلامين يتيمين يقال لهما:"سهل" "وسهيل"،يتولى أمرهما"أبو أمامة أسعد بن زراوة" فدعا الرسول الغلامين ليساومهما فى أمر شراء أرضهما حتى يتخذها مسجداً؛فقالا :بل نهبها لك يا رسول الله،فأبى أن يقبلها هبة،وما زال بهما حتى ابتاعها منهما،وقيل :إن الغلامين المذكورين كان فى حجر"أبى أيوب"وأن النبى طلب أن يشترى الأرض منه،فقال"أبو أيوب":الأرض ليتيمين وأنا أرضيهما؛فأرضاهما؛فأعطاها لرسول الله-(ﷺ)-.

وذكر بعض الرواة أن الولاية على الغلامين اليتيمين كانت"لمعاذ بن عفراء"،وأنه هو الذى قال للنبى حين طلب منه شراء الأرض:أنا أرضيهما[3] وقيل:إن النبى أرسل إلى بنى النجار يقول لهم:{يا بنى النجار ثامنونى بحائطكم هذا }فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا من الله).

---

[1] ابن هشام:سيرة النبى/جـ٢/١١٢،١١٣،١١٤.

[2] سورة المؤمنون:آية ٢٩.

[3] السمهودى: وفاء الوفاء/جـ١/٣٢٢ ،٣٢٣،ابن القيم:زاد المعاد/جـ٦/٦٢،٦٣-المقريزى:إمتاع الأسماع /جـ١/٦٣ محمد حسن شراب والمدينة النبوية/جـ١/١٠٤: ١٠٥.

مما تقدم يتبين لنا أن الروايات قد اختلفت حول أمرين،أولهما الولاية على الغلامين اليتيمين ، والآخر:الطريقة التي آلت بها الأرض للمسلمين،أهي بتعويض دفعه الوالي عليها لهما ؟.أم بثمن بلغ عشرة دنانير من ذهب دفعها النبى من مال الصديق ؟ولقد وقف الحافظ ابن حجر أمام هذه الروايات موقف الفاحص لها؛ليوفق بينها،إذ هي فى معظمها ذات أسانيد قوية؛فممَّا نقله أصحاب المصادر عنه فى الصدد أن طريق الجمع بين هذه الأقوال:هو أنهم لما قالوا:{لا نطلب ثمنه إلا من الله}.سأل عمن يختص بملكه منهم؛فعينوا الغلامين؛فابتاعه منهما أو من وليهما،إن كانا غير بالغين،وحينئذ؛فيحتمل أن الذين قالوا:{لا نطلب ثمنه إلا من الله } تحملوا عنه للغلامين بالثمن؛فقد نقل"ابن عقبة"أنَّ"أسعد بن زرارة"عوض الغلامين عنه .نخلاً له فى بياضة.وتقدم أن"أبا أيوب"قال:أنا أرضيهما،فأرضاهما،وكذلك"معاذ بن عفراء "،فيكون بعد الشراء،ويحتمل أن كلا من"أسعد" "وأبى أيوب "وابن عفراء"أرضى اليتيمين بشيء فنسب ذلك لكل منهم.}[٤]

والنفس تسكن للآخذ بهذا التوفيق الذى وفق به الحافظ ابن حجر"بين الروايات سالفة الذكر؛لكونه يتفق مع الواقع المعايش لصحابة النبى محمدٍ -(ﷺ)-إذ كانوا يتنافسون لا على شئ يمتلكونه بل فى شئ ينفقونه فى سبيل ربهم حتى يحظوا برضائه عليهم وحب رسوله لهم.

---

[٤] استوفى الحافظ بن حجر هذه المسألة لفتح البارى جـ ٧/ ٢٩٠ .الصالحى:سبل الهدى والرشاد/ جـ٣/ ٣٤٤.

وفى سيرة النبى-(ﷺ)-كثير من المواقف التــى تؤيـد وجـود هـذا التنافس بين صحابة النبى فى المحمود من الأمــور تلـك التـى ستكشـف عنه صفحات الكتاب تباعا فى مواضعــها إن شــاء الله.

وعلى كــل حــال؛فــإن النبــى محمــداً-(ﷺ)-بعـد أن تمـم الأمـر المتعلق بأرض المسجد سار بناقته لينزل فــى مكــان قريــب منــها حتــى يباشر العمل مع العمال فــى بنــاء المســجد وكــان الصحابــة المدنيــون يتنافسون فيما بينهم مــن أجـل الظفـر بشـرف نـزول النبـى محمــدٍ -(ﷺ)-فى منزل واحد منــهم دون البــاقين.

فكان "جبار بن صخر[٥]"من بنى سلمة،وهو من صالحى المسلمين،ينخس ناقة الرسول مُنْفِساً على بنى النجار نزول رسول الله-(ﷺ)-عندهم،فنــهره"أبــو أيوب"على ذلك وأوعده فلما نزل رسول الله -(ﷺ)- عن ناقته أخذ أبو أيوب رحله،فحمله إلى داره،ونزل-(ﷺ)-فى مكــان منــها.عــلاه مســكن" أبــى أيوب"،وكان الرجل أراد أن ينزل له عن ذلك المسكن ويسكنه فيه،فأبى رسول الله-(ﷺ)-،فلما كان بعد أيام سقط شئ من ماء أو غبار على رأس رســول الله-(ﷺ)-فى ذلك البيت،فنزل"أبو أيوب"وأقسم على رسول الله ليطلعن إلــى منزله،ويهبط "أبو أيوب"عنه.ففعل ذلك رسول الله-(ﷺ)-"[٦].

وروى الحاكم وأبو سعيد المينا بودى أن رســـول -(ﷺ)-لمــا نــزل على أبــى أيــوب خــرج جــوارٍ مــن بنــى النجــار يضربــن بــالدفوف

---

[٥] ابن مية بن خنساء ،الأنصارى،الخزرجى،شهد العقبة والمشاهد كلها مع النبى .
-روى حديثاً عن رسول الله،مات سنة ثلاثين هجرية فى خلافة"عثمان"،عن عمــر بلــغ اثنتيــن وستين سنة.،-ابن الأثير :أسد الغابة /جـ١/٣٦١،ابن حجر .الإصابة/جـ١/٢٢٠.

[٦] ابن عبد البر:الدرر/صـ٨٧-ابن القيم :زاد المعاذ/جـ٣/٦٢،٦٣،محمد رضا :محمد رســـول الله/١٣١.

ويقلن،هذا بيت من الشعر غير المتعمد المرتجل هكـــذا نحـــن جـــوار مـــن بنى النجار-(ﷺ)- "نحن جوار من بنى النجـــار .·. يـــا حبـــذا محمـــداً مـــن جار" -(ﷺ)- قال :"أتحبنني"؟قلن :نعم يـــا رســـول الله فقـــال رســـول الله -(ﷺ)-:"وأنا والله أحبكن"قالـــها ثلاثـــا.ويذكـــر "أبـــو أيـــوب":{أنـــه كـــان يصنع للنبى العشاء ويبعثه إليه فإذا رد عليـــه النبـــى فضلـــه،{تيمـــم} بـــه هو "وأم أيوب" موضع يده فيـــأكلان منـــه ليبتغيـــا بذلـــك البركـــة،حتـــى بعثوا إليه ليلةً بعشائه وقد جعلوا له فيـــه بصـــلاً أو ثومـــاً؛فـــرده رســـول الله -(ﷺ)-ولم يروا ليده فيه أثـــراً؛فتوجـــه إلـــى النبـــى مفزوعـــاً فقـــال له:يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشـــاءك ولـــم نـــر فيـــه موضـــع يدك وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا " "وأم أيـــوب" موضـــع يـــدك نبتغـــى بذلك البركة،قال:{إنـــي وجـــدت فيـــه ريـــح هـــذه الشـــجرة وأنـــا رجـــل أناجى،فأما أنتـــم فكلـــوه[٧].وقـــد كـــان رســـول الله-(ﷺ)-يختلـــف مـــن دار"أبى أيوب"إلى المسجد كلما أشرقت شمس يـــوم جديـــد ليعمـــل-(ﷺ)- مع الصحابة فى بناء المسجد،بنفســـه الكريمـــة،كمـــا فـــى الصحيـــح أنـــه طفق ينقل اللَّبِنَ ترغيباً لهم فى العمـــل ويقـــول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة .·. فارحم الأنصار والمهاجرة .

فكـــان يبســـط رداءه يحمـــل فيـــه اللبنـــات فلمـــا رآه المـــهاجرون والأنصار يفعل ذلك ، فعلوا نظيره وراحوا يـــهونون علـــى أنفســـهم عنـــاء البناء بإنشاد الأراجيز الباعثـــة علـــى الســـرور وطمأنـــة القلـــوب ؛مثـــل قولهم

---

[٧] الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٣/٢٧٤-٢٧٥.

لئن قعدنا والنبى يعمل ∴ ذاك إذا للعمل المضلل [٨]

ظل العمل فى المسجد زهاء اثنى عشر يوماً،وبنى المسلمون حجرتين مجاورتين له جعلهما رسول الله"لعائشة" وسودة بنت زمعة[٩]-رضوان الله عليهما-،إذ لم يكن متزوجاً بغيرهما آنذاك ولم تكن أرض المسجد مغطاة بالحصير أو البسط،بل جعلوا بها الحصاة حتى يستطيعوا الصلاة عليها أثناء نزول الأمطار.

هذا وقد بلغت مساحة المسجد النبوى عند إنشائه خمسة وثلاثين ذراعاً طولاً،وثلاثين ذراعاً عرضاً،تحيط به جدران من اللبن لا ترتفع عن قامة الرجل إلا قليلاً،وجعلوا أساس الجدر من الحجر،واتخذوا فى ناحية من المسجد ظلة من الجريد،تستند على قوائم من جذوع النخل ،كانت تسمى"الصُّفَّة"، أما سائر المسجد؛فكان بلا سقف وجعلوا له أبواباً ثلاثة؛باب فى مؤخره،وباب يقال له باب الرحمة،والباب الذى يدخل منه عليه السلام إلى حجراته[١٠].

والجدير ذكره هنا أن الغاية التى أرادها النبى من إقامة مسجده فى "المدينة"لا تنحصر فى إقامة الشعائر الدينية بين جنباته فحسب؛بل أراد من بنائه أن يكون مقراً للحكومة الإسلامية الجديدة فى"المدينة"؛ففيه كان يتلقى المسلمون تعاليم الإسلام

---

[٨] ابن هشام :سيرة النبى /جـ٢/١١٥ ،١١٦،الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٣/٣٣٦.

[٩] ابن القريشية العامرية.أول امرأة تزوجها الرسول-(ص) بعد"خديجة"روى عنها غير واحد،توفيت فى آخر زمن "عمر بن الخطاب"وقيل سنة أربع وخمسين هـ.ابن حجر الإصابة/جـ٤/٣٣٩.،مصطفى أبو النصر وآخرون:نساء حول الرسول/صـ٤٧: ٥٠.

[١٠] ابن هشام:سيرة النبى/جـ٢/١٤٤ وابن القيم ذاد الميعاد جـ٣/١٥٣،٦٢،والخضرى :نور اليقين/٨٦،٨٧، محمد بن عبد الوهاب:سيرة الرسول/١٥٢،١٥٣.

وتوجيهاته،ومنتدى تلتقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى تنافرت،وباعدت بينها النزاعات الجاهلية التى كانت سائدة بين هذه القبائل،وكان محكمة للقضاء بما أنزل الله،يفصل فيها رسول الله-(ﷺ)- أو من يُنيبه بين المتخاصمين،وكان داراً للشورى يتداول فيه الرسول والمسلمون فى أخص شئونهم وأمورهم،وكان مركزاً لقيادة الجيش،تعقد فيه الألوية للرؤساء والقواد،ويزودون بالنصائح والتعليمات.

وكان منزلا لاستقبال الوفود التى تولى وجهها شطر المدينة للقاء الرسول -(ﷺ)-.

هكذا ...كانت رسالة المسجد فى ذلك الوقت؛رسالة خير وإصلاح وتهذيب[١١]!!!

أثرت تلك الرسالة فى الرعيل الأول من المسلمين ؛فأصبح منهم القادة المبرزون،والعلماء المجيدون الذين وضعوا أصول الحركة العلمية الإسلامية،بعد أن تلقوا من العلم ما تلقوا على يدى النبى محمدٍ-(ﷺ)-ومن ثم حل الحب محل البغضاء،وأصبح الجميع بفضل نعمة الله عليهم إخواناً.

ثانيا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لم تكن المهام الجديدة التى ألقتها الهجرة على كاهل النبى محمدٍ من الأمور التى يستطيع أى رجل إنجازها ما لم يكن الله جل علاه قد أعده للقيام بها.

---

(١١) محمد النجار:القول المبين/صـ١٥٦،د.عبد العزيز غنيم:فلسفة السيرة/صـ١٣٦، باشميل الغزوات الكبرى/جـ١/٩٢،٩٣.

ذلك أن رسول الله-(ﷺ)-لما قطن"المدينة" كان عليه أن يؤمن لهذه الفئة المهاجرة حياةً مستقرةً آمنةً تستطيع من خلالها القيام بدور فى خدمة أولئك الذين آووْهم ونصروهم من ناحية،ومن ناحية ثانية الدفاع عن دينهم الذى جعلهم يهاجرون به من "مكة"حيث الظلم الواقع عليهم، إلى"المدينة"حتى ينعموا بالأمن والعدل بين جنباتها.

وأمرٌ ثالث لا سبيل إلى إغفاله وهو إيجاد علاقات متوازنة بين المسلمين واليهود الذين سكنوا"المدينة"وهذا لن يتحقق إلا إذا نجح الرسول فى الجمع بين أفئدة العرب،سواء أكانوا من "الأوس" و"الخزرج" أم من المهاجرين؛فكانت فكرة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛فإن النبى-(ﷺ)-بعد أن قضى فى "المدينة"خمسة أشهرٍ على قولٍ أو ثمانيةً على آخر،جلس فى دار"أنس بن مالك "ليعقد أسمى أُخُوة بين أعظم رجال سَموا بها، وسَمت بهم!! فكانت أقوى من أُخُوة النسب،وكانوا بها مضرب الأمثال بين الأجيال فى العطاء والجود والإيثار!!فيذكر لنا"أنس بن مالك"وغيره من الصحابة الأوائل أن الرسول آخى بينهم على مبدأ المواساة والتوارث فيما بينهم بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة"بدر"؛فلما أنزل الله عزوجل؛(وَأُولَوا الأرْحَام بَعْضُهَمَ أولَى بِبعْضٍ فِى كِتَاب الله[١٢]).رد التوارث إلى الرحم دون عقد الإخوة[١٣].فآخى رسول الله-(ﷺ)-بين

---

[١٢] سورة الأحزاب..آية ٦

[١٣] ابن القيم:زاد الميعاد /جـ٣/٦٣،٦٤،الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٣/٣٦٣.

محمد رضا:محمد رسول الله /١٤٩،١٥٠،الصابونى :مختصر تفسير ابن كثير/جـ٣/٨٢،٨٣.

"أبى بكر وخارجة بن زهير"،وبين"عمر بن الخطاب"و"عتبان بن مالك"،والزبير بن العوام"."وسلمة بن سلامة"و"طلحة بن عبيد الله" "وكعب بن مالك"،"وعثمان بن عفان""أوس بن ثابت"، و"سعيد بن زيد" و"أبى بن كعب"؛و"عبد الرحمن بن عوف"و "سعد بن الربيع "،الذى كان عرض على أخيه المهاجر مشاطرته ماله؛فأبى "عبد الرحمن"قبول ذلك منه،وقال له :دلنى على السوق؛فدله عليه ؛فأخذ "عبد الرحمن"يتاجر فى الجبن والزبد حتى ربح أرباحاً وفيرة.

وهكذا نرى المهاجرين يأبون أن يكونوا عالة على الأنصار؛فمنهم من تاجر فى السوق مثل"عبد الرحمن" سالف الذكر،ومنهم من كان يزارع الأنصار فى أرضهم؛فيأكل من قوت كده وعرقه.

وعلى الجملة؛فإن الأنصار أفاضوا الكرم على المهاجرين إلى حد انهم فضلوهم على أنفسهم فى المسكن والمأكل ؛فاستحقوا مدح الله لهم فى آيات تتلى إلى أن تقوم الساعة[١٤] تلك التى قال الله فيها:"وَالَّذِين تَبَوَّوا الدار والإيمان من قَبْلِهِمْ يُحبونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهم، ولا يجِدُونَ فى صَدُورهِم حَاجَةً مِمَّا أوتُوا ويَؤْثِرُون عَلَى أَنْفُسِهِمِ ولِوْ كَان بِهِم خَصَاصَةٌ،ومَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأولئك هُم المفْلحُون"[١٥].

---

[١٤] ابن القيم :زاد المعاد /ج٣/ص٦٥:٦٣ ،الزمخشرى :الكشاف /ج٤/صـ٥٠٤،الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٣/٣٦٣: ٣٦٦.

[١٥] سورة الحشر:آية ٩.

ولقد كانت تضحية الأنصار مع المهاجرين باعثة للتساؤلات في نفس المهاجرين إذ كان بينهم وبين الأنصار تنافس في الحصول على مزيد الأجر وتبوء أرفع الدرجات في الجنة! افقالوا للنبي محمد:{يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير ،مثل إخواننا الأنصار كفونا المؤونة وأشركونا في المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله.قال :لا ،ما أثنيتم عليهم ودعوتهم لهم ،أي فإن ثناءكم ودعاءكم لهم حصل منكم به نوع مكافأة[١٦]

والدارس للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في مصادر السيرة النبوية يجد نفسه أمام قضية على جانب كبير من الأهمية هي ما ذكره بعض الرواة من أن النبي محمداً-(ﷺ)-لما جاءه "علي" من"مكة" إلى "المدينة"عقد مؤاخاةً ثانيةً بين المهاجرين بعضهم مع بعض بعد التي كانت بينهم وبين الأنصار،وكان فيها "علي " أخاً للنبي محمد[١٧] -(ﷺ)-وهذا ما لم يرض به "ابن القيم"فضعفه " وعلل له بقوله : إن المهاجرين كانوا مستغنين بأخوة الإسلام و أخوة الدار و قرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، و لو آخي بين المهاجرين كان أحق الناس لاخوته ، أحب الخلق إليه ورفيقة في الهجرة ، و أنيسه في الغار و أفضل الصحابة و أكرمهم عليه " أبو بكر الصديق " ، و قد قال : "لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لأتخذت أبا بكر خليلا ، و لكن ...أخوة الإسلام أفضل

---

[١٦] الزمخشري:الكشاف/جـ٤/٥٠٤- محمد رضا :محمد رسول الله -١٥٠

[١٧] ذكر أبو سليمان الجهني أن علياً قال وهو على المنبر:أنا عبد الله وأخو رسول الله ،لم يقلها أحد قبلي ،ولا يقولها أحد بعدي إلا كذاب مفتر } ابن عبد البر الدرر صـ٩١.

وفى لفظ ولكن أخى وصاحبى وهـــذه الأخــوة فــى الإســلام و إن كــانت عامة كما قال : وددت أن قد رأينـــا إخواننـــا ، قــالوا ألســنا إخوانــك ؟ ، قال :" أنتم أصحابي و إخواني قوم يأتون من بعـــدي يؤمنـــون بـــي و لـــم يروني " . فللصديق من هذه الاخوة أعلـــي مراتبــها ، كمــا أن لـــه مـــن الصحبة أعلي مراتبها ، فالصحابـــة لـــهم الأخــوة ، ومزيـــة الصحبـــة و لأتباعه بعدهم الأخـــوة دون (١٨) الصحبـــة .

ومن البـــاحثين المحدثيـــن مـــن أيـــد وجـــود مثـــل هـــذه المؤاخـــاة بين"عليّ "والنبى "فى"المدينـــــة".

فقال وهو يعقب علـــى الخـــبر :{وليلحـــظ القـــارئ الكريـــم الشـــرف الكبير الذى خُص به إمامنا:علـــيّ بـــن أبـــى طـــالب"بـــهذا الإخـــاء الـــذى شرفه رســـــول الله-(ﷺ)- (١٩).

إن من يمعن النظر فى هذه القضيـــــة ومـــا عقـــب بـــه عليـــها"ابـــن القيم"وغـــيره مـــن المحدثيـــن يجـــد الصـــواب فـــى جـــانب هـــذا الإمـــام الجليل؛فإننا نكاد نجزم بأن النبى لم يعقـــد أخـــوة ثانيـــة بيـــن المـــهاجرين بعد تلك التى عقدهـــا بينـــهم وبيـــن الأنصـــار.إذ لا داعـــي لعقدهـــا بعـــد الأولى؛لأن الدين ربط الجميع بأخوة وحدت بينـــــهم فـــى الغايـــة.وســـلوك الوسيلة من أجل تحقيقـــــها.

ولا مانع لدىَّ من أن يكون دعاة الشيعة قـــد روجـــوا لأخـــوة"علـــى" "للنبى"فى دار الهجرة ليثبتوا أمراً طالما ســـعوا إلـــى إثباتـــه.

---

(١٨) ابن القيم زاد الميعاد / جـ٣/٦٤،٦٥ ، البلاذري أنساب الأشراف / جـ١ / ٢٧٠،٢٧١ .

(١٩) الملطاوى:رسول الله فى القرآن الكريم/٢٠٨.

ألا وهو أحقية"على" بالخلافة دون "الصديق ومـــن جــاء بعـــده علـــى أساس من هذه الأخـــوة.

والمرء إذا نظر نظرة المقارن بين "علـــى" و"الصديـــق" يجـد أنـــهما من ذوى الفضل والســـابقة فـــى الديـــن فـــإذا كـــان"علـــى" قـــد كـــان أول الصبيان إسلاماً،فقد كان أبو بكـــر أول الرجـــال إيمانـــاً ،وإذا كـــان "علـــى" ضحى بنفسه ونام فى بيـــت ابـــن عمـــه--(ﷺ)-متســـجيا بـــبرده حيـــن هاجر من "مكة" إلى"المدينة فإن "أبا بكر" قد كـــان الصديـــق والرفيـــق فـــى رحلة نـــال فيـــها مـــع النبـــى مـــا نـــال مـــن وعثـــاء الســـفر وأهـــوال الخطر،والصديق ضحى بماله فى ســـبيل الدعـــوة الإســـلامية فـــى العـــهد المكى حين أعتق الرقيق المؤمنين مثل "بـــلال" وغـــيره كمـــا أســـلفنا فـــى الجزء الأول من هذا الكتاب.وأخوة النبـــي."لعلـــي" لا تحتـــاج إلـــى إعـــلان كما قالت الرواية،فالعرب يعدون ابن العم أخاً ونصـــيراً قبـــل الإســـلام.

والدين الجديد قد زاد هذا الأمر قوة علـــى قـــوة.ومـــن ثـــم فإنـــه لا يحتاج من رسول الله إلـــى إعـــلان أو قـــرار وفـــى حالـــة صحـــة روايـــة المؤاخاة بين "على" والنبى فإننى لا أعتقدهـــا قائمـــة علـــى مبـــدأ يفضـــل هذا على ذاك.فالصديق "وعلـــى" كلاهمـــا قـــام بـــدور بـــارز فـــى ســـبيل الدعوة الإسلامية بشكل أكمل به كل منهما دور الآخـــر وعلـــى كـــل حـــال فإن هـــذه الأخـــوة الناجحـــة التـــى أســـس لـــها رســـول الله-(ﷺ)-بيـــن المهاجرين والأنصار بـــآصرة الإيمـــان،مكنـــت المســـلمين مـــن مجابهـــة التغلغل اليهودى فى "المدينـــة"،ودرء الأبـــواب أمـــام فتنـــهم التـــى دأبـــوا على القيام بها للإيقاع بين قبيلتى "الأوس" و"الخـــزرج"، وجعلـــت رســـول

الله يقبل على تنظيم العلاقـــة بيـــن المؤمنيـــن الموحديـــن،وبيـــن اليـــهود المقيمين فى "المدينة" على مختلـف جماعاتـــهم وطوائفـــهم.

ثالثاً:المعاهدة مع اليـــهود:-

كانت علاقة اليهود بالعرب الذين قطنوا"المدينـــة"منـــذ القـــدم علاقـــة وجهها اليهود ليحققوا بها صالح دنياهم،فقد حرصـــوا مـــن لـــدن جـــاءوا إلى "المدينة" قديماً أن يوطدوا الأمور لأنفســـهم،وأن يكونـــوا فـــى المكـــان أصحاب جاه وثروات ،مما يجعـــل مـــن العـــرب أداةً طيعـــةً فـــى أيديـــهم يوجهونها أنىّ شاءوا بقوة الهيمنة الاقتصاديـــة علـــى أمـــور البلـــد الـــذى قاسموا العرب العيش فى أرضه مســـتعينين مـــع ذلـــك بالعصبيـــة القبليـــة الفاشية إذ ذاك بيـــن القبـــائل العربيـــة فيقلبـــون"الأوس" علـــى"الخـــزرج" تارة،و"الخزرج" على "الأوس" تـــارة أخـــرى.

ولقد عانى العرب طويـــلاً بســـبب تلـــك العلاقـــات المتذبذبـــة مـــع اليهود ،وضمت المصادر الأصلية للتاريخ الإســـلامى أخبـــاراً طويلـــة عـــن المراحل التى مرت بها هـــذه العلاقـــات بيـــن العـــرب واليـــهود لا يتســـع المقام لبسطها مفصلـــة[٢٠].

فما يعنينا هنا هو الوقـــوف علـــى ماهيـــة تلـــك العلاقـــات بعدمـــا أم النبى "محمد" "المدينة" وجعلـــها داراً للـــهجرة.

لما أشرقت شمس النبى على "المدينـــة" نظـــر اليـــهود إليـــه نظـــرة المترقب المتفحص لما سيكون من أمره مع الذيـــن دعـــوه للقـــدوم عليـــهم

---

[٢٠] للوقوف على مزيد من التفصيل عن علاقات اليهود بالعرب فى "المدينة"والصراعات المترتبة على ذلك قبل هجرة النبى إليها.راجع:-السمهودى:وفاء الوفا/جـ١/١٧١،١٨٢،١٨٩،٢١٥.
- الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٣/٢٨١،٢٨٤.

حتى يقيموا سياستهم معه وعلاقتهم به على أســـاس مــن الواقـــع الــذى ستنجلى عنه أحوال النبى مع"الأوســـيين" والخزرجييــن" وأحــوال هــؤلاء مع المــهاجرين..

وحتى يظل اليهود ممســـكين بزمـــام الأمــور فــى أيديــهم بــادروا النبى-(ﷺ)-بحسن العلاقات وكان الرســـول-(ﷺ)-يبادلــهم الــود بــأكثر مما كانوا يقدمونه إليه،فكـــان يعــود مرضــاهم ويحييــهم بأحســن ممــا كانوا يحيونـــه.

فلما رأى اليهود أن كـــل يــوم يمضــى علــى رســول الله فــى دار هجرته يضيف جديداً إلـــى الذيــن آمنــوا بــه،فــأصبحوا متحديــن بعــد افتراق،وأسسوا مسجداً يجتمعون فيه ليدبروا الأمــور وأمــر النبــى فيــهم مطاع ،استجابوا إلــى النبــى-(ﷺ)-حيــن دعــاهم إلــى معــاهدة تنظــم العلائق بينهم وبين العرب المؤمنيـــن.

ولقد ذكر أحد البـــاحثين المحدثيــن أن هــذه المعــاهدة التــى تنظــم العلائق بين المسلمين واليهود قد أبرمها النبـــى معــهم بعــد الــذى كــان من أمر"بنى قريظـــة" فــى "غــزوة الأحــزاب"،وهــذا يقتضـــى أن النبــى واليهود عاشوا فى "المدينة"عيشة لا تختلـــف فــى أحوالــها بعــد هجــرة النبى إلى "المدينة" عنها قبل هذا الحدث العظيم ودلــل هــذا البــاحث علــى صحة التاريخ الذى قال إن الصحيفة أبرمت فيـــه بــأن:"المقارنـــة النصيـــة لمادة السيرة التاريخية تبيـــن أن كُتــاب الســيرة يختلفــون فيمــا بينــهم حتى فيمـــا يتعلــق بتــاريخ الأحــداث الكــبرى،بيــد أن الصحيفــة ذاتــها تتضمن بيانات عن تاريخـــها التقريبـــى غفلــت عنــها فطنـــة المؤرخيــن

بالرغم من وضوحها"، ومنها كما قال الباحث:إن الصحيفة لم تأت على ذكر اثنين من طوائف اليهود،وهما"بنو قينقاع"،و"بنو قريظة" بالرغم من ذكرها لعدد من الجماعات اليهودية مثل:"بنى الحارث" و"بنى النجار" وبنى عوف "فهذا يدل على أن المعاهدة التى وقعها النبى مع اليهود قد كانت بعد حادثتي "بنى قينقاع"، "وبنى قريظة".

ومنها أن المصادر الأصيلة للسيرة والتاريخ تذكر أن الجماعات اليهودية بالمدينة ظلت تؤثر فى الأحداث السياسية بها بعد حادثة "بنى قريظة" على غرار موقفهم من المسلمين المتوجهين إلى "خيبر" وجيش العسرة.فهذا يدل على أن المعاهدة بين النبى واليهود كانت ضرورة فرضها موقف"بنى قريظة" "وبنى قينقاع" على الطائفتين المسلمة واليهودية من أجل تنظيم العلاقات بينهم"فى المدينة"

ومنها"أن سورة المائدة هى آخر ما نزل على الرسول-(ﷺ)- من القرآن،وقد جاء عن"أسماء بنت يزيد"أن هذه السورة كلها نزلت عليه جملةً ،"ونولدكة" وإن كان يسلم بأنها آخر ما نزل من القرآن ويعطيها رقم(١١٤)،ويرى أن بعض آياتها نزل بين عامى ٢هـ/٦٢٣م و٧ هـ ٦٢٨م على أن "تولدكة"وضع الآيات (٤٥-٥٥) بعد ما أسماه بمذبحة"بنى قريظة"وقبل الغزوة التى شنت على يهود "خيبر" فى السنة السابعة من الهجرة،"وهو يرى" يوافق على هذا الرأى، والآيتان(٤٢،٤٣) من سورة المائدة من قوله تعالى:"فَإن جَاءوكَ فَاحكُم بَيْنَهمُ أو أعرِض عنهم وإن تُعرض عَنهم فلن يضروك

شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن اللـــه يحـب المقسـطين وكيـف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم اللـــه ثـم يتولـون بعـد ذلـك ومـا أولئك بـــالمؤمنين"[٢١] .

وهذه الإشارة إلى طلب اليـــهود مـن الرسـول-(ﷺ)-بـالحكم فـى نزاعاتهم لا يكون لها أى وجه لو أنه لم يكن فـــى "المدينـة" يـــهود.

ولما كانت الآيات قـد نزلـت قبـل غـزوة خيـبر" فلـم يكـن مـن المتصور أن يعرض يهود"خيـبر وفـدك والمنـاطق المجـاورة نزاعاتـهم على الرسـول.

فأنت ترى أن هذا الباحث يخالف فـى رأيـه مـا ذهـب إليـه غـير واحد من أصحاب مصادر السيرة النبوية مـن أن المعـاهدة مـع اليـهود قد كانت فى السنة الأولى مـن الـهجرة.

وأنا أميل إلى الأخذ بهذا الـرأى الـذى ذكـره هـذا البـاحث الكبـير نظرا إلى أنه اعتمد فيه على الأسـلوب التحليلـى للوثيقـة التـى ضمـت بنود المعاهدة بيـن النبـى واليـهود،فلـو كـان لبنـى قريظـة" "وبنـى قينقـاع"وجـود سـاعة توقيعـها لذكـرت الصحيفـة أسـماءهم ضمـن الطوائف اليهودية التى سمتها ،فخلوها منهما ومـن بنـى النضـير دليـل قاطع على صحة رأى هذا الباحث ولأن هذه المعـاهدة التـى عقـدت بيـن المسلمين واليهود منـذ ألـف وأربعمائـة وسـتة عشـر عامـا انقضـت ،تتضمن بنودا تصلح لأن يستعين بـها أبنـاء زماننـا إن أرادوا التعـايش

---

[٢١] بركات احمد :محمد واليهود /٨٥:٨٢.

مع الجماعات التى تخالفهم فـــى العقيـــدة،ولأنـــها تتضمـــن كذلـــك أنماطـــا فريدة من العدل وفيوضا مـــن الكـــرم والحريـــة التـــى منحتـــها الأغلبيـــة للأقلية فإنى سأعمد إلى ذكرها مفصلة،لتكون بمثابـــة حجـــج تلجـــم أولئـــك الذين زعموا فى عصرنا انهم لم يسبقوا فى الدعـــوة إلـــى رعايـــة حقـــوق الأقليات والمحافظة على الحريـــــات.

فقد استدعى الرسول إليه رؤساء اليهود وكتـــــب فيـــهم كتابـــا جـــاء فيه ما نصـــه :"**بسم الله الرحمن الرحيم**"

(١)هذا كتاب من محمد النبـــــى -(ﷺ)-بيـــن المؤمنيـــن والمســـلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بـــــهم وجـــاهد معـــهم، (٢) أنـــهم أمة واحدة من دون الناس.(٣)المـــــهاجرون مـــن قريـــش علـــى ربعتـــهم يتعـــاقلون بينـــهم وهـــم يفـــدون عانيـــهم بـــالمعروف والقســـــط بيـــــن المؤمنين.(٤) وبنو عوف على ربعتهم يتعـــاقلون معاقلـــهم الأولـــى،وكـــل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بيـــن المؤمنيـــن. (٥)وذكـــر كذلـــك فى بنى ساعدة،وبنى جشم،وبنى النجار،وبنى عمـــرو مـــن عـــوف ،وبنـــى النبيت،وبنـــى الأوس. (٦) وأن المؤمنيـــن لا يـــتركون مفرحـــا بينـــهم أن يعطوه بـــالمعروف فـــى فـــداء أو عقـــل (٧) ولا يحـــالف مؤمـــن مولـــى مؤمن دونه(٨)، وأن المؤمنين المتقين على مـــــن بغـــى منـــهم أو ابتغـــى دسيسة ظلم، أو إثـــم أو عـــدوان أو فســـاد بيـــن المؤمنيـــن، وأن أيديـــهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم.(٩) ولا يقتل مؤمـــن مؤمنـــا فـــى كـــافر ، ولا ينصر كافر على مؤمـــــن.(١٠) وإن ذمـــة الله واحـــدة يجـــير عليـــهم

أدناهم،وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس،(١١)وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، (١٢)وإن سِلْم المؤمنين واحدة ،لا يُسالم مؤمن من دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله،إلا على سواءٍ وعدل بينهم(١٣) وأن كل غازية غزتْ معنا يُعْقِبُ بعضُها بعضاً.(١٤)وإن المؤمنين يُبئ بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله،(١٥) وإن المؤمنين المتقين على أحسن هُدىً وأقومه.(١٦) وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن،(١٧) وإنه من اعتبط مؤمناً قتلا عن بينةً فإنه قودٌ به إلا أن يرضى ولى المقتول،وإن المؤمنين عليه كافةً ولا يحل لهم إلا قيام عليه.(١٨) وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما فى هذه الصحيفة ،وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثاً أو يُؤويه، وإن من نصره أو آواه ،فإن عليه لعنة اللّه وغضبه يوم القيامة،ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.(١٩) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ،فإن مردّه إلى الله وإلى محمد(٢٠)وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين(٢١) وأن يهود بنى عوف أمّة مع المؤمنين،لليهود دينهم وللمسلمين دينهم،مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ،فإنه لايوتغ إلا نفسه وأهل بيته.(٢٢)وذكر مثل ذلك ليهود بنى النجار،وبنى الحارث،وبنى ساعدة،وبنى جشم،وبنى الأوس،وبنى ثعلبه،وبنى الشطبه.(٢٣)وإن جفنه بطنٌ من ثعلبة(٢٤) وان بطانة

يـــهود كأنفســـهم (٢٥) وإن الـــبرَّ دون الإثـــم (٢٦) وإن موالـــى ثعلبـــة كأنفسهم(٢٧) وإنه لا يخرج منـــهم أحـــد إلا بـــإذن محمـــد.(٢٨) وإنـــه لا ينحجز عن ثأر جُرحٍ،وإنه من فتك فبنفسه وأهـــل بيتـــه إلا مـــن ظلـــم وأن الله على أبـــرّ هـــذا (٢٩) وأن علـــى اليـــهود نفقتـــهم،وعلـــى المســـلمين نفقتهم،وإن بينهم النصـــر علـــى مـــن حـــارب أهـــل هـــذه الصحيفـــة،وإن بينهم النصح والنصيحة والـــبرّ دون الآثـــم.(٣٠)وإنـــه لـــن يـــأثم امـــرؤ بحليفة،وأن النصر للمظلوم.(٣١)وأن اليهود ينفقـــون مـــع المؤمنيـــن مـــا داموا محاربين (٣٢)وأن يـــثرب حـــرامٌ جوفـــها لأهـــل هـــذه الصحيفـــة .(٣٣)وإن الجـــار كـــالنفس غـــير مُضـــارً ولا آثـــم (٣٤)وأنـــه لا تُجـــار حرمةٌ إلا بإذن أهلها..(٣٥) وإنه ما كان بين أهـــل هـــذه الصحيفـــة مـــن حدث ،أو اشتجار يخاف فساده،فإن مَـــرَده إلـــى الله وإلـــى محمـــد رســـول الله -(ﷺ)-وإن الله على أتقى مـــا فـــى الصحيفـــة وأبـــره.(٣٦) وأنـــه لا تجار قريش ولا من نصرهـــا (٣٧)وأن بينـــهم النصـــر علـــى مـــن دهـــم يثرب.(٣٨) وإذا دُعـــوا إلـــى صلـــح يصالحونـــه ويلبســـونه ،وانـــهم إذا دعوا إلى مثل ذلـــك ،فإنـــه لـــهم علـــى المؤمنيـــن إلا مـــن حـــارب فـــى الدين.(٣٩)على كل أناس حصتـــهم مـــن جانبـــهم الـــذى قبلـــهم.(٤٠)وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل مـــا لأهـــل هـــذه الصحيفـــة مـــع الـــبر المحـــض مـــن أهـــل هـــذه الصحيفـــة ،وإن البرّ دون الإثم لا يكتســـب كاســـب إلا علـــى نفســـه، وأن الله علـــى أصدق.

ولقد تناول غير واحد من الباحثين المحدثين موقف النبى من اليهود ،والمعاهدة التي عقدها معهم بالتعقيب، فمنهم من عد هذا الأمر الذى قام به النبى محمد -(ﷺ)-أمراً غير مسبوق إليه من قبل الأنبياء والرسل السابقين فى زمانهم ومنهم من تناولها على أساس إبراز الفوائد العظيمة التى كانت ستنعم بها"المدينة" لو أنَّ اليهود تعاملوا مع المسلمين على أساس تحكمه بنود هذه المعاهدة.

ومنهم من وقف أمامها محللاً لبنودها ،ليرد من خلالها على من قالوا: إن الإسلام دين لا يعرف أتباعه مفهوم الدولة ونظمها.

فمن الأول: ما ذكره أحدهم وهو يعقب على موقف النبى من اليهود فى "المدينة"لما هاجر إليها،{هذا الطور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبى أو رسول فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغوها للناس من طريقة الجدل ومن طريق المعجزة ،ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشر هذه الدعوة بالمقدرة السياسية،والدفاع عن حرية الناس فى الإيمان بها ،ولو دفاعاً مسلحاً فيه الحرب والقتال،انتشرت المسيحية على يد الحواريين من بعد عيسى فظلوا ومن تبعهم يعذبون ،حتى جاء من الملوك من لان قلبه لهذا الدين فآواه ونشره وكذلك كان أمر سائر الأديان فى شرق العالم وغربه،فأما محمد،فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصاره كله على يديه،وأن يكون الرسول والسياسى والمجاهد والفاتح،كل ذلك فى

سبيل الله ،وفى سبيل كلمة الحق التى بُعث بها ،وقد كـــان فـــى ذلـــك كلـــه عظيماً،وكان مثال الكمـــــال الإنساني على مـــا يجــب أن يكــون }[٢٣].

ومن الثانى: ما قاله أحــد البــاحثين وهــو يعقــب علــى المعــاهدة أنها شاهدة { على سمو تفكير الرســـول-(ﷺ)-وحســن سياســته ،فـــهى تقرر حرية الرأي ،وحرمـــة"المدينــة"،وتحــرم الجرائــم،وتحــارب الظلــم والإثم،وقد وضعها رسول الله-(ﷺ)-منذ قرابة أربعـــة عشــر قرنــاً مــن الزمان،ولكنها لا تزال إلى هذا العصر الذى نعيـــش فيـــه نبراســاً يـــهتدى به الساسة والقـــادة إذا اضطربــت الأمـــور وأظلــم الســبيل ،ولا شــك أن هــذه المعــاهدات الخــالدة كــانت ذات أثــر كبــير فــى تقويــة عزائـــم المسلمين،وحفظ"المدينـــة"مــن مطــامع المشــركين المعتديــن ،ولــولا أن اليهود غدروا وخـــانوا ونقضـــوا العـــهود والمواثيـــق،وبـــدءوا بـــالعدوان على المسلمين ،لما وقف رســـول الله والمســـلمون منـــهم موقـــف العـــداء ولظلت :"المدينة"يغمرها الوئـــام والصفـــاء.

ولكـــن اليـــهود غـــدروا وخـــانوا وبـــدأو بـــالعدوان،فـــرد الرســـول والمسلمون على إساءتهم وظلمـــــهم ممـــا جعلـــهم عـــبرة أمـــام القـــرون والأجيال {وما ظلمهم الله ولكن كـــانوا لأنفســـهم ظـــالمين}[٢٤].

ومن الثالث: ما كتبه أحدهم بعد أن عـــرض للوثيقـــة بـــالذكر أن مـــا فى الوثيقـــــة مـــن نصـــوص دســـتورية تســـقط دعـــاوى أولئـــك الذيـــن يغمضون أبصـــــارهم وبصـــائرهم عـــن هـــذه الحقيقـــة ثـــم يزعمـــون أن الإسلام ليس إلا دين قوامه مـــا بيـــن الإنســـان وربـــه،وليـــس لـــه مـــن

[٢٣] محمد هيكل :حياة /صـ٢٣٨،٢٣٩.

[٢٤] الطيب النجار:القول المبين فى سيرة سيد المرسلين/١٦٠،١٦٢.

مقومات الدولة والتنظيم الدستورى شئ،وهى أحبولة عتيقة،كان يقصد منها محترفو الغزو الفكرى،وأرقاء الاستعمار،أن يقيدوا بها الإسلام كى لا ينطلق فيعمل عمله فى المجتمعات الإسلامية ،ولا يصبح له شأن قد يتغلب به على المجتمعات المنحرفة الأخرى،إذ الوسيلة إلى ذلك محصورة في أن يكون الإسلام ديناً لا دولة،وعبادات مجردة،لا تشريعاً وقوانين.وحتى لو كان الإسلام ديناً ودولة فى الواقع،فينبغى أن يتقلب فيصبح غير صالح لذلك ،ولو بأكاذيب القول ،غير أن هذه الأحبولة تقطعت سريعاً لسوء حظ أولئك المنحرفين وأصبح الحديث عنها من لغو القول ومكشوف الحقد والضغائن.

ولكن مهما يكن،فينبغى أن نقول،ونحن بصدد تحليل هذه البنود العظيمة،إن مولد المجتمع الإسلامى نفسه إنما كان ضمن هيكل متكامل للدولة،ما تنزلت تشريعات إلا ضمن قوالب من التنظيم الاجتماعى المتنافس من جميع جهاته وأطرافه ،وهذه الوثيقة أكبر شاهد على ذلك وهذا مع غض النظر عن قيمة الأحكام التشريعية نفسها من حيث إنها قطع وأجزاء إذا ضمت إلى بعضها تكون منها تنظيم متكامل لبناء دستورى وإدارى عظيم[٢٥].

وعلى كل حال،فإن هذه المعاهدة التى أقبل اليهود على توقيعها مع رسول الله-(ﷺ)-تدل دلالةً قطعية على أن هؤلاء قد قرءوا فى توراتهم أنه النبى الذى بَشَّر به موسى ثم عيسى ،ومن ثم قبلوا أن يكون الحكم فيما يشجر بينهم وبين المسلمين من خلاف إلى رسول

---

[٢٥] البوطى :فقه السيرة/صـ١٦١: ١٦٣.

الله،كما أسلفنا،فلولا يقينهم من سماحته وعدالته حسبما قرءوا ذلك فى كتبهم ما جعلوا الحكم إليه.

كما أن هذه المعاهدة لا تأخذ اليهود جميعاً بإثم يرتكبه أحدهم ،فكل إنسان بغض النظر عن عقيدته رهينُ إثمه،يحاسب عليه بمقدار ما اقترفه من ذنب أو جريمة تدور بمجتمعه الذى يعيش فيه.

والمعاهدة كذلك تكفل الحماية لليهود من أعدائهم ،كما أنها لا تحملهم شيئا من نفقات الدفاع"عن المدينة إلا من الجهات التى يقطنون فيها .

فهذا كله كان كفيلاً بأن يجعل"المدينة"واحة سلام ترفرف على قاطنيها مسلمين كانوا أم يهود راية العدل ،إلا أن بعضاً من اليهود ساءهم هذا السلام وذلك الوئام الذى يكفل الحرية العقدية للجميع على أرض "المدينة"،فراحوا يتربصون بالنبى الدوائر ويوغرون صدور إخوانهم عليه حتى يحققوا لأنفسهم مصلحة شخصية.

ولسوف نلمع فيما يلى على سبيل المثال لا الحصر إلى بعض المواقف الفردية لهؤلاء اليهود بعد ما عقد النبى المعاهدة معهم تاركين موقفه من جماعتهم مثل "قريظة"،"والنضير"،و"قينقاع"ليُذكر فى موضعه حسب التسلسل التاريخى فى حياة النبى "بـ مدينة المنورة".

فيذكر"صفوان بن عسال"أن بعض اليهود سألوا النبى – عليه الصلاة والسلام –عن قول الله تعالى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ)[٢٦] ، بقصد إحراجه والنيل منه ،فقالوا له خبرنا عن التسع

---

[٢٦] سورة الإسراء :الآية (١٠١).

آيات التى أعطاها الله لموسى "عليه السلام"فقال الرسول لهم:أوحى الله إلى موسى أن قل لبنى إسرائيل :لا تشركوا بالله شيئاً،ولا تسرقوا ، ولا تزنوا،ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرئ إلى ذى سلطان ليقتله،ولا تقذفوا محصنه،ولا تفروا من الزحف،وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا فى السبت(٢٧) .

ولم تكن هذه المرة الوحيدة التى أراد فيها اليهود إحراج النبى -(ﷺ)-بل كانت هناك مواقف عدة،جابه فيها اليهود النبى بأسئلتهم بقصد بيان كذب النبى على حد زعمهم فإذا به يجيبهم عن كل واحد منها بما فى التوراة،ومع ذلك يمضون فى غيهم ،فما يتركون جمعاً أو جماعة إلا ويذكرون فيها النبى بالسوء.

فيروى"ابن مسعود "رضى الله عنه قال:كنت أمشى مع رسول الله -(ﷺ)-فى حرث "المدينة"وهو متوكئ على عسيب إذ مر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ،وقال بعضهم لا تسألوه ،لا يُسمعكم ما تكرهون،فقال بعضهم لبعض لنسألنه،فقام إليه رجل فقال:"يا محمد" أخبرنا عن الروح،كيف تعذب الروح التى فى الجسد ؟،وإنما الروح من الله عز وجل -فسكت - فما زال متكئاً على العسب،فعلمت انه يوحى إليه ، فتأخرت،فلما نزل الوحى قال:{وَيَسألُونَكَ عَنِ ٱلروحِ ،قُلِ الروحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى، وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العلمِ إلاَّ قَلِيلاً }(٢٨).

---

(٢٧) الزمخشرى: الكشاف /جـ٢/٦٩٧-محمد رضا:محمد رسول الله /١٥٣.

(٢٨) الإسراء :٨٥.

وفى رواية عن "ابن جرير"بسند عن "ابن مسعود" رضى الله عنه ،فقالوا:"هكذا نجده فى كتابنا[٢٩].

ولا نجافى الحقيقة إذا ما قلنا إن هذه المعاهدة العظيمة لم تؤت ثمارها المرجوة بسبب استمرار اليهود فى مناهضتهم للدعوة الإسلامية فى السر،والعلن.ومن ثم،فإن مواقف اليهود من المُسلمين كانت تُسبب الحرج الشديد لهذه الطائفة المؤمنة وهى تُجابه المشركين من قريش وغيرها من أجل إعلاء كلمة التوحيد،وكلما نزل على النبى وحى بآية،أو أمر يخالف هواهم،استغلوه أسوء استغلال لنشر الأكاذيب عن النبى محمد -(ﷺ)-مثلما كان من أمرهم معه عليه الصلاة والسلام،لما أمره الله بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

تحويل القبلة:

إن تحويل القبلة قد كان من الأُسس التى بنيت عليها الدولة الإسلامية ،فقد كان الرسول-(ﷺ)- وهو"بمكة" يصلى فى أول أمره تجاه الكعبة ثم توجه إلى بيت المقدس ذلك على رواية ،وفى أخرى أنه ما اتجه إلى بيت المقدس إلا بعدما هاجر من مكة"إلى المدينة[٣٠] كما هو مُبين من حديث البراء بن معرور ففيه ما يدل على أن النبى

---

[٢٩] الزمخشرى:الكشاف مجـ٢/ ٦٩٠،الصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٣/٣٨٥.

[٣٠] البلاذرى :أنساب الأشراف/جـ/صـ٢٧١،٢٧٢-ابن سيد الناس :عيون الأثر/جـ١/٣٧٠، ٣٧١-التاجى:سيرة النبى/جـ١/٣٧٧،٣٨٨.

-(ﷺ)-وهو بمكة كان يتحرى أى القبلتين ولم يتبين توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة وانه ظل على ذلك ستة عشر شهراً،وقيل:سبعة عشر أو ثمانية عشرة شهراً،كان رسول الله -(ﷺ)-،خلالها يناجى ربه داعياً إياه أن يجعل وجهه -(ﷺ)-تجاه الكعبة وهو يؤدى الصلاة فيذكر أن رسول الله -(ﷺ)-قال لجبريل:{وددت أن الله عز وجل صرفنى عن قبلة يهود إلى غيرها فقال جبريل عليه السلام:"إنما أنا عبد مثلك لا أملك لك شيئاً إلا ما أمرت به،فادعُ اللهَّ تعالى"،فكان رسول الله -(ﷺ)-يدعو الله تعالى ويكثر النظر إلى السماء،ينتظر أمر الله تعالى،وخرج رسول الله زائراً"أم بشر بن البراء.[٣١] بن معرور" فى بنى سلمة ،فصنعت له طعاماً وحانت صلاة الظهر فصلّى رسول الله -(ﷺ)-بأصحابه فى مسجد هناك الظهر،فلما صلى ركعتين نزل جبريل ،فأشار إليه أن صل إلى البيت،وصلى جبريل إلى البيت فاستدار رسول الله -(ﷺ)-إلى الكعبة،واستقبل الميزاب،فتحول النساء مكان الرجال،والرجال مكان النساء[٣٢] فهى القبلة التى قال الله تعالى :"فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا"[٣٣]

---

[٣١] خليدة بنت قيس بن ثابت بن خالد بن أشجع،أسلمت وبايعت الرسول ، روت أحاديث عن النبى -(ﷺ)-لم نقف لها على تاريخ وفاة ،ابن سعد:الطبقات/جـ٨/٢٤١ - ابن حجر :الإصابة/جـ٤/٢٨٥/٤٣٥.

[٣٢] المقريزى:إمتاع الأسماع/جـ١/٧١،٧٢،الصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٣/٣٧٠، محمد الطيب النجار:القول المبين/١٦٨:١٦٩ -محمد رضا:محمد رسول الله /صـ١٤٦.

كان ذلك للنصف من رجـب وقيـل مـن شـعبان، والراجـح الأول،وهـو الذى ذهب إليه معظم العلماء ولقد كان لتحويل القبلـة رد فعـل كبـير.

فقال المنافقون:ما ولاهم عـن قبلتـهم التـى كـانوا عليـها؟وقـال بعض مؤمنين:فكيف بصلاتنا التى صلينـا نحـو المقـدس؟،فكيـف بمـن مات من إخواننا وهم يصلون إلى بيـت المقـدس؟.

يقول :قبل الله عز وجل صلاتهم أم لا ؟وقـال نـاس مـن المؤمنيـن :كان ذلك طاعة وهـذا طاعـة،نفعـل مـا امرنـا النبـى -(ﷺ)-وقـالت اليهود:اشتاق إلى بلد أبيه وهو يريد أن يرضـى قومـه،ولـو ثبـت علـى قبلتنا لرجونا أن يكون هـو النبـى الـذى كنـا ننتظـر أن يـأتى ،وقـال المشركون من قريش :تحير على محمـد دينـه،فاسـتقبل قبلتكـم وعلـم أنكم أهدى منه ويوشك أن يدخل فى دينكم ،فانزل الله فـى جميـع الفـرق كلها[٣٤] :" تِلْكَ أُمةٌ قَد خَلَتْ لَهَا مَـا كَسَـبَتْ وَلَكُـم مَـا كَسَـبْتُمْ وَلاَ تَسئَلُوُن عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ*سَيَقُولُ السُـفَهَاءَ مِـنَ النَّـاس مَـاوَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهُم الَّتى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لَّله المشَـرِقُ وَالَمَغْـربُ يَـهدى مَـن يَشاءُ إِلى صِراطِ مَسـتَقِيم*وَكَذَلِـكَ جَعَلْنَـاكُمْ أُمَـةً وَسَـطاً لتَكُونـوا شُهَدَاَء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرسُولَ عَليكُم شَهِيداً ومـاَ جعلنَـا القِبلَـةَ الَّتِى كُنت عِليهَا إلاَّ لنعلَـمَ مَـن يتبـعُ الرسـولَ ممـن ينقلـبُ عَلَـى عَقِبيه وإن كُنتْ لَكَبَيَرةً إلاَّ عَلَى الذيـنَ هـدَى اللَّـه وَمَـا كـانَ اللّـه

---

[٣٣] سورة البقرة :آية ١٤٤.

[٣٤] ابن سعد:الطبقات /جـ١/١٨٦،١٨٧، ابن سيد الناس: عيون الأثر /جـ١/٣٦٨ ، ابن القيم :ذاد الميعاد/جـ٣/٦٦،٦٧.

ليضيعُ إيمانَكم إنَّ اللهَ بالنـــاسِ لــرءُوفٌ رحيــمٌ *قَــدْ نَــرَى تقلُّــب وجهك فى الســماء فلنولينَّــكَ قبلَــةً ترْضَاهَــا فَــولِ وَجْــهَكَ شَــطْرَ المسجدِ الحرامِ وحيثُ ما كُنْتم فَوَلُّوا وُجُوهَكُــمْ شَــطْرَهُ وَإِنَّ الذَّيــنَ أُوتــوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحَقُ مِن رَبهِم.ومَــا الله بغَــافِلٍ عَمَّــا يعملــونَ ولَئــن أتَيْتَ الذِينَ أُوتُوا الكتَابَ بِكُلِ آيَةٍ ما تبعُوا قِبلَتَكَ ومَــا أنــتَ بِتَــابعٍ قِبلَتَــهُمْ ومَا بَعضُهُم بتابِعٍ قِبلَةَ بَعضٍ ولئنِ اتبعتَ أَهْوَاءَهُــمْ مِــن بعــد مــا جَــاء منَ العلمِ إنَّكَ إذاً لمنِ الظــالمينَ" (٣٥).

فأنت ترى الآيات الكريمة تلفت نظر اليــهود ومــن دار فــى فلكــهم إلى أن الله جل علاه لــه المشــرق والمغــرب وانــه ســبحانه وتعــالى لا يُسئل عما يفعـــل،ولا ينبغــى لأحــد مــن المخلوقيــن الاعــتراض علــى أمره،كذلك تضمنت الآيــات أن اليــهود وهــم الذيــن يعلمــون بمصداقيــة النبى يعارضون بالرغم من الآيــات المتتابعــة التــى يأتيــهم بــها النبــى محمد من عند ربــه.

ولقد ألمعت فيما سلف إلى بعض أمثلــة تعنتــهم مــع النبــى محمــد -(ﷺ)-ونحن نذكر العلاقة بين النبى وبينـــهم بعدمــا هــاجر مــن "مكــة" إلى "المدينــة".

ونلمح كذلك من خـــلال اســتقرائنا لــهذه الآيــات أن اتجــاه النبــى محمدٍ -(ﷺ)-إلى البيت الحرام كان بأمر من ربــــه ممــا يعنــى أن ديــن إبراهيم هو دين محمد -(ﷺ)-فإن الأول كان يجعــل الكعبــة وجهــة لــه كذلك أصبح محمد ومن آمن به يولـــون الوجــه شــطر المســجد الحــرام

---

(٣٥) سورة البقرة :آيات من ١٤١: ١٤٥.

فى الصلاة وصدق الله العظيم إذ قال:"ملةَ أبيكمُ إبراهيمَ هو سماكُمُ المسلمينَ من قبلُ[٣٦]"

وعلى الجُملة فإن تحويل القبلة كان اختباراً للذين آمنوا بمحمد واولئك الذين ظلوا فى طغيانهم يعمهون، حتى يتبين من هؤلاء وأولئك من آمن بمحمد بإخلاص،ومن جعل على فؤاده أكنة تحول بينه وبين التفكير فى الدعوة إلى كلمة سواء،دعاهم إليها النبى محمد تلك التى تقوم فى لحمتها وسداها على التوحيد الخالص لرب العالمين،قال تعالى:"ومَا جَعَلنَا القِبلَةَ التَّى كُنتَ عَلَيَهَا إلا لنعلمَ من يتبعُ الرسُولَ مِمَّن يَنقلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ"[٣٧]

وبعد أن فرغ النبى محمد -(ﷺ)-من الأسس الداخلية التى قام عليها النظام الذى كفل الأمن والأمان لما يُسمى فى عصرنا بالجبهة الداخلية،صار لزاماً على هؤلاء الذين أقبلوا على اعتناق الدعوة الإسلامية طائعين أن يُوجهوا جُل عنايتهم للذَب عن بلادهم والتأهب لمنازلة أعدائهم الذين تربصوا بهم الدوائر لتبدأ مرحلة جديده من مراحل حياة النبى والدعوة الإسلامية فى "المدينة" تُسمى مرحلة الجهاد ورد الاعتبار .

---

[٣٦] سورة الحج :آي رقم ٧٨.

[٣٧] سورة البقرة: آيه ١٤٣.

الفصل الرابع

الفصل الرابع

جهاد النبى والذين آمنوا ضد المشركين

لمَّا بعث الله مُحمداً-(ﷺ)-فى أُم القرى بدعوة التوحيد،دعا قومه ومن جاء إلى "مكة"إلى هذا الدين بلسان ينطق بالإقناع المرغب فى دخول الإسلام ،فلم يلق من سامعيه إلا سخرية،واستهزاءاً ورفضاً،كذلك كانت حال من آمن به فى "مكة"فإن صناديد قريش صبوا عليهم العذاب صباً، ولم يجد المعذبون مقاومة من المعذبين فإن هذه العصبة المؤمنة،لم تكن فى هذا الوقت تملك من أمرها ما يستطيعون به التصدى للكثرة الكاثرة من المشركين،فتسلحوا بالصبر الذى كانت تقويه، فيهم آيات بينات نزل بها الروح الأمين على سيد المرسلين،مثل قوله تعالى"فاصبر كَما صبَرَ أولُو الَعزْمِ منَ الُرسُلِ"[1].

وتلك التى كانت تتحدث عن أخبار الرسل فى أممهم وكيف انهم عذبوهم ونكلَّوا بأتباعهم تلك كانت حالة المؤمنين والنبى فى "مكة"هذه "الحالة"التى تغيرت وتبدلت لما غادروها إلى "المدينة"فقطنوها.

فبعد مرحلة تأسيس الدولة كان على هؤلاء المؤمنين أن يجابهوا الأخطار المُتزايدة المحدقة بهم بعد ما كثر عددهم انضمام"الأوس" "والخزرج"للدين الجديد،فكانت مرحلة جهاد ليست للاستيلاء على أرض أو لاغتنام مال،إنما كانت للدفاع عن الدولة الناشئة،فكانت مشروعية القتال للمسلمين من رب العالمين.

---

[1] سورة الأحقاف (٣٥).

مشروعية القتـــال

لم يشـــرع الله القتـــال إلا بعـد أن صـــار ذلـك ضـــرورةً لاســـتمرار وجود الدعوة الإسلامية وانتشـــارها فإنـــها حيـــن كـــانت بمكـــة لـــم تكـــن تجابه إلا قُريشا،وحدها ،وبعدما انتقل النبي وأتباعـــه"إلـــى المدينـــة"صـــارت تواجه أعداءً متنوعيـــن تمثلـــوا فـــى قريـــش التـــى ســـاءها نجـــاح هـــذه العصبة المؤمنة فى الانفلات من بين أيديهم.واليـــهود الذيـــن حنقـــوا علـــى قاطنى"المدينة" ومن آوى إليهم حين عَـــزُوا النبـــى الـــذى يعرفـــه اليـــهود كما يعرفون أبناءهم والذي جاء ذكره في التـــوراة التـــي يتلونـــها،والعـــرب الضـــاربين حـــول"المدينـــة"فـــإن منـــــهم مــــن حنـــــق علـــــى الأوس" "والخزرج"،فحسدوهم على وحدتـــــهم، ومنـــــهم مـــن أراد التقـــرب لقريـــش صاحبة الصولة والجولة فلـــم يجـــدوا وســـيلةً تجعلـــهم مـــن ذوى الأيـــدى على هذه القبيلة الكبرى التى تسيطر على الكعبـــة مكـــان آلهتـــهم ومقصـــد حجهم أفضل من أن يناهضوا محمداً ومن معه بعدما أُبقَـــوُا مـــن قريـــش.

فأنت ترى أن **أول سبب** جعل من القتـــال شـــرعةً هـــو الدفـــاع عـــن كيان الدولة وحرية المعتقد لرعيتـــــها.

وثانى الأسباب هذا الظلم الـــذى وقـــع مـــن قريـــش علـــى أبنائـــها وغيرهم ممن آمنوا بمحمد دون إثم يرتكبونـــــه أو جـــرم يقترفونـــه ســـوى أنهم آمنوا بربهم وتركوا عبـــادة أوثـــان نحتـــها الآبـــاء واعتقـــدوا فيـــها النفع أو الضرر من دون الله فعذبوهم،فكانوا معتدين عليـــهم.فـــلا بـــد لـــهم إذن من الدفاع عن أنفسهم ليردوا الظلـــم عليـــهم .

وثالث الأسباب أنهم طردوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم سالبين أموالهم ولم يَرِقُوا لصغارهم فألجئوا هؤلاء الصحابة الأعلام إلى ترك الديار بما فيها من نفيس ورخيص ليعبدوا الله فى أمن وأمان.

رابع الأسباب القضاء على الفتن التى هى عند المسلمين أشد من القتل لما يترتب عليها من إراقة للدماء وترميل للنساء وإهدار للأموال وانتهاك للحرمات.

مما تقدم نرى أن القتال فى الإسلام لم يُشْرَع حُباً فى سفك الدماء إنما شرع لحفظ الحياة والمحافظة على الحريات وتأمين الناس على مقدرات حياتهم.

كل ذلك ألمعت إليه آيات بينات جاء ذكرها فى أكثر من سورة من سور القرآن الكريم،أظهر فيها رب العالمين للمسلمين الموحدين الضوابط التى تجعلهم يشهرون الحسام فى وجه المتربصين بهم من أعداء هذا الدين كيفما كانوا وأنى عاشوا.

فعالمية الدين تجعل المسلمين ينساحون فى الأرض مبلغين الدعوة بالحسنى دون حدود أو قيود.ولم يلجأوا للحسام إلا إذا حدث لهم أمر من الأمور التي أسلفناها.

وقبل المُضى قُدماً مع الآيات التى ذكرت أسباب مشروعية القتال على الوجه الذى أسلفته،أذكر أن علماء المسلمين قد اختلفوا حول المكان الذى أذن الله لنبيه فيه بالقتال،فمنهم من قال :إن ذلك قد كان

بعدما بايع الأنصار النبي -(ﷺ)-البيعة الثالثة عند العقبة[٢]" حيث بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وهذا يستدعى على حد قول أصحاب هذا الرأى إذنا من الله لنبيه بالقتال.

فلو لم يكن الله قد أذن لنبيه به وهو"في مكة" ما قبل منهم مبايعته على المنعة التى هى بالضرورة مؤدية للقتال فى حالة تعرضهُ -(ﷺ)-للإيذاء وهو بين ظهرانيهم،فيكون الإذن بالقتال والحالة هذه "فى مكة"ومنهم من قال:إن ذلك قد كان في"المدينة".فقد روى"البيهقى"وغيره(عنْ أبُى بن كعب"رضى الله عنه -قال:قدم رسول الله -(ﷺ)-وأصحابه"المدينة" وآوتهم الأنصار ،ورمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة،وصاحوا بهم من كل جانب حتى كان المسلمون لا يبيتون إلا فى السلاح ولا يصبحون إلا فيه ،فقالوا:ترى نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل !!

فلما وقف النبى محمدُ على حالهم ومداخل أفئدتهم من تساؤلات قال لهم -(ﷺ)-:-

لا تغبرون(لا تبقون) إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة[٣].

فأنزل الله تبارك وتعالى:وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوُا منْكُمَ وَعَملُوا الصَالِحَاتِ لَيَسَتْخلفنهُم فِي الأرضِ كَمَا اسَتَخْلَفَ الذينَ مِن قَبلِهم

---

[٢] المقريزى:إمتاع الأسماع /جـ١/٦٥.

[٣] الزمخشرى:الكشاف /جـ٣/٢٥١.

وليُمَكِنَنَّ لَهُم دينهُمُ الذي ارتَضَى لَهُم وليَبدلَنــــهُم مِــن بعــدِ خَوفِــهم أمنــاً يَعَبدُونَنِى لا يُشْــركُون بِــى شــيئاً وَمَــن كَفَــرَ بَعْــدَ ذلــكَ فَــأُولَئكَ هُــمُ الفَاسِــقُونَ)[٤].

وفى مثل هذا المعنى قوله تعـــالى:

"والذينَ هَاجَروُا في اللهِ مِنْ بَعْدمَا ظُلمُـــوا لَنُبَوئنَّـــهُم فِــى الدُنيــاَ حَسَنَةً وَلأجْرُ الآخِرَة أَكبَرَ لَوْ كَــانُواْ يَعْلَمــوُنَ،الَّذيــنَ صَــبَرُوا وعَلَــى رَبِهِمَ يتَوَكلُــونَ "[٥].

ذكر بعض أهل التفســـير،أنــها نزلــت فــى المعذبيــن بمكــة حيــن هاجروا إلى المدينـــة بعــد مــا ظلمــوا فوعدهــم الله تعــالى فــى الدنيــا حسنة(يعنى بها سعة الـــرزق).

فيروى عن "عمر بن الخطاب" رضى الله عنـــه أنـــه: كــان إذا أعطــى الرجل عطاءه من المهاجرين يقول:خذ بارك الله لك فيــه ،هــذا مــا وعــدك الله تبارك وتعالى فى الدنيا،وما ادخر لك فـــى الآخــرة أفضــل}[٦].

ولقد انبرى"ابن القيم"لمناقشة الذيـــن قــالوا إن القتــال إنمــا أذن الله فيه لنبيه وهو فى "مكة"فرفض الأخذ بهذا القــول وجــزم بــأن القتــال لــم

---

[٤] سورة النور :أية:٥٥.

[٥] سورة النحل:آية:٤١،٤٢.

[٦] الزمخشرى:الكشاف/جـ٢/٦٠٧-الصالحى سبل الهدى والرشاد/جـ٤/٣،٤ ،محمد بن عبد الوهاب:مختصر سيرة الرسول/صـ١٥٨،١٥٩. ،محمد رضا :محمد رسول الله/١٥٦،١٥٧،

يأذن فيه الله لنبيه إلا بعد أن جعل"المدينة"داراً لهجرتــه وأن ذلـك قـد مـر بمراحل تلا بعضها بعضاً وعلل لرأيه هذا بأدلة أقامـــه عليــها ،منــها.

(١) أن الله لم يأذن "بمكة"لـــهم فــى القتــال،ولا كــان لــهم شــوكة يتمكنون بها من القتال "بمكـــة".

(٢) أن سياق الآية التى جــاءت فــى ســورة الحــج يــدل علــى أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم فإنــه قــال:الذيــن أخرجــوا مــن ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)وهــؤلاء هــم المــهاجرون.

(٣) أنــه قــد خاطبــهم فــى آخرهــا بقولــه: يــا أيــــها الذيــــن آمنوا)والخطاب بذلك كله مدنى،فأما الخطاب (يا أيـــها النــاس)فمشــترك.

(٤) أنه أمر فيها بالجـــهاد الــذى يعــم الجــهاد بــاليد وغــيره، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعـد الــهجرة،فأمــا جــهاد الحجــة فأمر به فى "مكة" بقوله:{ فلا تطع الكــافرين وجــاهدهم بــه} أى بــالقرآن -(جهاداً كبيراً) فهذه ســورة مكيــة،والجــهاد فيــها هــو التبليــغ،وجــهاد الحُجة ،وأما الجهاد المأمور به فى (سورة الحـــج)، فيدخــل فيــه الجــهاد بالسـيف.

(٥) أن الحاكم روى فــى (مســتدركه) مــن حديــث الأعمــش عــن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قـــال:لمــا خــرج رســول الله -(ﷺ)-من مكة" قال أبـــو بكــر:أخرجــوا نبيــهم،إنــا لله وإنــا إليــه راجعــون لَيَــهلِكُنَّ، فــأنزل الله عــز وجــل: أذن للذيــن يقــاتلون بأنـــهم ظلموا)وهى أول آية نزلت فى القتـــال وإســناده علــى شــرط الصحيحيــن وسياق السورة يدل على أن فيها المكـــى والمدنـــى[٧] .

---

[٧] زاد المعاد /جـ٣/٧٠،٧١.

وعلى كل حال،فإن الراجح لدى أن القتـــال لـم يشـرع للمسـلمين إلا فى "المدينة" كما تؤكد ذلك حياتهم وهم "بمكـــة"،ومـا كـان يقولـه النبـى محمد -(ﷺ)-"للمستضعفين وغـيرهم،حيـن يـأتون إليـه طـالبين الإذن بالدفاع عن أنفسهم مثل "سعد بن أبى وقـاص" وغـيره فإنـه-(ﷺ)-كـان يصبرهم ويعدهم بما يسعدهم من حسن الجـزاء عنـد ربـهم ،ولا يعـارض ما ذهبت إليه ما ذكر فى شأن البيعة الثالثـة للأنصـار عنـد العقبـة فـإن قرينتى الحال والمقام تقتضيان أن ما فى البيعـة مـن بنـود لا تنطبـق إلا إذا هاجر النبى من "مكة" إليـهم.

ومن ثم، فإن المنعة التـى تتطلـب قتـالاً كمـا ذكـر أصحـاب هـذا الـرأى لـن تكـون إلا فـى "المدينـة" إذ لا يتصـور أن يمنـع"الأوس" و"الخزرج" محمداً-(ﷺ)-وهو بمكـة.

وعليه ،فإنه لا تعارض بيـن البيعـة والإذن بالقتـال،فـإن الدواعـى التى جعلت المسلمين يقاتلون أعدائـهم مـا اجتمعـت وانضمـت إلاّ بعدمـا هاجر النبى إلى "المدينة"إذ أصبح للمسـلمين شـوكةٌ وغـدوا علـى حمـل السلاح قادرين بعـد مـا كـثر عددهـم وظـهرت معـالم مجتمعـهم فـى الناحيتين السياسية والدينية اللتين ميزتا الدولـة الإسـلامية الناشـئة عمـا جاورهـا.

وعلى كل حال فإن مشروعية القتال مرت بمراحـل أولـها تمثـل فـى آيات بينات وعد الله فيها المؤمنين بـالنصر علـى أعدائـهم مثلمـا رأيتـه فى سورتى النور والنحل أعقبها مرحلة ثانيـة أذن الله فيـها لـهم بقتـال أعدائهم،وبين لهم فيها الأسباب التى أسـلفنا ذكرهـا حتـى يعلمـوا انـهم

حين ينطلقون لقتال الأعداء إنما يفعلون ذلك مستندين إلى مسوغات لا ينكرها العرف ولا يأباها الإلف ،فكان قوله تعالى{أذنَ للذينَ يقاتلُونَ بأنَهُم ظُلِمُوا وإنَّ الله عليَ نَصرهِم لقَدير،الذينَ أُخرِجُوا مِن ديَارِهِم بغَير حَق إلا أنَ يَقُولوا ربنا الله ولَولاَ دفعُ الله الناسَ بَعضُهُم ببعض لهُدِمَت صوَامِعُ وبيَعَ وصَلوَاتٌ ومساجدُ يَذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً ولينصرن اللهُ من ينصُرُه،إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزيز[٨] }

تلا ذلك المرحلة الثالثة وفيها فرض الله على المسلمين القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، قال تعالى{ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا} يعنى فى قتالهم فتقاتلون غير الذين يقاتلونكم (إنَّ الله لا يُحبُ المُعتَدِينَ)[٩] ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة حتى يكون الدين كله لله.

قال الله عز وجل:"وقَاتلوُا المشُركِينَ كَافَةً "[١٠](أى جميعاً)"كمَا يُقَاتِلونَكُم كَافَةً) ،وقال تعالى:كَتَبَ عَلَيكُمُ القتالُ وهُوَ كُره لَكُمُ وَعَسَىَ أنْ تَكرَهُوا شَيئاً وَهوَ خَيَرُ لَكُمْ)[١١].فكان القتال محرماً ثم صار مأذوناً فيه،ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ثم جعله الله عاماً فى حق جميع المشركين وهو على هذا إما فرض عين على أحد القولين أو فرض كفاية على المشهور[١٢].وهو ما نرتضيه لأنفسنا.

---

[٨] سورة الحج:آية ٣٩، ٤٠.

[٩] سورة البقرة:آية ١٩٠.

[١٠] سورة التوبة :آية ٣٧،٣٦.

[١١] سورة البقرة:آية٢١٦.

[١٢] الصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٤/٥-الخضرى:نور اليقين/٩٣،٩٢،الملطاوى:رسول الله في القرآن /٢٢٩، ٢٣٠-الطيب النجار:القول المبين /١٧٦.

ولم يدع الله المسلمين يقاتلون أعداءهم بعدما بين لهم دواعى قتالهم دون أن يبين لهم الثواب الذى أعده الله لمن نال الشهادة منهم، فكانت الآيات التى تتحدث عن الحياة البرزخية ثم الأخروية للشهداء (الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون،فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون باللذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[١٣].

فقد روى مسلم عن مسروق أنهم سألوا النبى محمداً عن هذه الآية فقال :(أرواحهم فى أجواف طير خضر تدور فى أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم،وحسن مقيلهم ، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا كى لا يزهدوا فى الجهاد،ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم.

وعنُ أنس "أن رسول الله"-(ﷺ)-"قال:ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد،فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة)[١٤].

و لقد أمر الله المسلمين بعد ما أذن لهم بالقتال و فرضه عليهم فرض - كفاية - كما أومأنا إلى ذلك أن يبذلوا قصارى جهدهم فى حشد طاقاتهم و هم يواجهون أعدائهم حتى يلقوا الرعب فى أفئدتهم

---

[١٣] آل عمران :آية ١٦٩،١٧٠.

[١٤] الزمخشرى:الكشاف /جـ١/٤٣٩،٤٤٠ - الصابونى:مختصر تفسير بن كثير /جـ٣٣٦،٣٣٧.

فقال تعالي (و اعدوا لهم مـــا اســتطعتم مــن قــوة ومــن ربــاط الخيــل ترهبون به عدوا الله وعدوكم)[١٥] و الذي تجـــدر الإشــارة إليــه هنــا أن مشروعية القتال لا تعني أن الإســلام جعــل مــن الســيف مطيــة لرجالــه ينتقلون عليها لنشر الإســـلام هنــا وهنــاك ، فذلــك أمــر يتنــافي وروح الإسلام ، إذ أن الآيات القرآنية والســنة النبويــة تحــرم علــي المســلمين إكراه غيرهم علي الدخول في دينهم فقال تعــالي : (لا إكــراه فــي الديــن قد تبين الرشد من الغــي [١٦] .

فالآية الكريمة لا تبيح كما تــرى للمســلمين أن يســتخدموا ســيوفهم وقهرهم لأعدائهم وفرض الجزية عليهم وسائل ضغــط تجعــل أهــل البــلاد المفتوحة يعتنقون دين الإســـلام.

ويوافق الآية الكريمــة المذكــورة حديــث رســول الله"-(ﷺ)-"الــذى رواه مسلم ففيــــه تفصيــل بيــن يوضــح لنــا أن الإســلام يــأبى إكــراه المقهورين على الدخول فى الدين،فقد كــان رســول -(ﷺ)-"يقــول لقــادة الجيوش التى يشخصها إلى ميادين النزال:(اغـــزوا باســم الله،فــى ســبيل الله،قاتلوا من كفر بـــالله ،اغــزوا ولا تغلــوا، ولا تعــذروا،ولا تمثلــوا،ولا تقتلوا وليدا،وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعـــهم إلــى ثــلاث خصــال، أو خلال، فأيــها أجــابوك فــأقبل منــهم،وكــف عنــهم ثــم ادعــهم إلــى الإسلام،فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فــإن هــم أبــوا فلــهم الجزيــة فإن أجابوك فإنك منهم فاستعن بـــالله وقاتلــهم)[١٧].

---

[١٥] سورة الأنفال : آية ٦٠

[١٦] سورة البقرة : آية ٢٥٦ - الزمخشري : الكشاف / جـ ١ / ص٣٠٣ ، ٣٠٤

[١٧] صحيح مسلم،بشرح النووى /جـ١٢/٣٧: ٣٩.

ولقد كان غير واحد من المستشرقين المنصفين مدركاً لتلك الحقيقة السامية التى أصلّ لها القرآن الكريم والسنة النبوية،فنفوا عن "محمد"وأتباعه ما نعتهم به المغرضون من سفكٍ لدماء الأعداء حتى يدخلوا الإسلام مجبرين.

فقال أحدهم"توماس" كارليل:{ إنه من السخف اتهام محمد بذلك ،لأن الذين آمنوا به كانوا من الأقوياء والضعفاء،فمنهم من ذوى العشيرة الذين لم ينفع معهم جبر،وهؤلاء ضحوا بالنفيس والرخيص فى سبيل نشر الدين فهذا يدل على أنهم دخلوا الإسلام طائعين وكذلك كانت آيات القرآن الكريم وسيرته "-(ﷺ)- "بما فيها من شواهد وأحداث تؤكد لنا أن هذه التهمة لا أساس لها من الصحة[١٨].

ومن الكتاب المسلمين الذين أطنبوا فى التدليل على نفى هذه التهمة عن النبى محمد والذين آمنوا معه الأستاذ" العقاد"الذى قال ما خلاصته :(إن المسلمين لم يشهروا الحسام فى وجه القرشيين لينشروا الإسلام،وإنما جردوا السيوف على سلطتهم التى تقف فى طريقهم وتحول بينهم وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه .ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ،وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء وفى الأعقاب بعد الأسلاف.

وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها،لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة،وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية

---

(١٨) أبو شهبة :السيرة النبوية /جـ٢/٩١،٢٩٢نقلاً عن كتاب الأبطال لكارليل.

وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء .وعليه فإننا لا نعزو انتشار الدين فى صدر الدعوة الإسلامية إلى قوة السيف.

وما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء ،بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت،وإن عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند"والصين" "وأندونيسيا" "والقارة الإفريقية" ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع.

وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار لا يكفى لتحويل الآلاف المعدودة-فضلاً عن مئات الملايين من دين إلى دين [١٩].

وهكذا رأينا أن الإسلام بشهادة كثير من المستشرقين دين سلام يبحث عنه ويقدمه على تحكيم الحسام فى دعوته للناس أجمعين.فقد أمر القرآن الكريم المقاتلين المسلمين بالكف عن أعدائهم إن جنحوا للسلم حتى يحقنوا الدماء.قال تعالى:(وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ،وإن يُرِيدُوا أن يخدعُوكَ،فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هو الذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)[٢٠].

وعلى كل حال فإنه بعدما أذن الله للمسلمين بالقتال وتم فرضه عليهم دفاعاً عن النفس بدأت مرحلة المواجهة بين المسلمين والمشركين،تلك التى كانت السرايا بمثابة مقدمات لها،ثم الغزوات التى وقعت بين النبى محمد وصناديد الكفر والتى سنفصل الحديث عنها فيما يلى:

[١٩] العقاد عبقرية محمد :٢٩،٣٠،٣١،٣٢ - الملطاوى:رسول الله فى القرآن الكريم /٢٣٦، ٢٣٧،٢٣٨.

[٢٠] سورة الأنفال:آية ٦١،٦٢.

أهم السرايا التى سبقت غزوة بـدر الكـبرى

السرايا قبل بـــدر:

قبل المضى قدماً مع أخبار الســـرايا التـــى أشـــخصها النبـــى محمـــد إلى المناطق القريبة"من المدينة" والواقعة علـــى الطريـــق التجـــارى الـــذى يربط بين "مكة" و"الشام" أود الإشارة إلى أن الغاية مـــن هـــذه الســـرايا لـــم تكن قتال الأعداء بالمعنى الذى نعرفـــــه عـــن الحـــرب ومـــا تتطلبـــه مـــن استعداد وإعداد،وإنما كـــانت لمناوشـــة قريـــش حتـــى تشـــعر أن طريقـــها التجارى لم يعد آمناً.كما كان قبـــل هجـــرة النبـــى "للمدينـــة" وأن مكانتـــها بين القبائل قد صارت مهددة بعد أن أصبحت للإسلام دولـــة لـــها شـــوكة.

كما أن هذه السرايا التى سبقت بدراً لـــم تضـــم أحـــداً مـــن الأنصـــار على الراجح كما يقول"ابن سعد"(إن المجمع عليه أنـــهم كـــانوا جميعـــاً مـــن المهاجرين،ولم يبعث رسول الله أحداً من الأنصار مبعثـــاً حتـــى غـــزا بـــهم بدراً،وذلك أنهم شرطوا لـــه أنـــهم يمنعونـــهم فـــى دارهـــم وهـــذا الثـــابت عندنـــا)[٢١].

والجدير ذكره هنا أن كتاب السيرة قد اختلفـــوا حـــول الرجـــل الـــذى كانت إليـــه قيـــادة أول ســـرية،أشـــخصها رســـول الله -(ﷺ)- لمناوشـــة الأعداء فمنهم من قال ان حمزة بن عبد المطلب هـــو الـــذي تولـــي قيـــادة أول سرية في الإسلام و منهم مـــن قـــال إن رســـول الله -(ﷺ)-قـــد ولـــى قيادة هذه السرية لعبيدة بـــن الحـــارث[٢٢] .

---

[٢١] بن سعد الطبقات الكبرى جـ٢/صـ٣،٤- والصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٦/١١.

[٢٢] ابن عبد البر:الدرر صـ٩٦،ابن سعد الطبقات الكبرى جـ٢ صـ٣،٤

ومهما يكن من أمر فإن أول السـرايا التـى أرسـلها النبـى محمـد" ص " هى سرية حمزة بن عبد المطلب علـى الراجـح،تلـك التـى سـيرها إلى سيف البحر ناحيـة العيـص مـن أرض جهينـة وجعـل لـه النبـى-(ﷺ)-لواء اأبيضا دفعه حمزة بن عبد الطلـب"لخليفـة" "أبـو مرثـد كنـاز بن الحصيـن"[٢٣].

فخرج حمزة من المدينة فى مائة وثلاثيـن رجـلاً ليعـترضوا عـيراً (لقريش) عليها "أبو جـهل" فلمـا عرضـوا لـها توسـط بيـن المسـلمين والقرشيين" مجدى بن عمرو الجهنى" فـآتت وسـاطته ثمارهـا،فـانصرف الجمعان دون أن يحدث بينهم قتـال[٢٤]فتكـون هـذه السـرية قـد أكـدت "لقريـش" أن النبـى جـاد فـى رد الاعتـداء الـذى وقـع منـها علـى المستضعفين من المسلمين حين كانوا "بمكـة".ومـن ثـم أخـذت "قريـش" بعد ذلك حذرها من المسلمين كلما أرسلت قافلةً إلـى "بـلاد الشـام".

وثانى السرايا التـى أرسـلها رسـول الله -(ﷺ)-تلـك التـى قادهـا "عبيدة بـن الحـارث بـن المطلـب بـن عبـد منـاف"رضـى الله تعـالى عنه،فالتقى المشركين بقيادة"أبى سفيان" عنـد "رابـغ[٢٥]" ؛ فكـان بينـهم الرمى ،ولم يسـلوا سـيفاً ولـم يصطفـوا للقتـال، وإنمـا كـانت بينـهم

---

[٢٣] حين هاجر إلى المدينة آخى النبى بينه وبين "ابن الصامت" كان إليه حمل الأسارى من مكة إلى المدينة.لقوته التى كانت مضرب الأمثال عند من عرفوه .ابن الأثير أسد الغابة جـ٤/صـ٣٤٤.

[٢٤] ابن سعد الطبقات الكبرى جـ٢/٣،٤ – ابن سيد الناس عيون الأثر جـ١/صـ٣٥٤، صـ٣٥٥.

[٢٥] ميناء حجازية صغيرة تطل على ساحل البحر الأحمر فى موضع متوسط بين مينائى ينبع فى الشمال،وجده فى الجنوب.- أحمد عطية الله :القاموس الإسلامى جـ٢/٤٥٨،٤٥٩.

المناوشة،إلا أن "سعد بن أبى وقاص"رضى الله عنه "رمى بسهم فى سبيل الله؛فكان أول سهم رمى به فى الإسلام فنثر كنانته وتقدم أمام أصحابه وقد تترسوا عنه ؛فرمى بما فى كنانته وكان فيها عشرون سهماً،ما منها سهم إلا ويخرج فيجرح إنساناً أو دابةً،ولم يكن فيهم يومئذ إلا هذا،ثم انصرف الفريقان على حاميتهم.

وفر من الكفار إلى المسلمين"المقداد بن عمرو البهرانى[٢٦]" حليف بني زهرة،و"عتبة بن غزوان[٢٧] المازنى"حليف "بنى نوفل بن عبد مناف"وكانا مُسلمين ، ولكنهما خرجا ليتوصلا بالمشركين[٢٨]

وقد اختلف علماء السيرة فى التاريخ الذى حدثت فيه تلك السرية فمنهم من قال:كانت فى السنة الأولى للهجرة ومنهم من جعل السنة الثانية وقتا لخروجها من "المدينة"[٢٩].

وعلى كل حال؛فإن هذه السرية كالتى قبلها جعلت "قريشاً" تعمد إلى إعادة حساباتها حتى تستطيع التغلب على العقبة التى صارت

---

[٢٦] ابن عمرو بن ثعلبه بن مالك بن ربيعة بن ثومان بن مطودا البهران الكندى أبو الأسود الزهرى،ويقال أبو عمرو ويقال أبو معبد المعروف المقدادى بن الأسود وقيل غير ذلك فى نسبة وكان أبوه لبنى كنده، أخى النبى بينه وبين عبد الله بن رواحه أسلم قديماً فشهد بدراً والمشاهد كلها ، توفى بالجرف سنة ثلاثة وثلاثين هجريه عن سبعين سنة فحمل إلى المدينة ودفن بها - بن حجر تهذيب التهذيب ج/١٠/صـ٢٨٦،٢٨٧.

[٢٧]هاجر إلى الحبشة ،شهد بدراً وما بعدها،روى عن النبى،ولاه عمر فى الفتوح،أنشأ البصرة- توفى عن عمر بلغ سبعاً وخمسين سنة،وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب . ابن حجر :الإصابة /جـ٢/٤٥٥.

[٢٨]) ابن القيم / زاد المعاد/جـ٣/١٦٣ - المقريزى إمتاع الأسماع /جـ٦٦ ، الصالحى : سبل الهدى والرشاد /جـ٦/١١،١٢.

[٢٩] الصالحى: سبل الهدى والرشاد /جـ٦/١٣.

تواجهـــها بعـــد هجـــرة النبـــي -(ﷺ)-؛ فـــأصبح الصـــراع بينـــها وبيـــن المسلمين يقوم على تعمية أخبار قوافلها عليـــهم حتـــى لا تخـــرج جماعـــة ن "المدينة" لاعتراضها وهى متوجهة إلى "بـــلاد الشـــام" أو عـــائدة منـــها ، وكان المسلمون على مُستوى هـــذا الصـــراع أيضـــاً؛فـــإن عيونـــهم لـــم تهدأ فى مراقبة الطريق والحصول علـــى أخبـــار القوافـــل القرشـــية التـــي كان ينجح بعضها فى الإفلات من أيدى جماعـــة المســـلمين الذيـــن خرجـــوا لمناوشتها و تكدير صفو الطريق عليها ،من ذلك هـــذه الســـرية التـــى لـــم تجاوز العشـــرين فـــرداً،تلـــك التـــى أرســـلها رســـول الله-(ﷺ)- فـــى ذى القعدة مـــن الســـنة الأولـــى للـــهجرة،وجعـــل "ســـعد بـــن أبـــى وقـــاص" عليـــها،وأمرهـــم النبـــى محمـــد ألا يجـــاوزوا "الخـــرار"؛فخرجـــوا علـــى أقدامهم؛فكانوا يكمنون بالنـــهار ويســـيرون الليـــل حتـــى صبحـــوا المكـــان صبيحة خمس من الشهر المذكور،فوجدوا العير قـــد مـــرت بـــالأمس[٣٠].

والذى يدلنا علـــى أن كـــلا الفريقيـــن المســـلمين والمشـــركين أجـــهد نفسه فى تعمية أخباره عن الآخرين {هذه السرية التـــى كـــانت فـــى رجـــب سنة اثنتين للهجرة؛فإن الرسول -(ﷺ)-سلك فيـــها ســـبيلاً جديـــداً يخـــالف ما اتبع فى السرايا السابقة فلم يعلـــم أفرادهـــا بالوجهـــة التـــى ســـينيخوا رحالهم عندها ولا المهمة التـــى ســـيقومون بـــها فـــإن النبـــى محمـــداً -(ﷺ)-استدعى قائد هذه الجماعـــة التـــى ضمـــت ثمانيـــة أفـــراد،وأمرهـــم

---

[٢٦] ابن سعد الطبقات /جـ٢/٤،٥- ابن القيم :زاد المعاد/جـ٣/١٦٤- ابن الأثير :الكامل فى التاريخ /جـ٢/١١١.

بالسير مدة يومين دون أن ينظــروا مــا فــى الكتــاب الــذى دفعــه إلــى قائدهم "عبد الله بن جحـــش"[٣١].

ولأن المسلمين جبلوا علـــى الطاعـــة المطلقـــة للنبـــى محمـــد،فـــإن غريزة حب الاستطلاع لم تجد سبيلاً إلـــى أفئدتـــهم التـــى أشـــربت طاعـــة الحبيب محمد وحبه!! فلما انقضى اليومان والجماعـــة فـــى ســـيرها حـــان الوقت الذى يمكنها فيه الوقـــوف علـــى غايتـــها ومعرفـــة وجهتـــها؛فلمـــا فضوا الكتاب الذى أملاه سيد المرسلين وجـــدوا فيـــه:

{ إذا نظـــرت كتـــابى؛فـــامض حتـــى تـــنزل "نخلـــة" بيـــن "مكـــة" و "الطائف" فترصد بها"قريشاً" وتعلم لنا من أخبارهم؛فلمـــا قـــرأ هـــذا الكتـــاب قال:سمعاً وطاعة وأخبر أصحابه بما فى هذا الكتـــاب وقـــال:قـــد نـــهانى أن أستكره أحداً مكنم؛ فمن كـــان يريـــد الشـــهادة ويرغـــب فيـــها؛ فلينطلـــق، ومن كره ذلك فلـــيرجع؛ فأمـــا أنـــا ؛ فمـــاض لأمـــر رســـول الله -(ﷺ)- فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منـــهم أحـــد[٣٢].

ولقد وقف أحد المحدثين أمام هـــذه الرســـالة التـــى زود بـــها النبـــى محمد قائد السرية؛فبين بلاغته فى اختيـــار كلمـــة " ترصـــد " فقـــال إنـــها

---

[٣١] ابن رئاب بن يعمر الأسدى.حليف بنى عبد شمس - أسلم قبل دخول رسول الله -ص- دار الأرقم -هاجر هجرتين إلى أرض الحبشة -أخته زينب زوج النبى .قتل يوم أحد ٠ ابن الأثير :أسد الغابة /جـ٣/صـ٨٩.

[٣٢] الرازى :التفسير /جـ٦/ ٣٠ ،٣٣ -ابن الأثير :الكامل /جـ٢/١١٣/١١٥ - السمهودى :وفاء الوفا /جـ٢/صـ٧ -الخضرى :نور اليقين /صـ٩٨،٩٩.

تعنى استمرار اليقظة وأخذ الحيطة والحـــذر؛ فـــهى بـــهذا أوفـــق للمهمـــة من كلمة (أُرصـــد).

كما أنه بين لنا أن الرسول-(ﷺ)-وهـــو الأمـــى الـــذى علمـــه ربـــه وضح للمسلمين الفرق بين الاســـتطلاع والقتـــال.

فالأول :يبنـــى علـــى التطـــوع،**والثانى** مفـــروض علـــى المقـــاتل ؛ليدافع عن دينه ووطنــــه.

فالرجل الـــذى يقـــوم بمهمـــة الاســـتطلاع إن لـــم يكـــن متطوعـــاً لا يحسن القيام بمهمته؛لأن الأخطار التى تُحيـــط بـــه وقلـــة مـــن معـــه مـــن المرافقين واحتياجه إلى استمرار يقظتـــه واســـتخدام أقصـــى طاقاتـــه فـــى سبيل النجاح ، يجعل التطوع فيها راجحاً علـــى غـــيره[٣٣].

وسار الركب حتى وصلوا مكاناً يســـمى "بحـــران "فـــأضل "ســـعد بـــن أبى وقاص"وعتبة بن غزوان بعـــيراً لـــهما كانـــا يعتقبانـــه ؛ فتخلفـــا فـــى طلبـــه،ومضـــى بقيـــة الركـــب حتـــى نزلـــوا"نخلـــة" فمـــرت بـــهم عـــير "لقريش"فيها "عمر بـــن الحضرمـــى" ومعـــه ثلاثـــة آخـــرون؛فلمـــا رآهـــم القرشيون هابوهم،وقد نزلـــوا قريبـــاً منـــهم؛فـــأطل عليـــهم"عكاشـــة بـــن محصن"[٣٤] وكان قد حلق رأسه؛فلمـــا رأوه أمنـــوا وقـــالوا قـــوم عمّـــار لا بأس عليكم منهم وتشاورت السرية فى أمرهم وكان فـــى آخـــر يـــوم مـــن

---

[٣٣] محمد جمال محفوظ :مقال بمجلة المجاهد / رجب ١٤١٧ هـ عدد ٩٥/١٦،١٧.

[٣٤] ابن حُرثان بن قيس بن مرة بن كثير حليف بنى عبد شمس،شهد بدرا والمشاهد كلها مع النبى محمد،إنكسر سيفه وهو يجاهد به فى سبيل الله فأعطاه النبى سيفاً ليقاتل به فظل عنده ،استشهد فى حروب الردة.- ابن الأثير :أسد الغابة /جـ٣/٥٦٣.

"رجب" ؛فقالوا:والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم ؛فليمتنعن به منكم ولئن قتلتموهم لنقتلهم فى الشهر الحرام؛فتردد القوم،وهابوا الإقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم،وأجمعوا على قتالهم وأخذ ما معهم؛فرمى" واقد بن عبد الله التميمى" "عمر بن الحضرمى" بسهم فقتله وأسروا اثنين وأفلت واحد واستاقوا العير ورجعوا بها وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله -(ﷺ)- [٣٥].

فلما وصلوا إلى "المدينة" لم يجدوا من النبى عليه الصلاة والسلام ترحيباً بفعلهم وأبى أخذ الغنيمة منهم وقد كانت بضائع وأسيرين-كما أسلفنا - ورآها اليهود والمنافقون فرصةً؛ فراحوا يتناولون المسلمين بألسنتهم ؛ فقبَّحوا فعلهم؛لأنهم قاتلوا فى الشهر الحرام مُخالفين فى ذلك ما أجمعت عليه العرب منذ آماد بعيدة وظل المقاتلون يتشوفون ما سيسفر عنه موقف النبى منهم بعد الذى فعلوه فى الشهر الحرام ؛فلم يدع المولى جل علاه المسلمين فى ترقبهم وأساهم وأسفهم على ما فعله إخوانهم "بنخلة "طويلاً؛فنزل جبريل الأمين على سيد المرسلين بآيات الذكر الحكيم التى تحمل الرد على نقض المشركين وبيان أن ما فعلوه بالمسلمين أكبر مما فعله المسلمون عند "نخلة"[٣٦]؛فقال الله تعالى:[يَسْئلُونَكَ عَن الشَّهْر الحَرَام

---

[٣٥] الطبرى:تاريخ الرسل والملوك /ج٢ / ٤١٠ :٤١٢الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٦/١٦،١٧. ابن القيم : زاد الميعاد / ج٣ / ١٦٧ ، ١٦٨ .

[٣٦] ابن سعد: الطبقات الكبرى/جـ٢/٧ -ابن عبد البر :الدرر /٩٩،١٠٠ -ابن حزم :السيرة النبوية/٧٩،٨٠

قِتَالٍ فِيهِ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ والفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ][٣٧].

وعلى كل حال؛ فقد بعثت "قريش"فداء الأسيرين؛فقال رسول الله .لا نفديكموها حتى يقدم صاحبانا يريد "سعد" و"عتبة" فإنا نخشاكم عليهما فأن تقتلوهما نقتل صاحبيكم فقدم " سعد " و " عتبة " سالمين فأفداهما رسول الله؛فأما أحد الأسيرين وهو"الحكم بن كيسان"فأسلم ، وحسن إسلامه وأقام "بالمدينة" حتى قتل يوم"بئر معونة"شهيداً،وأما الثانى وهو"عثمان بن عبد الله بن المغيرة"؛فلحق بمكة ومات بها كافراً[٣٨].

وقبل أن نولى الوجه شطر أمر آخر،لا بد من الإلماح إلى الجديد الذى ميز سرية "ابن جحش"عن سابقتها،وهو من وجوه:

أولاها:أن النبى -(ﷺ)-رأى ألا يخبر أصحابه عن وجهتهم كى لا يتعرض هؤلاء إلى خطر يودى بحياتهم؛ فإنهم ثمانية ، تفصل بينهم وبين "المدينة" مسافات طويلة؛فلا بد والحالة هذه من اخذ المزيد من الحيطة والحذر حتى لا تعلم قريش بأمرهم فيسهل عليها استئصال شأفتهم.

ثانيها:أن هذه السرية ذهبت إلى مكان أبعد من السرايا السابقة ؛فكانت أقرب منها إلى "مكة" مما يدل على تطور الصراع بين الفئتين؛المؤمنة والكافرة فى هذه الفترة المبكرة من حياة المسلمين فى "المدينة".

---

[٣٧] سورة البقرة:الآية رقم ٢١٧.

[٣٨] ابن القيم:زاد المعاد /جـ٣/١٦٧ - الصالحى :سبل الهدى والرشاد/جـ١٩/٦.

ثالثها: أن النبى محمداً -(ﷺ)-لــم يطلــب مــن هــؤلاء النفــر أن يقاتلوا أحداً من "قريـــش" وإنمـــا كـــان ذلـــك بنـــاءً علـــى اجتـــهاد منـــهم لاعتقادهم أن الشهر الحرام قد ولى وذلك عنـــد مـــن قـــالوا إنـــهم ســـاروا في رجب أوائل هلال الشهر المذكور لـــم يظـــهر و هـــذا عنـــد مـــن قـــالوا إنهم ساروا فى أواخر جمادى الآخرة من الســـنة الثانيـــة مـــن الـــهجرة[٣٩] فهم والحالة هذه لم يتعمدوا مُخالفة أمر للنبى ولـــم يقتلـــوا عـــامدين أحـــد القرشيين فى شهر أمَّن الله فيه الآدمييـــــن وهـــو "رجـــب"،بـــل فعلـــوا مـــا فعلوا حين رأوها فرصة تعيد لهم بعـــض حقوقـــهم الســـليبة بـــأخذهم مـــا لدي القوم من بضـــائع.

رابعها: إن هؤلاء لما علمـــوا أنـــهم فعلـــوا أمـــراً عظيمـــا جعلـــهم موضع لوم اللائمين مســـلمين كـــانوا أو غـــيرهم تضرعـــوا إلـــي ربـــهم ، فكان الفرج الذي تمثل في الآيات التي جاء بها جبريل إلـــي النبـــي محمـــد

خامسها: إن هذه الآيات التـــى نزلـــت بســـبب ســـرية"ابـــن جحـــش" بينت للمشركين عظم ما فعلوه من جرم فى حـــق المســـلمين؛ فـــالصد عـــن سبيل الله وهو الإسلام والكفر به والصد عـــن المســـجد الحـــرام أن تـــؤدى فيه الشعائر والمناسك ،وإخراج المسلمين مـــن بلدهـــم وأهليـــهم وأموالـــهم كلها اكبر عند الله ممـــا فعـــل المســـلمون ثـــم أنـــهم مـــع كـــل جرائمـــهم وعقيدتهم سلكوا كل وسيلة ممكنـــة للفتنـــة مـــن وعـــد ووعيـــد وإغـــراء وتعذيب وتجردوا فى هذا مـــن معـــانى الإنســـانية والرحمـــة ولا يزالـــون - وقد فعلوا كل هذه الجرائم.يحـــاولون جـــاهدين فتنـــة المســـلمين وقتالـــهم والتضييق عليهم،فإذا كان المشـــركون يرتكبـــون هـــذه الكبـــائر كلـــها فـــلا

---

[٣٩] الرازى : التفسير /جـ٦/٣١،٣٢ - الألوسي :روح المعانى /جـ٢/١٠٧: ١١١.

جناح على من وقعت عليهم هذه الكبائر والآثام وإن قاتلوهم فى الشهر الحرام(٤٠).

سادسها:إن الآيات التى نزلت بسبب تلك السرية أوضحت للمؤمنين فى جلاء أنه لا إثم عليهم إن قاتلوا فى الشهر الحرام قوما اعتدوا عليهم فتحريم القتال فى الأشهر الحرم ليس على إطلاقه إذ هو مباح شرعاً فى حالة الدفاع عن النفس(٤١).

قال تعالى [الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ،فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيكُم فَاعْتَدُوا عَلَيهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيكُم](٤٢).

يؤيد هذا ما قاله "عطاء" حين سئل عن حكم القتال فى الشهر الحرام،فأجاب بقوله:[الله تعالى ما يحل للناس أن يغزو فى الحرم ولا فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وجعل ذلك حكماً مستمراً إلى يوم القيامة(٤٣).

وعلى كل حال ،فإن المواجهة بين النبى محمد والمشركين انتقلت بعد تلك السرية إلى مرحلة أعنف من سابقتها، أعد فيها كلا الفريقين عدته وحشد لها طاقته،تلك التى تسمى اصطلاحاً عند المؤرخين وكتاب السير بالغزوات.

فمنها ما كان بينه وبين قريش ومنها ما وقع بينه وبين القبائل المحالفة لها أو تلك التى كانت تنازعها السيادة وكانت غزوة بدر أول هذه الغزوات وأعظمها كما سنبينه.

---

(٤٠) أبو شهبة :السيرة النبوية/جـ٢/١٢١/١٢٢.

(٤١) الرازى:التفسير الكبير/جـ٦/٣٢.

(٤٢) سورة البقرة :آية ١٩٤.

(٤٣) ألألوسى:روح المعانى /جـ٢/١٠٩.

الفصل الخامس

من بدر إلى الأحزاب

غزوة بدر الكــبرى

اختلف كتاب السير فيما بينهم حول التاريخ الــذي وقعـت فيــه هــذه المواجهة بين الفئة القليلة المؤمنـــة و الفئــة الكثــيرة الكــافرة ؛ فمنـــهم من ذكر أنه قد كان في الثاني عشر مـــن رمضـــان و منـــهم مـــن قـــال إن ذلك كان في السابع عشر أو التاســع عشــر مــن هــذا الشــهر فــالمجمع علية إذاً أن الثلث الأوسط مـــن هــذا الشــهر الكريــم هــو الزمـــن الــذي حدثت فيه تلك المواجهة عند بدر لأن هــذه الغــزوة مــن أهــم غزواتــه -(ﷺ)-؛ فإنهم ذكروا لها أسماء عدة هي : بــدر القتــال و يــوم الفرقـــان ، و العظمـــي [١] .

أما عن السبب الذي أدى إلـــى نشــوب تلــك المعركــة ؛ فإنـــه فـــي رأيي يعد حلقة من حلقات الصراع الــذي مــيز المجابهــة بيــن المســـلمين و القرشيين منذ هجرة سيد المرســـلين إلــي " المدينــة المنــورة " فكـــان الخروج لاعتراض عير قريش ، كما كـــانت تفعــل الســرايا الســـابقة هـــو السبب المباشر لنشوب غزوة "بدر الكـــبرى " ، و إن تمــيزت هــذه العــير عن سابقتها بكثرة بضائعها ووفرة أعـــداد الذيـــن انخرطــوا فيـــها ؛ فـــإن كتاب السيَرّ يقولون : اشتملت علي ألف بعير فيـــها أمـــوال عظـــام ، و لـــم يبق "بمكة" قرشي و لا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعـــث بـــه فـــي العـــير

---

[١] خليفة بن خياط : تاريخه ص/ ٥٧ ، ابن سعد : الطبقات/ جـ٢/٨ ، الخضري : نور اليقين /. ١٠١ ، ١٠٢

؛ فيقال : إن فيها خمسين ألف دينار و فيـــها ســبعون رجـــلاً كمـــا ذكــر " ابن عقبة " "و ابن عائذ " و قال ابن إســـحاق : ثلاثـــون أو أربعـــون منـــهم "مخرمة بن نوفل" و " عمرو بن العاص" - و أســـلما بعــد ذلـــك - و هـــي التي خرج لها النبي محمـــد حيــن علــم بخروجــها "مــن مكــة " تريــد " الشام" حتى بلغ العشيرة ؛ فوجدها قـــد مضــت [٢] .

والــذي يدلنـــا علـــي أن النبـــي محمــداً -(ﷺ)-أولـــي هـــذه العـــير القرشية عنايته بشـــكل خـــاص ، أنـــه أشــخص (طلحـــة بـــن عبيـــد الله التميمي [٣] ، و سعيد بن زيد بـــن عمـــرو بـــن نفيـــل) يتحسســـان خـــبر العير ؛ فبلغا " التجار" من ارض الحوراء ؛ فـــنزلا علـــي " كشــذ الجـــهني " ، فأجارهما و أنزلهما و كتم عليـــهما حتـــى مـــرت العـــير ، ثـــم خرجـــا و خرج معهما "كشذ" خفـــيراً حتـــى أوردهمـــا ذا المـــروة ، وســـاحلت العـــير و أسرعت ؛ فساروا الليل و النـــهار فـــرارا مـــن الطلـــب ، فقـــدم "طلحـــة" و " سعيد" " المدينة" ليخـــبروا رســـول الله -(ﷺ)-خـــبر العـــير ؛ فوجـــداه قد خرج ، و كان قد ندب المسلمين للخـــروج معـــه و قـــال : (هـــذه عـــير قريش فيها أموال ، لعل الله أن ينفلكموهـــــا)؛ فأســـرع مـــن أســـرع إلـــى ذلك و أبطأ عنه بشر كثـــير [٤].

---

[٢] ابن الإثر:الكامل / جـ٢ / ١١٦، الصالحي : سبل الهدي و الرشاد / جـ٤ /١٨

[٣] (ابن عثمان بن عمرو بن كعب ، يعرف بطلحة الخير ، و طلحة الفياض . دخل الإسـلام بدعوة أبى بكر ، آخي النبي بين أبي أيوب الأنصارى و بين طلحة بعد الهجرة إلى المدينة ، و هو من العشرة المشهود لهم بالجنة ، أسهم له النبي محمد سهماً في غنائم بدر مـــع أنة لم يشهدها الغيابة عن الغزوة بأمر من النبي . و شهد مع النبي محمد سائر المشـــاهد بعد ذلك ، قتل رضوان الله علية في يوم الجمل علي يد أتباع علي كرم الله وجهة .

- ابن الأثير أسد الغابة جـ٢ ص ٤٧٥ ، ٤٧٩

[٤] ابن سعد / الطبقات الكبرى / جـ٢/ ٨ - المقريزي : إمتاع الأسماع / ٧٣ .

فكان عدد من خرج منه ثلاثمائـــة و ثلاثـة عشـر رجـلاً ؛ مائتـــان ونيف،وأربعون من الأنصار والباقون مـــن المـــهاجرين و معـــهم فرســـان و سبعون بعيراً يعتقبونـــها .

فكان رسول الله -(ﷺ)-و" علـي بـن أبـى طـالب " و" أبـو لبابـة" علي بعير ، و لما رد " أبا لبابة " كـان ثالثـهما " مرثـد بـن أبـي مرثـد الغنوي " و ضرب رسول الله مع صاحبيه غايـة العـدل و الرحمـة ، ذلـك أنه لما جاءت نوبته في المشي قالا لـه : نحـن نمشـي عنـك . فقـال : " ما أنتما بأقوى مني و لا أنا بأغنى عن الأجر منكمـا " و كـان"أبـو بكـر" و عمر " وعبد الرحمن بن عـوف " يعتقبـون بغـيراً و كـان "حمـزة" و " زيد بن حارثة " و " أبو كبشـة" و "انـس " يتعـاقبون بعـيراً . و الحـامل للواء " مصعب بن عمـير" العبـدرى.[*]

ولعل السبب في قلة عدد من خـرج مـع النبـي محمـد -(ﷺ)-مـن المسلمين راجع إلى أنه -(ﷺ)-ذكر في المسـلمين المدنييـن أنـه خـرج يريد القافلة .. و هذا العدد يشكل و الحالة هـذه غالبيـة عديـة يمكنـهم من حيازة القافلة إن نجحوا في اعتراض طريقـها و الظفـر بـها.

و لنا أن نتساءل عـن الجديـد الـذي دعـا الأنصـار للخـروج مـع المهاجرين في هذه المرة دون سوابقها مـن السـرايا وهـم يعلمـون انـه لا حرب كما أشـرنا ؟

و الجواب : أن المصادر التي بين يدي لم تكشـف لـي النقـاب عـن إجابة لهذا التساؤل بالرغم من كثرتها و تنـوع هويـة مـن كتبوهـا

---

[*] الطبري : تاريخ الرسل و الملوك / جـ٢/ ٤١٢، ٤٢٢.ابن الأثـير : الكـامل / ج٢ / ١١٨،١١٩محمد الخضري:نور اليقين / ١٠٢، ١٠٣أبو شهبة السيرة النبوية/ ج٢/ ١٢٤

و مع هذا فإني أرى أن خروج الأنصار مع المهاجرين يعزي إلى ثمار المؤاخاة التي أسس لها النبي محمد بين المهاجرين و بينهم بلغت مداها من النضج فشعروا بالآلام التي يعاني منها المهاجرون نتيجة الظلم البين الذي نزل بهم من القرشيين فيكون و الحالة هذه قد أسهموا مع إخوانهم في رد اعتداء وقع عليهم من المشركين .ليس هذا فحسب بل لعل السبب في انضمام الأنصار للمسلمين المهاجرين في هذا الخروج ما رأوه من اهتمام سيد المرسلين بأمر هذه القافلة القرشية و كيف أن المهاجرين علقوا عليها آمالا عريضة من أجل الحصول علي حقهم المسلوب فكان الأنصار كما هو بين بالنسبة للمهاجرين كثرة عددية ، و لا عجب في ذلك ؛ فإن لهم الكثرة بصفتهم سكان البلاد الأصليين يضاف إلى ما تقدم أن الأنصار ربما يكونوا فهموا من قول النبي محمد -(ﷺ)-للمسلمين حين ندبهم للخروج أنهم داخلون فيه إذ هو لم يخص المهاجرين بالذكر ؛فكان قوله في المسلمين عاماً لذلك لبوا النداء، و مما يَدْعَمُ ما ذهبت إليه هنا أن النبي محمداً لما رآها حربا ستقع بين الذين خرجوا و القرشيين شاور القوم في الأمر و رغب في معرفة رأي الأنصار خاصة في الحرب . فلولم يكن هذا الفهم موجودا في ذهن الأنصار الذين خرجوا ما كانت هُنَاك ضرورة للوقوف علي رأيهم في هذا الموقف العصيب .

و مهما يكن من أمر فإن "أبا سفيان " قد تـأكد مـن خـروج محمـد- (ﷺ)-لاعتراض عيره العـائدة مـن " الشـام" إلـى " مكـة" ، فاسـتأجر " ضمضم بن عمرو الغفارى" بعشـرين مثقـالا ليبعثـه إلـى مكـة ودخلـها و قد شق قميصه ، و جدع أنف ناقته ، و حـول راحلـة فركبـها معكوسـا كهيئة من ينذر عشيرته أمرا خطيرا ، وهو يصـرخ : يـا معشـر قريـش ، الغوث ! و تجمع حوله الناس ،فقال صائحاً: (القافلـة قـد عـرض لـها محمد و أصحابه، ولا أدري أن تدركوهـا " أبـو سـفيان" أرسـلني إليكـم قبل أن تذهب أموالكم .[1]فزعت قريش فزعـاً شـديداً بعـد الـذي سـمعت من" ضمضم" وذلك لأمريـن :

أولهما : أن القافلة كما ذكرت كان بها جـل أمـوال قريـش فمعنـى أن يحوزها محمد، أن يصيبـها الفقـر الشـديد اللـذي لا يمكـن جـبره ، ناهيك عن الآثار السيئة التي تضر بسيادتها علـى العـرب إن نـالت هـذه الفئة الضعيفة هذه الأموال من قريـش القويـة.

الآخر : أن هذا القـول الـذي قالـه فيـهم " ضمضـم" كـان تصديقـاً لرؤية ، ذكر رواة السيرة أن" عاتكة بنـت عبـد المطلـب " : رأتـها قبـل مجيء "ضمضم" إلي "مكة" بثلاثـة أيـام ؛ فاسـتدعت أخاهـا " العبـاس " فقالت له يا أخي : لقـد رأيـت الليلـة رؤيـا أفزعتنـي !! ليدخلـن علـى قومك منها شر و بلاء !! فقال ومـا هـي ؟ . قـالت : لـن أحدثـك حتـى تعاهدني أنك لا تذكرهـا ؛ فإنـها إن سـمعوها آذونـا و اسـمعونا مـا لا

---

[1]ابن هشام : سيرة النبي / جـ٢ / ٢٤٤ ، الصالحي سبل الهدي و الرشاد / جـ٤ / ١٩

نحب ؛ فعاهدها " العباس " ؛ فقالت :رأيت رجـــلاً اقبــل علــي بعــير فــوق الأبطح ؛ فصاح بأعلى صوته : انفروا يا آل غــدر لمصـــارعكم فــي ثــلاث و صاح ثلاث صيحات فأري الناس اجتمعــوا إليـــه ، ثــم إن بعــيره دخــل به المسجد ، واجتمع إليه الناس ، ثـــم مـــال بــه بعــيره فــإذا هــو رأس الكعبة ؛ فصاح ثلاثة صيحات : فقـــال : انفــروا يـــا آل غــدر لمصـــارعكم في ثلاث ، ثم أخذ صخرة عظيمة ؛ فنزعـــها مـــن اصلـــها فأرســلها مــن رأس الجبل ؛ فأقبلت الصخرة تهوي لـــها حــس شــديد ، حتــى إذا كــانت في أسفل الجبل ارتطمـــت فمـــا بقيــت دار مـــن دور قومــك و لا بيــت إلا دخل فيه فلقة . قال "العبـــاس" : و الله إن هــذه لرؤيـــا !! فاكتميـــها قـــالت : وأنت فاكتمها ،. لئن بلغت هـــذه قريشـــا ليؤذوننـــا ، فخـــرج " العبـــاس" من عندها فلقي " الوليد بن عتبة"؛فتحـــدث بـــها ، وفشـــا الحديــث بمكـــة حتى تحدثت بـــــه " قريـــش " فـــي أنديتـــها ؛ فلمـــا رأي " أبـــو جـــهل " " العباس " قال له : يا بني عبد المطلب " .متي حدثـــت فيكـــم هـــذه النبيـــة ؟ فقال " العباس" : وما ذاك ؟ قال : رؤيا "عاتكه" وقـــال : ومـــا رأيــت قـــال " أبو جهل " : ما رضيتم " يا بني عبد المطلـــب " أن يتنبـــأ رجـــالكم حتـــى يتنبأ نساؤكم ؛ فقد زَعمت "عاتكة " فـــي رؤياهـــا أن رجـــلا قـــال : انفـــروا ثلاث ؛ فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يـــك حقـــاً مـــا تقـــول فســـيكون وأن تمض الثلاث و لم يكن من ذلك شيء . كتبنـــا عليكـــم كتابـــا أنكـــم أكـــذب أهل بيت في العرب . قال " العباس" : فلما أمســـيت لـــم تبـــق امـــرأة مـــن بني عبد المطلب إلا اتتني ؛ فقـــالت : أقررتـــم لـــهذا الفاســـق الخبيـــث أن

يقع في رجالكم ثم قد تناول نساءكم و أنت تستمع ، ثـم لـم يكـن عنـدك كبير شيء مما سمعت ، قلت : قد والله فعلت ، ما كـان منـي إليـه كبـير شيء ، وأيم الله لا تعرضن له ؛ فـإن عـاد لأكفينكـه ، قـال " العبـاس " فلما كان اليوم الثالث من رؤيا " عاتكة" و أنـا حديـد مغضـب أري أن قـد فاتني من عدو الله أمـر أحـب أن أدركـه منـه. قـال: فدخلـت المسـجد فرايته فوالله إني لا مشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض مـا قـال فـأقنع بـه ، و كان رجلاً خفيفاً ، حديد الوجه ، حديد اللسـان ، حديـد النظـر . قـال العباس : إذا خرج نحو المسجد قال ، فقلت فـي نفسـي مالـه ، لعنـه الله ، أكل هذا فراراً من أن أشاتمه فإذا هـو علـي ذلـك الحـال حتـى سـمع صوت "ضمضم" بما أسلفنا الحديـث عنـه . (٧)

وعلي كل حال ؛ فإن قريشـاً لمـا ذكرنـاه مـن الأسـباب اسـتنفرت رجالها ليحملوا السلاح حتى يقصـدوا محمـدا لاسـترداد أموالـهم ، ولـم يتخلف عن الخروج معهم سوي " أبي لهب" الـذي تخلـف عنـهم و بعـث مكانة " العاص بن هشـام بـن المغـيرة" اسـتأجره بأربعـة آلاف درهـم كانت عليه ، قد أفلس بها, و تـردد " أميـة بـن خلـف" فـي الخـروج ، و كان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً ؛ و ذلك أنـة سـمع مـن صديقـه " سـعد بن معاذ" . و قد ذهب إلي " مكة " معتمرا بعد الـهجرة أنـه سـمع رسـول الله -(ﷺ)-يقول : إنهم قاتلوك !! قـال : بمكـة ؟ قـال " سـعد " لا أدري

---

(٧) ابن الجوزي : المنتظـم/جـ٢/٢٠٩-٢١٠ - الصـالحي : سـبل الـهدي و الرشـاد جـ٤/٢٠،٢١ .

. فلما حصل الاستنفار تذكر هذا و داخله رعب شديد ولكن الله إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب ؛ فلم يلبث " أبو جهل " وقد علم بخبر تخلفه أن جاءه ومعه " عقبة بن أبى معيط "، و بيد الأخير " مجمرة فيها بخور " ، ومع " أبى جهل " مكحلة ومِرْوَدْ ؛ فوضع عقبةُ المجمرة بين يديه و قال لي : يا أبا علي ، استجمر ؛ فإنما أنت مثل النساء ، و قال "أبو جهل " أكتحلْ أبا علي ؛ فإنما أنت امرأة ؛ فلم يجد بدا ، وقد استثار حميته بهذا الكلام الجارح لرجولته إلا أن قال لهم : ابتاعوا لي أجود بعير" بمكة " وخرج معهم وفي نيته أن يرجع بعد قليل متسللاً ، و لكن منيته ساقته إلي حتفه رغم أنفه [٨] .

وقد ضم جيش المكيين الذي خرج للقاء محمد -(ﷺ)-، ما بين تسعمائة وخمسين ، و ألف رجل ، معهم مائة فرس و سبعمائة بعير ، وقد قادهم "أبو جهل " وهم في بطر ورئاء ، لا يداخلهم شك في أن النصر بين أيديهم ، و أنهم سيؤوبون إلي بلادهم فرحين مفتخرين بالنصر الذي أحرزوه علي المسلمين . و الذي يدلك علي أن هذا الشعور قد تملك عليهم أفئدتهم ، أن" أبا سفيان " حين أرسل إليهم " قيس بن امرئ القيس " يخبرهم بنجاة قافلتهم من أيدى محمد -(ﷺ)- و أنه لا جدوي من خروجهم ، و نصحهم بالعودة إلى ديارهم . قال أبو جهل : (و الله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم ثلاثاً فننحر الجزر

---

[٨] ابن هشام : السيرة النبوية /جـ٢ /٤٧- إبن الجوزي : المنتظم /جـ٢/٢١٠ ، أبو شهبه: السيرة النبوية جـ٢/١٢٦ .

و نطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ؛ فلن تزال العرب تهابنا أبدا ، وعاد "قيس " إلي أبى سفيان وقد بلغ " الهدة " – علي تسعة أميال من "عقبة عسفان " فأخبره بمضي" قريش " ؛ فقال : وا قوماه !! هذا عمل " عمرو بن هشام " (يعني أبا جهل) . كره أن يرجع لأنه ترأس علي الناس ؛ فبغي ، و البغي منقصة وشؤم . إن أصاب محمد النصر ذللنا[١]

وهكذا نري قريشاً تسمع لكلام طاغيتها و تستمر في السير علي طريقها إلي " بدر " و لم يكن المسلمون علموا بخروجهم و استمروا يتشوفون أخباراً تأتيهم عن العير التي يقودها "أبو سفيان " .

فبعد خروج النبي ومن معه من " المدينة" في الثاني عشر من رمضان سنة اثنتين من الهجرة و استخلافه عليها " عبد الله بن أم مكتوم" ليصلي بالناس ، و استمروا في سيرهم حتى كانوا علي مقربة من " بدر " فاستوقف النبي وأبو بكر الصديق أعرابيا يقيم في المكان فسأله عن قريش و عن محمد و أصحابه و ما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما ! . فقال له رسول الله – (ﷺ)– (إذا أخبرتنا أخبرناك ؟) فقال الشيخ ذاك بذاك ؟.قال نعم . قال الشيخ : (فإنه قد بلغني أن محمداً و أصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ؟ فإن كان صدق الذي اخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي به رسول الله –(ﷺ)–و بلغني أن "قريشاً" خرجوا يوم كذا

---

[١]الطبري : تاريخ الرسل و الملوك / جـ ٢/٤٢٤ المقريزي : إمتاع الأسماع / ٧٨، ٧٩

وكذا ، فإن كان الذي أخـــبرني صـــدق فـــهم اليـــوم بمكـــان كـــذا و كـــذا، للمكان الذي به قريش) ، فلما فرغ من خبره ؟ قـــال ممـــن أنتمـــا ؟ فقـــال رسول الله -(ﷺ)- (نحن من ماء ثم انصـــرف) فقـــال الشـــيخ : مـــاء ؟ ما ماء ؟ أمن ماء بـــالعراق ؟[١٠]

ثم رجع رسول الله إلي أصحابه ، فلما أمسي بعـــث " عليـــاً بـــن أبـــي طالب " " و الزبير بن العوام "، "وسعد بـــن أبـــي وقـــاص " يلتمســـون لـــه الخبر " ببدر " ، فأصابوا راويـــة " لقريـــش " فيـــهم " أســـلم " غـــلام مـــن بني حجاج " وأبو يسار" غلام بني العـــاص . فـــأتوا بـــهما النبـــي -(ﷺ)- و هو قائم يصلـــي ، فســـألوهما ، فقـــالا : نحـــن ســـقاة قريـــش بعثونـــا نسقيهم من الماء ؛ فكره القوم خبرهمـــا و ضربوهمـــا ، ليخبروهمـــا عـــن " أبي سفيان " فقـــالا : نحـــن " لأبـــي ســـفيان " فتركوهمـــا . فلمـــا فـــرغ رسول الله -(ﷺ)-مـــن الصـــلاة و قـــال :إذا صدقـــاكم ضربتموهمـــا و إذا كذباكم تركتموهما ، صدقا ، إنهما لقريش ، أخـــبراني أيـــن قريـــش ؟ قـــالا : هم وراء هذا الكثيب الذي تـــري بـــالعدوة القصـــوى . فقـــال رســـول الله -(ﷺ)- : كم القوم . قالا كثير . قـــال كـــم عدتـــهم ؟ . قـــالا : لا نـــدري . قال : كم ينحرون ؟. قالا يوما تسعاً و يومـــا عشـــراً . قـــال :القـــوم بيـــن تسعمائة إلي الألف . ثم قال لـــهما : فمـــن فيـــهم مـــن اشـــراف قريـــش ؟ قالا :" عتبة " و" شيبة" إبنا ربيعة و" الوليـــد"و" أبوالبخـــتري " بـــن هشـــام ، و " حكيم بن حزام " ، و الحـــارث بـــن عـــامر ، و"طعيمـــة بـــن عـــدي "

---

[١٠] ابن سيد الناس : عيون الأثير / جـ١ / ٣٨٧

و النضر بن الحارث " و " زمعة بن الأســـود " و "أبـــو جـــهل " و " أميـــة بن خلف " و غـــيرهم .

فأقبل رسول الله -(ﷺ)-علي أصحابـــــه و قـــال : هـــذه " مكـــة" قـــد ألقت إليكم أفلاذ [١١] أكبادهـــا .

فلما رأي النبي محمـــــد-(ﷺ)-أن عـــير " أبـــي ســـفيان " قـــد فـــاتت المسلمين و أن قريشاً جاءتهم بالجمع الغفير و أنــــه لا منـــاص مـــن نـــزال يكون له ما بعده بين المســـلمين والمشـــركين جمـــع أصحابـــه ليشـــاورهم في الأمر و أي أمر اصعب مما هم فيه ، فـــإن المســـلمين الذيـــن خرجـــوا ما كانوا للحرب مســـتعدين، فغايـــة مـــا كـــانوا يتوقعونـــه مـــن خروجـــهم نشوب نزال بينهم و بين الفريق الذي يتولـــي حراســـة القافلـــة القرشـــية. فلما اجتمع الخارجون بأمر من النبـــي عـــرض عليـــهم الأمـــر و أخـــبرهم بأنه لا مناص من حرب بينهم و بين " قريش " ، قـــام " أبـــو بكـــر " ثـــم " عمر" فتحدثا كلاهما بكلمات حاملة التأييد لكل قـــرار يتخـــذه النبـــي محمـــد وانهم علي استعداد للتضحيـــة بـــالنفيس ، و الرخيـــص ، و هـــم ينفـــذون أوامر النبي محمد -(ﷺ)-فلما فرغـــا مـــن كلامـــهما قـــام " المقـــداد بـــن الأسود " فقال : يا رسول الله أمض لمـــا أمـــرك الله ؛ فنحـــن معـــك ، والله (لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموســـى : (اذهـــب أنـــت و ربـــك فقـــاتلا

---

[١١] الطبري : تاريخ الرسل و الملوك / جـ٢/ ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ابن الأثير : الكامل / جـ ٢ / ١١٩ ، ١٢٠ . المقريزي : إمتاع الأسماع / ٨٣ ، ٨٤ - الخضري : نـــور اليقيـــن / ١٠٥ .

إنا ها هنا قاعدون) و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلي برك الغماد " يعني "مدينة باليمن " لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .(١٢)

فدعا لهم بخير ثم قال -(ﷺ)-أشيروا علي أيها الناس ، و إنما يريد الأنصار لأنهم كانوا عدد الناس ، و خاف أن لا تكون الأنصار تري عليها نصرته إلا ممن دهمه " بالمدينة" و ليس عليهم أن يسير بهم . فقال له " سعد بن معاذ " : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ، قال : قد آمنا بك وصدقناك أي ما كان و أعطيناك عهودنا ؛ فامض يا رسول الله لما أمرت ؛ فوالذى بعثك بالحق ، أنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله (١٣) !!

و بعد هذه العبارات التي نطق بها " سعد بن معاذ " و التي أكدت للنبي محمد-(ﷺ)-أن الأنصار سيلقون عدو الإسلام مع المهاجرين بغض النظر عما نصت عليه بيعة العقبة الثالثة ، من انهم لا يدافعون عن النبي محمد إلا إذا كان بين ظهرانيهم و قد أعتدي عليهم معتد في دارهم ..أمر النبي محمد المسلمين بالسير إلى " بدر "ليلقوا عدوهم

---

(١٢)ابن الأثير : الكامل /جـ٢ /١٢٠ - محمد رضا : محمد رسول الله / ١٦٣، ١٦٤ الخضري : نور اليقين / ١٠٣ بمطالعة بن هشام جـ٢ ص٢٥٣ لم أقف علي نص مقولة الفاروق و الصديق .

(١٣)ابن هشام:سيرة النبي / جـ٢/٢٥٤، ٢٥٥-ابن القيم : زاد المعاد /جـ٣/١٧٣ ، إ الأسماع / ٨٢ .

هناك ، فساروا في طريق لم يألفوه ، و تحملوا من وعثاء السير ما لم يعهدوه ؛ فقد مروا بأرض سبخة كثيرة رمالها ، منعدم ماؤها تجهد الخيول و الإبل " فما بالنا وجُل المسلمين يسير على الأقدام لقلة ما معهم من الظهور التي تحملهم فغلبهم النوم ، فاستيقظوا ؛ فكان منهم الجنب و الذي يريد الوضوء للصلاة ، و علموا أن قريشاً سبقتهم إلى الماء ، فعسكرت عنده ، فتمثل لهم الشيطان و قال لهم : (أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق و أنكم تصلون على غير وضوء على الجنابة ، و قد عطشتم ، و لو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء ، و ما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش ؛ فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا و ساقوا بقيتكم إلى " مكة " ؛فحزن المسلمون حزنا شديداً و أشفقوا ، فأنزل الله عز وجل المطر ؛ فمطروا ليلا حتى جري الوادي ، و اتخذ رسول الله -(ﷺ)- و أصحابه الحياض على عدوة الوادي و سقوا الركاب ، و اغتسلوا و توضئوا و تلبد الرمل الذي كان بينهم و بين العدو حتى تثبت عليه الأقدام،وزالت وسوسة الشيطان،و طابت النفوس [١٤] وقد صدق الله العظيم الذي قال في كتابه الكريم " إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ

---

(١٤) الزمخشري : الكشاف : /جـ٢/٢٠٤ - الرازي : تفسيره / جـ١٥/١٣٨ ، ١٣٩ ابن القيم : زاد المعاد /جـ٣/١٧٥ - القرطبي : الجامع لأحكام القرآن / جـ٤ / ٢٨٩٧ : ٢٨٩٩ . أبو شهبه : السيرة النبوية /جـ٢ / ١٣٣ .

يَنَزِلُ عَلَيْكم مِنَ السَمَاءِ مَاءً لِيطَهِرَكم بـــه وَ يذهِـبَ عَنكُـمْ رِجْــزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرَبِطَ عَلَي قَلَوبكم وَ يُثَبَت بـــهِ الأَقْــدَامَ " [١٥]

و من نافلة القول الإشارة إلى أن ما حـــدث للمســلمين مـــن معجــزة أذهبت عنهم رجز الشيطان ووساوســه ، و جعلــهم يســيرون مــع النبـــي محمد -(ﷺ)-و قد ارتفعت معنوياتهم و ساروا في شـــوق للقــاء عدوهــم حتى يجهزوا عليه ليرضوا بذلك ربـــهم ثـم نبيـــهم ، فـــنزل بـــهم النبـــي محمد -(ﷺ)-بعد ذلك عند ادنـــي مـاء بـدر فتقــدم إليــه " الحبــاب بــن المنذر " فـــي أدب جــم ســائلا رســول الله -(ﷺ)- (أمـــنزلاً أنزلكـــه الله ليس لنا أن نتقدمه و لا نتأخره ، أم هو الـــرأى فـــي الحـــرب ، قـــال بـــل هو الرأى و الحرب ، فقال : يا رسول الله ، فإن هـــذا ليـــس لـــك بمـــنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدني مـــاء مـــن القـــوم ، ففعـــل فـــنزل عليـــه ، وأمر بالقليب فغورت ، وبني حوضا علي القليب الـــذي كـــان عليـــه ، ثـــم قذفوا فيه الآنية و مُلئت بالماء ثم قاتلو القـــوم . فقـــال " ابـــن الحبـــاب " : و نشرب و لا يشربون ، فقال رســـول الله -(ﷺ)-لقــد أشــرت بـــالرأى ، و قيل إن جبريل نزل علي النبي -(ﷺ)-فقـــال : الـــرأى مـــا أشـــار بـــه " الحبـــاب " [١٦]

وهكذا رأينا النبي محمداً يضرب للقادة علـــي مـــرور العصـــور المثـــل الرائع في الاستماع للرأي الآخر و لو كـــان هـــذا ممـــن هـــو دونـــهم فـــي

---

[١٥] سورة الأنفال : آية ١١

[١٦] ابن الجوزي : المنتظم /جـ ٢ / ٢١٣ ، ٢١٤

ابن الأثير : الكامل / جـ٢ /١٢٢ ، ١٢٣ الصالحي : سبل الهدي و الرشاد / جـ٤/٣٠ باشميل : الغزوات الكبرى / جـ١ /١٤١ ، ١٤٢

المرتبة ،فلعل رأياً صالحاً يكون فيه ما ينقذ الرعية من ضرر يلحقها بهزيمة تصيبها و تجعل الأعداء يحوزون أموالها و يقتلون رجالها فلا عيب أن يقلع القائد عن رأيه إلى رأى الأخر ما دام فيه خير للأمة ،وما كان للحباب أن يتقدم إلى رسول الله -(ﷺ)-فيقول ما يقول له إلا إذا كان علي علم بالمكان ،ما يبرز لنا مدي حاجة القادة إلى الوقوف علي جغرافية الأرض التي يحاربون عليها حتى يفيدوا من كل بقعة بها فيجعلوا منها سلاحاً يساعدهم في الإجهاز علي عدوهم لا يقل فاعلية عن السلاح الذي يضربون به وجوه مناوئيهم ، كما أن هذا الموقف يبرز لنا حقيقة لا سبيل إلي إغفالها ، وهي أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا علي فهم حقيقي لطبيعة النبي و شخصيته فهو بشر يجتهد فيما لم ينزل به وحي ، و هو مأمور تجب طاعته ممن آمنوا به في كل ما جاء به الوحي من أوامر و نواهي .

و هنا تأتى أهمية المشاورة و الحوار اللذين أصّلهما في المسلمين النبي محمد -(ﷺ)-حتى يدربهم علي القيادة دون استئثار بالرأى ؛ فالجماعة تشقي ان سارت برأي الفرد وحده و صدق الله العظيم الذي قال لنبيه :" وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ" [١٧]

لم يكن من المقبول أو المعقول أن تخوض " قريش " غمار حرب ضد المسلمين بعد ما جاءت إلى بدر دون الوقوف علي عدد

---

[١٧] سورة آل عمران آية ١٥٩ .

رجالات الجيش الإسلامى الذي يواجهونه و كـم السـلاح الـذي يتسـلحون به فذلك أمر طبيعي تقوم به الجيوش قبل بـدأ القتـال .

و قد سبق للنبي محمد أن أرسـل عيونـاً لـه لتوقفـه علـي خـبر العير و القوم قبل أن يتخذ قرار المواجهة الحربية كما أشـرنا إلـى ذلـك

فأرسلت قريش خبيرها العسكري " عمير بـن وهـب " الـذي طـاف بالمعسكر الإسلامى مستخدما مـن وسـائل التعميـة علـي المسـلمين مـا يكفل له النجاة و العودة إلى قبيلته سالما . فلما رجـع إليـهم سـألوه عـن ما رأى قال : لهم عبارات لا ينطق بها إلا خبـير بـالحرب عليـم بطبيعـة الجند ، يصدق قومه في قولـه ونصحـه فقـال لـهم : القـوم ثلثمائـة أن زادوا (زادوا) قليلاً ، معـهم سـبعون بعـيرا و فرسـان ، ثـم قـال : يـا معشر "قريش " البلايا تحمل المنايا ، نواضـح " يـثرب " تحمـل المـوت ، قوم ليسـت لـهم منعـة و لا ملجـأ إلا سـيوفهم ، ألا ترونـهم خرسـا لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعى ، و الله مـا أري أن يقتـل منـهم رجـل حتى يقتل منكم رجلاً ؛ فإذا أصابوا منكـم مثـل عددهـم فمـا خـير فـي العيش بعد ذلك فـروا رأيكـم [١٨]

كادت تؤتي هذه الكلمات الصادقة التي قالـها " ابـن وهـب" ثمارهـا في أنفس المشركين حين قال " حكيم بن حـزام " ، " لعتبـة بـن ربيعـه " : (يا " أبا الوليد " ؛ إنك كبير قريـش و سـيدها ؛ هـل لـك أن لا تـزال تذكر في قريش بخـير إلـي آخـر الدهـر ؟ قـال : ومـا ذاك ؟ - قـال :

---

[١٨] المقريزي : إمتاع الأسماع / ٨٧ ، ٨٨ ، باشميل : الغزوات الكبرى / جـ٢/١٤٣

[١٩] ابن الأثير : الكامل جـ ٢/ ١٢٣ ، ١٢٤ .

ترجع بالناس و تحمل دم حليفك "عمـــرو بـــن الحضرمـــي " ، قـــال : قـــد فعلت علي دمه وما أصيب من ماله ، فقام "عتبـــة" فـــي النـــاس ، فقـــال : إنكم مــــا تصنعـــون بـــأن تلقـــوا محمـــداً واصحابـــه شـــيئاً ، و الله لئـــن أصبتموهم لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكـــره النظـــر إليـــه قتـــل ابـــن عمه أو ابن خاله أو رجالاً مـــن عشـــيرته) .

فلما وقف " أبو جهل " علي تلك المســـاعي الخـــيرة التـــي أراد بـــها عقلاء قريش حقن دماء المقاتلين ! بعدما انتفـــي الداعـــي الـــذي يدعوهـــم إلي خوض الحرب ؛ فقـــد نجـــت قافلتـــهم ، أخـــذ يُحمـــس النـــاس علـــي المطالبة بثأر " ابن الحضرمي " من محمـــد و أصحابـــه ، و انتصـــر رأيـــه الشيطاني علي الرأى الآخـــر و احتشـــد المعســـكران ليخوضـــا غمـــار أول حرب كبري في تاريخ الدولـــة الإســـلامية[١٩] .

و لقد كـــان المســـلمون علـــي مســـتوي المســـئولية الحربيـــة حيـــن صاروا وجها لوجه أمام جحافل الشرك يرقبـــون بأعينـــهم صنـــاديد الكفـــر و هم يتنمرون لهم و يريدون الفتك بالنبي محمـــد ثـــم اســـتئصال شـــأفتهم فرأوا أن النبـــي محمـــدا بصفتـــه الرســـول و القـــائد لا ينبغـــي أن يكـــون واحدا منهم في ميدان الوَغَى ، بـــل عليـــهم أن يعـــدوا لـــه مكانـــاً خاصـــاً يرقب منه سير الحرب ؛ فيصدر فيه الأوامـــر إلـــى المســـلمين مـــا يكفـــل لهم تحقيق النصر علي عدوهم و توجيههم إلـــى مـــا فيـــه صـــلاح أمرهـــم في ميدان حربهم للمشركين ؛ فتقدم " ســـعد بـــن معـــاذ " إلـــى رســـول الله

قائلا له : (يا رسول الله نبني لك عريشـــا مــن جريــد ؛ فتكــون فيــه و نترك عندك ركائبك ثم نلقي عدونا فــان أعزنــا الله و أظــهرنا الله عليــهم ، فكان ذلك مما أحببنـــاه ، و أن كــانت الأخــرى جلســت علــي ركــائبك فلحقت ما ورائنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقــوام مــا نحــن بأشــد حبــاً لك منهم ، و لو ظنوا انك تلقـــي حربــاً مــا تخلفــوا عنــك ، يمنعــك الله بهم،يناصحونك و يحاربون معـــك ، فــأثني عليــه خــيراً)[٢٠] فلمــا تمــم القوم إقامة العريـــش قــام " أبــو بكــر " و " ســعد بــن عبــادة " علــي حــراسته ،وهنا نجد آيــةً جديــدةً أيــد الله بــها المؤمنيــن فــي " بــدر " تضاف إلى ما أومأنا إليه من نزول المـــاء علــي المؤمنيــن حيــن كــانوا في أمس الحاجة إليه ،ذلك أن المســلمين لمــا اختــاروا طريــق مواجهــة المشركين ، قرروا ذلــك وهــم يعلمــون التفــاوت العــددي بيــن الفئتيــن المؤمنــة و الكــافرة ؛ فــأراد الله ألا يــدع للشــيطان ســبيلا إلــى أفئــدة المؤمنين ليوسوس لهم وهـــم فــي ميــدان المعركــة بمــا يخذلــهم عــن المضي قدماً في حربهم ؛ لانــهم قلــة و أعدائــهم كــثرة فــأرى الله نبيــه تلك الكثرة قلة . فما اخــبر المؤمنيــن بقلــة عــدد المشــركين صدقــوه و فرحوا فرحا شديداً فزادت أفئدتهم ثباتا علـــي ثباتــها .

---

[٢٠] ابن الجوزي : المنتظم / جـ٢ / ٢١٤

ابن القيم : زاد المعاد / جـ٣ / ١٧٥ ، ١٧٦ .

ابن سيد الناس : عيون الأثير / جـ١/ ٣٩٠ ، ٣٩١

و لكي يزداد المشـــركون ضعفــاً أراهــم الله المســلمين فــي كــثرة عددية تفوق الأعداد التي جاءت معهم من " مكة" إلـــى " بــدر " ومــا ذلــك إلا ليُحق الله الحق و يبطل الباطل فـــهذا " ابــن مســعود " يقــول لرفيقــه وهو في ميدان الحرب أتراه مس (يعنـــي المشــركين) ســبعين ؟ فقــال : أراهم مائة،وهذا هو " أبو جهل " قـــد كــان يــري المســلمين حيــن قــدم المشركون إلى " بدر" أكلة جذور واحد ؛ فــإذا بــه حيــن تنشــب المعركــة يراهم أضعاف عدد قومه[٢١] (لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْــرًا كَــاَنَ مَفْعُــولاً)[٢٢]

و قــد صــدق الله العظيــم إذ قــال فــي القــرآن الكريــم : " إِذْ يُرِيكَهُم الله فى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَ لَــو أَرَاَكَــهَمُ كَثَــيراً لَفَشِــلْتُم وَلَتَنَــاَزَعتُم فِى الأمرِ وَ لَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمُ بِــذَاتِ الصَّــدورِ وَ إِذ يُرِيكُمُوهُــم إِذَ التَقَيتُم في أَعْيُنِكُمِ قَلَيلاً وَ يُقَلِّلُكُــمْ فِــى أَعَيُنُــهِمِ لِيَقْضِــي اللهُ أَمَــراً كَاَنَ مَفْعُولاً . وَ إِلىَ اللهِ تُرَجَــعُ الأمُــورُ"[٢٣] .

---

[٢١] قلل الله المسلمين في أعين المشركين قبل نشوب المعركة ثم كثَّر هم في أعينهم بعــد نشوبها ، و لحكمة من ذلك أن يجترئ المشركون على المسلمين دون مبــالاة بــهم دون فتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وتفلى شوكتهم حين يرون مــا لــم يكــن فــى حســابهم وتقديريهم.- الزمخشرى: الكشاف /جــ٢/٢٢٥.

[٢٢] سورة الأنفال :٤٤

الزمخشري:الكشاف / جــ٢ / ٢٢٤ :٢٢٦ - الرازي : تفسيره / جــ ١٥/١٧٤، ١٧٦ الألوسى : روح المعاني / جــ١٠/ ٦: ٩ .

[٢٣] سورة الأنفال : آية ٤٣ ، ٤٤

فلما التقى الفريقان كان المسلمون في معنويات مرتفعة لما رأوه من آيات تترى ، فيها تأييد من الله لهم في معركتهم ضد قريش ، فجعلهم ذلك يقومون بأعمال من البطولة سجلها التاريخ لهم . و لسوف نلمع فيما يلي إلى صور من هذه البطولات التي كانت للمسلمين الأشاوس في " بدر " .

صور من البطولات في بدر

لقد ذكر غير واحد من أصحاب مصادر السيرة أن غزوة " بدر الكبرى" شهدت صورا نادرة للبطولة و الوفاء في ميدان الحرب تجعل المؤرخ المنصف يقف أمامها لتحليلها و إبراز ما فيها من قيم سامية للأجيال حتى يجعلوا منها نبراسا يضيء لهم طرق حياتهم و يهون عليهم أمر أعداء دينهم أيا كانت قوتهم ، فها نحن أولاء نري المشركين قبل نشوب" معركة بدر " يبعثون ثلاثة من رجالهم هم " عتبة بن ربيعة ، و أخوه شيبة ، و ابنه الوليد بن عتبة " ، ينادون على المسلمين ، هل من مبارز فيخرج لنا ؟ فأخرج إليهم الرسول " عبيده بن الحارث ،(٢٤) و حمزة ، و علي " فلما قاموا و دنوا ، قال :" عتبة" : من انتم ؟ فانتسب الثلاثة المسلمون إليهم ، فقال الرجال

---

(٢٤) ابن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي القرشي ، أسلم له سابقة في الإسلام ، أسلم قبل التجاء النبي إلى دار الأرقم أسن من النبي بعشر سنوات ، هاجر إلى المدينة قطعت إحدى رجلية في بدر ، وضع النبي رأسة علي ركبته -(ﷺ)-، توفي بعد معركة بدر عن عمر بلغ ثلاثا و ستين سنة عند الصفراء ، فعاد المسلمون إلى المدينة بعدما قبروه . ابن الأثير : أسد الغابة / جـ٣/ ٤٤٨ ، ٤٤٩

المشركون : نعم أكفاء كرام ، فبارز " عبيده " عتبة بن ربيعة ، وبارز " حمزة " شيبة بن ربيعة " و بارز " علي " الوليد بن عتبة " فأما حمزة " فلم يمهل " شيبة " أن قتله ، و أما علي فلم يمهل الوليد أن قتله ، و اختلف عبيده و عتبة بينهما ضربتين كلاهما اثبت صاحبه ، وكر حمزة و علي بأسيافهما علي عتبة ؛ فأجهزوا عليه ، و احتملا صاحبهما فحاذاه إلى أصحابه) (٢٥) . و الذي لا ريب فيه أن هذه النتيجة التي أسفرت عنها تلك المبارزة قد أثلجت صدور المسلمين و عدوها إرهاصة للنصر الذي يحرزونه بفضل من الله على أعداء الدين

و لقد رأينا من خلال هذا الحوار الذي دار بين الفئتين المسلمة و الكافرة قبل المبارزة أن القرشيين ما استندوا إلى شيء في معركتهم ضد المسلمين إلا فخرا توارثوه عن الآباء . و استلهام النصر من آلهة مزعومة عبدوها من دون الله فأضل الله المشركين وأراهم ألا يغنى في هذا اليوم شيء من دون الله؛ فالكلمة العليا لمن صدقوا ما عاهدوا الله عليه من عدم الإشراك به و الإخلاص و التضحية في سبيل دينه .

أما الصورة الثانية : فإننا نراها في تصدي " حمزة بن عبد المطلب " لذلك العاتي المتكبر " الأسود بن عبد الأسد المخزومي " ذلك الذي أثارت حفيظته أن رأي المسلمين يحوزون الماء دون قومه ؛

---

[٢٥] ابن سيد . الناس : عيون الأثر / جـ١ / ٣٩٤
الصالحي سبل الهدي و الرشاد / جـ٤ / ٣٥ ، ٣٦

فاراد أن يقوم بعمل ضد محمـــد و اتباعـه يكسـبه الفخـر بيـن قومـه ؛ فيتغني بفعله الشعراء و يتحاكي بـه الركبـان ، و مـا كـان العربـي فـى هذا الوقت يتمني تحقيق شيء في دنيـاه إلا أن يكـون موضـع إعجـاب ، و انبهار من بني قومه ؛ فيتحدثون عنـه حديثـا يحمـل صـور البطولـة التي تميزه عن أقرانه في القبـائل الأخـرى .

فاقسم ذلك المشرك أن يشـرب مـن حـوض المؤمنيـن أو ليهدمنـه أو ليموتن دونه ، و تقـدم نحـو الحـوض ؛ فعاجلـه أسـد الله " حمـزة " بضربة قطع بها نصف ساقه ؛ فوقع علـي الأرض و سـار يزحـف نحـو الحوض إبرارا لقسمه حتـى اقتحمـه ؛ فثنـي عليـه " حمـزة " بضربـة أخرى ؛ فقضي عليـه (٢٦)

و هكذا رأينا " الأسود " يدفع حياتـه ثمنـا لغـرور تملكـه ، و جعـل علي فؤاده أكنه حالت بينـة و بيـن الاسـتجابة لدعـوة الإسـلام معتقـداً المنعة في مال يملكه و شجاعة تحلي بها ، وسيف يدافع بـه عـن نفسـه ؛ فكانت مواجهة " حمزة " له بسـلاح الإيمـان و اضعـة حـداً لحياتـه ، جعلته عبرة لقومه الذين لم يعتبروا بما آل إليه آمـره ومضـوا قدمـاً فـي معركتهم ضد المسلمين ليريهم الله مـن المؤمنيـن صـوراً أخـري قضـت علي الأواصر التي كانوا يعتزون بـها وقـت الملمـات ؛ فـلا قرابـة و لا

---

(٢٦) البيهقي : دلائل النبوة جـ٣ /٦٦، ٦٧
ابن لبن سيد الناس : عيون الأثر جـ١ / ٣٩٣ ، ٣٩٤
أبو شهبه : السيرة النبوية جـ ٢ / ١٣٨

قبلية و لا محالفة اليوم تحول بين من آمنوا بمحمد و بين الفتك بكل من تقع عليه أعينهم . فقد سما المسلمون بأنفسهم سموا أعلاهم على كل الاعتبارات التي تشكل عقبة في سبيل نشر الدين و لو كانت ممثلة في الأب و الأخ و الخئولة أو العمومة .

فهذا هو " علي بن أبي طالب " قتل وحده يوم " بدر " نحواً من ثمانية عشر رجلاً من المشركين ، و لقد تعرض له " نوفل بن خويلد " فلما نزل عليه " علي " بسيفه صاح نوفل : " يا علي أسألك بالله و الرحم أن تكف عني ! أنا " نوفل " أخو " خديجة " و خال " فاطمة " فقال " علي " : لا قرابة اليوم بين مشرك و مسلم ! لقد جئت تقتل النبي ؛ فتلق يا عدو الله جزاءك ! و ضربه بالسيف ضربة طيرت ساقه في الهواء ثم قضي عليه !! و قصد " علي " آخر من قريش ، فوجده يريد الهرب ، فضربه بسيفه في وسطه ؛ فسقط نصفه الأعلى بين رجليه !!

وهذا " أبو عبيدة " بن الجراح "يتراءى له والد ه " ؛ فينحرف عنه ؛ فيتصدي له الوالد و هو بين " قريش " ، و كأنه يتحدي ولده ، و يريد قتله فيلقاه " أبو عبيده " بسيفه فيصرعه ، و يقول له : خذها في سبيل الله ! و لو شاء الله لهداك ! لم أقتلك ، و لكن الله قتلك ! و هذا " عمر بن الخطاب " يقصد خاله " سعيد بن العاص " و هو من سراة قريش و سادتهم ؛ فيضربه بسيفه و يقتله ! و هذا " أبو بكر" يدعو إليه ابنه الذي كان ما يزال على شركه للبراز يوم " بدر " ؛ فمنعه النبي محمد عن ذلك و قال له : متعنا بنفسك " يا أبا

بكر " أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي و بصري . [٢٧] و ينزل في هؤلاء و أمثالهم **قوله تعالي** : " لاَّ تَجِدُ قَوماً يُؤمِنُونَ باللهِّ وَ الْيَومِ الآخِرِ يُوَادُونَ مَنْ حَادَ اللهَ وَ رسَولَه ولَوْ كَانَواْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ [٢٨]

و لقد كانت معركة " بدر " فرصة أراد " بلال بن رباح " ألا يفوتها علي نفسه ليأخذ فيها ثأره من سيد الأمس الذي كان يسومه سوء العذاب و هو " بمكة " ، فعلي الرغم من هول الحرب و بذل المقاتل جهده فيها حتى يدافع عن نفسه ، انشغل " بلال بن رباح " بالبحث عن معذبه بالأمس"أمية بن خلف"[فلما رآه يتسلل وولده" "عليُّ" يريدان النجاة بنفسيهما،ووجدوا في طريقهما"عبد الرحمن بن عوف"فألقيا بأيديهما إليه حتى يأسرهما،ويحفظ دماءهما ويقبل منهما الفدية،ولكن "بلالاً" قصد"أمية" وقال:رأس الكفر"أمية بن خلف"لا نجوت إن نجا!،قال"عبد الرحمن":أى"بلال"؟إنهما أسيراى!قال"بلال":لا نجوت إن نجوا!،قال ابن عوف:أتَسْمَعُ يا بن السوداء؟إنهما أسيراى!فنادى "بلال":يا أنصار الرسول،هذا رأس الكفر"أمية بن خلف"وولده،لا نجوت إن نجوا![٢٩].

---

[٢٧] الزمخشري : الكشاف / جـ ٤ / ٤٩٧
، التاجي : سيرة النبي / جـ ١ / ٤٣٨ : ٤٣٩
، ابن سيد الناس : عيون الأثر / جـ ١ / ٤٣٣

[٢٨] سورة المجادلة : آية ٢٢

[٢٩] الطبرى:تاريخ الرسل والملوك/جـ٢/٤٥٢،٤٥٣ ، ابن الجوزى:المنتظم/جـ٢/٢٢٠، التاجى /سيرة النبى/جـ١/٤٤٢.

فجرى إليه الأنصار وقالوا : لبيك لَبَّيْك يا "بـــلال"،لــن ينجــو أعــداء الله، ونزلوا بالسيوف على الأسيرين حتى خلصـــوا منـــهما ،وبـــهذا يلقـــى" أمية بن خلف"حتفه علـــى أرض بـــدر فكـــانت وفاتـــه تصديقـــاً بمـــا كـــان توعده به النبى محمد"ص" وهو "بمكة" مـــن القتـــل.

وإذا كنـــا ألمعنـــا إلـــى صـــور مـــن البطولـــة،أبطالـــها رجـــال مـــن المهاجرين،فإن الأنصار كانت لهم فى يوم بـــدر صـــور مـــن البطولـــة فـــى ميدان"الوغى"أرادوا بها نيل وتـــر إخوانـــهم المـــهاجرين وإعـــلاء كلمتـــى الحق والدين فيوقفنا "عبد الرحمـــن بـــن عـــوف " فـــى روايـــة لـــه علـــى تنافس بين اثنين من الأنصـــار فـــى مقتبـــل مرحلـــة الشـــباب علـــى قتـــل فرعون هذه الأمة فقال:[إنى لواقف فى الصف يـــوم "بـــدر"؛فنظـــرت عـــن يمينـــى،وعـــن شـــمالى،فـــإذا أنـــا بيـــن غلاميـــن مـــن الأنصـــار،حديثـــة أسنانهما؛فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزنـــى أحدهمـــا ســـرا مـــن صاحبه أى عم هل تعرف"أبا جهل"؟،قلت: نعم؛فمـــ حـــاجتك إليـــه يـــا بنـــى أخى؟،قال:أخبرت أنه يسب رســـول الله-(ﷺ)-والـــذى نفســـى بيـــده لئـــن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يمـــوت الأعجـــل منـــا،قـــال: وغمزنـــى الآخر سرا من صاحبه؛فقال :مثلها؛فعجبـــت لذلـــك .قـــال :فلـــم أنشـــب أن نظرت إلى"أبى جهل"يجول فى الناس وهـــو يرتجـــل:-

ما تنقم الحرب العوان منى بازل عامين حديث سنى

لمثل هذا ولدتنى أمى

فقلـــت:ألا تريـــان؟ هـــذا صاحبكمـــا الـــذى تســـألان عنـــه،فـــابتدراه بســـيفهما فضربـــاه حتـــى بـــرد وانصرفـــا إلـــى رســـول الله -(ﷺ)-

فأخبراه؛فقال:"آيكما قتله؟؛فقال كل واحد منهما:أنـــا قتلتـــه،قـــال:"مســحتما – سيفيكما؟قالا :لا فنظر رســـول الله-(ﷺ)-إلـــى الســـيفين،فقـــال :كلاكمـــا قتله"يعنى معاذ بن عمـــرو بـــن الجمـــوح" "معـــوذ بـــن عفـــراء" فقضـــى الرسول -ص- بسلبه لـــلأول[٣٠].

ويذكـــرون أن "ابـــن مســـعود" مـــر علـــى"أبـــى جـــهل"وبـــه رمـــق فعرفـــه،فســـأل"ابـــن مســـعود"لمـــن الدائـــرة اليـــوم"؛فأجابـــه:لله ولرسوله،فتمم"ابن مســـعود"الإجـــهاز عليـــه وجـــاء برأســـه إلـــى النبـــى محمد-(ﷺ)-ففرح فرحا شـــديدا وصلـــى ركعتيـــن شـــكرا لله الـــذى أنعـــم على المسلمين بأن خلصهم من فرعون هـــذه الأمـــة[٣١].

والدارس لصور البطولة والوفاء فـــى "معركـــة بـــدر الكـــبرى"يجـــد نفسه أمام أمثلة رائعـــة لحـــب التضحيـــة بـــالنفيس قبـــل الرخيـــص؛فـــإن الإيمان الذى شعرت هذه الفئـــة المؤمنـــة بحلاوتـــه كـــان بمثابـــة غـــذاء روحى لهم؛جعلهم يطلبون الشهادة حتى يفوزوا بنعيـــم الجنـــة الدائـــم!!

وهذا هو "عمير بن الحمام الأنصـــارى"يـــنزل كـــلام النبـــى محمـــد – (ﷺ)-على فؤاده بـــردا وســـلاما وهـــو يحـــرض المؤمنيـــن علـــى قتـــال المشركين،يترك تمرات كانت فى يده ويقول:[بخ .بـــخ مـــا بينـــى وبيـــن أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء، فقـــاتل حتـــى استشـــهد][٣٢].

---

[٣٠] ابن الأثير :الكامل/جـ٢/١٢٧ – الصالحى :/سبل الهدى والرشاد/جـ٤/٥٠.

[٣١] ابن هشام :سيرة النبى/جـ٢/٢٧١،٢٧٢ ،ابن القيـــم:زاد المعـــاد/جـــ٣/٨٤،٨٥ – المقريزى:إمتاع الأسماع /٩٣ ،.

[٣٢] ابـــن الأثـــير:الكـــامل/جـــ٢/١٢٦-ابـــن الجـــوزى:المنتظـــم/جـــ٤/٢١٧،٢١٨ الملطاوى:رسول الله فى القرآن/٢١٣.

تلك كانت بعـــض الصـــور التـــى دارت فـــى ميـــدان المعركـــة بيـــن المسلمين والمشركين،أتيت على ذكرها ليعلـــم القـــارئ مـــن خلالـــها مـــدى الحب الذى أحبه المؤمنون لله ورسوله؛فكـــان أحـــب إليـــهم مـــن أنفســـهم التى حملوها على الأكف لا يحرصون على حيـــاة بـــل علـــى النقيـــض مـــن ذلك يلتمسون الشهادة رغبة منهم فـــى حيـــاة أكـــثر رغـــداً وأبقـــى نعيمـــاً وعد الله بها الشـــهداء!!!

فإذا انتقلنا إلى مقر القيادة العسكرية الإســـلامية وجدنـــا جـــهادا مـــن نوع آخر يجعل اللسان عـــاجزاً عـــن بيـــان مراميـــه العظيمـــة ، ذلـــك أن رسول الله اتجه إلي ربه فأنشأ يدعو مـــولاه بشـــكل ظـــهرت أثـــاره علـــي نفسه ؛ فسقط رداءه عن منكبيـــه و تصبـــب العـــرق مـــن جســـده و هـــو يقول لربه : (اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهـــل الإســـلام لا تعبـــد فـــي الأرض ، اللهم أنجزلي مـــا وعدتنـــي)

فقال له " أبو بكر " (كفاك مناشدتك ربـــك ؛ فإنـــه ســـينجز لـــك مـــا وعدك]،وأغفى رسول -(ﷺ)-فى العريش إغفاءه،وانتبه،ثـــم قـــال[يـــا "أبـــا بكر"أتاك نصر الله][٣٣]فكان ما كان من أمر نـــزول الملائكـــة فـــى "بـــدر"ذاك النزول الذى جعل المفسرين والمؤرخين يختلفـــون حـــول طبيعـــة المهمـــة التى قامت بها الملائكة على أرض "بـــدر"أهـــى القتـــال أم التثبيـــت لقلـــوب المؤمنيـــن؟

وسوف أُفصِّل الكلام عن هذين الرأيين ســـالفى الذكـــر،فيمـــا يلـــى :- نزول الملائكة فى "بـــدر".

---

[٣٣] ابن الأثـــير :الكـــامل/جـــ٢/١٣٥ - ابـــن حجـــر :فتـــح البـــارى/جـــ٧/٣٦٤ - المقريزى:إمتاع الأسماع/٨٨-باشميل :الغزوات الكبرى/جـ١/١٥٩.

اتفق المسلمون جميعاً على أن الملائكة التى تسبح الله بالليل والنهار دون فتور،قد نزلوا يوم بدر بأمر من الله ليقوموا بدور بارز فى جعل فئة المؤمنين تحرز النصر على الكافرين ،بيد أن علماء المسلمين اختلفوا حول ماهية هذا الدور الذى كان للملائكة فى معركة"بدر"؛فذهبت جماعة منهم إلى أن الملائكة قاتلت جنباً إلى جنب مع المؤمنين،وذكرت أخرى أن الملائكة قوّت عزائم المقاتلين حتى يصمدوا أمام الكثرة الكافرة من المشركين.

وقبل الإدلاء برأيى فى هذه القضية،يحسن بنا الإلماع إلى رأى كِلاَ الفريقين والأدلة التى أقام رأيه عليها.

أولا : القائلون بأن الملائكة لم قاتل بيوم بدر

إن من يمعن النظر فى آراء هذا الفريق يجد أصحابه قدامى كانوا أم محدثين استخدموا العقل والنقل معاً فى البرهنة على صحة رأيهم. نرى ذلك من وجوه:

أولاها : أن الله قال فى محكم كتابه:{ "وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ"إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤمِنِينَ أَلَن يَكفِيكُمْ أن يُمدُكْم ربكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلائكَةِ مُنزلين،بلى إن تصبروا وتَتَقُوا ويأتوكُم من فورهِمْ هذَا يمددكم ربكم بخمسةِ آلاف مِنَ المَلائكَة مُسَومينَ ،وَمَا جَعَلَهُ اللهَ إِلاَ بُشرَىَ لَكُمْ ولتطمئنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النصرُ إِلاَ مِنَ عِندَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم[٣٤] فأعداد الملائكة

---

[٣٤] سورة آل عمران :آية ١٢٣،١٢٦.

الواردة فى الآيات لا تدل على أنها تـنزلت للقتـال بـل للدعـاء والتسـبيح وتكثير المسلمين فـى مواجهتـهم للمشـركين[٣٥].لأن عـدد المشـركين لا يستدعى نزول تلك الأعداد الغفيرة من الملائكة كما هـو واضـح لنـا مـن الآيات التى ذكرناهـا.

ثانيها:{أن الملك الواحد يكفـى لإهـلاك الأرض ،ومـن المشـهور أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت المدائن الأربـع لقـوم لـوط ،وبلـغ جناحه إلى الأرض السابعة،ثم رفعها إلى السـماء وقلـب عاليـها سـافلها؛ فإذا حضر هو يوم بدر ؛فأى حاجة إلى مقاتلـة النـاس مـع الكفـار؟ ثـم بتقدير حضوره،فأى فائدة مـن إرسـال الملائكـة بعددهـم هـذا للحـروب والحالة هذه؟] إن لم يكن لتثبيت المؤمنين كما قلنـا فـى الوجـه الأول .

ثالثـها:إن مـن يقـرأ المصـادر الأصيلـة للسـيرة النبويـة يجـد صفحاتها حوت أسماء صناديد الشـرك الذيـن لقـوا حتفـهم علـى أيـدى المسلمين الأشاوس فى "يوم بدر"وقـد ذكـر لنـا الـرواة أسـماء الأبطـال المؤمنين الذين أجهزوا عليهم.فإذا كان ذلـك كذلـك فمـن قتلـه الملائكـة من المشركين إذن؟!فهذا يجعل التثبيت للمؤمنين راجعـاً علـى مـا قـالوه من القتال الفعلى للملائكة فى"غزوة بـدر الكـبرى".

رابعها :لو حاربت الملائكة لكـانوا إمـا أن يسـيروا بحيـث يراهـم الناس فيكونوا والحالة هذه فى صـورة آدمييـن يكـثرون جيـش محمـد وهذا يتعـارض مـع قـول الله تعـالى:(ويقللكـم فـى أعينـهم)وإمـا أن يظهروا فـى صورتـهم الحقيقيـة فـلا يراهـم أحـد مـن المسـلمين أو

---

[٣٥] الزمخشرى:الكشاف/جـ١/٤١٢،القرطبى:تفسيره/جـ٢/١٥٤٠

المشركين.إذ لو رأوهـم بصورتـهم الحقيقيـة لا تنشـر الرعـب والفـزع بينهم ؛ فهذا ما لم تقل بـه المصـادر.[٣٦]

خامسا :إن من يقرأ الأحـاديث التـى اعتمـد عليـها القـائلون بـأن الملائكة قاتلت قتالاً فعلياً يوم "بدر" يجدها تذكـر أن الملائكـة قـاتلت فـى هذا اليوم وهى راكبة الخيـول البوالـق [٣٧] وهـذا يقتضـى أنـهم نزلـوا على غير صورتهم الحقيقية فـيراهم النـاس جميعـاً،مسـلمون كـانوا أو كفار،ويتناقلوا أخبارهم فتصبح القلة كثرة وهـذا يتنـاقض مـع مـا جـاء فى القرآن الكريم من قول رب العالمين : (كم من فئـة قليلـة غلبـت فئـة كثيرة بإذن الله) وإما أن يكونوا نزلوا علـى صورتـهم الحقيقيـة وهـى لا تستقيم مع ركوبهم للخيل المشـار إليـه][٣٨]

سادسا: ما جاء ذكره فى المصـادر الأصليـة للسـيرة مـن تثبيـت الملائكة للمؤمنين،كما رواه"البيهقى" عن "ابـن عبـاس"قـال(كـان الملـك يُتَصَوَر فى صورة من يعرفونه مـن النـاس يتبنونـهم؛فيقـول :إنـى قـد دنوت منهم وسـمعتهم يقولـون:لـو حملـوا علينـا مـا ثبتنـا..ليسـوا بشىء.إلى غير ذلك من القول.[٣٩]).فـهم إذن جـاءوا للتثبيـت.

---

[٣٦] ذكر الله فى كتابه الكريم بعضًا من أوصاف الملائكة التى -لو رآهم الآدميـون عليـها لصعقوا مثلما فعل جبريل مع النبى محمد -(ﷺ)-وعلى القارئ الكريم إن هو أراد الوقـوف على شئ من تفاصيل ذلك مراجعة الزمخشرى:الكشاف - جـ٣/٥٩٥،٥٩٦.

[٣٧] بلق الدابة سواد وبياض وقيل أنه ارتفاع التحجيل إلى الفخذين فى الدواب الموصوفـة بهذا الوصف.ابن منظور لسان العرب مادة بلق.

[٣٨] الرازى:التفسير الكبير/جـ٨/٢٣٢،٢٣٣.

[٣٩] الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٤/٤١.

سابعاً: إن من يقرأ قول الله تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ"[٤٠].

يجد الآية صريحة فى أن الملائكة ما نزلوا إلا للتثبيت وإلقاء الرعب فى أفئدة المشركين وأن الأمر المذكور بها موجه للمؤمنين المثبتين ليضربوا رؤوس المشركين وبنانهم[٤١]

ومن الباحثين المحدثين الذين أخذوا بهذا الرأى أستاذنا الدكتور/محمد الطيب النجار – رحمه الله تعالى- الذى برهن على رأيه **بأدلة منها :**

١- أن الله لو قدر للملائكة أن تشترك بالفعل في القتال لما كان هناك مزية للمسلمين الذين اشتركوا في هذه الغزوة ، و لما كان هناك داع للأخذ بالأسباب العادية في هذا الوجود ، حيث يأمر الله المسلمين بإعداد العدة للقضاء علي الكفار ؛ فيقول : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ قُوَّةٍ وَمِنَ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَ عَدُوَّكُم " .

٢- أن الملائكة لو اشتركت في القتال بهذا العدد الضخم ثم انجلت المعركة عن قتل سبعين من المشركين فحسب لكان هذا موقفاً مُخزياً لملائكة الله ولاعتبر ذلك نصراً للمشركين وهزيمة للملائكة والمسلمين.

---

(٤٠) سورة الأنفال:آية (١٢)

(٤١) الزمخشرى:الكشاف /جـ٢/٢٠٤ ، ٢٠٥ .-القرطبى:تفسيره/جـ٤/٣٠٣ ، ٢٩٠٤ .

وبذلك يتبين لنا أن الملائكة لم تـــنزل للقتـــال، وإنمـــا نزلـــت لتثبيـــت القلوب، وتقوية الإيمان،ومما يزيد هذا المعنـــى تـــأكيداً وقـــوة ، قـــول الله تعالى بعد ذلك ﴿وَمَا جَعَلَـــهُ اللهُ إِلاَّ بُشْـــرَى وَلِتَطْمَئِـــنَّ بِـــهِ قُلُوبُكُـــم ﴾[٤٢]أى ومـــا جعـــل الله إمدادكـــم بالملائكـــة لشـــيء مـــن الأشـــياء إلا للبشـــرى لكم،بأنكم ستنصرون،لتسكن وتطمئن بهذا الإمـــداد قلوبكـــم حيـــث تدركـــون أن الله معكم وأنكم أهل لرضـــاه ؛ فـــــيزداد إيمانـــــكم وجـــهادكم [٤٣]

ثانيا : القائلون بقتال الملائكة :

وأما الفريق الثانى فإنـــه يجـــزم بـــأن الملائكـــة قـــاتلت إلـــى جـــانب المسلمين واستدل على ذلك بأحاديث بلغـــت مبلـــغ التواتـــر جـــاءت علـــى ألسنة المسلمين وأيدهـــا ســـيد المرســـلين وشـــهد بـــها مـــن قـــاتل مـــن المشركين الذين نجوا "يوم بـــدر".

منها ما قاله "عبد الرحمن بن عوف ":رأيت يـــوم بـــدر رجليـــن،بيـــن يدى النبى -(ﷺ)-أحدهما، عن يمينه والآخر عـــن يســـارة،يقـــاتلان أشـــد القتال ،ثم يليها من خلفه ثالث ثـــم رابعـــهما ، رابـــع أمامـــه، ومـــا روى عن "صُهيب" أنه قال :ما أدرى كم يد مقطوعة أو ضربـــة جائفـــة لـــم يـــدم كلهما يوم "بدر" قد رأيتها وما قاله "ابن بردة بن نيار": جئـــت "يـــوم بـــدر" بثلاثـــة رءوس فوضعتـــها بيـــن يـــدى رســـول الله -(ﷺ)-أمـــا رأســـان

---

[٤٢] سورة الأنفال :آية ١٠.

[٤٣] الطيب النجار : القول المبين في سيرة سيد المرسلين /١٩٦،١٩٧.

فقتلتهما، وأما الثالث : فإنى رأيت رجلاً أبيض طويلاً ضربه؛فتهدى أمامه؛فأخذ رأسه،فقال -(ﷺ)-ذاك فلان من الملائكة.

وكان " ابن عباس" يقول :لم تقاتل الملائكة إلا "يوم بدر"؛فقد كان الملك يتصور فى صور من يعرفونه من الناس يثبتونهم؛فيقول:إنى قد دنوت منهم؛فسمعتهم يقولون:لو حملوا علينا ما ثبتنا ، ليسوا بشىء،وذاك قول الله تعالى :"إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا"[٤٤]

ومن الأدلة التى اعتمد عليها هذا الفريق:أن الملائكة قتلت عدداً من المشركين فى "بدر" وأن قتلها لهم كان مميزاً عن قتل المسلمين للكافرين؛ فكان ضرب الملائكة فوق الأعناق وعلى البنان،فكان كل موضع أصابوه بضرباتهم للمشركين تشتعل فيه النار، حتى أن "أبا جهل" قال "لابن مسعود":أنت قتلتنى؟! إنما قتلنى الذى لم يصل سنانى إلى ستيك فرسه وإن اجتهدت[٤٥].

ولقد مال إلى هذا الرأى السواد الأعظم من آئمة التفسير منهم "الإمام الرازى" الذى قال : إن الملائكة قاتلت"يوم بدر" وأن هذا ما ذهب إليه الأكثرون.

---

[٤٤] ابن هشام :سيرة النبى /جـ٢/٢٧٣،٢٧٤ -القرطبى :تفسيره /جـ٢/١٥٣٩ - السهيلى :الروض الأنف /جـ٣/٨١ - المقريزى:إمتاع الأسماع /٩١،٩٢ -الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٤/٤٠ -محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول ،١٨٢،١٨٣

[٤٥] القرطبى: تفسيره /جـ٢/١٥٤٠.

وأجاب على بعض أدلة الفريق الأول التى ساقها"أبو بكر الأصم" ومن دار فى فلكه "قائلاً: إن هذه الشبهة إنما تليق بمن ينكر القرآن والنبوة ؛فأما من يقرُبهما فلا يليق به شئ من هذه الكلمات،فما كان يليق"بأبى بكر الأصم" إنكار هذه الأشياء مع أن نص القرآن ناطق بها وورودها فى الأخبار قريب من التواتر،روى "عبد الله بن عمر "قال :لما رجعت قريش من "أحد" جعلوا يتحدثون فى أنديتهم بما ظفروا،ويقولون:لم نر الخيل البلق ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم "يوم بدر"، والشبهة المذكورة إذا قابلناها بكمال قدرة الله تعالى زالت وطاحت؛فإنه تعالى يفعل ما يشاء لكونه قادراً على جميع الممكنات ويحكم بما يريد لكونه منزهاً عن الحاجات[٤٦].)

ومن الباحثين المحدثين من انبرى للرد على أدلة الفريق الأول؛فقال:إن انتصار الفئة القليلة على الكثيرة إنما كان بحسب الحقيقة والواقع فإن قتال الملائكة فى "بدر" كان قتالاً بشرياً،وأنهم كانوا مقيدين بمهمة لا سبيل إلى تخطيها ولا إلى اجتياز حدودها.

وعلى هذا الأساس نزل ألف من الملائكة،ولم ينزل ملك واحد وكانت نتيجة المعركة قتل سبعين وأسر سبعين.

وعليه فإنه رأى أن الملائكة شاركت فى القتال لإظهار صدق النبى عليه الصلاة والسلام،وإثبات نبوته على وجه يفحم المشركين ويؤيد إيمان المؤمنين ؛فيهتز ركن المشركين وتشتد قواعد الإسلام ،وهذا هو ما كان؛فقد راح الجيشان المتحاربان كلاهما يتحدثان عن

---

[٤٦] الرازى :تفسيره جـ٨/٢٣٢،٢٣٣

قتال الملائكة ويشيران إلى أثار ضرباتهم فـــى الصـــدور والنحـــور،ذاعــت هذه الأحاديث وانتشرت؛حتى جرت علـــى كـل لســان،وحتـــى ســار بـــها الركبان فى أنحاء شبه الجزيرة،وكان فى ذلك ما فيـــه مـــن فتـــح الطريـــق أمـــام الحـــق وإزالـــة الكثـــير مـــن المصـــاعب التـــى تعترضـــه وتعـــوق مســـيرته.(٤٧).

ومن الباحثين المحدثين من حاول التوفيـــق بيـــن الرأييـــن الســـابقين فقال:[والذى نراه والله أعلـــم أن الإمـــداد بالملائكـــة حصـــل قطعـــاً لتكثـــير العدد وتثبيت القلوب،وإلقاء البشـــرى ، وأن بعضـــهم قـــاتل لا كلـــهم ،وأن الجهد الأكبر فى القتال إنما هو للمســلمين ،وبذلــك لا نكـــون تعســـفنا فـــى التـــأويل ، وخرجنـــا عـــن ظواهـــر بعـــض الآيـــات بغـــير داع ،ولا نـــرد الأحاديث الصحيحة الدالة على حصول قتال مـــن بعـــض الملائكـــة(٤٨)].

إن من يُجيل النظـــر فيمـــا أســـلفناه مـــن الآراء التـــى تنفـــى قتـــال الملائكة،وتلك التى تثبته، يجد الصـــواب فـــى جـــانب الفريـــق الآخـــر؛لأن رجالات التفســـير ذكـــروا لنـــا أن قـــول الله تعـــالى:[إِذْ تَسْـتَغِيثُونَ رَبَّكُـمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ].نـــزل بعـــد مـــا أجـــهد النبى نفسه فى تضرعه لربه أن ينصر رجالـــه،وهـــم قليلـــوا العـــدد علـــى هذه الفئة التى تفوقهم عدداً وعـــدة؛ فاســـتجابة الله لنبيـــه تـــدل علـــى أن الملائكة جاءت مُعينة للقلة على الكـــثرة بـــأمر مـــن الله،والإغاثـــة والمـــدد كلاهما يدلان على الفعل الحسى دون الأمر المعنوى ، كمـــا هـــو بيـــن لنـــا

---

(٤٧) د.عبد العزيز غنيم :فلسفة السيرة /١٤٧.

(٤٨) أبو شهبه السيرة النبوية:جـ٢/١٤٦.

من المدلول اللغوى للكلمتين السابقتين،فالملائكـــة إذن قـــاتلت قتـــالاً فعليـــاً مع المؤمنين "يوم بدر". ولا يتعارض هذا فى رأينـــا مـــع قـــول الله تعـــالى : فَثَبِّتوُا الذين أمنوا) لأن الجندى فى ميـــدان المعركـــة يبـــدو أكـــثر ثباتـــا وثقةً بنفسه حين يرى عدوه يتساقط أمامه،فتثبيـــت المؤمنيـــن الـــوارد فـــى سورة الأنفال كان بقتال فعلى من الملائكـــة ألقـــى الطمأنينـــة فـــى قلـــوب المؤمنين وأرعب الكافرين حين رأوا إخوانـــهم يلقـــون حتفـــهم بشـــكل لـــم يعهدوه فى معركة خاضوها أو رأوها مـــن قبـــل.

كما أن هذا لا يتعارض مع قـــول .الله تعـــالى "كـــم مـــن فئـــة قليلـــة غلبت فئة كثيرة بإذن الله "،لأن التقليل الذى نعـــت الله بـــه المســـلمين كـــان واقعا لهم رأوه بأعينهم ،فهم إذن قلـــة مـــن وجهـــة نظرهـــم،حيـــن عـــدّوا أنفسهم قبل "بدر"فكون القلة تنقلب إلى كثرة بجنـــس غـــير بشـــرى؛ فذلـــك بإذن من الله واستجابة منه لدعوة رســـولهَ الـــذى اصطفـــاه.

فتكون والحالة هذه الفئة البشرية القليلـــة انتصـــرت علـــى نظيرتـــها الكثيرة بإذن من الله،فالكثرة والقلة هُنـــا والحالـــة هـــذه إنمـــا كـــانت بيـــن جنسين متماثلين ،وليس بين البشـــر المؤمنيـــن الذيـــن خـــاضوا المعركـــة مؤيدين بالملائكة المرسلين وبين المشـــركين."ولئـــن قـــال قـــائل :إن هـــذا يتعارض مع قول الله تعالى:(ويقللكم فى أعينـــهم) قلنـــا لـــه:إن ذلـــك قـــد كان قبل نشوب "معركة بدر"،حتـــى يقضـــى الله أمـــراً كـــان مفعـــولاً فلمـــا نشبت وكانت الملائكة نزلت ليرى المشركون المســـلمين كـــثرة؛فكـــان مـــا كان من إلقاء الرعب فى القلـــوب.

وأنا أميل إلى الرأى القائل:أن عدداً من الملائكة شارك المسلمين فى القتال،والبعض الآخر لم يشارك،إنما نزلوا للتسبيح والتحميس للمقاتلين،ونضيف على ما قاله صاحب هذا الرأى،ما ذكره باحث آخر،من أن الملائكة الذين نزلوا للقتال نزلوا بمهمة قتالية محددة، أمروا بعدم تجاوزها حتى يظل المسلمون يأخذون بأسباب القوة والمنعة كلما دخلوا حرباً.

وقد صدق الله العظيم الذى قال: وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ).

وآية ذلك،أن قدرة الله هى التى جعلت الملك الواحد يفعل بقوم "لوط" و "صالح" ما يفعل؛فهذه القدرة ذاتها جعلت الملائكة لا يقومون بأكثر مما قاموا به فى "بدر"؛ فسبحانه وتعالى إذا قال للشيء كن فيكون ولا يسأل عما يفعل، ويؤيد ذلك ،ما قاله "أبو الحسن السبكى"عندما سئل عن الحكمة من قتال الملائكة مع النبى -(ﷺ)- "ببدر"، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناح؛فأجاب :وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبى -(ﷺ)-وأصحابه ؛فتكون الملائكة مدداً ،على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التى أجراها الله تعالى فى عباده ،والله تعالى فاعل الأشياء[٤٩]

ولا عبرة عندى لما استدل به بعض الباحثين المؤيدين لعدم قتال الملائكة من أن النتيجة التى أسفرت عنها "غزوة بدر"لا تتناسب ،

---

[٤٩] الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٤/٨٢.

ومشاركة الملائكة للمؤمنين فى قتالهم الكـــافرين[٥٠] فـــهذا يـــكون صحيحـــاً لو أن الملائكة نزلوا إلى المعركة بصفتهم التى نعرفهم بـــها وهـــذا مـــا لـــم نأخذ به على إطلاقه، فإن الملائكـــة مـــا نزلـــت إلا لتأديـــة مهمـــة قتاليـــة حددها الله لهم حسبما أشرت إليه ســـابقاً فالنتيجـــة التـــى أســـفرت "عنـــها "غزوة بدر"،هى نتيجة مبهرة للمشركين والمســـلمين علـــى حـــد ســـواء ؛ فالأولون اعتدوا بكثرتهم ؛فإذا بـــاعتزازهم يتحطـــم علـــى أيـــدى ضعيفـــة .والآخرون ازدادوا إيماناً بربـــهم الـــذى جعـــل ثُلاثمائـــة وعشـــرة رجـــلاً يأسرون سبعين ويقتلون نظيرهم؛فلو قارنـــا هـــذه النتيجـــة بـــالعدد الـــذى خاض المعركة من رجالات المسلمين لكانت بحـــق مبـــهرة ومحطمـــة لكـــل النظريات العسكرية فى الحروب قديمـــاً وحديثـــاً.

وعلى أى حال فإن "معركة بدر" قد وضعـــت أوزارهـــا بعـــد مشـــاركة الملائكة المسلمين معلنة انتصار المؤمنيـــن علـــى الطغمـــة المشـــركة بعـــد أن قتل منهم سبعون رجلاً ؛فيهم ســـتة كـــانوا أســـلموا ففتنتـــهم "قريـــش" عن دينهم حين أسالت لعابهم بمغريات قدمتها لـــهم ؛فزيـــن لـــهم الشـــيطان ارتدادهم عن الملة الحنيفة فعادوا من جديـــد إلـــى ظـــلام الوثنيـــة؛فمـــاتوا "يوم بدر" وهم من بنى أسد : (" الحارث بـــن زمعـــه بـــن الأســـود"، ومـــن بنى مخزوم:"أبو قيس "وأبو قيس بـــن الوليـــد يـــن المغـــيرة ومـــن بنـــى جمح : " على بن أمية بن خلف وأبو قيس بـــن الوليـــد المغـــيرة ") ومـــن

---

[٥٠] الطيب النجار :القول المبين صـ ١٩٧.

بنى سهم :"العاص بن منبه بن الحجاج"[٥١]؛فنزل فيهم:"إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم"[٥٢] وأسر المسلمون من المشركين فى هذه الغزوة سبعين رجلاً.

فى حين نال نعمة الشهادة أربعة عشر مؤمناً؛ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار[٥٣].ولا يعنى انتهاء المعركة بهذه النتيجة التى ألمعنا إليها أن النبى محمداً والمسلمين،صاروا لا يشغلون بأعمال وقضايا ملحة تطلب الحسم،بل قاموا بأعمال فرضتها عليهم آثار المعركة،وحكم لهم النبى فى قضايا أظهرتها على السطح "غزوة بدر"؛لتكون قواعد الحكم فيها ركناً مكملاً للقوانين التنظيمية التى سارت عليها الدولة الإسلامية فى عهد النبى محمد -(ﷺ)-.

مواقف سيد الأنام من توابع معركة يوم الفرقان:-

بعد أن ولى المشركون "بدر" الأدبار،وتعاقب ليل ونهار ، وشعر المسلمون بالاستقرار،أخذ النبى المختار:يجيل الأبصار،هنا وهناك أياماً ثلاثة ،راح بعدها يعالج التوابع والآثار التى خلفتها "غزوة بدر"،ويمكن للقارئ الكريم الوقوف عليها من خلال ما يلى:

أولا :موقف النبى من قتلى المشركين:

لقد عرف المكيون عن محمد -(ﷺ)-من لدن نشأ فيهم حتى ترك "أم القرى "إلى "المدينة" الصفات والأخلاق العظيمة ؛ شهدوا له

---

[٥١] ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ١/٤٠٦ ،٤٠٧.

[٥٢] سورة النساء :آية (٩٧)

[٥٣] الطبرى:تاريخ الرسل والملوك /جـ٢/٤٧٧ - الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٤/٧٧.

بها على الرغم من عدائهم المستحكم لـــه،وهـــذه الصفـــات العظيمـــة التـــى نعته بها كل من رآه – عليه الصلاة والســـلام نراهـــا واحـــدة بعـــد أخـــرى ماثلة للأجيال من خلال أعمال لا يقوم بها إلا من تخلـــق بخلـــق القـــرآن.

منها أن النبى الطيـــب المحـــافظ علـــى بيئتـــه،الرقيـــق الـــذى يـــأبى المثْلـــة، و لـــو كـــانت بعَـــدْوِهْ،ذلـــك أنـــه مـــر علـــى مواضـــع مصـــارع المشركين؛فوجد جثثهم قد انتفخـــت وتوشـــك بطونـــهم أن تنفجـــر؛ فتلـــوث الهواء وتنشر الأمراض والأوبئة هنـــا وهنـــاك،نـــاهيك عـــن المثلـــة التـــى ستكون بتلك الجثـــث؛حيـــن تـــأتى وحـــوش الـــبر لتـــأكل منـــها وطيـــور الهواء؛فتنهشها،وهذا أمر يستبشـــعه مـــن جُبـــل علـــى الصفـــات الطيبـــة الرفيعة،ومن ثم ؛فإن النبـــى حيـــن رآهـــم علـــى هيئتـــهم الســـالفة،أمـــر المســـلمين أن يعمـــدوا إليـــهم ليلقوهـــم فـــى "قليـــب بـــدر"حتـــى يعفـــوا آثارهم،ويعملوا قدر طاقتهم على عـــدم تلـــوث البيئـــة المحيطـــة بالمكـــان بما تخلفه هذه الجثث حين تجيف،وكان من بيـــن مـــن ألقـــوا فـــى البـــئر" عتبة بن ربيعة"على مرأى ومسمع من ولـــده "أبـــى حذيفـــة".

فنظر المسلمون والنبى لولـــده؛فـــإذا بالكراهيـــة تعلـــو وجهـــه وقـــد تغير لونه؟فقال له الرسول -(ﷺ)-:"لعلك قد دخلك مـــن شـــأن أبيـــك شـــئ ؟قال :لا والله يا نبى الله ،ما شككت فى أبى وفـــى مصرعـــه ،ولكنـــه كـــان له عقل ،وحلم،وفضل فكنت أرجو له الإسلام؛فلما رأيـــت مـــا مـــات عليـــه من الكفر أحزننى ذلك فدعـــا لـــه رســـول الله-(ﷺ)-بخـــير؛لثبـــات قلبـــه- رضى الله عنـــه – على الإيمـــان!!

ومنهم " أمية بن خلف " وقد كان جسيماً ، أسرع إليه الانتفاخ قبل الجثث الأخرى فما استطاع المسلمون نقله إلى القليب كغيره،فكلما هموا بذلك،وجدوا لحمه يتزيل ؛ فحفروا له في مكانه وألقوا التراب عليه[٥٤].

إن من يتأمل هذا الموقف الذى وقفه المسلمون يجدهم قد سبقوا به عصرهم؛فقاموا بأعمال سامية تجاه قتلى أعدائهم،لا تقوم بها دول عصرنا التى تزعم التحضر والمحافظة على حقوق الإنسان حياً وميتاً.

والنبى لم يقم بعمله هذا مجبرا بقانون وضعى أو يخشى منظمات تراقبه كما هو الحال فى زمننا مع الحكام الذين يحكمون الأمم،وإنما قام به بناء على صفات أوجدها الله فيه جعلته سيد الأولين والآخرين.

ثانياً :موقف النبى من غنائم المشركين.

كانت "معركة بدر"قد أسفرت عن حيازة المسلمين لبعض إبل المشركين وأمتعتهم وأسلحتهم،ورجال أسروهم،فأخذ كل واحد من المؤمنين ينظر إلى هذه الغنيمة وهو يجهد نفسه فى إبراز حجته التى تصوغ له تنفيذ مأربه أو تطبيق نظريته فى الكيفية التى تقسم بها تلك الغنيمة ؛ فوجدنا ثلاثة آراء لهم تبرز على السطح تمثل ثلاثة اتجاهات للمسلمين.

---

[٥٤] ابن الجوزى:المنتظم /جـ٢/٢٢٥،٢٢٦ - ابن الأثير :الكامل /جـ٢/١٣٠ - ابن حجر :فتح البارى /جـ٧/٣٥١،٣٥٢ - محمد رضا :محمد رسول الله /١٧١.

أولها : الشباب الذين قاتلوا وبارزوا المشركين ،وهؤلاء ذكروا أنهم أحق بالغنيمة من غيرهم ؛فلولاهم ما كان الانتصار ولا كانت الغنائم

ثانيها : شيوخ القوم من أمثال"سعد بن عبادة"،و"أبى بكر الصديق "، ومن شاكلهم من رجال أسن من الشباب وهؤلاء قالوا:الغنيمة لنا فنحن ما تركنا المعركة جبناً،بل وقفنا أنفسنا على حراسة النبى محمد حتى لا يتسلل إليه مشرك؛فيناله بأذى فنحن إذن أولى بالغنيمة من غيرنا.

ثالثها: الاتجاه الذى يمثله الرجال المسلمون الذين قالوا: إن من قتل منا مشركاً له سلبه"محتجين يقول الرسول الذى قال: فى"بدر" من قتل قتيلاً فله سلبه فينبغى والحالة هذه ، أن لا تعد أسلاب المقتولين غنيمة للقوم جميعاً،وهذا الحديث قال عنه :"ابن سيد الناس"أنه كان يوم "حنين" وأما قوله ذلك يوم "بدر وأحد "؛ فأكثر ما يوجد من رواية من لا يحتج به [٥٥] فهذا هو "أبو اليسر بن عمرو الأنصارى " يأتى رسول الله بأسيرين أسرهما طالباً منه أن يجعلهما له غنيمة،فبادره"سعد بن معاذ" مخاطباً النبى -(ﷺ)-بحضرة "أبو اليسر" [٥٦]يبق لأصحابك شئ،وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة فى الأجر ولا جبن من العدو ،وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك أن يأتون من

---

[٥٥] ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ١/٤٠٧.

(٥٦) كعب بن عمرو بن سلمة الأنصارى السلمى، ممن بايعوا الرسول عند العقبة ،شهد المشاهد مع رسول الله -(ﷺ)- وقاتل فى صفين مع على بن ابى طالب "رضى الله عنه" ، توفى أبو اليسر بالمدينة سنة خمس وخمسين هجرية.

ابن الأثير -أسد الغابة -جـ٥ - صـ٣٣٤،الإصابة -جـ٤ - صـ٢٢١

ورائك؛فتشاجروا). فكانت تلك صورة للخلاف الذى شجر بين المسلمين بسبب توزيع الغنيمة فى "بدر" وقد رأينا النبى محمداً خلاله لم يشر بما يفيد ترجيح رأى على آخر،بل ظل يرقب وحياً يأتيه بحكم الله بين المسلمين فيما شجر بينهم من خلاف فنزل جبريل[٥٧]بقوله تعالى :"يسألونك عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ إن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ."[٥٨].

فقد جعلت الآية كما ترى أمر الغنيمة كله إلى رسول الله يحكم فيه بأمر المولى جل علاه،واضعة بذلك حداً لهذا الخلاف الذى كاد يُفتت جمعهم ويبذر بذور الشقاق فيهم؛فأذعن المسلمون عن طيب خاطر للأمر.فهذا يدلنا على أن خلافهم على حيازة بعضهم دون بعض غنيمة ،لم يكن تنافساً فى دنيا بقدر ما كان اعتقاداً منهم أنه حق شرعى لجماعة دون أخرى؛فلما جاء القول القاطع فى الأمر زهدوا فيها جميعاً،حتى قام رسول الله -(ﷺ)-؛فوزعها بين المقاتلين كافة بالتساوى قبل أن ينزل قول الله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شيءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ)[٥٩] فقسمها عليه السلام الرجل مع الرجل والفارس مع الفارس وأدخل فى الإسهام بعض من لم يحضروا لأمر كلفوا به

---

[٥٧] الزمخشرى: الكشاف /جـ٢/١٩٤،١٩٥ - القرطبى :تفسيره/جـ٢٨٨٩ - ،الألوسى :روح المعانى/جـ٩ /١٦٠.

[٥٨] سورة الأنفال:آية (١).

[٥٩] سورة الأنفال :آية (٤١).

وهم:"أبو لبابـــه الأنصـــارى[١٠]"لأنــه كــان مخلفــاً علـــى أهـل "المدينــة" و"الحارث بن حاطب" لأن الرسول عليه السلام خلفـــه علـــى "بنـــى عمـــرو بن عوف "ليحقق أمراً بلغه ، و"الحــــارث بــن الصمـــة[١١]" و"خــوات بــن جبير" لأنهما كسرا "بالروحاء" ؛ فلـــم يتمكنـــا مـــن الســـير،و" طلحـــة بـــن عبيد الله"و"سعيد بـــن زيـــد[١٢]" لأنـــهما أرســـلا يتجسســـان الأخبـــار فلـــم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب، " وعثمـــان بـــن عفـــان " لأن الرســـول عليـــه السلام خلفه على ابنته "رقية" يمرضـــــها،و "عـــاصم بـــن عـــدى [١٣]" لأنـــه

---

[١٠] رفاعة بن المنذر،أحد النقباء يوم العقبة الثالثة.روى عن النبى أحاديث ،ممن حملـــوا الراية يوم فتح مكة،توفى بعد مقتل عثمان وقيل سنة خمسين للهجرة - ابن الأثير : أسـد الغابة /جـــ٥/٢٦٧:٢٦٩ - ابن حجر:الإصابة /جـــ٤/١٦٨.

[١١] ابن عمرو بن عتيك الأنصارى - شهد مع النبى أحداً -وكان ممن ثبتوا معـــهم فيـــها للدفاع عن خصه النبى فيها بسلب من قتله دون بقية المسلمين استشهد يوم بئر معونه - ابن الأثير :أسد الغابة /جـــ١/٤٥٣،٤٥٤.

[١٢] ابن عمرو بن نفيل بن لؤى القرش العدوى - أسلم قديما قبل عمر بن الخطاب. كـــان من المهاجرين الأولين،آخى الرسول بينه وبين "أبى بن كعب" شهد المشاهد كلـــها ســـوى بدر، من العشرة المشهود لهم بالجنة.توفى سنة خمسين.اختلف فى تاريخ وفاته قيل ســـنة ٥٠،٥١،٥٨،عـــن عمـــر بلـــغ بضعـــا وســـبعين ســـنة - ابـــن الأثـــير :أسـد الغابـــة /جـــ٢/٢٥٣،٢٥٤،٢٥٥.

[١٣] بن الجد بن العملان بن ضبيعه البلوى وشهد مع النبى أحد وما بعدهـــا وروى عنـــه آحاديث،تزوج عبد الرحمن بن عوف أخته،توفى رضوان الله عليه سنة خمـــس وأربعيـــن عن عمر بلغ مائة وخمسة عشر عاماً وقيل مائة وعشـــرين. - ابـــن حجـــر : الإصابـــة /جـــ٢/٢٤٦.

خلفه على أهل "قباء" و "العالية" وكذلك أسهم لمن قتل "ببدر" وهم أربعة عشر[٦٤].

فأنت ترى معى أن رسول الله -(ﷺ)-قد راعى فى توزيعه الغنيمة درء أبواب الفتن والبغضاء بينهم،تلك التى كانت ستحدث لو فضل بعضهم على بعض، كما نلحظ على التقسيم العدالة المطلقة التى سوت بين من كلفوا من قبل القائد الأعلى بمهام يقومون بها لصالح الجميع وبين من قاتلوا بأنفسهم فى ميدان المعركة ،وإن ننس فلا ننسى ونحن نتحدث عن العبر المستفادة من تقسيم النبى للغنيمة،الإشارة إلى تلك الرعاية السامية التى خص بها النبى محمدٌ أسر شهداء "بدر" فقد أعطى ورثتهم أنصبة شهدائهم فى الغنيمة؛حتى يواسيهم من ناحية،ويعينهم بها من ناحية أخرى فيكون المسلمون والحالة هذه قد سبقوا ما نراه فى عصرنا مما يقدم لأُسر الشهداء من خلال الجمعيات والمنظمات التى تُعنى بالمحاربين القدماء.

ولنا أن نتساءل عن أسباب اختلاف المسلمين حول توزيع غنائم بدر مع كون ذلك الأمر مسبوقاً بغنيمة حصلوا عليها من السرية التى قادها "عبد الله بن جحش" والتى أسلفنا الحديث عنها؛فإنه رضوان الله عليه خمسها قبل نزول آيات الخمس فأعطى النبى نصيبه؟

---

(٦٤) ابن هشام :سيرة النبى /جـ٢/٢٨٦ - البيهقى :دلائل النبوة /جـ٣/١٣٥،١٣٦ - البوطى :فقه السيرة /١٧٧.

والجواب عن ذلك فيمـــا أرى أن الذيـــن رافقـــوا "ابـــن جحـــش" فـــى سريته يعدون على الأصابع بخلاف الذيـــن كـــانوا مـــع النبـــى فـــى "بـــدر" فإنهم كانوا كـــثرة،إذا قارنـــاهم بـــأفراد الســـرية المذكـــورة؛فـــلا مـــانع أن يكون أفراد السرية اتفقوا علـــى مـــا أنفـــذه "عبـــد الله بـــن جحـــش" فـــى الغنيمة فقبله النبى -(ﷺ)-منـــــهم حيـــث لا اعـــتراض مـــن قبـــل هـــؤلاء الأعلام الذين رافقوا "ابن جحش"؛ لأنــــهم جميعـــاً شـــاركوا فـــى التصـــدى لعدوهم وتعاونوا على أسر من أسروا منهم بخلاف المســـــلمين فـــى "بـــدر" ؛فكان منهم من قاتل ومنهم من تولى حراسة النبـــى ومـــن ثـــم صـــار فـــى "بدر" مجال للـــرأى والـــرأى الآخـــر حـــول الغنيمـــة ،ولا مـــانع أن يكـــون اعتراض أهل "بدر" وتنازعهم حول الغنيمة ،لظنهم أن مـــــا تـــم فـــى شـــأن سرية "ابن جحش" أمر خاص لا ينســـــحب علـــى غـــيره مـــن الغـــزوات أو السرايا حيث كانت غنيمتهم فى يوم من الشهر الحـــرام كمـــا أســـلفنا ذلـــك فلعل الذى أسلفناه هو الـــذى صـــرف المســـلمين فـــى "بـــدر" عـــن الأخـــذ بتقسيم "ابن جحش "للغنيمة مع موافقة النبـــــى عليـــه.

ثالثـا: موقـف النبـى من أسرى بـدر

لم يسبق للمسلمين أن وقـــع فـــى أيديـــهم هـــذا العـــدد الكبـــير مـــن الأســـرى قبـــل "بـــدر"؛فإنـــهم اعتقلـــوا ســـبعين مشـــركاً معظمـــهم مـــــن وجهاء"مكة" وسُراتها وأولى الفخر بين أهلها ،فلمـــــا رآهـــم النبـــى محمـــد أوصى بهم خيراً ووزعهم على عدد من الرجـــال حتـــى يحفظوهـــم إلـــى أن يصلوا "المدينة" فيروى "أبو عزيز بن عمير "وقد كـــــان مـــن حملـــه لـــواء

الشرك فى "بدر" قبل أسره أنه عومـــل معاملـــة طيبـــة مـــن الذيـــن تولـــوا حراسته؛فآثروه على أنفسهم بطيـــب الطعـــام.(فكـــانوا إذا قدمـــوا غدائـــهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر لوصيـــة رســـول الله -(ﷺ)-إيـــاهم بالأســـرى فما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا دفع إليـــه بـــها فيســـتحى،فيردهـــا عليهم ولم يمســـها)(١٥).

فهذا الاعتراف الذى جـــرى بـــه لســـان أحـــد الأســـرى "يـــوم بـــدر" يوضح لنا فى جلاء كيف أن النبى محمـــداً علـــم المســـلمين مـــا للأســـرى من حقوق على من أســـروهم فيجـــب العمـــل علـــى راحتـــهم مـــن حيـــث المأكل والمشرب والملبس وألا يعمدوا إلـــى تعذيبـــهم أو التمثيـــل بـــهم لأن ذلك يتنافى وأخلاق المســـلمين فـــها هـــو ذا عمـــر بـــن الخطـــاب يقـــول لرسول الله -(ﷺ)-يا رسول الله دعنى أنـــزع ثنيتـــى ســـهيل بـــن عمـــرو يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطـــن أبـــداً؛ فقـــال رســـول الله :[لا أمثل به ؛فيمثل الله بى وان كنت نبيـــا ،ولعلـــه يقـــوم مقامـــاً لا تكرهـــه]؛ فقام "سهيل بن عمرو" حين جاءه خـــبر وفـــاة النبـــى-(ﷺ)-فـــى المكييـــن خطيبا يحثهم علـــى اســـتمرارية تمســـكهم بالإســـلام، ويحذرهـــم مـــن ردة تعود بهم إلى ظلام الوثنية؛لأن الديـــن الجديـــد الـــذى اعتنقـــوه لا يرتبـــط بحياة محمد -(ﷺ)-فالناس فيه يعبدون الواحد الديـــان البـــاقى بعـــد فنـــاء المخلوقين؛فوافق مضمون مقولته خطبة "أبـــى بكـــر" التـــى ألقاهـــا عقـــب وفاة النبى تلك التى تلا فيها بحضرة "عمـــر بـــن الخطـــاب". (وَمَـــا مُحَمَّـــدٌ إلا رَسُولٌ قَد خَلَتْ مِنَ قَبْلِهِ الرَسُـــلُ أفئـــن مَـــاتَ أَوُ قُتَـــلَ انْقَلَبْتُـــهم علـــى

---

(١٥) ابـــن هشـــام :الســـيرة النبويـــة /جـــ٢/٢٨٨، ٢٨٩ - أبـــو شـــهبه :الســـيرة النبوية/جـــ٢/١٥٣.

أَعْقَابِكُمْ[٦٦].فلما :بلغت مقولة "سهيل بن عمـــرو " "وعمـر بـن الخطـاب " وهو "بالمدينة" أعاد إلى ذهنه ما كان النبى محمد قـد قـال لـه فـى شـأن الرجل لعله يقوم مقاماً لا تكرهه فقال عمر:أشـــهد أنـك رسـول الله.[٦٧]

ومهما يكن من أمر فإن النبى محمداً أرسـل "عبـد الله بـن رواحـة" بشـيراً إلـى أهـل "العاليـة" بمـا فتـح الله علـى رسـوله وعلـى المسلمين،وبعث "زيـد بـن حارثـة " إلـى أهـل "السـافلة " بمثـل ذلـك ،فخرجت "المدينة " عن بكرة أبيـها وقـد أنشـد صغـار أبنائـها الأناشـيد احتفالا بعودة[٦٨] المسـلمين مظفريـن مـن "غـزوة بـدر الكـبرى".فلمـا دخلوا "المدينة" والأسارى معهم فزعت أم المؤمنيـن "سـودة بنـت زمعـة" رضى الله عنها حين رأت [أبـا يزيـد سـهيل بـن عمـرو "فـى ناحيـة الحجرة مجموعة يداه إلى عنقه.بحبـل؛ فقـالت: أىْ "أبـا يزيـد "أعطيتـم بأيديكم،ألا متم كراماً؛ فوالله ما أنبـهنى إلا قـول رسـول الله -(ﷺ)-مـن البيت "يا سوده" أعلى الله ورسوله تحرضين"؟قـالت:فقلـت:يـا رسـول الله والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت "[أبـا يزيـد" مجموعـة يـداه إلى عنقه أن قلت ما قلـت][٦٩] .

---

[٦٦] سورة آل عمران :آية (١٤٤).

[٦٧] ابن هشام السيرة النبوية جـ٢/صـ٢٩٣ ،المقريـزى :إمتـاع الأسـماع /٩٧ ، - الخضرى :نور اليقين /١١٥.

[٦٨] ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ٨/١-٤٠.

[٦٩] ابن هشام :سيرة النبى /جـ ٢٨٨/٢.

لم يشأ النبى محمد -(ﷺ)-الانفراد بإتخاذ قــرار فــى شــأن الأســرى بعد أن دخل المســـلمون إلــى "المدينــة"؛فعــرض قضيتــهم علــى بســاط المناقشة والبحث حتى يرى المسلمون فيهم رأيــاً صائبــاً، وهــذا فيــه مــا فيه من الشورى التى تجعل المجتمـــع بأســره شــريكاً فعليــاً فــى اتخــاذ القرارات الحاسمة التى تخصه،فأى حريــة أعظــم مــن تلــك التــى كفلــها النبــى محمــد للرعيــة فــى الدولــة الإســلامية وهــى مــا تــزال فــى بواكيرها!!!،أغلب ظنى أنها لا توجد فى عصرنــا الحــاضر حريــات تدانــى هذه الحرية التى ســوت بيــن الحــاكم والمحكــوم فــى اتخــاذ القــرارات المصيريــة.

وفى هذه الجلسات رأى النبى نفسه أمــام اتجــاهين متعــارضين فــى شأن الأسرى مَثَّل الاتجاه الأول؛"أبو بكــر الصديــق" الــذى قــال لرســول الله : قومك وأهلك استبقهم واستأنهم لعــل الله أن يتــوب عليــهم).

ومَثَّل الاتجاه الثانى"عمر بن الخطاب" و"عبــد الله بــن رواحــة "فقــال **الأول** :(يا رسول الله كذبوك وأخرجوك قدمــهم فــاضرب أعناقــهم).وقــال **الثانى**: (يا رسول الله ،انظــر واديــاً كثــير الحطــب فادخلــهم فيــه ثــم أضرمه عليهم نــاراً).

قال:فقال "العباسى": قطعت رحمك! وأخــذ الجميــع يرقبــون رســول الله وهو صامت لا ينطق بكلمة بعد الــذى ســمع مــن هــذه الآراء،فقــالت جماعة يأخذ برأى "الصديق"،وقالت أخرى :يأخذ بــرأى "عمــر"،ولــم يطــل انتظارهم حتى خرج عليــهم رســول الله -(ﷺ)-قــال لــهم :(إن الله عــز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكســو ألیــن مــن اللبــن ،وإن الله عــز

وجل ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة،وإن مثلك يا "أبا بكر" مثل "إبراهيم"،قال :(فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٧٠) ومثلك يا "أبا بكر" مثل "عيسى" قال :(إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٧١). ومثلك يا "عمر" مثل "نوح"قال :(رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِيْنَ دَيَّاراً(٧٢) . ومثلك كمثل "موسى" ، قال :(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٧٣) ثم قال رسول الله –(ﷺ)- :أنتم اليوم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق،قال"عبد الله بن مسعود": إلا "سهيل بن بيضاء"، فإنى سمعته يذكر الإسلام .فسكت رسول الله –(ﷺ)–فما رأيتني فى يوم أخوف أن تقع على الحجارة من السماء منى فى ذلك اليوم حتى قال رسول الله –(ﷺ)–:إلا "سهيل بن بيضاء (٧٥)" فأنزل الله عز وجل :"مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخرة واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ،لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُم عَذَابٌ عَظِيمٌ"(٧٦).

---

(٧٠) سورة إبراهيم :آية ٣٦.

(٧١) سورة المائدة :آية ١١٨.

(٧٢) سورة نوح:آية ٢٦.

(٧٣) سورة يونس :آية ٨٨.

(٧٥) الطبرى :تاريخ الرسل والملوك /جـ٢/٤٧٦ –القرطبى /جـ٤/ ٢٩٧١، ٢٩٧٦ – الألوسى:روح المعانى/جـ١٠/٣٣ ابن حجر : فتح البارى/جـ٧ /٣٧٧.

(٧٦) سورة الأنفال :آية ٦٧،٦٨.

فأنت ترى القرآن الكريم قد نزل مؤيداً لرأى "عمـر" الـذى قالـه فـى شأن قضية الأسرى ومـع ذلـك فإنـه يعلـم النبـى والصديـق فعفـى الله عنهما وعمن كان مثلهما فى الاجتهاد حول كل قضية لـم يـرد بـها نـص قاطع من الله سبحانه وتعالى أو مـن الرسـول -(ﷺ)-.

وظل المعسكران المسلم والمشرك يرقبـان مـا سـيكون بعـد الحكـم الـذى أصـدره النبـى محمـدُ -(ﷺ)-فـى حـق الأسـرى ،فالمسـلمون ينظرون الفداء الذى يأتيـهم مـن قريـش،والمشـركون المكيـون يـأبون المسارعة فى تقديم الفداء حتى ينظـروا مـا سـيكون مـن أمرهـم مـع محمد فتواصوا بذلك .بيد أن "المطلب بن وداعـة بـن ضـيرة" لـم يـأخذ بوصية قومه فتسلل إلى "المدينة" يريـد فـداء أبيـه "وداعـة بـن ضـيرة السهمى " ففداه من المسلمين بأربعـة آلاف درهـم [٧٧].

ومنذ ذلك الوقت أخذ كل قرشى يسلك وسيلةً خاصـةً بـه فـى شـأن أسيره الذى فى أيدى المسلمين فهذا أبـو سـفيان،الـذى أسـر المسـلمون ولده "عمر"يسأله بعض "القرشيين" ألا تفتدى ولـدك؟ قـال : أيجمـع علـى دمى ومالى؟ قتلوا حنظلة وأفدى عمر؟، دعوه فـى أيديـهم مـا بـدا لـهم فبينما هو كذلك محبوس "بالمدينة" عنـد رسـول الله ﷺ إذ خـرج" سـعد بن النعمان بن أكال "أخو" بنى عمرو بن عوف" وكـان شـيخاً مسـلماً فـى غنم له بالنقيع،فخرج من "المدينـة" معتمـراً،وهـو لا يظـن أنـه يحبـس "بمكة"،إنما جاء معتمراً،وقد كان عـهد قريـش،لا يعـترضون أحـدا جـاء

---

[٧٧] ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ١/١١٤

حاجاً أو معتمراً إلا بخير،فعـــدا عليــه"أبــو ســفيان بــن حــرب" "بمكــة" فحبسه بابنه عمرو ومشى بنـــو "عمــرو بــن عــوف"إلــى رســول الله – (ﷺ)– فأخبروه خـــبرهم،وســألوه أن يعطيـــهم "عمــر بــن أبـــى ســفيان" ؛فيفكوا به صاحبــــهم؛ففعــل رســول الله –(ﷺ)–فبعثــوا بـــه إلـــى "أبـــى سفيان" فخلى سبيل "سعد"[٧٨]ومن نافلة القول الإشـــارة إلـــى بشــاعة هــذا الفعل الذى قام بـــه "أبــو ســفيان" مــن الغــدر بزائــري الكعبــة لإرغــام المسلمين على إطلاق سراح ولده بلا فـــداء .فـــهذا الموقــف المستبشــع لا يقارن بذلك الموقف الحسن الذى وصى النبى بـــه أصحابـــه بـــأن يحســنوا إلى أسراهم وهم على غير دينــــهم.

وفى هذه أيضاً موقف عظيم للنبـــى محمــد فقــد رق لجماعــة "ســعد بن النعمان "فوافق على إطلاق سراح ولدَ أبـــى ســفيان" حتـــى تقــر عيــن هذه الفئة المسلمة برؤية "سعد" وقد عاد إليـــها ســليماً معافــا بعــد الــذي أصابه على يدى "أبى ســـفيان".

فهذا إن دل على شئ فإنما يدل علـــى أن المســـلمين لـــم يعلــوا فـــى يوم ما أمر تحصيـــل المـــال علـــى مراعـــاة شـــعور الجماعـــات المؤمنـــة ومصلحتهم.ولم يكن رســـول الله ﷺ فـــى قبولـــه الفــداء مــن الأســرى يفرق بين من تربطه بهم أواصر قربى وبيـــن غـــيرهم ،فيذكــر الــرواة أن "العاص بن الربيع" زوج زينب "بنـــت"النبـــى محمــد ﷺ كـــان مـــن بيـــن أسرى المشركين فى "بدر"؛ فلما أنشأت قريـــش تبعــث فـــى فــداء أســـراها

---

[٧٨] ابن هشام: سيرة النبى /جـ٢/٢٩٤،٢٩٥ – المقريزى:إمتاع الأسماع/٩٦.

واحداً بعـــد آخـــر،رقـــت "زينـــب" لزوجـــها وأشـــفقت عليـــه وهـــو فـــى أسره؛فأرسلت بقلادة لها لتفـــدى بـــها أســـيرها.كـــانت "خديجـــة" أدخلتـــها معها فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقـــة شـــديدة.وقـــال:إن رأيتـــم أن تطلقوا لها أســـيرها وتـــردوا عليـــها الـــذى لـــها فـــافعلوا،فـــأطلقوا لـــها أسيرها،وردوا القلادة[٧٩].وقد شرط لرســـول الله أن يخلـــى ســـبيل "زينـــب" إليـــه،فقـــدم "أبـــو العـــاص" "مكـــة"،وأمـــر "زينـــب" باللحـــاق برســـــول الله؛فتجهزت وقـــدم لـــها حموهـــا "كنانـــة بـــن الربيـــع" وزوجـــها بعـــيراً فركبته.وعادت إلى "المدينة" على الرغم من محاولـــة قريـــش منعـــها مـــن ذلك،وقد ردها النبى محمـــــد -ﷺ- لزوجـــها بالنكـــاح الأول قبـــل الفتـــح المبين،بعد ما دخل زوجـــها الإســـلام[٨٠].

وهاهو ذا "العباس" يـــأبى رســـول الله -ﷺ- إطـــلاق ســـراحه قبـــل أن يدفع الفداء كغيره من الأسارى؛فلم يقبل قولـــه إليـــه:"والله؛مـــا خرجـــت مع قريش مقاتلاً،ولكـــن القـــوم اســـتكرهونى،وقـــد كنـــت مســـلماً" فقـــال الرســـول ﷺ-:[الله أعلـــم بمـــا تقـــول إن يكـــن مـــا تقولـــه حقـــاً،فـــالله يجزيـــك،ولكـــن ظـــاهر أمـــرك أنـــك كنـــت علينـــا!فـــافتد نفســـك وابنـــى أخيك،"عقيل بن أبى[٨١] طالب" و "نوفل بن الحـــارث"وافتـــد حليفـــك "عتبـــة

---

[٧٩] ابن هشام:سيرة النبى/جـ٢/٢٩٧ - ابن الأثير الكامل/جـ٢/١٣٤ - محمد الخضـرى :نور اليقين /١١٤.

[٨٠] ابن الجوزى :المنتظم /جـ٢/٢٢٩.

[٨١] ابن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى،يكنى أبا يزيد، أسلم قبل الحديبية،وشـهد غزوة مؤته؛وهو فيمن ثبت يوم حنين مع رسول الله ﷺ -،كان أعلم أهل قريش بأنســابهم

بن عمرو"،قال العباس:[ما عندي مال أفتديهم بـه يـا رسـول الله !] قـال النبى ﷺ فأين المـال الـذى كنـت خبأتـه أنـت و"أم الفضـل" (زوجـة العباس) وقلت لها إن أصبت فى سـفرى؛ فـهذا المـال لأولادك:"الفضـل"، "عبد الله" وقثـم؟!

قال العباس:" والله يا رسول إنـى لأعـرف أنـك رسـول الله !!"والله إن هذا لشيء ما يعلمه أحد غيرى وغير أم الفضـل[٨٢]! فأحسـبه لـى يـا رسول الله بما أصبتم منى:فقد أخذتم منى عشرين أوقيـة مـن فضـة فـى هذه المعركة !،قال النبـى ﷺ-:"لا، ذاك شـئ أعطانـاه الله تعـالى!-فلـم يجد "العباس" بدا من أن يفدى ابنى أخويه وحليفـه مـع فـداء نفسـه.[٨٣] ثم نزل على النبى محمد- ﷺ -بسـبب ذلـك قولـه تعـالى : (يـا أيـها النبى قل لمن فى أيديكـم مـن الأسـرى إن يعلـم الله فـى قلوبكـم خـيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفـر لكـم والله غفـور رحيـم ٤ [٨٤] فنحـن نرى مساواة كاملة بين أقرباء النبـى محمـد -ﷺ- مثـل العبـاس"وزوج

وأيامهم - روى عنه غـير واحـد - توفـى فـى خلافـه معاويـة ابـن الأثـير:أسـد الغابة/جـ٣/٥٥٩،٥٦٠،٥٦١،٥٦٢

[٨٢] لبابة بنت الحارث الهلالية - أسلمت قبل الهجرة،وقيل أنـها أول امـرأة آمنـت بعـد خديجة،روت عن النبى ﷺ -روى عنها غير واحـد -مـاتت فـى خلافـة عثمـان/ابـن حجر:الإصابة/جـ٤/٤٨٣،٤٨٤.

[٨٣] ابن الأثير:الكامل /جـ٢/١٣٢،١٣٣ - الناجى :سيرة النبى /جـ١/٤٥٥،٤٥٦ - أبـو شهبه:السيرة النبوية :/جـ٢/١٦٠

[٨٤] سورة الأنفال - آيه (٧٠).

ابنته وبين سائر الأسرى؛ فالنبى لم يستغل الموقف لصالحه بصفته رسول الله وقائدا للدولة،ففوض الأمر إلى المسلمين الذين كان بأيديهم "العاص" زوج ابنته ليروا فيه ما يريدون،ويأبى قبول اعتذار "العباس" ويجابهه بالحجج الدامغة التى تزيد المسلمين إيماناً على إيمانهم،وتجعل عَمَهُ يبادر بإجابته إلى الفداء الذى فرض عليه وعلى غيره من أقربائه الذين ليس لديهم المال الذى يفدون به أنفسهم من المسلمين.

ولم تكن معجزة النبى مع عمه "العباس" بالمعجزة الوحيدة التى حدثت فى قضية" "أسرى بدر"؛ فإن رواة السيرة يذكرون لنا معجزةً أيد الله بها نبيه وهو يعالج أمر الأسرى،وذلك أن قُريشاً عاشت بعد ما وضعت "حرب بدر" أوزارها،وقد صارت أفئدة رجالها تغلى غليان المرجل،وتتحرك حقداً على محمد وأصحابه؛تريد النيل منه اليوم قبل غد؛فجاء "عمير بن وهب الجمحى" إلى "صفوان بن أمية" بعد مصاب أهل بدر" من "قريش"بيسير وجلسا فى الحُجر، وكان "عمير بن وهب" شيطاناً من شياطين قريش،وكان ابنه"وهب بن عمير" فى أسارى بدر ؛فذكر أصحاب "القليب" ومصابهم،فقال صفوان :ليس فى العيش والله خير بعدهم.قال له "عمير": صدقت أما والله لولا دَيْنُ على ليس له عندى قضاء ،وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ،لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لى فيهم علة،ابنى أسير فى أيديهم، فاغتنمها صفوان؛فقال: علىَّ دينك،أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم

ما بقوا ،ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسمّه،ثم انطلق حتى قدم "المدينة"؛ فبينما "عمر بن الخطاب"فى نفر من المسلمين يتحدثون عن "يوم بدر"،ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم ،إذ نظر "عمر" إلى "عمير بن وهب" حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف ؛فقال :هذا الكلب عدو الله "عمير بن وهب" ما جاء إلا لشر ،وهذا الذى حرشَ بيننا وحزرنا للقوم "يوم بدر"، ثم دخل"عمر"إلى رسول الله ﷺ -فقال :يا نبى الله ! هذا عدو الله"عمير بن وهب" قد جاء متوشحاً سيفه،قال:فأدخله علىّ،قال :فأقبل "عمر" حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه ؛فلبَّبَه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :ادخلوا على رسول الله ﷺ -فاجلسوا عنده واحذروا عليه هذا الخبيث،فإنه غير مأمون ثم دخل به على رسول الله ﷺ -فلما رآه رسول الله ﷺ-و"عمر"أخذ بحمالة سيفه فى عنقه.قال:أرسله يا "عمر" أُدْنُ "يا عمير" ؛فدنا،ثم قال: أنعموا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم؛فقال رسول الله ﷺ -:قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا "عمير"، بالسلام تحية أهل الجنة، قال:أما والله إن كنت بها يا "محمد" لحديث عهد،قال فما جاء بك" يا عمير" قال :جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم ؛فأحسنوا فيه .قال : فما بال السيف فى عنقك ؟قال:قبحها الله من سيوف ،وهل أغنت عنا شيئاً!قال: أصدقنى،ما الذي جئت له؟-قال:ما جئت إلا لذلك .قال:بلى ،فأخبره النبى محمد بما كان بيَّت فعله بالنبى مع "صفوان بن أمية"؛فلم يتمالك"عمير بن وهب"

نفسه فراح لسانه ينطق بالشهادتين معلناً نبـذ الشـرك ودخـول الإسـلام!! فسر بذلك النبى محمـد ﷺ-وأمـر المسـلمين بتثقيفـه وإطـلاق سـراح أسيره؛فنزل خبر إسلامه على " صفـوان بـن أميـة " نـزول الصاعقـة!! فأقسم ألا يحدثه أبداً حتى يمـوت(٨٥)

مما تقدم يرى القارئ الكريم كيـف أن رسـول الله ﷺ -أعلـم"ابـن وهب"بأمر ليس من سبيل لوقـوف رسـول الله ﷺ عليـه إلا بـإعلام الله إياه بواسطة جبريل عليه السـلام!! فكـانت هـذه المعجـزة آيـةً جعلـت الرجل يذهب إلى "مكة" معتنقاً لديـن جديـد، الأمـر الـذى لامـراء يثـير تساؤلات لدى ذوى الألبـاب مـن المكيين المخدوعين بسـطوة الآبـاء وأموالهم ؛فيفكروا فى الإسلام مـن جديـد.

ولسوف يرى القارئ فى أكثر من موضع تـالٍ أن عـدداً منـهم أخـذ يعتنق الدين الإسلامى بعد المعجزات التـى رأوهـا وقعـت ،وتقـع للنبـى محمد من الله تأييداً لـه.

والدارس لموقف المسلمين مـن "أسـرى بـدر" يجـد أن رسـول الله ﷺ -راعى الأحوال الاجتماعية لهؤلاء الأسـرى فـيراه يبـدى تصميمـاً على دفع الفداء من ذوى اليسار منهم،ويقبـل فـى الوقـت ذاتـه اعتـذار المعتذرين عن دفع الفـداء نظـراً للإمـلاق الـذى يعيشـون فيـه "بمكـة" فيذكر المؤرخون أن ثلاثة رجال من الأسرى أطلـق النبـى سـراحهم دون

---

(٨٥) ابن الجوزى:المنتظم /جـ٢/٢٣١،٢٣٢،- ابن الأثير الكامل /جـ٢/١٣٥،١٣٦ ،-ابن سيد الناس:عيون الأثر/جـ١/٤١٣، ٤١٤.

أن يأخذ منهم الفداء،منهم :"المطلب بن حَطَّب، و"صيفى بن أبى رفاعة،و"أبو عزة الجمحى"، الذى كان فقيراً ذا عيال فقال : يا رسول الله لقد عرفت مالى من مال،وإنى لذو حاجة وذو عيال،فامنن على،فمن عليه رسول الله، وأخذه الميثاق منه أن لا يظاهر عليه أحداً؛فتعهد بذلك ومدح الرسول بشىء من شعره.

ثم لم يلبث أن أغراه المشركون بهجاء النبى والمسلمين؛ففعل بعد أن تمنع،وصار يؤلب على المسلمين لأجل "أحد"،وقد حضر الموقعة فأسر؛فسأل النبى أن يمن عليه ؛فقال له:" لا أدعك تمسح عارضيك "بمكة" وتقول :خدعت مُحمداً مرتين "ثم أمر به؛فضُربت عنقه،وقيل :إن رسول الله -ﷺ-قال له :(لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين) [٨٦]

وهكذا ترى رسول الله ﷺ يُعامل الأسرى معاملةً راقيةً انبنت على العدالة والمساواة بينهم ولم يحرم من تلك المعاملة العظيمة النبيلة إلا رجلين هما :"النضر بن الحارث"وعقبة بن أبى مغيظ"؛ذلك أن رسول الله ﷺ -قد وصى عليهما المسلمين قبل "بدر" لما قاما به من أعمال مستبشعه فى حق النبى "محمد" ثم المسلمين .

فيروى الثقاة عن النبى محمد صلاة الله عليه وسلامه أن "عقبة بن أبى مغيظ " وضع قدمه على عنق الرسول ﷺ-وهو ساجد إلى ربه حتى كادت عينا النبى محمد ﷺ-تخرجان من مكانهما وكان

[٨٦] أبو شهبه:السيرة النبوية /جـ٢/١٦١- ،المقريزى :إمتاع الأسماع /٩٧.

يهتبل فرصة السجود فيرمى عليه رحم الشاه المذبوحة وما ترك الرجلان فرصة واتتهما للنيل من النبي محمد ﷺ -إلا واهتبلاها؛ فكانا إيذاؤهما للنبي والمسلمين أشد من أذى غيرهما. فلما وقعا في الأسر أجهز المسلمون عليهما، وقد اختلف الرواة في الذي تولى قتلهما من المسلمين فمنهم من قال "علي" ومنهم من قال "عاصم بن ثابت". ولما كان هذا الخلاف لا يتعلق بأمر جوهري يؤثر في موضوع الدراسة؛ فإننا نغض الطرف عنه إذ الذي يعنينا هنا الإشارة إلى أن النبي خصّ الأسيرين المذكورين بالقتل دون غيرهما للسبب الذي ذكرنا ولا يعد هذا تميزاً للبعض من الأسرى، وأنما يعد رداً لاعتداء وقع على النبي والمسلمين بشكل فاق به الرجلان الأسرى الآخرين؛ فاستحقا ما استحقا من القتل بعد الأسر !!

ومع هذا الاعتداء الصارخ الذي وقع على النبي منهما؛ فإنه لما سمع مقالة "أخت النضر بن الحارث":

يا راكبا إنّ الأثيل مظنّة ∴ من صبح خامسة وأنت موفق.

ومما قالت :

هل يسمعنّ النضر إن ناديته ∴ أم كيف يسمع ميت لا ينطق.

أمحمد يا خير ضنء كريمة ∴ من قومها والفحل فحل معرق.

ما كان ضرك لو مننت وربما ∴ مَنّ الفتى وهو المغيظ المحنق.

أو كنت قابل فدية فلينفقن ∴ بأعز ما يغلو به ما ينفق.

فلما بلغ رسول الله -ﷺ-هذا الشعر قـــال :(لـو بلغنـي هـذا قبـل قتله لمننت عليــه[٨٦].

وبعد هذه القراءة لتاريخ الأسلاف فـي بـدر مـن حقنـا أن نتسـائل عن الأسباب التى جعلت الفئــة القليلــة المســلمة تحــرز الانتصــار علــى الفئة الكثيرة المشــركة.

أسباب الانتصار فى بــدر

من اليسير على القارئ الكريم /إن هـــو أراد/تلمــس الأســباب التــى جعلت المسلمين يُحرزون الانتصار بــالرغم مــن قلتــهم علــى المشــركين فى بدر وهم الذين تحصنــوا بفرســانهم ودروعــهم وســيوفهم ورماحــهم ونبالهم فإن هذه الأسباب فيما أرى تتلخص فيمـــا يلــى:

١-تأييد الله لنبيه محمد- ﷺ-بشـــكل يعيــن رســوله فــى دعوتــه الناس إلى هذا الدين الحنيف فأنزل الملائكــة لمُــؤازرة المؤمنيــن وألقــى الرعب فى أفئـــدة المشــركين وأرى أتباعــه مواضــع مصــارع صنــاديد الكفر،فكانت كما قال،ونزول الماء على المسلمين بعـــد طــول ظمــأ فثبـت الأرض من تحت أقدامهم وأوحلها من تحــت أقــدام أعدائــهم.

كل ذلك لا مراء جعـــل المســلمين يــزدادون إيمانــاً علــى إيمانــهم ويضع علامات استفهام لا مراء دارت فـــي خلــد أعدائــهم؛فتســاءلوا فــى داخلهم،لو كان محمد كاذباً فكيف يقع له مـــا رأينــا بأعيننــا؟

---

[٨٦] ابن الأثير: الكامل/جـ٢/١٣٠،١٣١ -،ابن كثير :البداية والنهاية /جـ٣/٣٠٥، ٣٠٦ -، التاجى :سيرة النبى /جـ١/٤٤٦،٤٤٧-، هيكل :حياة محمد /٢٨٢.

٢-الدور البارز الذى لعبته العقيدة فى قوة الفريقين ومن ثم حسم المعركة؛فالمسلمون رأوا آيات وآيات أيد الله بها نبيه كما قلنا وأيقنوا أنهم فى حربهم هذه سيحرزون مكسباً عظيماً فى دنياهم وأخراهم،فإن كتبت لهم الحياة مع نصر أحرزوه أكسبهم ذلك فخراً بين المُجتمعات المحيطة بهم ورد إليهم كرامتهم بالثأر من رجال غالوا فى الاعتداء عليهم إلى حد إهدار آدميتهم،وإن هم استشهدوا وجدوا ما وعدهم به النبى محمد فى أُخراهم من جنة عرضها السموات والأرض؛فحياة الشهداء حياة منعمة كما فهموا ذلك من القرآن الكريم الذى نزل به جبريل الأمين على سيد المرسلين،ومن ثم فقد انطلق المسلمون يُقاتلون أعداءهم وهم لا يبالون بزخرف الحياة وزينتها وإنما يطمعون فى جنة تبقى لهم ومن هنا كانت بسالتهم.

أما المشركون؛فإنهم انطلقوا من بلادهم ليدافعوا عن رصيد مادى ظنوا فيه قوةً "ومنعةً" تكفلان لهم حياة كريمة؛فلما نجت قافلتهم التى حوت كل رصيدهم المالى أيقنوا ألا جدوى من الاستمرار فى قتال محمد -ﷺ-.

والذى منعهم من الأخذ بهذا الرأى الذى أخفوه فى داخلهم النعرة القبلية القرشية؛فقد اعتقدوا فى الرجوع ضياعاً لسيادة قبيلتهم المعترف بها من قبل قبائل الجزيرة العربية وأنهم إن عادوا دون قتال فسوف يكونون موضع استهزاء ممن بقى فى "مكة" من قومهم والقبائل المحيطة بهم.

فهم إذاً كما رأينا لا يقاتلون عن مبدأ قوى يبعث فيهم كوامن الاستبسال والاستشهاد في المعركة.ومن هنا كان الرجل المسلم باثنين أو أكثر من المشركين،فإن العسكريين أجمعوا على عظم تأثير الناحية المعنوية على الجندى أكثر من السلاح الذى يدافع به عن نفسه،وذلك الذى كان فى "بدر" حين هزمت الفئة القليلة الفئة الكثيرة.

٣-التنافس على القيادة:- إن الجيش القرشى الذى غادر "مكة" إلى "بدر" ضم بين أفراده وجهاء "أم القرى" وسُراتها وهؤلاء من ذوى الأَنَفَة بين أهلها،وقد جعل هذا الأمرُ الجيشَ المكى يقاتل دون قائد واحد يحكم أمره ويدبر شئونه فى ميدان الحرب،وإنما دخل المشركون "المعركة" وقد حاول كل رجل من وجهاء "مكة" إظهار نفسه أمام منافسيه أنه مسموع الكلمة أكثر من غيره بكثرة الرجال الذين يلتفون حوله،فجعل هذا الأمر الجموع الغفيرة قليلة التأثير أمام الجمع المسلم القليل،فإنهم نزعوا الأناة من بينهم وانصهروا فى بوتقة واحدة لا تريد إلا عدوهم يأتمرون بأمر نبيهم،ولا آمر لهم سواه،لا يبتغون إلا الله والدار الآخرة،فكانوا أصحاب الكلمة العليا فى "بدر"حيث لم يغتروا كما اغتر المشركون،ولم يعتزوا بشىء سوى اعتزازهم بدين حملوه بين جنوبهم.

٤- المسئولية التى أحس بها المسلمون حين قدموا إلى "بدر" جعلتهم مجتهدين فى سبيل تسخير إمكاناتهم العقلية واستغلال جغرافية المكان،من أجل إحراز الانتصار على المشركين ،فقد رأى النبى ذلك فيهم،فاستثمره لصالحهم،فشاورهم فيما يريدون فعله بعدما علموا بنجاة العير وخروج قريش إليهم،وأخذه برأى الحباب بن المنذر" "وسعد بن معاذ" فأحس كل واحد من المسلمين أنه موضع اعتبار من القائد الذى ينظر إليهم بعين المساواة ، فتعاونوا فيما بينهم تعاوناً قـا على المؤاخاة التى جعلت المهاجرين والأنصار يواجهون الأعداء على قلب رجل واحد أو كالجسد الواحد!! بخلاف المشركين الذين قاتلو على غير إخلاص من بعضهم لبعض،يدلك علي ذلك هذا الموقف الذي وقفه "عتبة بن ربيعة" فى قومه بعدما نزلوا "بدراً"،فقد دعاهم إلى العودة والمسالمة،وهذه المعارضة التى جابهه بها "أبو جهل" لا لشىء سوى أن يُسفهِ رأيه بين قومه ويثبت انه صاحب الكلمة العليا علي عتبة .

ومن ثم ، اعتمدت بعض الجماعـــات علـــى بعضـــها وانعدمـــت روح المسئولية التضامنية عند المشركين فى وقت قويت فيه عنـــد المســـلمين — كما قلنا — مما كان له أثر عظيم فى انتصار المؤمنين على المشركين لتبقـى صفحة " بدر " مُشرقةٌ شمسها تُرِى الأجيال المتلاحقة الرسولَ القائدَ والمعلمَ ، وأتباعه الذين ضربوا المثل النادر فى البسالة والفداء ، وتريهم كذلـــك ألا يعتزوا إلا بالله ؛ فالاعتزاز به في الحرب والسلم هو السبيل الوحيد للنصـــر والتوفيق ، ومن خالف ذلك ، كان مآله الخسران المبين .

هذا ويعيش المسلمون فى ظل النبـــى – ﷺ- مرحلـــة جديـــدة بعـــد بدر ، تحيط بـــهم مواقـــف ومواقـــف تعـــامل معـــها النبـــى والمســـلمون بحكمة عظيمة تلك التى سيطالعها القارئ الكريـــم فـــى الصفحـــات التاليـــة التى يذكر موقف المسلمين بين بـــدر وأحـــد .

بين بدر وأحـــد :

كان من الطبعى أن يحدث رد فعـــل بيـــن "قريـــش " وحلفائـــها إثـــر انتهاء " غزوة بدر الكبرى " ، فكان منهم من يـــرى فـــى الرســـول خطـــرا على سيادته فى قبيلته ومنـــهم مـــن منـــى نفســـه بعقـــد محالفـــات بيـــن المناوئين لمحمد– ﷺ-حتى يعودوا إلـــى منازلتـــه مـــرة أخـــرى ، لعلـــهم يدركون بها وترهم ويعيدون سيادتهم المسلوبة فـــى " بـــدر " ومـــن ثـــمَّ ، فإن رسول الله –ﷺ- قد قام فى الحقبـــة الزمنيـــة الوجـــيزة بيـــن "بـــدر " و"أحد" بعدة سرايا على الجماعات المتاخمـــة "المدينـــة "، وبعـــض اليـــهود الذين ساكنوا المسلمين فيها ، فنقضـــوا العـــهود المبرمـــة بينـــهم وبيـــن المسلمين . ومن هذه الســـرايا .

غزوة الكــدر :

مكث رسول الله ﷺ- فى "المدينة " بعد قفوله مـــن بـدر سـبع ليـال ثم خرج يريد "بنى سليم عندما علـم بعزمـهم مهاجمـة المدينـة فاسـتعمل "عرفطة سباع بن عرفة الغفارى" وقيل : " ابـن أم مكتـوم " ، فبلـغ مـاء من مياههم يقال له " قرقرة الكدر " ، فأقام عليه ثـلاث ليـال ، ثـم رجـع إلى " المدينة " و لم يلق كيداً و غنـم المسـلمون خمسـمائة بعـير حمـس فأخذ النبي الخمس ووزع الباقي علـى المجـاهدين (٨٨)

غزوة الســويق

و تشبه هذه الغـزوة فـي عصرنـا الحـاضر ، حـرب العصابـات ، ذلـك أن " أبا سفيان " لمـا رأي انـهزام قومـه فـي " بـدر " نـذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ، فخـرج فـي مـائتي راكـب من " قريش " ليبر بيمينه ، إلـى أن جـاء " المدينـة " ليـلاً بعـد " بـدر " بشهرين ، و اجتمع " بسلام بن مشكم " سيد بنـي النضـير " ، فطعـم منـه خبر الناس ، ثم خرج فـي ليلتـه ، فبعـث رجـالاً مـن " قريـش " إلـى " المدينة " فأتوا " العريض " ، فحرقوا نخلـها و قتلـوا " معبـد بـن عمـرو الأنصارى " و حليفاً له ، و عادوا ، و هو يعتقد أنه قـد بـر فـي يمينـه ، فلما علم الرسول-ﷺ- بالخبر ، سار الجيـش إليـهم ، فـأعجزهم ، أبـو سفيـان " و من معه ، فكـانوا يلقـون " جُـرب(٨٩)السـويق " ليتخففـوا

---

(٨٨) ابن هشام : سيرة النبي / جـ٢ / ٤٢١ ، ٤٢٢ - السهيلي : الروض الأنف / جـ٣ / ١٣٥ أحمد فريد وقفات تربوية / ٢٠١ - أبو شـهبه : السـيرة النبويـة / جـ٢ /١٨٣ الطهطاوي : نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز جـ٢ صـ ٨٣ .

(٨٩) وعاء من إهاب الشاة لا يوضع فيه إلا اليابس من الأشياء .
ابن منظور / لسان العرب ٠/ مادة جرب .

منها النجاة ، و كان ذلك عامـــة زادهـــم ، فلذلـــك ســـميت هـــذه الواقعـــة بغزوة الســـويق[٩٠].

غزوة غطفان أو ذي أمـــر

خرج النبي في سنه اثنتيـــن للـــهجرة إلـــى هـــذا المكـــان " النجـــد " حين علم أن جمعاً من " بنـــي ثعلبـــة " و " محـــارب " تجمعـــوا يريـــدون الإغارة علي المسلمين بقيـــادة ، " دعثـــور بـــن الحـــارث و المحـــاربي " وكـــان شـــجاعاً فنـــدب رســـول الله -ﷺ-أربعمائـــة و خمســـين فارســـا واستعمل علي " المدينة " عثمـــان بـــن عفـــان " فلمـــا ســـمعوا بمجيئـــه هربوا في رؤوس الجبل ، فرجع رســـول -ﷺ- و لـــم يلـــق كيـــداً و قـــد اعتقل المسلمون في هذه الغـــزوة رجـــلاً مـــن " بنـــي ثعلبـــة " يســـمي " جبار " فأدخل علي رسول الله -ﷺ-فدعاه إلـــى الإســـلام فاســـلم وضمـــه إلى " بلال " و من الآيات التى أيـــد الله بـــها نبيـــه فـــي هـــذه الغـــزوة ، إلقاء الرعب في قلوب من أرادوا الغدر به ،فإنه لمَّـــا اســـتقر " بـــذي أمـــر " و أصاب النبي -ﷺ- مطر ، فـــنزع ثوبيـــه و نشـــرهما علـــي شـــجرة ليجفا واضطجع تحتها و هـــم ينظـــرون ، " فقـــالوا لقـــائدهم قـــد انفـــرد محمد ، فعليك به فأقبل " دعثور "و معـــه ســـيفه حتـــى قـــام علـــي رأس رسول -ﷺ-الله ، فقال : مـــن يمنعـــك منـــي اليـــوم ؟ فقـــال-ﷺ- :الله ، فدفعه جبريل في صدره؛ فوقـــع الســـيف مـــن يـــده فـــأخذه النبـــي -ﷺ- فقال : " من يمنعك مني " ؟ قـــال : لا أحـــد ، و أنـــا اشـــهد أن لا إلـــه إلا

---

(٩٠) ابن الأثير : الكامل / جـ٢ / ١٣٩ ، ١٤٠ - ابن القيم : زاد الميعاد جـ٣/١٨٩ ، ١٩٠ أحمد غريد : وقفات تربوية / ٢٠١ .

الله وأنك رسول الله . ثم أتي قومه ،فدعاهم إلى الإسلام ،[٩١] و أنزل الله : (يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهَ عليكُمْ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أنْ يَبْسُطُوا إليكُمْ أيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أيْدِيَهُم عَنْكُمْ.[٩٢]

و يقال كان ذلك في ذات الرقاع وما ذكرناه هنا أرجح

ومن الحملات التي قادها النبي -ﷺ- بعد غزوة بدر " ، هذا الجيش الذي سار معه من المدينة حتى بلغ " بحران " و سبب ذلك أنه بلغه-ﷺ-أن جمعاً من بني سليم " يريدون الإغارة علي المدينة فسار إليهم في ثلاثمائة من أصحابه لستٍ خلون من جمادى الأولى سنة ثلاث من الهجرة ، و خلف علي " المدينة " ابن أم مكتوم " و لما وصل إلى " بحران " تفرقوا و لم يلق كيداً فرجع [٩٣]

مما تقدم يري القارئ الكريم أن رسول الله -ﷺ- ، أخذ يرسل الجيوش بعضها إثر بعض إلى الجماعات المتربصة بالمسلمين لتخوض حرباً وقائية ضد هذه الجماعات كي لا تسول لها أنفسها إتيان " المدينة " و لا ينبغي لقائل أن يقول : إن هذا يُعد اعتداءً من المسلمين علي هذه الجماعات التي لم تجرد الجيوش لهم ولم تشهر الحسام في وجوههم ، لأن ذلك قد كان يصح لو أن النبي محمداً لم يثبت لديه

---

[٩١] ابن عبد البر : الدرر / ١٤٠ - محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول /٢٠٧ . الطهطاوي : نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز جـ٢ صـ ٨٤، ٨٥ .

[٩٢] سورة المائدة - آية ١١.

[٩٣] ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ١٤٢ - الخضري : نور اليقين / ٢٤ ، ١٢٥ محمد فريد : وقفات تربوية /٢٠٢.

بالأدلة اليقينية تآمر هذه الجماعات عليه ، و هذا وحده اعتداء بين يجعل المسلمين و هم يرسلون الجيوش في موقف المدافع عن النفس ، لأنهم لو انتظروهم حتى يأتوا إلى المدينة لظنت هذه الجماعات بالمسلمين ضعفا ، و هذا ما لم يرضه المؤمنون الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن دينهم وإبطال مكايد أعدائهم و لعل أهم حدث وقع للمسلمين بين " بدر " و" أحد " ،ذلك الذي كان من بني " قينقاع " من نقض للعهد .

غزوة بني قينقاع

يمثل هؤلاء طائفة من ثلاث طوائف يهودية كبري سكنت " المدينة " و عقد معهم النبي معاهدة نظمت العلائق بين المسلمين وبينهم بشكل متوازن ينم عن عدالة مطلقة بين الناس بغض النظر عن المعتقد الديني ، و قد ألمحنا إلى ذلك فيما أسلفنا و نحن نتحدث عن المعاهدة بين المسلمين واليهود ..فلما وضعت حرب " بدر " أوزارها وعاد المسلمون إلى المدينة ، و أخبار الانتصارات التي أحرزوها تدور علي ألسنتهم و تذكرها نساؤهم و صبيانهم ، و تتغنى بها الصغيرات من جواريهم كل هذا حرك كوامن الحقد في أفئدة المنافقين و اليهود " بالمدينة " فطفقت ألسنتهم تجاهر بما فيه تهوين من أثر تلك الانتصارات و راحوا يقولون : إن المسلمين لم يلقوا رجالا لهم خبرة بالحرب ، و انهم سيلقون بعد ذلك أن الهزائم ما يجعلهم ينسون بدرا وانتصاراتها ، و مع هذا فان النبي محمدا كان

كدأبه دائما يحرص علي دعوة المجاورين لـــه فـــي المكـــان إلـــى ديـــن الله بالموعظة الحسنة ، فاهتبل فرصة وجـــوده فـــي ســـوق " بنـــي قينقـــاع " ، فقال لهم : (يا معشر يهود أسلموا ، فـــوالله إنكـــم لتعلمـــون أنـــى رســـول الله يا معشر يهود احذروا من الله مثـــل مـــا نـــزل بقريـــش مـــن النقمـــة ، فاسلموا ، فإنكم قد عرفتم إنى مرسل ، تجـــدون ذلـــك فـــي كتـــابكم و عـــهد الله إليكم) قالوا : يا محمد إنك تري أنا مثل قومـــك ،لا يغرنـــك أنـــك لقيـــت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصـــة ، إنـــا و الله لئـــن حاربتنـــا لتعلم أنا نحن الناس[٩٤]فنزل القرآن الكريـــم يحمـــل الـــرد علـــى " اليـــهود " معلما إياهم أن الذي كان " في بدر " آيـــة أيـــد الله بـــها نبيـــه و لا ينبغـــي عليكم أن تمروا بها مرور من لا يعتبر ، لأن الله يؤيـــد بنصـــره مـــن آمـــن بـــه[٩٥]

فقال تعالي : (قل للذين كفروا ســـتغلبون و تحشـــرون إلـــى جـــهنم و بئس المهاد ، قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئـــة تقـــاتل فـــى ســـبيل الله و أخرى كافرة يرونـــهم مثليـــهم رأى العيـــن و اللـــه يؤيـــد بنصـــره مـــن يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولـــى الأبصـــار)[٩٦]

---

[٩٤] الطبري: تاريخ الرسل و الملوك / جـ٢ / ٤٧٩ : ٤٨٣
ابن القيم : زاد المعاد / جـ٣ / ١٩٠ .

[٩٥] ابن هشام : سيرة النبي / جـ٢ / ٤٢٦ ، ٤٢٧ - القرطبي تفسيره / جـ٢ / ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، أبو زهره : خاتم النبيين / جـ ٢ / ٦٣٨ ، ٦٨٤ .

[٩٦] سورة آل عمران : آية ١٢ ، ١٣

ولأن النبـــي محمـــداً -ﷺ- لا يـــأخذ النـــاس بأقوالـــهم قبـــل أن يقرنوها بأفعالهم فإنه لم يشأ تحريك الجيوش إلـــى " بنـــي قينقـــاع " بعـد ذلك الخطاب الغليظ الذي كلموه بـــه و هـــو بالســـوق حتـــى أتـــى " بنـــو قينقاع " بفعل حول أقوالهم إلى حقيقة واقعـــة ، إذ اعتـــدوا علـــي عـــرض امرأة مسلمة ذهبت إلى سوقهم ، فـــاهتبل أحـــد رجالـــهم جلوســـها عنـــده لتشتري منه حليا ذهبيا فراودوها عـــن كشـــف وجهـــها ، فـــأبت ، فعمـد الصائغ إلى طرف ثوبـــها ، فعقـــده إلـــى ظـــهرها فلمـــا قـــامت انكشـــفت سوأتها ، فضحكوا بـــها فصـــاحت فوثـــب رجـــل مـــن المســـلمين علـــي الصائغ فقتله ، و كان يهوديا ، فشـــدت اليـــهود علـــي المســـلم ،فقتلـــوه فاستصرخ أهل المســـلم المســـلمين علـــى اليـــهود وغضـــب المســـلمون فوقع الشر بينهم و بين " بني قينقـــاع " [٩٧]فجـــرد لـــهم النبـــي محمـــد -ﷺ-جيشاً ، جعل اللواء لحمزة بـــن عبـــد المطلـــب فخـــرج إليـــهم يـــوم السبت للنصف من شـــوال علـــي رأس عشـــرين شـــهراً مـــن هجرتـــه -ﷺ- بعدما استخلف علي " المدينة " أبا لبابة بـــن عبـــد المنـــذر "

فلمـــا رأى اليـــهود المســـلمين تحصنـــوا بحصونـــهم ، فحـــاصرهم المسلمون أشد الحصار ، فأقام علي ذلـــك خمـــس عشـــرة ليلـــة ، حتـــى قذف الله في قلوبهم الرعـــب ، فـــنزلوا علـــي حكـــم رســـول الله -ﷺ- ، علي أن للرسول -ﷺ-أموالهم وأن لـــهم النســـاء و الذريـــة .

و لما كان " بنو قينقاع " حلفـــاء قبيلـــة " الخـــزرج " فإنـــهم علقـــوا آمالاً كبارا عليهم ليخلصوهم من حصـــار النبـــي محمـــد -ﷺ- .

و هنا نري موقفين متباعدين لاثنين من رجـــالات هـــذه القبيـــلة :

---

[٩٧] ابن كثير : البداية و النهاية / جـ٤/ ٣،٤ - البوطي : فقة الســـيرة / ١٧٨ ، ١٨٣ هيكل : حياه محمد / ٢٩١ - بركات احمد : محمد و اليهود / ١٠٤ ، ١٠٦

أولهما : خالط الإيمان قلبه فشعر بحلاوتـــه فعلـم أن مـا قـام بـه " بنو قينقاع " لا تنفع معه شفاعة حيـث أتـوا بمـا يكرهــه الألـف و يأبـاه العرف ويحرمه الدين الإســلامى ٠

و **ثانيهما** : جعل علي فــؤاده أكنـة حـالت بينـه و بيـن شـعوره بحلاوة الإيمان، فأما الرجـل الأول وهـو " عبـادة بـن الصـامت " ، فإنـه ذهب إلى النبي بعد حصاره " لبنـي قينقـاع " و قـال لـه : (أتولـي الله و رسوله و المؤمنين و أبرأ من حلف هـؤلاء الرجـال) .

فهو بهذه المقولة كما يـري القـارئ يـبرهن لنـا علـي ألا اعتبـار لتحالف فيه انتقـاص لحقـوق المؤمنيـن و كرامتـهم و تشـجيع لأعـداء الدين للنيل من حرمة ديـن اعتنقـوه .

و أما الثاني ، فهو " عبد الله بـن أُبـى بـن سـلول " الـذي سـاءه نزول اليهود علي حكم النبي محمد ، لأن ذلك سـيضعف مـن مكانتـه فـي " المدينة " فذهب إلى رسول الله ليخاطبه في شـأنهم خطابـا يكشـف عـن نفاق ملك عليه نفسه ، فجعله يبقي علي تحالفـه مـع اليـهود ولـو كـان هذا علي حساب الدين الجديد الذي اعتنقـه فـي الظـاهر ، لأنـه لا يعنيـه أن تنتهك حرمة مسلم أو يعتدي عليـه لافتقـاده المعنـي الحقيقـي للاخـوة الإسلامية بسبب نفاقه ، فقال : يـا محمـد ، أحسـن فـي موالـي ، قالـها ثلاثاً و النبي لا يجيبه ، فأدخل ابن أبى " يـده فـي جيـب درع رسـول الله -ﷺ- من خلفه التـي يقـال لـها : " ذات الفضـول " فقـال رسـول الله (ويحك أرسلني) و غضب رسول الله حتى رأوا لوجهـه ظلـلاً ، ثـم قـال :

ويحك أرسـلني ، قـال : و الله لا أرسـلك حتـى تحسـن فـي موالـي ، أربعمائة حاسر و ثلاثمائة دارع قد منعونـي مـن الأحمـر و الأسـود ، و تحصدهم في غداة واحـدة إنـي و الله امـرؤ أخشـى الدوائـر ، فقـال – ﷺ-(خلوهم لَعَنهم الله و لَعَنه معـهم) ، و أمـر بعـدم قتلـهم علـي أن يُجْلوْا عن " المدينة" ،فخرجوا بعد ثلاث وولـي إخراجـهم منـها " عبـادة بن الصامت " و قيل " محمد بـن مَسْـلَّمَة " [٩٨]

وعلى الرغم من شيوع الرواية السابقة عـن إجـلاء " بنـى قينقـاع " فى بعض مصادر السيرة فإن أحد الباحثين يـأبى الأخـذ بـها ويرفـض أن يكون " بنو قينقاع قد اجلوا عن " المدينة " بحكـم مـن النبـى محمـد " ﷺ " وبررَ ذلك بقوله إن رسـول لـم يكـن فـى السـنة الثانيـة مـن الهجرة فى وضع يتيح له فـرض عقوبـة صارمـة كتلـك التـى ذكـرت الرواية أنها " أنزلت " ببنى قينقاع" واقرب من ذلـك إلـى العقـل القـول : انه أراد أن يكون الـهجوم علـى " بنـى قينقـاع " درسـا للمنـافقين ، وعلى رأسهم " عبد الله بن أبى " الذى كـان مـن الممكـن أن يُحقـق لـه انتصار " بنى قينقاع " على المسـلمين مصلحـة مباشـرة ليـس فحسـب بل أن القران الكريم لم يذكر لنا أمر جـلاء " بنـى قينقـاع " مـع ذكـره لجلاء " بنى النضير " فى آيات بينات ، فلو كان الجـلاء قـد وقـع " لبنـى قينقاع " لذكرهم القرآن دون " بنـى النضـير" بوصـف ذلـك فـى حالـة

---

[٩٨] الصالحي : سبل الهدي و الرشاد / جـ٤/ ١٨٠ – ابن القيم : ذاد المعاد / جـ٣ / ١٩٠ .

حدوثه أول إجلاء لليهود عن " المدينة " يضاف إلى هذا كله أن " ابن إسحاق " لا يتحدث عن إجلاء " بنى قينقاع " فهو بالتالى لا يشير إلى تقسيم ممتلكاتهم " لقد كانوا يملكون اطمين وسوقا بالقرب من جسر " بطحان " وسوقا آخر فى "حباشة " وقد جمع" كستر " فى مقاله الثمين — على إيجازه — كل الأحاديث التي يتبين منها أن الرسول" ﷺ " أراد أن ينشئ سوقا فى " المدينة " وكان المهاجرون ومعظمهم من التجار ، والمشتغلين بالتجارة بحاجة ماسة إلى مثل هذه السوق ، أما الأنصار فقد كانوا كما هو معروف يشتغلون بالزراعة ، ولو أن بنى قينقاع قد أجْلوا لكانت ممتلكاتهم ولكانت سوقهم بصفة خاصة أول ما يئول إلى مهاجرى مكة لا ممتلكات بنى النضير التى كانت تتكون من المزارع وحدائق النخيل .

وحاصل الأمر انه ليس هناك ذكر لتقسيم هذه الممتلكات على المهاجرين ولا على الأنصار وانه ليبدو من الغريب حقا أن يكون الرسول "ﷺ " قد انتظر أربع سنوات ليقسم ممتلكات بنى قينقاع على المهاجرين لدى إجلاء بنى النضير رغم انه فى مقدوره أن يمنح المهاجرين ممتلكات انسب لمهنتهم كتجار قبل ذلك بسنتين من طرد بنى "قينقاع " "والواقدى " نفسه لا يحدثنا عما آلت إليه سوق بنى قينقاع ، ولما كان الثابت أن المسلمين كانوا يستخدمون سوقاً أقُيمت فى مقابر بنى ساعدة ، فمن الواضح أن سوق بنى قينقاع إما بقيت فى حيازتهم أو لم تكن تستخدم وهذا الفرض الثانى فرض لا يقبله العقل ، فإن مثل هذه السوق فى المدينة لا يتصور التخلى عنها أو إضاعتها ،

والظاهر أنــــه ســمح لبنـــى قينقـــاع بـــالرغم مـــن مصـــادرة أســـلحتهم بالاستمرار فى حيازة جميـــع ممتلكاتـــهم(٩٩).

وعلى الرغم من ارتداء هذه الحجـــج التـــى ســـاقها البـــاحث ثـــوب المنطق فإننا لا نوافقه على مـــا جـــاء فيـــها مـــع تســـلمينا لـــه بـــالبعض الآخر ، فقوله إن القران الكريم لم يتحدث عن إجـــلاء بنـــى قينقـــاع مـــع انه أول إجلاء لليـــهود حســـب التسلســـل التـــاريخى الـــذى أورده بعـــض أصحاب المصادر دليل علـــى عـــدم حـــدوث الجـــلاء أمـــر لا يســـتقيم لان القران الكريم الذى نزل به جبريل الأمين على ســـيد المرســـلين لـــم يكـــن كتاب تاريخ فحسب حتى نقول أن عدم تسجيله للحـــدث دليـــل علـــى عـــدم وقوعه تاريخيا مع تسجيله لحدث آخر مشـــابه فـــى نتيجتـــه مثلمـــا كـــان من حديثه عن بنى النضير فـــى " ســـورة الحشـــر " كمـــا ذكـــر البـــاحث وكلنا يعلم أن كتاب الله ضم بين دفتيـــه أمـــوراً كثـــيرة بعضـــها تشـــريعى وبعضها تاريخى وبعضها علمـــى .

ولعل اهتمام القرآن ببنـــى النضـــير دون بنـــى قينقـــاع راجـــع إلـــى حكمة لم نستطع الوقـــوف عليـــها ، وربمـــا يجـــود علينـــا الزمـــان بمـــا يكشف النقاب عنها على يـــد الدراســـيين لكتـــاب الله والمؤرخيـــن الذيـــن يتناولون سيرة النبى محمـــد .

وما قاله من عـــدم "ذكـــر " ابـــن إســـحاق " فـــى الســـيرة للجـــلاء واعتبار ذلك دليلا على عدم حدوثـــه أمـــر لا ينـــهض ســـندا يقـــوى رأى

---

(٩٩) بركات احمد : محمد واليهود / ١٠٩ ، ١١١، ١١٢.

هذا الباحث . فلم يقل أحد من الباحثين إن ما ذكـــره " ابـــن إســـحاق " فـــى السيرة صحيح على إطلاقه وما تركه لم يحـــدث علـــى إطلاقـــه أيضـــا .فـــلا مانع والحالة هذه أن يكون " ابن إسحاق " لم يســـتطع مـــن خـــلال أســـانيده الوقوف على تفاصيل الإجلاء الذى كان لبنـــى قينقـــاع فـــى حالـــة تســـليمنا بحدوثه .ويضاف إلى هذا أن " ابن إسحاق " كمـــا نعلـــم مُختلـــف فـــى أمـــر دقة حديثه بين علماء الرجال-وإذا كان اغفـــل أمـــر الإجـــلاء فـــان غـــيره ذكـــره [١٠٠]ومن ثم فـــإن المـــرء لا يســـتطيع الجـــزم بعـــدم حدوثـــها لأن " ابـــن إسحاق " لم يذكـــره .

وسواء أصح ما ذهب إليه هذا البـــاحث أم لـــم يصـــح فـــإن المصـــادر التى أكدت حدوث الجلاء لبنـــى قينقـــاع ذكـــرت أن المســـلمين قـــد غنمـــوا منهم ديارهم التى سكنوها وأســـلحتهم التـــى تركوهـــا .وهـــى ثـــلاث قســـى ودرعان ، وثلاثة أسياف ، ووجـــدوا فـــى حصنـــهم ســـلاحاً كثـــيراً ، وآلات للصياغة ، فـــأخذ رســـول الله ﷺ [١٠١] صفيـــه والخمـــس وفـــرق أربعـــة أخماس على أصحابه . فكان أول خمس بعـــد بـــدر [١٠٢]

---

[١٠٠] إذا أراد القارئ الكريم الإلمام بالمصادر التى ذكرت أخبار بنى قينقاع وجدها كثيرة من بينها على سبيل المثال لا الحصر ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـــ٢/ ٤٧٩: ٤٨٣، وابن سيد الناس : عيون الأثر جـ١/ ٤٤٣، ٤٤٦.

[١٠١] كان رسول الله ﷺ سهم يدعى الصفى اختاره قبل الخمس .عن عائشـــة رضـــى الله عنها : كانت صفية رضى الله عنها من الصفى . ابن سيد الناس : عيون الأثـــر / جـــ١/ ٤٤٥ الصالحى سبل الهدى والرشاد جـ٤/ صـ١٨ . بركات احمد . محمد واليهود / ١٠٨ ، ١٠٩ .

[١٠٢] ابن سعد : الطبقات الكبرى / جـ٢/ ٢١، ٢٢ .

ولقد انبرى صاحب حياة محمد للرد على المؤرخين الذين نعتوا المسلمين بالتعنت فى تسيير الجيوش إلى بنى قينقاع لأن الأمر الذى فعلوه بالمرأة المسلمة لم يكن يتطلب ضرب الحصار عليهم وانه كان من اليسير إنهاء القضية ما دام قد قتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل ، وقد تستطيع دفع هذا القول بأن مقتل اليهودى والمسلم لم يمح ما لحق من أهانه فى شخص المرأة التى عبث اليهودى بها وأن مثل هذه المسألة عند العرب اكثر منها عند غيرهم من الأمم ، جديرة أن تثور لها الثائرات ، وان يقوم من اجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة ، وفى تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطلعون على هذا التاريخ ولكن هنالك إلى جانب هذا الاعتبار اعتباراً [آخر اقوى منه] فكان لحادث المرأة من حصار بنى قينقاع وإجلائهم عن المدينة ، ما كان لمقتل ولى عهد النمسا" بسيرا جيفوا" سنه ١٩١٤ من الحرب الكبرى التى اشتركت فيها أوربا جميعا فهو إنما كان الشرارة التى ألهبت ما تأجج به نفوس المسلمين واليهود جميعا لهبا أدى إلى انفجارها والى كل ما يحدث الانفجار من آثاره والحق إن وجود اليهود والمشركين والمنافقين إلى جانب المسلمين بالمدينة ، أذكى ذلك من أسباب الفرقة ، فقد جعل المدينة ،من الناحية السياسية على بركان لا مفر له من أن ينفجر ، وقد كان حصار بنى قينقاع وإجلاؤهم عن المدينة أول مظاهر هذا الانفجار(١٠٣)

---

(١٠٣) هيكل : حياة محمد / ٢٩٣.

لم يكن بنو قينقاع الجماعة اليهودية الوحيدة التي: تحرشت بالمسلمين فنقضت العهود معهم بل كان اليهود جميعا يشاطرون بني قينقاع موقفهم من النبى محمد ﷺ ، فاتجه الرسول ﷺ بعد القضاء عليهم ببصره إلى الرجل اليهودى الذى عرف عنه نشاطه الزائد فى النيل من المسلمين والتحريض عليهم وهو " كعب بن الأشرف " فكانت السرية التى أرسلها للقضاء عليه.

سرية كعب بن الأشرف:-

ذكر المؤرخون وكتاب السيرة أن " كعب بن الأشرف " لما وقف على ما أصاب المشركين فى بدر وما فعلته سيوف المسلمين بصناديد الشرك لم يتمالك نفسه فأبان ما فى طويتها فى حضرة المسلمين المبتهجين بالنصر العظيم ، فأظهر الجزع على من ألقوا فى القليب من المشركين فقال (ويلكم أحق هذا ؟) هؤلاء ملوك العرب وسادات الناس ، ما أصاب ملك مثل هؤلاء قط ثم خرج " كعب " إلى مكة ، فنزل على " عاتكة بنت أسيد بن أبى العيصى بن أمية وكانت عند " المطلب بن أبى وداعة" فجعل يبكى على قتلى قريش ويحرض على رسول الله" ﷺ

فقال : **طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت**
جمال أثقال يسود يربع
ويقول أقوام أذلَّ بسخطهم
إن ابن أشرف ظل كعبا يجزعُ
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا
ظلت تسوخُ بأهلها وتصدّعُ
صار الذى اثر الحديث بطعنة

أو عاش اعمى مرعشا لا يسمع[١٠٤]

فلما بلغ ذلك النبى محمدا ﷺ غضب غضبا شديدا فقال : " اللهم اكفنى ابن الاشرف بما شئت فى إعلانه الشر وقوله الأشعار "

فقال لأصحابه : من لى بابن الاشرف فقد آذاني ، فقال محمد بن مسلمة[١٠٥] أنا به يا رسول الله وأنا اقتله ، فقال : افعل وشاور " سعد بن معاذ " فى أمره .واجتمع"محمد بن مسلمة "ونفر من الاوس منهم"عباد بن بشر "[١٠٦]وأبو نائلة سلكان بن سلامة ، " والحارث بن أوس [١٠٧] بن معاذ "، " وأبو عيسى بن جبير " فقال : يا رسول الله نحن نقتله فأذن لنا فلنقل ، فقال " قولوا " فسار إليه فى أربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة ، فلما جاءوا " كعب " ذعر منهم ، فقال انا أبو نائلة إنما جئت أخبرك أن قدوم هذا الرجل كان علينا من البلاء ، حاربتنا العرب ورمتنا على قوس واحدة ،ونحن نريد التنحى منه ، ومعى رجالٍ من قومى على مثل رأيى قد أردت أن أتيك بهم فنبتاع منك حنطاً وتمراً ، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة فسكت إلى قوله وقال " [ما ترهنون عندى ؟ أترهنون أبناءكم ؟ ، قالوا انا نستحى أن يُعَبَّر أبناؤنا فيقال : هذا رهينة وسق

---

(١٠٤) البيهقى : دلائل النبوة / جـ٣/ ١٨٨، ١٨٩.

(١٠٥) ابن خالد بن على بن مجدع الأنصارى الأوسى ،شهد المشاهد كلها مع النبى إلا تبوك ،توفى بالمدينة سنة ٤٦ أو ٤٧ هـ وقيل غير ذلك ،قيل كان عمره سبعاً وسبعين سنه . ابن الأثير -أسد الغابة -ج٤ -٣١٨ ، ٣٢٠

(١٠٦) ابن عبد الاشعل بن جشم الحارث الأنصارى ، اسلم على يد " مصعب بن عمير "، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ، توفى يوم اليمامة ، عن عمر بلغ خمسا وأربعين سنه ابن الأثير : أسد الغابة / جـ٣ /٤٥، ٤٦.

(١٠٧) ابن النعمان بن أمرى القيس الأنصارى ، استشهد يوم أحد على أحد الأقوال الواردة في وفاته عن عمر بلغ ثمانية وعشرين عاما - ابن الأثير أسد الغابة / جـ١/ ٤٣١.

[١٠٨] ، قال : فارهنونى نساءكم ؟ فقالوا : أنت أجمل الناس ولا نأمنك وأى امرأة تمتنع منك لجمالك ؟، ولكننا نرهنك سلاحنا ، وقد علمت حاجتنا إلى السلاح اليوم ، قال : نعم، ائتونى بسلاحكم واحتملوا ما شئتم ، قال : فانزل إلينا نأخذ عليك وتأخذ علينا ، فذهب ينزل ، فتعلقت به امرأته وقالت : أرسل إلى أمثالهم من قومك يكونوا معك ، قال : لو وجدنى هؤلاء نائما ما أيقظونى ، قالت : نكلمهم من فوق البيت ، فأبوا عليه فنزل إليهم تفوح ريحه ، فقالوا ما هذه الريح يا فلان ؟ قال : عطر أم فلان لامرأته ، فدنا بعضهم يشم رأسه ثم اعتنقه وقال : اقتلوا عدو الله "، فطعنه أبو عيسى " فى خاصرته ، وعلاه " محمد بن مسلمة " بالسيف فقتلوه ، ثم رجعوا ، فاصبح اليهود مذعورين فجاءوا النبى ﷺ فقالوا : قتل سيدنا غيلة" فذكرهم النبى ﷺ بصنعه ، وما كان يعرض به المشركين على المسلمين ، ثم دعا اليهود إلى أن يكتبوا بينه وبينهم صلحا [١٠٩] فأبوا قبول ذلك فاستمرت بينهم وبين المسلمين معركة الانفراد بالسيادة على المدينة تلك التى فرضها اليهود على النفر الذين مدوا إليهم يد السلام ونشر الوئام ، وبينما المسلمون يواجهون اليهود وبعض جماعات قبائل المشركين بعد بدر الكبرى ، إذا بهم يجدون أنفسهم أمام مواجهة ثانية مع قريش تفوق تلك التى كانت بين الفئتين فى بدر الكبرى ، ذلك حين التقى الفريقان عند أحد.

---

[١٠٨] مكيلة معلومة ، يبلغ ستين صاعا بصاع النبى ، ووزنه خمسة أرطال وثلث ابن منظور لسان العرب / مادة وسق .

[١٠٩] ابن سعد : الطبقات / جـ٢/ ٢٤ : ٢٦ - البيهقى : دلائل النبوة / جـ٣ /١٨٨ .ابن كثير : البداية والنهاية / جـ٤/ ٥:٧ - ابن الأثير : أسد الغابة / جـ٥/ ٣١٣ ابن سيد الناس : عيون الأثر / جـ١ ٤٨٨: ٤٥١.

غزوة أحد

أصابت معركة بدر قريشاً بعدم الاتزان ، فراح رجالها تتألب جنوبهم على جمرات من لهيب فحال ذلك بينهم وبين الشعور بالراحة ، والتلذذ بصنوف النعيم ، ولم يكن يشغلهم شاغل سوى الحديث عن محمد وكيفية الحيلولة بينه وبين التعرض لقوافلهم التجارية المتوجهة إلى الشام ، إذ هى شريان الحياة للمكيين .

وكانت قريش قد أوقفت عيرها التى نجت من أيدي المسلمين قبل نشوب معركة بدر الكبرى فى دار الندوة فلما وضعت حرب بدر أوزارها عن النتيجة التى ألمعنا إليها : وساد شعور الانتقام من محمد وصحابته فمشى " عبد الله بن أبى ربيع ، وعكرمة بن أبى جهل "، والحارث بن هشام "، " وحويطب بن عبد العزى " وصفوان بن أمية " ، وأسلموا بعد ذلك – إلى رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان " ومن كانت له فى تلك العير تجارة من قريش ، فقالوا: إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا؟ فقالَ أبو سفيان" : أنا أول من أجاب إلى ذلك فطابت انفس إشرافهم أن يجهزوا منها جيشا كثيفا لقتال رسول الله ﷺ وباعوها ، وكانت ألف بعير ، والمال خمسون ألف دينار وكانوا يربحون من الدينار ديناراً، فأخرجوا منها أرباحهم [١١٠] فنزل فيهم

---

(١١٠) ابن سعد الطبقات / جـ٢/ ٢٨،٢٩- المقريزى : إمتاع الأسماع / ١٠٨، ١٠٩ الصالحى : سبل الهدى والإرشاد / جـ٤/ ١٨٢.

قول الله تعالى :[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ] [١١١]

وحتى تضمن قريش نجاح مساعيها فى القضاء على محمد ومن معه بثت الرسل إلى القبائل المحالفة لها حاملين الرسائل من رؤسائها فيها دعوة لأن تنضم إليها فى مسيرها إلى محمد حتى يستأصلوا جميعا شأفته ومن ثم يأمنون على تجارتهم .

ولما كانت القبائل تعترف بسيادة قريش عليها وتود أن تكون لها يد عندها فى هذا الموقف العصيب الذى ألم بها فقد لبت وجاءت إلى قريش بجموعها فكانت القوات التى خرجت لمواجهة محمد ﷺ ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء الأحابيش، فيهم سبعمائة دارع ، ومائتا فارس ، وسبع عشرة امرأة ولقد دفعت العاطفة " العباس " عم النبى إلى ضرورة إعلام رسول الله بأمر هذه الحشود الكبيرة حتى لا تباغته وهو بالمدينة ، فيكون والحالة هذه النصر دانيا للمشركين ، فجاء كتابه للنبى" ﷺ " وهو " بقباء " وكان " العباس " أرسل الكتاب مع رجل من بنى غفار ، استأجره لذلك وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليها ، ففعل ما أمره به "العباس " فلما جاء الكتاب فك النبى ختمه ودفعه لأبى بن كعب [١١٢]فقرأه عليه .

---

[١١١] سورة الأنفال : آية ٣٦.

[١١٢] ابن زيد بن معاوية بن عمرو بن النجار ،روى عن الرسول " ﷺ ".شهد العقبة وبدرا أثنى عليه النبى محمد " ﷺ " اختلف فى تاريخ وفاته ،ما بين سنة تسع عشرة للهجرة إلى

وهذا مما يؤيد أن النبى ﷺ كان أميـا بمعنـى أنـه مـا كان يعـرف القراءة والكتابة وإلا لكان قرأ الكتاب بنفسـه وكتـم سـره بـدلاً مـن أن يطلب من " أبى بن كعب " تلاوتـه ثـم يسـتكتمه ثـم نـزل "ﷺ" علـى " سعد بن الربيع [١١٣]فأخبره بكتـاب العبـاس ، فقـال : والله إنـى لأرجـو أن يكون خيراً فاستكتمه إياه ولما خرج رسـول الله " ﷺ " مـن عنـده ، قالت له امرأته : ما قال لـك رسـول الله "ﷺ" ؟ فاسـترجع واخـذ بيدهـا ولحق النبى"ﷺ"وأخبره خبرهـا .وقـال يـا رسـول الله : إنـى خفـت أن يفشو الخبر فترى إنى أنا المفشى له ؟ وقـد اسـتكتمنى إيـاه فقـال لـه رسول الله " ﷺ " خل عنـها ، وكـانت قريـش طلبـت مـن " العبـاس " الخروج معهم ، فأبى واعتذر بما لحقه يوم بـدر ولـم يسـاعدهم بشـىء من المـال .

فصلت قوات المشـركين مـن مكـة ومعـها جمـع مـن المنـافقين المدنيين الذين وعدوهم النصرة ، ومنوهـم بانضمـام الجـم الغفـير مـن بنى جلدتهم إليهم حين يرونـهم قدمـوا المدينـة مشـهرين الحسـام فـى وجه النبى محمد ، وكان " أبـو عـامر " الفاسـق زعيـم هـؤلاء النفـر يعتمد نفسه قوة تجعل بنى قبيلته يخلعـون مـن أعناقـهم ربقـة الإسـلام حين يرونه فى معسكر المشـركين ، فعولـت قريـش علـى هـذا الأمـر فقدمت " أبو عامر الراهب " فـى مسـيرها ، وأنشـأت النسـوة يضربـن

سنة اثنتين وثلاثين ،والراجح أنه تُوفى فى خلافه عمر كما ذاكر ابن الأثير فى أسد الغابة /جـ ١ /٧١ : ٦٩.

[١١٣] ابن عمرو بن ملك الأشعرى أحد نقباء العقيه استشهد يوم أحد ابن الأثـير – أسـد الغابة / جـ٢/ / ٢١٤.

الدفوف وينشدن الأشعار التى ترثى قتلة بدر من المشركين حتى تمتلئ أفئدة الرجال حماسة وهم يواجهون المؤمنين .

فإذا ما انتقلنا إلى جماعات المسلمين وجدنا رسول الله " ﷺ " يشخص الأعين إلى الطريق بين المدينة ومكة حتى يوفوه بحقيقة أمر المشركين وما معهم من عدد وعتاد ، كى يأخذ المسلمون حذرهم ويقيموا حساباتهم الصحيحة لهذه المواجهة ؛ فبعث رسول الله "ﷺ" أنسا ومؤنساً ابنى فضالة الظفريين ليلة الخميس لخمس ليالٍ مضين من شوال ، عينين له ، فاعترضا لقريش بالعقيق ، وعادا إلى رسول الله " ﷺ " فأخبراه بخبرهم ، وأنهم قد خلوا ابلهم وخيلهم فى الزرع الذى بالعريض حتى تركوه ليس به خضر ، وترك المشركون ظاهر المدينة بَعْيْنَينَ : جبل ببطن السَّبخة من قناة على شَفير الوادى ، مقابل المدينة يومَ الأربعاء ، فرغت إبلهم آثارَ الحَرْث والزرع يوم الخميس ويوم الجمعة ، لم يتركوا خضراء ، ثم بعث رسول الله -"ﷺ" الحباب بن المنذر إليهم أيضا ، فبصرهم وعاد ، وقد حرز عددهم وما معهم ، فقال رسول الله - "ﷺ" : (لا تذكر من شأنهم حروفا ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم بك أجول وبك أصول) [١١٤]وكدأب رسول الله - "ﷺ" نادى فى أصحابه بالاجتماع حتى يشاورهم فيما يفعلونه مع الجيش الكبير الذى أوشك أن يقتحم عليهم ديارهم .

والجدير ذكره هنا أن آراء الحضور فى ذلك الاجتماع تختلف اختلافا كبيراً عما كان فى بدر ، فالمسلمون يشاورون فى أمر حرب علموا حدوثها ورأت أعينهم رجالها بخلاف بدر ، فإنهم ما خرجوا إلا للعير فإذا بهم يفرض عليهم النفير .

---

[١١٤] الصالحى :سبل الهدى والرشاد -جـ ٤ - صـ١٨٣

ليس هذا فحسب بل إن المتحدثين فى هذا الاجتماع وضعوا نصب أعينهم ما كان فى بدر الكبرى ،فجماعة منهم تطلعوا إلى إصابة المشركين بمثل ما أصيبوا به فى بدر حتى يساووا إخوانهم الذين نالهم تكريم من الله بسبب تلك الغزوة الكبرى ، وفخرا فى دنياهم بين القبائل العربية ، وكان هؤلاء كثرة ،أما الفريق الآخر وهم أقل عددا فقد رأوا التحلى بالأناة وعدم الخروج للقاء الأعداء والاستفادة من حصانة المدينة بما فيها من أبنية متراصة وشعاب وأزقة تحول بين المقاتل وبين حرية الحركة .وأضاف أصحاب هذا الرأى بأنه يمكن اشتراك النساء فى القتال ، بقذف الأعداء بالحجارة من فوق أسطح المنازل .ولقد كان هذا رأى النبى "ﷺ" [١١٥] وكبار الصحابة ، وكذلك كان رأى عبد الله بن أبى بن سلول .ولما كان رسول -"ﷺ" يأخذ برأى الأغلبية فإنه نزل على رأى الفريق الأول فقرر الخروج من المدينة لقتال المشركين خارجها ، فصلى رسول الله -"ﷺ" الجمعة بالمسلمين ، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، وطالبهم بالتهيؤ للقاء عدوهم ، ففرح المؤمنون بالشخوص ، ثم صلى الناس العصر وقد حشدوا ، ثم

---

(١١٥) قال النبى -"ﷺ" -حين سمع بقوم المشركين : " إنى رأيت بقراً فأولتها خيراً ،ورأيت فى ذباب سيفى ثلماً ، ورأيت إنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وان دخلوا قاتلناهم فيها ٠
ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٢/ ٢٨/ ابن سيد الناس : عيون : الأثر جـ٢/ ٨ النجار : القول المبين ٢٠٣،٢٠٢. محمد بن عبد الوهاب:مختصر سيرة الرسول ،صـ٢١٢،٢٢١ .

دخل رسول الله -ﷺ ومعه أبو بكر وعمر ، فعمماه وألبساه واصطف الناس له ينتظرون خروجه . فقال لهم " سعد بن معاذ " و" أسيد بن حضير " استكرهتم رسول الله -ﷺ على الخروج ، والأمر ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه فخرج رسول الله ، وقد لبس لأمته وتقلد السيف وألقى الترس فى ظهره ، فندموا جميعا على ما صنعوا ، وقالوا : ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، فقال رسول الله -ﷺ : لا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، فانظروا ما أمركم به فافعلوا ، وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم ، ثم دعا بثلاثة أرماح ، فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى " أسيد بن خضير " ودفع لواء الخزرج إلى " الحباب بن المنذر " ، ويقال إلى " سعدة بن عبادة " ودفع لواء المهاجرين إلى " على بن أبى طالب " رضى الله عنه ، ويقال إلى" مصعب بن عمير " واستخلف على المدينة " عبد الله بن أم مكتوم" [١١٦]

وجاءه أبو خيثمة ليقول له : لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت والله عليها حريصا ، حتى ساهمت ابنى فى الخروج فخرج فى القرعة سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم على أحسن هيئة ، يسرح فى ثمار الجنة ، وأنهارها ، ويقول لى : الحق بنا ترافقنا فى الجنة قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً ، ثم قال : وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته،وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة ابنى فى

---

[١١٦] الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ٢/ ٥٠٣، ٥٠٤ .ابن الأثير : الكامل / جـ٢/ ١٥٠،١٥١- ابن كثير : البداية والنهاية /جـ٤/ ١٣،١٢.

الجنة ، فدعا الرسول له فنال نعمـــة الشـــهادة فـــى هـــذه المعركـــة [١١٧] .وهكذا أصبحت المواجهة بين الفريقين أمـــراً محتمـــا عنـــد جبـــل "أحـــد" الذى عرفت تلك المعركة باســـمه .

المؤمنون فى الطريق إلى أحـــد :-

إن الدارس للعسكرية وفنـــون الحـــرب يعنـــى أول مـــا يعنـــى حيـــن يعمد إلى دراسة قوة طائفتين متحـــاربتين بالمقارنـــة بينـــهما مـــن حيـــث العدد والعتاد ، والإمكانيات التموينية ، حيـــث أن ذلـــك يعـــد أساســـا لـــدى قادة الجيوش المتحاربـــة يقومـــون بـــه وتقـــوم عليـــه حســـاباتهم فـــي مواجهتهم لأعدائهم.ومن ثم فإننا نقول خـــرج المســـلمون مـــن المدينـــة ، فى ليلة السبت لخمس عشرة ليلـــة مضـــت مـــن شـــوال [١١٨] فـــى ألـــف مقاتل منـــهم مائـــة دارع وخمســـون راميـــا ، ومعـــهم فَرَســـان أحدهمـــا للرسول -ﷺ - وثانيهما : لأبى بردة بن نيـــار ليواجـــهوا قـــوة قوامـــها ثلاثة آلاف رجل ومائـــة فـــارس ومثلـــهم مـــن الرمـــاة وســـبعمائة دارع وهذا التباين العددى لم يغب عن أذهان المنـــافقين الذيـــن أصابتـــهم بـــبدر بجروح أدمت أفئدتهم وشغلتهم عن أنفســـهم ، فاهتبلوهـــا فرصـــة يفتـــوا بها عَضُد المسلمين ، فقرر "ابن أبـــى " زعيمـــهم الانخـــزال عـــن نصـــرة المسلمين فى ثلاثمائة من أتباعه متعلـــلا بـــأن النبـــى محمـــداً لـــم يـــنزل

---

[١١٧] ابن سعد : الطبقات الكبرى :جـ٣/ صــ٣٦٦ ،٣٦٧. الصـــالحى : ســـبل الـــهدى والرشاد جـ٤/ ٢١٩

[١١٨] ذكر العلماء تواريخ أخرى للغزوة غير التى ذكرنا ، فمنهم من قال أنها كانت لإحدى عشرة ليله خلت من شوال ، وعن " مالك ابن أنس " كانت بعد بدر بسنة ، وعنه أيضـــا كانت عند الشهر الحادى والثلاثين من الهجرة . المقريزى : إمتاع الأسماع / ١٠٨.

على رأيه الذى جهر به خلال مشاورة النبى لأصحابه فى كيفية مواجهة المكيين الذين يريدون مهاجمة المسلمين فقال :عصانى وأطاع الصغار [١١٩] .ولا يجد المرء كبير عناء إن هو أراد استنطاق هذا الموقف الذى وقفه ابن أبى "ليلتمس أسباباً أخرى غير نفاقه يعزى إليها رجوعه وهى:

١-إنه وهو الذى كان على وشك التتويج على قبيلته بيثرب قبل هجرة النبى إليها فأحس بضآلة مكانته بين بنى قبيلته،فصار أمره غير مطاع فى الوقت الذى أطاع فيه القوم صغارهم،فأراد استرداد مكانته السليبة على حد زعمه بهذا الرجوع حتى يزيد من إمكانية انتصار المشركين على المسلمين.

٢-إن "ابن أبى" ساءه رد النبى حلفاءه من اليهود الذين خرجوا معه ليقاتلوا مع المسلمين المشركين فقال رسول الله -ﷺ-:لا نستنصر بأهل الشرك على "الشرك ،فهذا أيضاً جعل مكانة "ابن أبى "تتلاشى بين حلفائه بعدما أصيبت بمثل ذلك بين قبيلته وقرنائه.

لا يغالى المرء إذا ما اعتقد وجود تنسيق بينّ أبى عامر الفاسق "وبين "ابن أبى "فالغاية واحدة بينهما فى القضاء على محمد،وعليه فإنه لا مانع لدى أن يكون رجوع "عبد الله بن أبى "قبل نشوب المعركة بمن معه أمراً قد بيت بليل بين أبى عامر الراهب" وبين منافق الأوس "ابن أبى"وآية ذلك الوعد الذى وعد به أبو عامر "قريشاً بنصرة الأوس لها. فلا يتصور والحالة هذه أن يكون وعده معتمداً على مكانته وحدها بين قومه دون أن يكون قد شاور فى الأمر أو نسق بينه وبين "ابن

---

[١١٩] ابن الأثير :الكامل جـ٢/١٥٢، ١٥٣ – ابن القيم :زاد الميعاد /١٩٤، ١٩٥، المقريزى: إمتاع الأسماع /١٣٣ – محمد رضا :محمد رسول الله /١٩٣، ١٩٤.

أبى "حول التخزيل عن محمد ومن معه ،فالرجلان من قبيلة واحدة حنقا على الإسلام وأخذا على عاتقهما الكيد له فى الخفاء.

وقد عقب أحد الباحثين المحدثين على رجوع "ابن أبى " ومن معه قائلا :[لا شك أن حركة التمرد الخبيثة التى قام بها رأس النفاق فى ذلك الظرف، وهى مؤامرة خسيسة قصد بها المنافقون تفتيت وحدة الجيش الإسلامى وإضعاف قوته وهو على أبواب معركة حياة أو موت ،وهى لا شك مؤامرة فظيعة للغاية ولكن هذه المؤامرة (ولله الحمد) فشلت فشلا ذريعاً،إذ لم ينجح رأس النفاق إلا فى الانسحاب بأصحابه من أهل الريبة والنفاق الذين قد يكون بقاؤهم داخل الجيش المحمدى -ساعة القتال -عاملاً من عوامل تحطيم الجيش الإسلامي.

إذ لا يبعد (وهذه نواياهم الخبيثة)إذا ما بقوا داخل الجيش المحمدى حتى النهاية،أن يميلوا على المسلمين وهم داخل الجيش فيضربوهم ساعة احتدام المعركة ثم ينضمون إلى العدو ،فكأن الله سبحانه وتعالى كشف نيتهم الخبيثة وهم لا يزالون فى منتصف الطريق،فكان رجوعهم من ذلك المكان بمثابة تصفية للجيش المحمدى،أراد الله بها تطهير هذا الجيش من عناصر التآمر والانهزامية والخذلان،ليلقى المسلمون عدوهم وهم وحدة متماسكة وكتلة متراصة،فانطبق على هؤلاء المنافقين [120]قوله تعالى:[لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَا زَادُوكُمْ إلاّ خَبَالاً،وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ،وَفِيكُم سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ][121]

---

[120] باشميل :الغزوات الكبرى /جـ٢/٧٦،٧٧.

[121] سورة التوبة آية ٤٧.

نشوب المعركـــة:-

كان النبى محمــــ -ﷺ-يــدرك أن الشــحن المعنــوى للجنــدى فــى ميدان القتال له عظيـــم الأثـــر،فلمـــا رأى صلـــوات ربـــى وســـلامه عليـــه الصفوف متراصة،والالتحام كاد يقع بين المؤمنيـــن والكـــافرين نـــادى فـــى المسلمين قائلاً: (من يأخذ هذا السيف بحقـــه؟قالـــها مـــرة ثـــم مـــرة،فـــإذا بعدد كبير من رجالات المسلمين يُقبلون عليه فأمســـكه النبـــى عنـــهم،فلمـــا جاء أبو دجانة فقال:وما حقه يا رسول الله؟قال :تضـــرب بـــه العـــدو حتـــى تثْخن قال:أنا آخذه.فأعطـــاه إيـــاه وكـــان شـــجاعاً،وإذا اعتـــم بعصابـــة لـــه حمراء علم الناس أنه يقـــاتل،فعصـــب رأســـه بـــها وأخـــذ الســـيف،وجعـــل يتبختر بين الصفين،فقال رســـــول الله -ﷺ-:إنـــها مشـــية يبغضـــها الله إلا فى هذا الموطـــن)[١٢٤].

وإذ كان النبـــى محمـــد -ﷺ-قـــد حمـــس أصحابـــه بعرضـــه ســـيفه عليهم ،فأن "أبا سفيان" حمـــــس أتباعـــه المشـــركين،إذ كـــان القـــائد العـــام عليهم،فقال لبنى عبد الدار الذين يحملون اللواء: [قـــد وليتـــم لواءنـــا يـــوم بدر،فأصابنا ما قد رأيتم ،وإنما يؤتى النـــاس مـــن قِبَـــل راياتـــهم،إذا زالـــت زالوا،فإما أن تكفونا وإما أن تخلـــوا بيننـــا وبينـــه فنكفيكمـــوه،فـــهموا بـــه وتواعدوه،وقالوا:نحن نسلم إليكـــم لواءنـــا؟! غـــداً إذا التقينـــا تـــرى كيـــف نصنع؟هذا ما أراد أبو سفيان.وقـــادت "هنـــد"امرأتـــه نســـاء قريـــش وهـــن يتجولن بين الصفوف،ويضربن بالدفوف،ويحرضن علـــى القتـــال ويقلـــن:

نحن بنات طـــارق نمشى على النمارق

---

[١٢٤] ابن هشام:سيرة النبى /جـــ٣/١١ - ابـــن الأثـــير:الكـــامل /جـــ١٥٢/٢ - أحمـــد فريد:وقفات تربوية/٢١٦،٢١٧.

نمشى القطا النوازق   والمسك فى المفارق
والدرّ فى المخانق
إن تقبلوا نعانق   ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق   فراق غير وامق.

وحاول أبو عامر الفاسق" -وقد تصاف الجيشان أن يستزل بعض الانصار فقال:يا معشر الأوس أنا أبو عامر".فقالوا:فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق،فلما سمع ردهم عليه قال:لقد أصاب قومي من بعدي شر[١٢٥]

ولأن المشركين قد تملكهم الغرور فى يومهم هذا واستيقنوا من إحراز الانتصار على الفئة القليلة المسلمة،فقد تبارى رجالهم فى إظهار شجاعتهم،وعلو كعبهم على أتباع محمد،فخرج واحد منهم يمتطى جملا أحمر ينادى على المسلمين،هل من مبارز؟،فنهض إليه "الزبير"،فتبارزا،وهما على بعير ذلك المشرك.فأمكن الله "الزبير" منه فصرعه وخرّ على الارض قتيلاً من على جمنه.فلما رأى النبي ذلك من "الزبير" سُرّ سروراً شديداً وقال:[إن لكل نبى حوارياً وإن حوارى "الزبير"]وقال [لو لم يبرز له الزبير لبرزت إليه]وكانت هذه المبارزة بمثابة بداية لمعركة أحد،حيث التحمت الصفوف،وشهدت ساحة المعركة ضروباً من البطولات لرجال من المسلمين،أنشأت سيوفهم

---

(١٢٥) الطبرى:تاريخ الرسل والملوك/جـ٢/٥١٠،٥١١ -ابن الجوزى:المنتظم/جـ٢/٢٦٤
- أبو شهبة
:السيرة النبوية/جـ٢/١٩١/١٩٢.النجار :القول المبين/٢٠٣،٢٠٤.

تحصد المشركين حَصْداً من أمثال "على بـــن أبـــى طـــالب" ،"والنضـــر بـــن الحارث" "وطلحة"،والزبير ولا نُغالى إذا ما قلنـــا إنّ المســـلمين فـــى الجولـــة الأولى من معركة أحد قد تنافســـوا فيمـــا بينـــهم لطلـــب الشـــهادة،تنافســـاً أخاف أعدائهم ، فولوهم الأدبار،الأمر الـــذى أمكـــن المســـلمين مـــن أقفيـــة المشركين فقتلوا وجرحوا منهم الجم الغفـــير[١٢٦]وفـــى هـــذا الوقـــت شـــهد ميدان المعركة حدثين عظيميـــن.

أولهما:استشهاد "حمزة" عم النبى -ﷺ-أســـد الله،ذلـــك الـــذى أظـــهر فى يوم بدر بسالة نادرة،فقطـــف سَـــيْفُهُ رءوس صنـــاديد الكفـــر،ووجـــهاء مكة،ومن ثم فإن واحداً من رجالات قريش وهو "جبـــير بـــن مطعـــم "الـــذى نـــال ســـيفُ "حمـــزة"عمـــه "طعيمـــة بـــن عـــدى"يـــوم بـــدر اســـتدعى مولاه"وحشى"فقال له :إن قتلت "حمزة"عم محمد بعمـــى فـــأنت عتيـــق،قـــال "وحشى":فخرجت مع الناس،وكنـــت رجـــلاً حبشـــياً أقـــذف بالحربـــة قـــذف الحبشة،قلما أخطئ بها شـــيئاً،فلمـــا التقـــى النـــاس،خرجـــت أنظـــر حمـــزة ،واتبصره،حتى رأيته فى عرض النـــاس مثـــل الجمـــل الأورق يـــهد النـــاس بسيفه هداً ما يقوم له شيء ،فوالله إنـــى لأتـــهيأ لـــه أريـــده وأســـتتر منـــه بشجرة أو حجر ليدنو منـــى،إذ تقدمنـــى إليـــه "ســـباع بـــن عبـــد العـــزى" فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه فـــهززت حربتـــى حتـــى إذا رضيـــت منـــها دفعتها عليه،فوقعت فى ثنيته حتى خرجت مـــن بيـــن رجليـــه وذهـــب لينـــوُ نحوى فغلب فتركته وإياها حتى مات،ثم أتيته فـــأخذت حربتـــى ثـــم رجعـــت

---

(١٢٦) الصالحى:سبل الهدى والرشاد جـ٤/١٩٣.

إلى المعسكر فقعدت فيه،ولم يكن لى بغـيره حاجـة،وإنمـا قتلتـه لأعتـق فلما قدمت مكة أعتقـت(١٢٧)

فلما علمت "هند" باستشـهاد"حمـزة" عمـدت إلـى مكانـه،فبقـرت بطنه فأخرجت كبده فجعلت تلوكـها فلـم تستسـغها ثـم لفظتـها، فقـال النبي -ﷺ-: [لو دخل بطنها لم تمسـها نـار(١٢٨).

وأما ثانيهما فهو:استشهاد أول مـهاجر فـى الإسـلام مـن مكـة إلى المدينة "مصعب بن عمير"ذلك الرجل الـذى ضحـى فـى سـبيل نشـر الإسلام بالنفيس والرخيص،فلما كانت غزوة أحـد جعلـه رسـول الله فـى مقدمة الصفوف،وكان ممن حملوا اللواء بها،وظـل يرقـب النبـى محمـدا ببصره والمعركة تدور بين المسـلمين والمشـركين بقصـد درء سـيوف القوم عن النبى محمد -ﷺ-،فجاءه"أبـو قميئـه الليثـى" فضربـه ضربـة جعلت "مصعب"رضـوان الله عليـه فـى عـداد الشـهداء ليفـوز بجنـة عرضها السموات والأرض أعـدت للمتقيـن(١٢٩)

ولما اشـتد القتـال يومئـذ جلـس رسـول الله -ﷺ- تحـت رايـة الأنصار،وأرسل إلى "على بن أبى طـالب "أن قـدم الرايـة فتقـدم "علـى "وقال:أنا أبو القصـم وصـاح "طلحـة بـن أبـى طلحـة"صـاحب لـواء المشركين من يبارز؟فلم يبرز إليه أحد،**فقال**:يـا أصحـاب محمـد،زعمتـم أن قتلاكم فى الجنة،وقتلانا فى النار كذبتم والـلات ،لـو تعلمـون أن ذلـك حق لخرج إلى بعضكم،فبرز إليه "علـى بـن أبـى طـالب "فالتقيـا بيـن

---

(١٢٧) ابن هشام:سيرة النبى /جـ٣/١٧ -ابن الأثير:أسد الغابة/جـ١/٦٠٧،٦٠٨.

(١٢٨) ابن الأثير :أسد الغابة /جـ١/٦٠٦.

(١٢٩) ابن هشام:سيرة النبى/جـ٣/١٨ - ابن حجر :الإصابة /جـ٣/٤٢١،٤٢٢.

الصفيـن،فبـدره "علـى" فصرعـه،ولـم يجـهز عليـه فقـال لـه بعـض أصحابه:أفلا أجهزت عليه؟،فقال :إنـه اسـتقبلنى بعورتـه فعطفتنـى عليـه الرحم، وعرفت أن الله تعالى قد قتله وكان قتـل صـاحب لـواء المشـركين تصديقا لرؤيا رسول الله -ﷺ-التـى أسـلفنا ذكرهـا.فسـر رسـول الله -ﷺ-،وأظهر التكبير وكبر المسلمون،وشـدوا علـى المشـركين يضربونـهم حتى اختلت صفوفـهم[١٣٠] .

ولقد أظهر "بنو عبد الدار" فى يوم "أحد" بـلاء فـاق مـا كـان منـهم فى يوم بدر حتى يظهروا "لأبى سفيان" أنهم جديـرون بحمـل اللـواء الـذى توارثوه عن آبائهم بعد "قصى بن كلاب" ومع ذلـك فقـد نجـح المسـلمون فى قتل عدد من رجالهم الذين تعاقبوا علـى حمـل لـواء المشـركين الـذى لم يجد من يحمله،فتقدمت إلى حمله عمـرة بنـت علقمـه الحارثيـة".فلمـا رأت نسوة المشركين مـا نـزل بقرمـهن أخـذن يدعـون بـالويل ،وتبـع المسلمون المشركين يضعون فيـهم السـلاح،وجعلـوا يحـوزون مـا فـى العسكر من أعيان منقولة غنيمة لهم.فلما رأى الرمـاة ذلـك أقبـل جماعـة منهم وخلوا الجبل،فنظر "خالد بن الوليـد" إلـى خـلاء الجبـل،وقلـة أهلـه فكر بالخيل،وتبعه "عكرمة" فحملوا علـى مـن بقـى مـن الرمـاة فقتلوهـم ،وأميرهم "عبد الله بن جبير"وانتقضـت صفـوف المسـلمين[١٣١]،وصـاروا فى اضطراب،فقد تفرق جمعهم ،وأشيع بينـهم أن نبيـهم قـد قتـل،فـزادت تلك الإشاعات أحوالهم سوءا علـى سـوء،بحيـث ضـرب بعضـهم بعضـا

---

(١٣٠) ابن سيد الناس:عيون الأثر/جـ٢/١٨ - الصالحى: سبل الهدى والرشاد /جـ٤/١٩٤.

(١٣١) البيهقى دلائل النبوة /جـ٣/ ٢١٠ - ابن الجوزى:المنتظم /جـ٢/٢٦٥،٢٦٦ -أبو زيد شلبى:تاريخ خالد بن الوليد البطل الفاتح ٤٣،٤٤

بالسيوف،مثلما حدث مع اليمان والـــد حذيفـــة.وفـــى ظـــل هـــذا الموقـــف المضطرب انقسم المسلمون إلى جماعـــات ثـــــلاث : -

أولها:جماعة صغيرة مع رسول الله -ﷺ-لا تفارقه،وتعد هيئة الأركان.

وثانيهما: جماعة أخرى لم تتخل عن مطاردتها للعدو، وظـــلت على مقربة من مقر قيادة الرسول.

والجماعة الثالثة:وهى أكثرية الجيش،فإنـــها شـــغلت بـــأمر الغنـــائم فلما كان من أمر التفاف خالد حول المسلمين،وقعـــت هـــذه الجماعـــة بيـــن قوتين للمشركين،فطوقت،وقتل عـــدد منـــها،حتـــى انـــهزم بعضـــها نحـــو المدينة وفكـــر بعضـــها الآخـــر فـــى الاستســـلام ولكـــن شـــجع بعضـــهم بعضاً،ورغبوا فى الشهادة،ومن هؤلاء "أنس بن النضـــر"الـــذى قـــدم علـــى قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال:مـــا يجلســـكم؟قـــالوا:قتـــل رسول الله فقال:يا قـــوم إن كـــان محمـــد قـــد قتـــل فـــإن رب محمـــد لـــم يقتل،وما تصنعون بالحيـــاة بعـــد رســـول الله ،فقـــاتلوا علـــى مـــا قـــاتل عليه،وموتوا على ما مات عليه،وقال:اللهم إنـــى أعتـــذر إليـــك ممـــا قـــال هـــؤلاء،يعنـــى المســـلمين،وأبـــرأ إليـــك ممـــا جـــاء بـــه هـــؤلاء يعنـــى المشركين،ثم لقى "سعد بن معاذ"فقال:"يا ســـعد "إنـــى لأجـــد ريـــح الجنـــة دون أحد ثم ألقـــى بنفســـه فـــى أتـــون المعركـــة،ومـــا زال يقـــاتل حتـــى استشهد،فوجد به بضع وثمانون ما بين ضربـــة بســـيف أو طعنـــة برمـــح

أو رمية بسهم،فلم نعرفه الا أخته ببنانه[١٣٢] وفى هذا وامثاله نزل قول الله سبحانه:[من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا[١٣٣] .

وأما النبى محمد فإنه ثبت فى مكانه لم يبرح ليقينه أن الله حافظه من أعداء الدين،ولم يكن مع رسول الله فى هذا الموقف العصيب سوى خمسة عشر رجلاً،سبعة من المهاجرين،وثمانية من الأنصار،وجعلوا من أنفسهم متاريس تقى رسول الله ضربات الأعداء ،فإن أربعة رجال من قريش تعاهدوا على قتل رسول الله فى "أحد" وتنافسوا فى سبيل ذلك وجهروا بعهدهم هذا فى بنى قومهم،وهم "عبد الله بن شهاب"،وعتبة بن أبى وقاص، و"عمرو بن قميئة" و"أبى بن خلف"الذى قال بعد أن افتدى نفسه من أسرى بدر:والله إن عندى العود فرساً أعلفها كل يوم فرقاً[١٣٤]من ذرة ،ولأقتلن عليها محمداً ،فبلغ رسول الله -ﷺ-فقال :[بل أنا أقتله إن شاء الله] فإنه كان يقول ذلك للنبى -ﷺ- بمكة قبل الهجرة، فلما كان يوم أحد،قال رسول الله -ﷺ- لأصحابه:إنى أخشى أن يأتى أبى بن خلف من خلفى فإذا رأيتموه

---

[١٣٢] البيهقى :دلائل النبوة/جـ٣/٢٤٥،٢٤٦ - ابن الأثير:الكامل /جـ٢/١٥٦ - الطيب النجار:القول المبين /٢٠٧، ٢٠٨ - محمود شاكر:التاريخ الإسلامى/جـ٢/٢٣٦،٢٣٨.

[١٣٣] سورة الأحزاب :آية (٢٣).

[١٣٤] هو مكيال يساوى فى المدينة ثلاثة صيغان،وفى العراق كان فرق القمع يساوى ستة وثلاثين رطلاً بغداديا – سامح عبد الرحمن فهمى :المكاييل فى الإسلام/٣٢.

فأذنونى به.وكـان رسـول الله -ﷺ- لا يلتفت فى القتال وراءه،فلما أصعد رسول الله -ﷺ- فى الشعب أدرك "أبياً" وهـو فـى الحديد يركض على فرسه،وهو يقول أين محمـد؟لا نجوت إن نجا فقال القوم :يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟،فقال رسول الله -ﷺ-: (دعوه فلما دنا منه)،تناول رسول الله -ﷺ- الحربة من "الحرث بن الصمّة"ويقال :من "الزبير بن العوام "فلما أخذها رسول الله -ﷺ- منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الشعْراء[١٣٥]عن ظهر البعير،إذا انتفض بها.ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً فجعل يترجرج وكان أبى بن خلف يلقى رسول الله -ﷺ-بمكة فيقول :يا محمد إن عندى العوذ فرساً أعلفه كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه ،فيقول رسول الله -ﷺ- "بل أنا أقتله.إن شاء الله "فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشاً غير كبير ،فاحتقن الدم،قال :قتلنى والله محمد،قالوا له:ذهب الله فؤادك،والله إن بك بأس قال:إنه قد كان قال لى بمكة "أنا أقتلك فوالله لو بصق علىَّ لقتلنى ،فمات عدو الله بِسَرِفَ [١٣٦]وهم قافلون إلى مكة[١٣٧]

---

[١٣٦] بفتح أوله وكسر ثانية وآخر ما فاء،موضع على ستة أميال من مكة وقيل:سبعة وتسعه واثنى عشر -

ياقوت:معجم البلدان جـ٥/٤٠.

[١٣٧] ابن هشام :سيرة النبى جـ٣/٣٢،٣٣، - ابن كثير:البداية والنهايةجـ٤/٣٥،٣٧ - الصالحى:سبل الهدى والرشاد جـ٤/٢٠٨.

والجدير ذكره هنا أن "أبـــى بـــن خلـــف"أخ "لأميـــة بـــن خلـــف"الـــذى ألمعنا إلى ظروف مقتله فى بدر ولا تعارض بيـــن مـــا ذكرنـــاه هنـــاك مـــن أن النبى محمداً توعد "أمية" بـــالقتل[١٣٨]إن ظفـــر بـــه خـــارج مكـــة وبيـــن توعده لأخيه هنا،فقد وفق "ابن الجوزى" بيـــن القصتيـــن بقـــول :[يحتمـــل أن يكـــون رســـول الله -ﷺ-،قتـــل "أميـــة" يـــوم بـــدر،وقتـــل "أبيـــاً" يـــوم أحد].ويحتمل أن يكون معنى قوله : (إنـــه قـــاتلك) أى يقتلـــك أصحابـــه والله أعلـــم.[١٣٩]

ولم تنجح هذه الفئة المشركة التى تعـــاقدت علـــى قتـــل النبـــى محمـــد فى تحقيق مأربها إلا فـــى إصابتـــه -ﷺ-بجـــروح،فقـــد أصيبـــت رباعيتـــه ،وشج فى جبهته،وجرحت شفته،ودخلت حلقتان مـــن المغفـــر الـــذى يســـتر به وجهـــه فـــى وجنتـــه،واســـتمات المســـلمون فـــى الدفـــاع عـــن النبـــى محمدٍ،وكان للنساء فى هذا الظرف العصيـــب دور عظيـــم.

دور النسوة المسلمات فى معركـــة أحـــد

لقد سطرت المرأة المســـلمة فـــى يـــوم أحـــد أمجـــاداً عظيمـــة فـــى الكفاح ضد المشركين،فلم تكـــن أقـــل حماســـة مـــن الرجـــال فـــى الخـــروج للجهاد حتى تعد للمقاتلة الطعـــام وتطيـــب الجرحـــى،وتبعـــث الحميـــة فـــى أفئدة الزوج أو محارمـــــها،بـــل لتحمـــل الســـيف إذا مـــا دعاهـــا داعٍ إلـــى حمله،مثلما فعلت"أم عمارة" مـــع رســـول الله -ﷺ-لمـــا انفـــض المســـلمون

---

(١٣٨) جاء حديث توعد النبى أمية بالقتل فى فتح البارى فى شرح الصحيح البخـــارى فـــى كتاب المغازى باب ذكر النبى-ﷺ- من قُتل ببدر حديث رقم (٣٩٥٠).

(١٣٩) ابن الجوزى :المنتظم /جـ٢/٢٦٧،٢٦٨.

عنه ولم يبق معه سوى ثلة قليلة فجاءت لتقاتل مع المفاتنين،فتروى عنها "أم سعد" "ابنة سعد بن الربيع" التى قالت :دخلت على "أم عمارة"،[فقلت :يا خالة أخبرينى خبرك [أى فى يوم أحد]؟ فقالت:خرجت أول النهار، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله -ﷺ- وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله -ﷺ- فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمى عنه القوس ، حتى خلصت الجراحة إلى ، فرأت " أم سعد " على عاتقها جُرْحاً أجوف له غور – فقالت : من أصابك بهذا ؟ قالت : " ابن قميئة " أقمأة الله ،لما ولى الناس عن رسول الله -ﷺ-،أقبل يقول : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا و"مصعب بن عمير " وأناس ممن ثبتوا مع رسول الله -ﷺ- ، فضربنى هذه الضربة ،ولكن ضربته ضربات على ذلك ، ولأن عدو الله كان عليه درعان (١٤٠)

ومن النسوة اللواتى كن مع " أم عمارة " فى أحد" أم سليم بنت ملحان و" عائشة أم المؤمنين " رضى الله عنهما فانهما كانتا تحملان علي

---

(١٤٠) ابن هشام : سيرة النبى / جـ٣/ ٢٩ ، ٣٠- ابن الأثير : الكامل / جـ٢/ ١٥٤ ، ١٥٥ ابن سيد الناس : عيون الأثر / جـ٢/ ٢٢

ظهريهما القرب أما " حمنة بنت جحش "، [١٤١]وأم ايمن " فقد كانتا تســـقيان الجرحى العطشى .فلما رأت " فاطمة " بنت النبى أباها والدماء بوجهه اعتنقته ، وجعلت تمسحه عن وجهه ، وذهب " على " رضى الله عنـــه ليـــأتى بمـــاء ليشرب منه النبي -ﷺ- وكان قد عطش فلم يشرب لأنه وجد ريحا من المـــاء كريهاً ، فقال : هذا ماء أجن فمضمــض منه فاه للدم الذى به [١٤٢].

وعلى كل حال فإن المسلمين رجالا ونساء تمكنـــوا مـــن لـــم شـــعثهم بعد تفرق ،والالتفاف حول نبيهم ، ولـــم ينجـــح المشـــركون علـــى الرغـــم من اعتلائهم جبل الرمـــاة وإحاطتـــهم بالمســـلمين مـــن الجـــانبين – فـــى إلحاق الهزيمة الكاملة بالمســـلمين .

ولست فى رأيى هذا مُجافيـــاً لحقيقـــة أو منحـــازا إلـــى المؤمنيـــن ، فإن ما وقع فى " أحد" بعدما ولى المسلمون الأدبـــار ليؤكـــد مـــا قررتـــه ، فهاهو ذا النبى محمد حين رأى " أبا سفيان " ومـــن معـــه ، وقـــد صعـــدوا إلى الجبل يقول لأصحابه الذين صمدوا معـــــه ، وبـــايعوه علـــى المـــوت -- بعد فعلة الرماة واختلال الجمـــع –(ليـــس لـــهم أن يعلونـــا) ، فقاتلـــهم " عمر " وجماعة من المهاجرين حتـــى أهبطوهـــم ، ونـــهض رســـول الله - ﷺ-إلى الصخرة ليعلوها ، وكان عليـــه درعـــان ، فلـــم يســـتطع ، فجلـــس

---

[١٤١]أختى زينب بنت جحش من النسوة المبايعات عند العقبة ، شهدت أحد وكانت تســـقى العطشى وتحمل الجرحى وتداويهم ، أطعمها رسول الله من خيبر ثلاثين وسقا . ابن حجـــر الإصابة الجزء الرابع صـــ٢٧٥.

[١٤٢]ابن كثير : البداية والنهاية / جـ٤/ ٢٩ . المقريزى : إمتاع الأســـماع / ١٢٤،١٢٥ محمد رضا : محمد رسول الله / ١٩٧.

تحته " طلحة " حتى صعد ، فلو لـــم يكــن بالمســلمين قــوة ، مــا صمــم النبى على إنزال المشركين من الجبل كمــــا ذكرنــا .

وهاهو ذا " حنظلة بن أبى عـــامر " (غســيل الملائكــة) يلقــى أبــا سفيان بن حرب ، فيــأبى أن يســلم نفســه للمشــركين ويقاتلــهم بقــوة ، فلما استعلى حنظلة أبا ســـفيان رآه شــداد بــن الأســود فضربــه فقتلــه فقال رســـول الله إنــه لتغســله الملائكــة فاســألوا أهلــه فســألت امــرأة صاحبته فقالت خرج وهو جنب ســمع الهائعــة. فقــال رســول الله -ﷺ - (لذلك غسلته الملائكة) [١٤٣].وأراد " أبو ســفيان " القــائد العــام للجيــش القرشى ، أن يظهر لقومه أنهم أحرزوا انتصـــارا علــى المســلمين حقــق لهم نيل وتر قتلاهم فى بــدر .فاشــرف علــى الجبــل ثــم صــرخ بــأعلى صوته ، أنعمت فعال ، أن الحرب سجال ، يوم بيـــوم بــدر ، أُعــل هبــل (أى ظهر دينك) ، فقـــال رســول الله -ﷺ-" لعمــر " : قــم " يــا عمــر " فأجِبْهُ فقل : الله أعلى وأجلّ ، لا ســـواء ، قتلانــا فــى الجنـــة ، وقتلاكــم فى النار ، فقال له " أبو سفيان ": أنشـــدك الله يــا عمــر اقتلنــا محمــداً ؟ فقال : عمر اللهم لا ، وإنـــه ليســمع كلامــك الآن . فقــال : أنــت عنــدى أصدق من ابن قمئة وأبر واعتذر " أبو ســـفيان " مــن تمثيــل المشــركين. بالشهداء المسلمين وقال : والله ما رضيت ومـــا ســخطت ، ومـــا نـــهيت ، وما أمرت . ولما انصرف " أبو سفيان " نـــادى : إن موعدكــم بــدر العــام المقبل .فقال رسول الله ﷺ لرجـــل مــن أصحابــه : قــل نعــم هــو بيننــا وبينكم موعد ، ثم بعث رســول الله ﷺ " عليــاً بــن أبــى طــالب " فقــال:[

---

[١٤٣] ابن هشام : الســيرة النبويــة / جـــ٣/ ٢٠- ابــن الأثــير : الكــامل / جـــ٢/ ١٥٨المقريزى : إمتاع الأسماع / جـ١/ ١٣١،١٣٢

اخرج فى آثار القوم وانظر مـــاذا يصنعــون ومـــا يريــدون ، فـــإن كـــانوا جنبوا الخيل وامتطـــوا الإبــل فإنـــهم يريــدون مكـــة، وان ركبـــوا الخيـــل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة والذى نفـــس محمــد بيــده إن أرادوهـــا لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم] ، قـــال علـــى : [فخرجـــت علـــى أثرهـــم انظر ماذا يصنعون ، فوجدتهم جنبـــوا الخيـــل وامتطـــوا الإبـــل ووجهتـــهم إلى مكة] (١٤٤) فأنت ترى الرسول على الرغـــم مـــن جراحاتـــه ، وحنظلـــة على الرغم من الأخطـــار المحدقـــة بـــه حيـــث كـــان منفـــردا ، يأبيـــان أن يكون المشركون في مكان أعلـــي مـــن المســـلمين ولـــو كـــان ذلـــك فـــي الحرب وكذا عمر يرد علي أبي سفيان ردودا تبطـــل زعمـــه إحـــراز نصـــر علي المسلمين، فهذا وغيره ما كان ليكـــون لـــو أن هزيمـــة كاملـــة نزلـــت بالمســـلمين .

وهكذا وضعت حرب أحد أَوْزَارَهـــاَ وأصبـــح لزامـــا علـــي المســـلمين أن يضمدوا جراحهم وينظـــروا شـــهداءهم ويواســـوا الأُســـر التـــي فقـــدت عائلها .

المسلمون ينظرون شهداء أحـــد:-

أسفرت المعركة التي وقعت "بأُحد"بيـــن المشـــركين والمؤمنيـــن عـــن قتل سبعين مسلما جلهم من الأنصار فلـــم يكـــن مـــن المـــهاجرين شـــهيداً في يوم أحد سوي أربعة أفـــراد علـــي قـــول وخمســـة علـــي آخـــر وهـــم "حمزة بن عبد المطلـــب"و"عبـــد الله بـــن جحـــش"و"شـــماس بـــن عثمـــان "؟و"مصعب بن عمير "و"ســـعد"مَوْلَـــيً حـــاطب .فـــهذا يدلنـــا علـــي مـــدي الاستبسال العظيم الذي كان للأنصار في يوم"أحـــد"فكـــانوا أكـــثر المســـلمين

---

(١٤٤) ابن كثير : البداية والنهاية /جـ٤/ ٣٨ /- المقريزى : إمتاع الأسماع / ١٣٨ محمـد رضا : محمد رسول الله / ١٩٤،١٩٥

شُهداء وقد أمر رسول الله ﷺ -أن تحفر القبـــور للشــهداء حتـــى يُـــوَاروا فيها فجعل رسول - ﷺ - فى القبر الواحد اثنيـــن أو ثلاثـــة رجـــال .وكـــان صلوات ربى وسلامة عليه يقدم فى القبر احفظـــهم قرآنـــا ، ويجمـــع بيـــن المقبورين على أساس العلائق التى كانت تربطـــهم فـــى حياتـــهم ، وآيـــات ذلك ، ما كان من أمر النبى محمد بدفـــن " عمـــرو بـــن الجمـــوح " و"عبـــد الله بن عمرو بـــن حـــرام " فـــي قـــبر واحـــد ،وذلـــــك :{لأنـــهما كانـــا متصافين في الدنيا فجعلوهما في قـــبر واحـــد }[١٤٥] . ولـــم يكفـــن النبـــي محمد شهداء أحد فجعلهم في ثيابـــهم دون أن يُغَسّـــلوا ، وأبـــي صلـــوات ربي و سلامه علية دفنهم فـــي غـــير الأمـــاكن التـــي نـــالوا فيـــها نعمـــة الشهادة ، فرد الشـــهداء الـــذي كـــان ذووهـــم حملوهـــم مـــن"أحـــد" إلـــى مقابرهم في المدينـــة إلـــى حيـــث استشـــهدوا.[١٤٦]فـــهذا يدلنـــا علـــي أن الشهيد يُقبر حيث كانت شهادته . و الذي لا ريـــب فيـــه أن هـــذه النتيجـــة تركت في نفوس المدنيين أثاراً أليمة جعلـــت الحـــزن والعتـــاب يســـيطران عليهم ، فكانوا بين باك علـــي فَقْـــدِ عـــائل أو قريـــب ، و بيـــن محاســـب لنفسه حساباً عسيراً علي ما قد كان من تفريـــط خـــلال المعركـــة .

يتبين للقارئ الكريم ذلك من خلال الحديـــث مـــا كـــان لـــهذه غـــزوة من رد فعل علي المؤمنين بعـــد عـــودة الجيـــش الإســـلامى إلـــى المدينـــة المنـــورة .

---

[١٤٥] ابن كثير : البداية و النهاية / جـ٤ / ٤٣ ، ٤٤ . ابن حجـــر العســـقلاني : فتـــح الباري / جـ ٧ / ٤٣٤ . باشميل : الغزوات الكبرى / جـ ٢ / ١٩٣ / : ١٩٥

[١٤٦] الصالحي / سبل الهدي و الرشاد جـ ٤ / ٢٢٦ .

صدى غزوة أحد على المدنيين

بعد أن فرغ النبي من أمر الشهداء أذن في المسلمين بالعودة إلى ديارهم فامتطوا إبلهم و ساروا في طريقهم و لا حديث لهم إلا ما كان من أمرهم و ما ناله عدوهم منهم ، و اذا كانت هذه حالة الرجال المقاتلين ، فإن النسوة في المدينة كن يتشوفن أخبار رجالهن و من جرح منهم . ومن استشهد لتعلم كل امرأة حالها فخرجن إلى تخوم المدينة لاستقبال العائدين من المسلمين . فكانت أحوالهن متباينة . فمنهن المحزونة على قتل الزوج ، و المسرورة لعودته سالما ، و الثكلى التي تبكي الولد و الزوج معا .

كل ذلك يصور لنا تنوع الشعور النفسي لدى النسوة و الأطفال و الأقارب بالمدينة و هم يسمعون الأخبار على ألسنة العائدين من أحد . فهذه هي " حمنة بنت جحش " يقول لها النبي محمد ﷺ { يا حمنة احتسبي } ، قالت : من يا رسول الله ؟ قال : خالك : حمزة بن عبد المطلب " ، قالت : إنا لله و إنا اليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئا له الشهادة ، ثم قال لها : (احتسبي): قالت : من يا رسول الله ؟، قال : (أخوك عبد الله بن جحش). قالت : إنا لله و إنا إليه راجعون ، غفر الله له هنيئا له بالشهادة) ثم قال لها : (احتسبي) قالت من يا رسول الله ؟ قال : (زوجك " مصعب بن عمير " . قالت : وأحزناه و صاحت وولولت فقال رسول الله ﷺ : إن زوج المرأة منها بمكان لما رأى من تثبتها على أخيها و خالها . و صياحها على زوجها ، ثم قال لها : لم قلت هذا ؟ " قالت : يا رسول الله ،

ذكرت ، ،يتم بنيه،، فراعني فدعا لها رسول الله -ﷺ- ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف) .

و إذا كان هذا هو موقف واحدة من نساء المؤمنات حين علمت بشهدائها في " أحد " فان هذا موقف امرأة من بني دينار يأخذ شكلا آخر ، فتراها حين نعي إليها أبوها ، و زوجها , و أخوها ، و ابنها ، تقول : ما فعل رسول الله -ﷺ- يقولون أمامك حتى دفعت إلى سول الله-ﷺ- ، فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بابي أنت و أمي يا رسول الله ، لا أبالي إذا سلمت من عطب[١٤٧] فهذا يدل على قوة الإيمان الذي ملك عليها نفسها فجعل عندها النبي محمدا أحب إليها من الدنيا بما فيها ومن فيها .

و لقد كانت معظم إصابات الجرح في بني الأشهل ، فواساهم النبي محمد بقوله لسعد بن معاذ : { يا " أبا عمرو إن الجراح في أهل دارك قاسية ، و ليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان، اللون لون الدم ، و الريح ريح المسك ، فمن كان مجروحا ، فليقر في داره و ليداو جرحه ، و لا يبلغ معي بيتي عزيمة مني . فنادي فيهم " سعد " عزيمة من رسول الله -ﷺ- ألا يتبع رسول الله - ﷺ - جريح من بني عبد الأشهل ، فتخلف كل مجروح ، فباتوا يوقدون النيران ، و يداوون الجرحى ، و مضى " سعد " مع النبي عليه السلام حتى جاء بيته فما نزل نبي الله - ﷺ -عن فرسه إلا و

---

[١٤٧] ابن الجوزي المنتظم / جـ ٢ / ٢٧١، ٢٧٢ س ، ابن الأثير : الكامل / جـ٢ / ١٦٣

اتكأ على " السعدين " ، " سعد بن عبـــادة " ، " ســـعد بـــن معـــاذ " حتـــى دخل بيتـــه [١٤٨]

أضحى أهل بيت النبي محمد يضمـــدون جراحـــه تلـــك التـــي جعلتـــه ينام ، فلا يخرج إلى صلاة العشاء إلا بعد مضي شـــطر مـــن الليـــل فلمـــا استبطأ الصحابة خروجه نادوا عليه قائلين الصـــلاة يـــا رســـول الله فخـــرج و صلـــى معـــهم ، و بـــات وجـــهاء الاوس والخـــزرج علـــي بـــاب بيتـــه لحراسته من قريش حتى لا يباغت المكان فيصـــاب النبـــي بمكـــروه ،ولمـــا كان معظم الشهداء و الجراحات فـــي الأنصـــار فـــإن البكـــاء والحـــزن قـــد لف معظم أرجاء المدينة مع هذا الشـــعور الـــذي ألـــم بســـاكنيها ، فأنـــهم حرصوا كل الحرص علي مشاطرة النبـــي محمـــد - ﷺ - حزنـــه علـــي عمه حمزة بن عبد المطلب " الذي كـــان مـــن شـــهداء " أحـــد " و لأنـــه من المهاجرين فهو و الحالة هذه ليس في بيتـــه نســـوة يبكينـــه ، فمـــا إن سمع الأنصار قـــول رســـول الله -ﷺ (لكـــن حمـــزة لا بواكـــى لـــه) . أحضر الأنصار نسوتهم الباكيات و النائحات ، فجلســـن عنـــد بـــاب رســـول الله يبكين " حمزة " ، فلما خـــرج صلـــوات ربـــي و ســـلامه عليـــه وهـــن علي هيئاتهن سالفة الذكر ،ذكرت بعض الروايـــات أنـــه قـــال : (ويحـــهن ما زلن يبكين منـــــــذ الليلـــة لـــيرجعن و لا يبكيـــن علـــي هـــالك بعـــد اليـــوم " [١٤٩]

و المطالع لهذا الموقف الذي وقفـــه الأنصـــار مـــن النبـــي محمـــد ، يجد أن حبهم له كان أقوي مـــن كـــل شـــيء فـــي دنيـــاهم ، فقـــد شـــغلوا

---

[١٤٨] الصالحي : سبل الهدي و الرشاد / جـ ٤ / ٢٢٨ ، ٢٢٩

[١٤٩] ابن كثير : البداية / جـ٤ / ٤٨ - المقريزي : إمتاع الأسماع / جـ١ ١٣٤ ، ١٣٥ الصالحي : سبل الهدي و الرشاد / جـ٤ / ٢٣٠

أنفسهم بمواساته عن مصاب أعزائهم في " أحـــد " فكـان بكـاء نسـوتهم علي " حمزة " لا لشيء سوي أن يقول لسان حالـهم لنبيـهم إن مـا نـزل بنا من وفاة أعزائنا و جراحات في رجالاتنا لم يزدنـا إلا إيمانـاً بنبينـاً.

و من ثم فإن جهود المنـافقين ومـن حالفـهم مـن اليـهود قـد حطمتها صلابة إيمان الأنصـار . ذلـك أن المنـافقين و اليـهود اهتبلـوا الحالة التي عاشها المسلمون في المدينة بعد أحـد فراحـت اليـهود تقـول : { لو كان نبياً ما ظهروا عليه و لا أصيـب منـه مـا أصيـب ، و لكنـه طالب مُلك تكون له الدولة و عليـه ، و قـال المنـافقون مثـل قولـهم ، و قالوا للمسلمين : لو كنتم أطعتمونا مـا أصـابكم الذيـن أصـابوا منكـم ، فأنزل الله القرآن في طاعـة مـن أطـاع و نفـاق مـن نـافق و تعزيـة المسلمين فيمن قتل [١٥٠] منـهم فقـال:(وَإِذْ غَـدَوْتَ مِـنْ أَهْلِـكَ تُبَـوِّئُ الْمُؤْمِنِيْنَ مَقَاعِدَ لِلقِتَالِ وَاللهُ سَـمِيْعٌ عَلِيْـمٌ)[١٥١].

وعلى كل حال فإن الدارس لغزوة أحد ،لا بد لـه مـن الوقـوف أمـام صور البطولة بها ومعجزاتـها ومـا كـان مـن انـهزام المسـلمين علـى أرضها حتى يسـتخلص العـبر والأسـباب التـى تفيـد أجيـال المسـلمين المتلاحقـة.

معركة أحد فى المـيزان

مما تقدم يرى القارئ الكريم أن ميزان القوى قـد كـان مـن الناحيـة المادية فى صالح المشركين وأن ذلك لـم ينفعـهم فـى الجولـة الأولـى،إذ

---

[١٥٠] ابن كثير :البداية والنهاية /جـ٤/٤٨.

[١٥١] سورة آل عمران:آية (١٢١).

أكلت القلة المؤمنة الكثرة الكافرة،فهى من هذه الناحيــة تــبرز لنــا مجــدداً أنه لا جدوى ترتجى،ولا ثمــرة تنفــع مجتمعــاً أعلــى مادياتــه علــى مــا عداها من أمور تبعث فــى أفئــدة المقــاتلين الطاقــات المعينــة لــهم فــى مجابهة عدوهم .ولقد ثبت الله أفئدة المســلمين خــلال تلــك الغــزوة ممــا جعلهم ينجحون فــي مجابهــة كــل موقــف مــن مواقــف الغــزوة بمــا يستحقه،ولولا ذلك لكانت خسائرهم أعظم ممــا وقــع،ولتمكــن المشــركون من استئصال شأفتهم،فقد رأوا النبى وقد أنجز الله لــه وعــده حيــن جعلــه يقتل بيديه الكريمتين "أبى بن خلف" لتكون أيةً مــن آيــات أشــحذت همــم الجند فى أحد" بالإضافة إلى رد النبى لعيــن "قتــادة" بعدمــا وقعــت علــى وجنته، فكانت حسن عينيه إبصاراً إلــى أن مــات.

فهذه الآيات التى ألمعنا إلى بعضــها أعلــت كعــب المســلمين علــى المشركين الذين لم يقاتلوا المسلمين إلا بدافــع الثــأر والانتقــام ممــا كــان فى بدر.

كما أن هذه الحركة أبــانت لنــا ضــرورة أن يلــتزم الجنــد التزامــاً دقيقاً بأوامر قائدهم،اذ القائد يرى بأعين قيادتــه مــا لــم يســتطع الجنــدى أن يراه فى كثير مــن الأحــايين فــإذا كــان ذلــك كذلــك بالنســبة لقــادة الجيوش فإنه من الطبعى أن يكون فى يوم أحــد أكــثر أهميــة،إذ أن الــذى وجه إليهم الأوامر القيادة والنبوة.فالرماة بمخالفتــهم أوامــر النبــي القــائد يتحملون والحالة هذه مســئولية الخســائر التــى أصــابت المســلمين فــى هذه الغزوة مع أنهم لم يتعمدوا إلحاق الهزيمــــة بالمســلمين لأنــهم حيــن انطلقوا من مكانهم كانوا علــى يقيــن مــن انتصــار المســلمين،فشــاركوا

إخوانهم فى حيازة المزيد من الغنـــائم،فأنســتهم الدنيــا مــا شــدد النبــى محمد - ﷺ - فى طلبه منهم بــان لا يــبرحوا المكــان تحــت أى ظــرف من الظــروف.

ومــع ذلــك فــإنى لا أُحملــهم وحدهــم مســئولية مــا وقــع علــى المسلمين،وإن حملناهم فى الوقت ذاتــه النصيــب الأكــبر مــن المســئولية التى يشاركهم فى حمل باقيها أولئك الذين فــروا مــن ميــدان المعركــة - بعد ما أحاط المشركون بهم من جهات عدة،ولم يثبتــوا مــع النبــى ثبــات إخوانهم معه،فكانت عودتهم بمثابة إفاقة مــن حــدث أذهــب عنــهم الفكــر ثم لوقت يسير سرعان ما أعــاده إليــهم إيمانــهم بربــهم وتصديقــهم لنبيــهم.

ولابد للــدارس أن يســأل نفســه كيــف فــوَّت "أبــو ســفيان" هــذه الفرصة التى طالما سعى إليها ليســتأصل شــافة المســلمين مــن المدينــة بعد ما هزمهم فى "أحــد" ؟.

والجواب هو ما ذكره أحد البــاحثين [١٥٢]المحدثيــن أن "أبــا ســفيان" أدرك بثاقب نظــره وبحســه العســكرى أن عمــلاً كــهذا هــو مــن قبيــل المقامرة أو المغامرة التى لا تدرى عواقبه،فإنه لــم يغــتر بانتصــار حَقَقَــه فى أحد بعد هزيمة كادت تحل برجاله مثل التى نزلــت بــهم "ببــدر"، بــل لا نغالى إذا ما قلنا إن من المشركين مــن سَــلّم بحدوثــها،وتــأهب للرحيــل عن "أحد" طالباً النجاة لنفسه وبعض مــا يحمــل.

---

(١٥٢) باشميل :الغزوات الكبرى/جـ٢/١٨٣،١٨٥.

وآية ذلك الغنائم التى جمعها المسـلمون فـى الجولـة الأولـى فمـا كانوا ليجمعوا شيئاً إلا إذا كان الانتصـار قـد مشـى فـى ركابـهم.فـأبو سفيان" والحالة هذه علم أن النصـر الـذى حـالف المشـركين إنمـا كـان لعامل مؤقت نتج عن خَلَلٍ فى تنفيذ الخطـة الحربيـة التـى أعدهـا سـيد البرية - ﷺ - حين ترك الرمـاة فرصـة "لخـالد"جـاء منـها برجالـه فأعمل السيوف فى رقاب المسـلمين،وأى عسـكرى مثـل "أبـى سـفيان" يخشى على جيشه كان سيفعل مثل مـا فعـل فالمعركـة فـى "المدينـة" إن وقعت بعد "أحد" كانت ستكون على المشركين أشـد،لمـا فيـها مـن أزقـة تكسب أصحابها منعة مع إمكانية تجميع مـن تفـرق مـن المسـلمين مـن جديـد فيقـع المشركون بيـن سـيوف تضربـهم ونبـال ترشـق خيولهم،ورماح تصوب على وجوهم،فـلا يُـلام "أبـو سـفيان" علـى أنـه ترك "أحـد" دون أن يلاحـق فلـول المسـلمين وهـى فـى طريقـها إلـى المدينـة.

وإن ننس فلا ننسى ونحن نحكـم علـى الأمـور فـى غـزوة "أحـد" الإشـارة إلـى ثبـات رسـول الله فـى ميـدان المعركـة ومواسـاته للجرحـى،وتطييبـه لخـاطر أفئـدة الأرامـل والأمـهات اللواتـى فقـدن أزواجهن أو أبناءهن ،فهو بذلك يضرب المثل الراقـى للقـادة فـي حسـن القيادة،فلم ينس مجتمعه على الرغم من الجراح التـى أكلمتـه فـزاد ذلـك من حب المسلمين له كما أن الغزوة أظـهرت للنبـى مـدى حـب الأنصـار له،واستعدادهم أن يضحوا بـالنفيس والرخيـص فـى سـبيل الـذب عـن

دينهم،وشد أزر نبيهم،وأظهرت الغـزوةَ بَوْنـاً شاسـعاً بيـن دور النسـوة المسلمات والمشركات.فالمسـلمات مـا خرجـن إلا ليجـاهدن فـى حـدود طاقاتهن وإمكاناتهن الخلقية مع الرجال،فكـان وجودهـن فـى كثـير مـن مواقف "أحد" عـاملاً مسـهماً فـى التغلـب علـى معظمـها.أمـا النسـوة المشركات فلم يخرجن إلا لقرع الطبول وإنشـاء الأراجـيز وهـن يحسـبن ذلك سلاحاً يجعل رجالهن يضربون بسيوفهم وجـوه المسـلمين.فلـم تُغْـنِ كلماتهن فتيلا يـوم أن ولـى المشـركون الأدبـار أمـام المسـلمين فـى الجولة الأولى،بخلاف المرأة المسلمة فإن دورهـا قـد بـدا للعيـان أكـثر وضوحاً حين نزلت النازلة بالجيش،فخرجت المـرأة حاملـة السـيف تـذب عن النبى مثل الرجال،وما ذلك التباين بيـن الدوريـن إلا بسـبب الإيمـان الذى غرسه النبى فى أفئدة النسـاء المسـلمات.فخرجـن يجـاهدن لينلـن الشهادة مثل الرجال المسلمين وعلى كـل حـال فـإن رسـول الله -ﷺ- أتبع غزوة أحد بعمل يرى المتأمل فيه أن المسلمين مـا يزالـون فـى قـوة يخشى بأسها كما هو بين من غزوة حمـراء الأسـد.

غزوة حمراء الأسـد

كان يوم "حمراء الأسد" من أيـام المسـلمين المجيـدة ،فقـد ضـرب المؤمنون فيه المثل على حسـن السـمع والطاعـة والتفـانى فـى سـبيل صالح الجماعة ذلك أن هذه الغزوة قد أعقبت غـزوة "أحـد" مباشـرةً،فإنـه لما انقضى ليل يوم السادس عشر من شـوال سـنة ثـلاث مـن الـهجرة على المسلمين فى المدينة استقبلوا صباحـهم وقـد أمرهـم النبـى محمـد

بارتداء زى القتال للخروج ثانية للقاء المشركين،ولما يمض سوى ساعات قليلة على خلعهم حتى سار منادى النبى محمد فى طرقات المدينة يعلن فى الناس أن رسول الله يأمر كل من كان معه فى "أحد" بالتجهز والخروج معه لقتال المشركين، فما تثاقل عنه أحد من المسلمين العائدين من "أحد" بل جاءه رجلان ممن لم يشهدا الغزوة ليطلبا منه الإذن لهما بالخروج مع المسلمين ،فأذن لأحدهما وهو "جابر بن [١٥٣]عبد الله "،وأبى الإذن للآخر وهو "عبد الله بن أبى بن سلول".إذ الأول قد تخلف عن الرسول لعذر قهرى والأخير قد انخزل بمن معه من الأتباع عن المسلمين وهم فى الطريق إلى "أحد"[١٥٤].

ولقد اختلف رواة السيرة حول السبب الذى جعل النبى مُحمداً يبادر بالخروج من المدينة للقاء المشركين دون أن يعطى أصحابه وقتاً من الراحة ،وهو يعلم كثرة الجراحات التى أصابت رجالاً من العائدين والحزن الذى ألم بالمدنيين .فذكرت بعض الروايات أن رسول

---

[١٥٣] ابن عمرو بن حرام بن كعب،وشهد العقبة الثانية،وشهد مع النبى ثمانى عشرة غزوة ،وشهد صفين مع "على بن أبى طالب"،وعمى فى آخر عمره،توفى سنة أربع وسبعين وقيل سبع وسبعين عن عمر بلغ أربعاً وتسعين سنة .-ابن الأثير :أسد الغابة /جـ١/٣٥١،٣٥٢.

[١٥٤] ابن هشام :سيرة النبى/جـ٣/٥٢،٥٣ - ابن سعد :الطبقات الكبرى /جـ٢/٣٧،٣٨ - محمد عبد الوهاب:مختصر سيرة الرسول /٢٢٥،٢٢٦.

الله [أراد أن يرهب العدو وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ،ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم]

ومنها ما عزى ذلك إلى سبب آخر فقد روى موسى بن عقبة أن رسول الله - ﷺ -[بلغه أن :"أبا سفيان "وأكثر من معه يريدون أن يرجعوا ليستأصلوا من بقى من أصحاب رسول الله - ﷺ -فحينئذ حث رسول الله - ﷺ - الناس على الخروج فى طلب العدو].

ويؤيد رواية "موسى" ما ذكره النسائى و "الطبرانى" عن "ابن عباس" قال :[لما رجع المشركون عن "أحد" قال بعضهم لبعض لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم بئسما صنعتم ارجعوا].

وثالث الروايات ما رواه "محمد بن عمر" من أن "عبد الله بن عمرو المزنى "جاء يطلب النبى- ﷺ - فلما خرج قام إليه:أخبر أنه أقبل من أهله ،إذ كانوا يَمَلَل(١٥٤) وإذا قريش قد نزلوا فسمع"أبا سفيان"وأصحابه يقولون ما صنعتم شيئاً،أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم،فقد بقى فيهم رؤوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقى ،"وصفوان بن أمية "يأبى ذلك عليهم ويقول :يا قوم لا تفعلوا فإن القوم قد حربوا(١٥٥)وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف

---

(١٥٤) بالتحريك ،ولامين ،بلفظ الملل،من الملال:موضع فى طريق مكة بين الحرمين ابن عبد الحق:مراصد الإطلاع جـ٣ صـ١٣٠٩.

(١٥٥) حَرِبَ الرجل،بالكسرة يَحْرَبُ حَرَباً اشتد غضبه،وفى حديث على،عليه السلام ،أنه كتب إلى ابن عباس،رضى الله عنهما لما رأيت العدو وقد حَرِبَ ،أى غضب -ابن منظور- لسان العرب - جـ٣/٨١٦،٨١٧ مادة حرب

من الخروج،فارجعوا والدولة لكم فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم]،فقال رسول الله - ﷺ - :أرشدهم "صفوان"،وما كان برشيد،والذى نفس محمد بيده لقد سومت لهم الحجارة ولو رجعوا لكان كأمس الذاهب][١٥٧].

إن من يمعن النظر فى هذه الروايات الثلاث يجد أضعفها الرواية الأولى: فإن المرء لا يتصور من النبى الذى هو بالمؤمنين رءوف رحيم،أن يأمرهم بالخروج فى اليوم التالى لعودتهم للقتال من جديد بقصد إرهاب العدو فهذا وحده لا يعد مسوغاً كافياً يجعل النبى يبادر إلى الخروج فى هذا الظرف العصيب الذى تعيشه المدينة،وهى تحاول أن تضمد جراحها وتسيطر على حزنها ،وهو الذى أشفق على الجرحى كما قلنا،أن يستمروا فى السير معه حتى ينزل بيته،اللهم إلا أن يكون ذلك لسبب آخر جعل من الخروج ضرورةً لا غنى للمسلمين عنها حتى لا يفجعوا بأشد مما فجعوا به لو لم يتداركوا الأمر،وهو ما أومأت إليه الروايتان الثانية والثالثة،وهذا ما نميل إليه ولا نجد بينهما كبير تعارض،إذهما تتفقان على أمر جوهرى ،وهو خروج النبى بعد علمه بعزم القرشيين العودة إلى المدينة للإجهاز على المسلمين،ولما يفيقوا من هزيمتهم فى "أحد" بعد،وتختلفان حول الذى أوقف النبى على أمر القرشيين،فتصرح الرواية الأخيرة به ،ولا تذكره الثانية فلعل راويها لم يقف عليه مثلما وقف صاحب الرواية الأخيرة.

---

(١٥٦) الصالحى: سبل الهدى والرشاد /جـ٤/٣٠٨.

وعلى كل حال فإن النبى محمداً خرج فى الجيش ويحمل لواءه "أبو بكر" على قول أو "علّى" على آخر،ولم يكن مع الجيش سوى فرس واحد لرسول الله، وانخرط فيه الصحيح والجريح من المسلمين ،فمنهم من كان فى جسده ثلاثة عشر جرحاً مثل "الطفيل بن النعمان"،وعشر جراحات مثل "كعب"بن[١٥٨] مالك" ولقد سطرت لنا مصادر السيرة النبوية موقفاً عظيماً لرجلين جريحين كانا من الممكن أن تشفع لهما كثرة جراحهما فى عدم الخروج مع رسول الله ،إلا أنهما صمما على اللحاق بالمسلمين لينالا الثواب العظيم ،وهما "رافع" و"عبد الله ابنا سهل"،فقد قال أحدهما لصاحبه؛والله إن تركنا غزوةً مع رسول الله -ﷺ- لَغبَنٌ والله ما عندنا دابةٌ نركبها وما ندرى كيف نصنع؟قال "عبد الله" انطلق بنا،فقال "رافع":لا والله ما بى مشى ،قال أخوه:انطلق بنا نَتَجَارُ ونقصد رسول الله ﷺ فخرجا يتزاحفان ،فضعف "رافع "،فكان "عبد الله" يحمله على ظهره عقبة ويمشى الآخر عَقبة ولا حركة به،حتى أتوا رسول الله ﷺعند العشاء وهم يوقدون النيران،فأتى بهما إلى رسول الله ﷺفقال: (ما حبسكما)، فأخبراه

---

(١٥٨)ابن أبى كعب الأنصارى الخزرجى السلمى،يكنى أبا عبد الله ، وقيل أبو عبد الرحمن،شهد العقبة ،آخى النبى ﷺ بينه وبين "طلحة بن عبد الله" شهد المشاهد كلها إلا بدراً وتبوك،كان من شعراء الرسول ﷺ ذهب بصره فى خلافة معاوية،اختلف فى تاريخ وفاته،قيل أيام قتل "على بن أبى طالب" وقيل أنه مات بالشام فى خلافة معاوية - ابن الأثير :أسد الغابة/جـ٤/١٧٧:١٧٩ - ابن حجر الإصابة جـ٣/ ٣٢٠.

بعلتهما فدعا لهما بخير [١٥٩]فأنت ترى ما تحملـــه الرجـــلان مـــن آلام فـــى سبيل وصولهما إلى رسول الله حيث عســكر،الأمـــر الـــذى يدلنـــا علـــى أن ما نزل بالمسلمين فى "أحد" لم يَنَلْ من عزيمتـــــهم علـــى الجـــهاد، وحبـــهم للنبى محمد ﷺ وما أحـــوج المســـلمين إلـــى أن يقرئُـــوا أبنائـــهم قصـــة الرجلين المذكورين حتـــى يعلموهـــم أن لا شيء يحـــول بيـــن المؤمنيـــن وبين مأرب يودون الحصول عليه ما دام ذلـــك فـــى طاعـــة الله .

سار النبى محمد حتى نزل "بحمراء الأسد" علـــى بعـــد ثمانيـــة أميـــال من المدينة فعسكر بها أربعة أيام،وأوقد المســـــلمون فـــى لياليـــها النـــيران حتـــى يراهـــا الركبـــان فينقلـــوا أخبـــارهم إلـــى القرشـــيين ليعلمـــــوا أن بالمسلمين قوةً،فلا يفكروا فى الرجوع من طريقـــهم إلـــى المدينـــة ،وبينمـــا المسلمون كذلك مر بالنبى محمـــد ﷺ "معبـد الخزاعـــى "فقـــال :لرســـول ﷺيا محمد أما والله عَزَّ علينا ما أصـــابك،فـــى أصحـــابك ولوددنـــا أن الله عافاك فيهم ثم خرج[١٦٠].فلما "رآه أبو ســـفيان" قـــال لـــه:[مـــا وراءك يـــا معبد؟قال :خـــرج محمـــد وأصحابـــه يطلبونكـــم فـــى جمـــع لـــم أر مثلـــه أبداً،فقال "أبو سفيان":ويحـــك مـــا تقـــول؟،قـــال :والله مـــا أرى أن ترحـــل حتى أرى نواصى الخيل فقال أبو سفيان:فوالله لقـــد أجمعنـــا الكـــرة عليـــهم

---

[١٥٩]ابن الأثير:أسد الغابة /جـ٢/١٤١،جـ٣/١٦٤،١٦٥- الصالحى :سبل الهدى والرشـــاد /جـ٤/٣١٠.

[١٦٠]كانت خُزاعة مسلمهم وكافرهم - عيبة نُصح للنبىّ-(ﷺ) بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها ، الصالحى :سبل الهدى والرشاد جـ٤/٣١٠.

لنستأصل بقيتهم،قال معبد:إني أنهاك عن ذلك ،والله حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من الشعر،قال "أبو سفيان":،ما قلت؟قال: قلت

كادت تُهدّ من الأصوات راحلتي ∴ إذ سالتِ الأرض بالجُرْدِ الأبابيل

تردي[161] بأسد كرام لا تنابلة[162] ∴ عند اللقاء ولا ميل [163]معازيل

فظلت عدواً أظن الأرض مائلةً ∴ لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ∴ إذا تغطمطت[164]البطحا بالجيل

إني نذير لأهل البسل[165]ضاحيةً ∴ لكل ذي إربة منهم ومعقول

من جيش أحمد لا وخش [166] قنابله ∴ وليس بوصف ما أنذرت بالقيل

فأوقع هذا الشعر في نفس "أبي سفيان " هزيمة وأعاد إلى ذاكرته كذلك رأي "صفوان بن أمية".اذ سبق أن نهاه عن الرجوع إلى المدينة عندما أزمع الرجوع،فرحل عن مكانه[167]

ولم يشأ "أبو سفيان" أن يُعرف عنه أنه جبن عن لقاء محمد للمرة الثانية،فأرسل مع ركب مرّ عليه وهم يريدون المدينة رسالةً ليبلغوها إلى النبي محمد،ووعدهم بجزيل المكافآت في العام القابل

---

[161]تردي: تسرع –

[162] تنابلة:غير قصار.

[163] جمع أميل وهو الذي لا رمح له ولا ترس.

[164]تغطمطت:اهتزت له .

[165]البسل:قريش

[166]الوخش:أراذل الناس.

[167]ابن سيد الناس:عيون الأثر جـ٢/٥٧،٥٨.-ابن كثير :البداية والنهاية جـ٤/٤٩،٥٠. -الجزائري:هذا الحبيب محمد يامحب /٢٧٦،٢٧٧.

حين يلقاهم بمكة إن بلغــوا محمــداً رســالته التــى فيــها أنــهم أجمعــوا المسير إليه وأصحابه ليســتأصلوا بقيتــهم،فمــر الركــب برســول الله ﷺ وهو "بحمراء الأسد" فأخبروه بالذى قــال "أبــو ســفيان" وأصحابــه،فقــال :حسبنا الله ونعم الوكيل](١٦٨) أراد "أبو سفيان" مــن رســالته هــذه إثــارة القلاقل فى معسكر المسلمين ورفع درجــة اســتعدادهم حتــى يكــون ذلــك بمثابة عامل نفسى آخر يزيد من الضغوط علــى المؤمنيــن وهــو يــراوده الأمل فى أن يظهروا تمرداً على نبيهم ،غــير أن شــيئاً مــن ذلــك الأمــر الذى ارتجاه لم يتحقق، فما رحل المسلمون مــن مكانــهم إلا حيــن أمرهــم نبيهم بالرحيل ،وبينمــا هــم فــى طريــق العــودة ظفــروا"بمعاويــة بــن المغيرة"الذى مثل "بحمزة" فى "أحُد" فقطع أنفه وكــان ضــل الطريــق،فــأتى دار "عثمان" وقد استشفعه، فقبل النبى ﷺ شــفاعته فيــه علــى أنــه لــو وجــده بعــد ثلاثــة أيــام ليقتلنــه،فجــهزه "عثمــان" لقرابتــه، وقــال له:ارتحل،فارتحل فاخطأ الطريـــق،فقــال الرســول ﷺإن معاويــة أصبــح قريباً ، ولم يبعد فاطلبوه ،فطلبه"زيد بن حارثــه(١٦٩)" و"عمــار بــن ياســر" فوجداه فقتــلاه.(١٧٠).

---

(١٦٨) ابن هشام :سيرة النبى/جـ٣/٥٥،٥٦. - الصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٤/٣١١- محمد رضا :محمد رسول الله /٢٠٨.

(١٦٩) ابن شرحبيل بن كعب بن امرئ القيس بن قضاعة،آخى الرسول ﷺ بينه وبين "حمــزة" رضى الله عنهما،اسلم بعد "على بن أبى طالب"،شهد بدراً، وتوفى فى غــزوة مؤتــة فــي جمادى من ثمان من الهجرة-ابن الأثير:أسد الغابة /جـ٢/١٤٠،١٤٣.

(١٧٠) ابن الأثير:الكامل/جـ٢/١٦٥ - باشميل :الغزوات الكبرى/جـ٢/٢٢٩- محمد عبــد الوهاب:

وكذلك ظفروا "بأبى عزة" الذى اسـلفنا القـول عنـه ونحـن نتنـاول أمر الأسرى فى بـدر.

وهكذا عاد المسلمون الى المدينة ولم يلقـوا كيـداً وحققـوا لأنفسـهم أجراً عظيما بطاعتهم لنبيهم واستعدادهم للجـهاد معـه وهـم فـى أقصـى ظروف حياتهم،وأروا المنافقين واليهود ما هم عليـه مـن رباطـة الجـأش واستعدادهم علـى المضـى مـع النبـى محمـد حتـى منتـهى الطريـق ليواجهوا بعد ذلك وهم فى المدينة ضربـاً مـن ضـروب غـدر المشـركين مثل ذلك الذى وقع منهم فى الفترة الزمنية بين غزوتـى بـدر وأحـد .

بين أحد والأحـزاب

لقد كانت الفترة الفاصلة بين "أحد والأحـزاب"مليئـة بـالأحداث علـى الرغم من قصرها،فقد سير النبى محمد فيها أكـثر مـن جيـش كـان لـه عظيم الأثر فى مجريات الأمور،ولقد غـدر المشـركون بالمسـلمين خـلال تلك الفترة غير مرة فكانت سرية الرجيـع واحـدة مـن هـده المؤامـرات التى كشف فيها المشركون عن سوء نيتـهم وخبـث طويتـهم.

غزوة الرجيـع

علـى الرغـم مـن خـروج النبـى محمـد ﷺ إلـى "حمـراء الأسد"وإظهاره قوه المسلمين للمشـركين وحـرص المؤمنيـن علـى بيـان قوتـهم للمنـافقين فـإن جماعـات الشـرك راحـت تتـآمر بينـها علـى النبى،والذين معه فجاءت ثلة من عضل والقـارة فـالتقوا رسـول الله ﷺ زاعمين له أن فيهم إسلاماً،وأنهم يريدون رهطـاً مـن رجالـه يفقهونـهم فى الدين ،وكانوا بيّتوا أمرهم على الغدر بـهم وجعلـهم سـلعة يبيعونـها

مختصر سيرة الرسول /٢٢٥،٢٢٦.

لقريش لتنال بها وترها من المؤمنين هـذا مـن ناحيـة ،وإذلال المسـلمين فى المدينة باسترقاق إخوانهم من ناحيـة أخـرى،فزودهـم النبـى محمـد ﷺ على الراجع بسـتة رجـال،هـم ["مرثـد بـن أبـى مرثـد الغنـوى"، "وخالد بن البكير الليثـى" و"عـاصم بـن ثـابت الأوسـى"،و"خبيـب بـن عدى"،و"زيد بن الدُثُنَّـة البيَّـاض"،و" عبـد الله بـن طـارق"،وأمرهـم أن يذهبوا معـهم ليفقـهوهم فـى الديـن ويقرئوهـم القـرآن ،فلمـا كـانوا "بالهدأة" غدر المشركون بالنفر المسلمين واسـتصرخوا عليـهم حيـاً مـن هذيل يقال لهم "بنو لحيان "فبعثوا لـهم مائـة رجـل][(١٧١)] فـلاذ المسـلمون بالجبل طالبين النجاة بأنفسـهم إذ لا طاقـة لـهم بـهم،وهـم لا يجـاوزون أصبع اليد الواحدة إلا بقليل .وعبثـاً حـاولت جمـوع المشـركين الغفـيرة اسـتنزالهم دون قتـال ليبيعوهـم فـى أسـواق مكـة لقريـش،وأقسـموا للمسلمين بغلاظ أيمانهم أن لا يمسـوهم بسـوء إن هـم سَـلَّمُوا أنفسـهم لهم، فأبى المؤمنون قبول ذلك منهم،فـهانت عليـهم أنفسـهم،ولـم يـهن عليهم دينهم ،ثم كرامتهم،فكان تصميمـهم علـى مجـاهدة هـذه الجماعـة الكبيرة إلى آخر رمق فى حياتـهم،فقاتلـهم "مرثـد"، و"خـالد بـن بكـير"، و"عاصم " الذى قال :والله لا أنزل على عهد كافر،اللـهم خَـبِّرْ نبيـك عنـا وكان عاصم قد نذر بعد إسلامه ألا يمـس جسـده مشـرك إلـى أن يلقـى الله،فأرادت تلك الجماعة أن تحرز رأسه بعد موته لتبيعـها "لسـلافة بنـت سعد"لأنها نذرت أن تشرب الخمر فى رأس "عـاصم" لقتلـه ابنـها "بـأحد" فمنعته الدَّبر،فلما حالت بينهم وبينـه الدبـر قـالوا:دعـوه حتـى يُمشـى

---

(١٧١) ابن الأثير :الكـامل /جـ٢/١٦٧ -المقريـزى:إمتـاع الأسـماع /جـ١/١٤٧ - الجزائرى:هذا الحبيب محمد /٢٨٠.

ليبعثوا عنه فنأخذه ،فلما هموا بفعل ذلك بعث الله الدبر فحمى جسد عاصم [١٧٢] فكانت تلك كرامة من الله له جعلته محفوظا من أيدي المشركين في مماته مثلما حرص على تحقيق ذلك بنفسه في حياته،وأما الثلاثة الآخرون فإنهم لانوا ،ورقوا ،ورغبوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا بهم الى مكه ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظهران انتزع "عبد الله بن طارق"[١٧٣] يده من القيد،ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم ،فرموه بالحجارة حتى قتلوه بالظهران ،وانطلقوا "بزيد"، "وخبيب" فباعوهما فاشترى زيدا[١٧٤]،"صفوان بن أمية" لقتله بأبيه "أمية بن خلف" فلما انسلخت الاشهر الحرم بعثه "صفوان" مع غلامه نطاس إلى التنعيم ،ليقتله فخرجت قريش لتشفى غليلها من هذا الأسير المغدور به ،فنظرت لأعين وهو مكبل بالقيد،فسأله "أبو سفيان".(أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه،وأنك في أهلك؟) قال: (والله ما أحب أن محمدا الأن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي".فقال "أبو سفيان " (ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا) فقتلوه.

---

(١٧٢) ابن هشام :سيرة النبى جـ٣/صـ١٦٣ الطبرى:تاريخ الرسل والملوك/جـ٢/صـ٥٣٩ - ابن الأثير :الكامل /جـ٢/١٦٨ أحمد فريد :وقفات تربوية ٢٤١

(١٧٣) الظفرى،شهد بدرا ،وأحد ،توفى في آخر السنة الثالثة من الهجرة،ابن الأثير :أسد الغابة /جـ٣/١٧٩.

(١٧٤) ابن معوية بن عبيد بن عامر الأنصارى،شهد بدرا واحدا ،قتل سنة ثلاثة من الهجرة - ابن الاثير :أسد الغابة /جـ٢/١٤٧

وأما "خبيب"[١٧٥] فإنه بيع لأهل "الحارث بن عامر" لينالوا به ونرهم من "خبيب" الذى قتله وجعلوه عند امرأة تسمى "ماوية" إلى أن ينقضى الشهر الحرام، وبينما هو فى بيت المرأة أسيراً يقدم له الطعام والشراب ليأكل، فيقضى حاجته وهو فى القيد، وما كان يشغله وهو فى هيأته تلك سوى قراءة القرآن الكريم بصوت يبعث الخشوع فى أفئدة السامعين فجذب بصوته ابنة "ماوية" فكانت تستتر بالباب وتنظر من ثقبه فإذا بها ترى "خبيب" يأكل من عنقود كرم ولم يكن بمكة عنب إذ ذاك فرقت له ففتحت الباب عليه وسألته ما إذا كان له حاجة، فقال لها: نعم تسقونى إلا العذب ولا تطعمونى ما ذبح على النُّصُب وتخبرونى إذا أرادوا قتلى، وإذا حان وقت قتلى فخبرونى قبله بيوم وقد وفت له ابنتها بما طلب، فلما جاءته لتعلمه بميعاد قتله لم يُبْدِ جزعاً بل علت الفرحة وجهه، وسألها حديدة يحد بها نفسه كما يفعل العريس قبيل زفاف زوجة إليه، فبعث له الموسى مع غلام صغير، فلما أمسكه "خبيب" وضع الموسى على فخذ الغلام، فلما رأته فزعت، فقال لها: ما بعرف ديننا الغدر، ثم أخرجه القوم فى الحديد حتى انتهوا به إلى (التنعيم) وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة فلم يتخلف أحد لأنه إما موتور فهو يريد أن يتشفى بالنظر إليه وهو يُقتل، وإما غير ذلك فهو مُخالف للإسلام وأهله فلما انتهوا إلى (التنعيم) أمروا بخشبه طويلة فحفروا لها ثم استأذنهم "خبيب" فصلى ركعتين خفيفتين فكان أول من سنَّ ذلك قبل القتل ثم دعا عليهم وقال

---

[١٧٥] ابن عدى بن مالك بن الأوس النصارى، شهد بدراً مع رسول الله ﷺ، توفى سنة ثلاثة من الهجرة - ابن الأثير: أسد الغابة - ج١ - ٦٨١: ٦٨٣.

:اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بَدَداً،ولا تغادر منهم أحداً}.فجعلوه على خشبة ثم وجهوه إلى المدينة وسألوه الرجوع عن الإسلام،فأبى ،فلم يكن من أمرهم إلا أن أعملوا السيف فيه ليكون سادس رجل ينال نعمة الشهادة فى الغزوة التى تمثل قمة غدر المشركين بالمسلمين(١٧٦).

ولقد رأى القارئ الكريم مما سبق بشرية الرسول ﷺ واضحة لنا غاية الوضوح،فقد صدق القادمين إليه وأمدهم برجال من صحابته،فإذا بهم يلقون منهم ما أومأنا إليه ليكون فى مآلهم رضوان الله عليهم عبرة للمؤمنين والمشركين على حد سواء.

فأما المؤمنون فإنهم علموا يقيناً أن النبي لا يعلم إلا ما أراد الله له أن يعلمه فهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ،ولو علم ما فى الغيب لاستكثر من الخير وما مسه سوء.

فعليهم أن يجهدوا أنفسهم في الوصول إلى الرأى الصائب ،فإن حرموا خيره فذلك ابتلاء من الله لهم أراد منه إظهار قوة إيمانهم ورباطة جأشهم لعدوهم،وأما المشركون الحريصون على الأمور والفرار من الموت،فإنهم حين يرون الثلة المؤمنة تسترخص الدنيا بما فيها ومن فيها،كى لا تتخلى عن مبادئها لخليق أن يجعل قريشا ومن دار في فلكها تضع علامات استفهام حول الأسباب التى أكسبت

---

(١٧٦) ابن الأثير :أسد الغابة /جـ١/٦٨٤ - الصالحى: سبل الهدى والرشاد /جـ٦/٤٣،٤٤-قريزى: إمتاع الأسماع/جـ١/١٤٩ -أحمد فريد:وقفات تربوية /٢٣٤،٢٣٥- محمد رضا :محمد رسول الله/٢١٠.

هؤلاء الضعفاء هذه القوة الخارقــة التــى يرونــها ماثلــة لأعينــهم حتــى تستطيع إقامة حساباتها على أساس صحيح وهــى تواجــه محمــداً ﷺ .

وتبقى الإجابة على تلك التساؤلات حائرة بيــن عقــلاء يــرون عــدم جدوى مقاومة رسالة محمد وبين آخرين يريدونــها حربــاً معــهم حتــى لا يؤثر أمره على سيادتهم بين العــرب.

ومهما يكن من أمر فإن غدر المشركين فــى يــوم الرجيــع لــم يكــن إلا حلقة من حلقات المؤامرة التى تآمر بــها المشــركون علــى المســلمين مثلما نراه فى غدرهم بهم يوم بــئر معونــة.

يوم بئر معونــة:-

ذكــر علمــاء الســيرة أن "الــبراء عــامر بــن مــالك "المعــروف" بملاعب الأسنة جاء النبى محمدا بالمدينــة بعــد انقضــاء أربعــة أشــهر على غزوة أحد وأهدى النبى ﷺ هدية فلم يقبلها:وقــال:يــا أبــا بــراء لا أقبل هدية مشرك فعــرض عليــه الرسـول الإســلام فلــم يبــد قبــولا او رفضا،وطلب من رسول الله أن يمده برجـــال،يكونــون فــى قومــه دعــاة ومعلمين فقال له النبى محمد: [أخشى عليهم أهــل نجــد]:قــال أبــو بــراء :أنا جار لهم،فابعثهم فليدعوا الناس إلـــى أمــرك فبعــث رســول الله ﷺ [١٧٧]ســبعين رجــلا مــن خــيرة الأصحـــاب منـــهم "المنـــذر بـــن عمرو"،و"الحارث بن الصمة"،و "عامر بــن فــهيرة".

---

(١٧٧) اختلف أصحاب المصادر فى إعداد القراء الذين أرسلهم النبى إلى بئر معونة،فذكــروا أعدادا نقل عما ذكرنا فمنهم من قال أربعين،ومنهم من قال ثلاثين،ولقد حاول بعض العلماء التوفيق بين الاختلاف فى الروايات فقال إن الأربعين رؤساء وبقيتهم أتباع،ورواية القليــل

ولما نزلوا "بئر معونة" بعثوا" حرام بـــن ملحـــان" بكتـــاب رسـول الله ﷺ إلى عدو الله "عامر بن الطفيل" فلما أتـــاه لـــم ينظـــر فيـــه حتـــى عـــدا على "حرام" فقتله،ثم استصرخ عليهم بنى عـــامر قومـــه فـــأبوا أن يجيبـــوه إلى ما دعاهم إليه،قالوا:لن نخفر أبا براء "عامر بن مـــالك"وقـــد عقـــد لـــهم عقدا وجوارا فاستصرخ عليهم قبائل من بنى ســـالم مـــن عصيـــة، ورعـــلا وذكوان فأجـــابوه،إلـــى ذلـــك حتـــى غشـــوا القـــوم فأحـــاطوا بـــهم فـــى رحالهم،فلمـــا رأوهـــم أخـــذوا ســـيوفهم ثـــم قـــاتلوهم حتـــى قتلـــوا عـــن آخرهـــم(١٧٨).

ولقد وقف على استشهادهم رجلان من الأنصـــــار،همـــا "عمـــرو بـــن أمية الضمرى (١٧٩)و"المنذر بن عقبة بن عـــامر فقـــال الأنصـــارى لعمـــرو بن أمية :ماذا ترى ؟فقال أرى أن نلحـــق برســـول الله ﷺفنخـــبره الخـــبر فقال الأنصارى لكنى لم أكن لأرغب بنفسى عن موطـــن قتـــل فيـــه المنـــذر بن عمرو وما كنت لأخبر عنه الرجـــال فقـــاتل القـــوم حتـــى قتـــل واخـــذ عمرو أسيرا فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقـــه عـــامر بـــن الطفيـــل وجـــز ناصيته واعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعـــم .قـــال:وخـــرج عمـــرو

لا تنافى رواية الكثير،وهو من باب مفهوم العدد،وكذلك قول من قال ثلاثيـــن.-الصـــالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٦/٦٥.

(١٧٨) ابن الأثير :الكامل /جـ٢/١٧١ - ابن القيم :زاد المعاد /جـ٣/٢٤٦،٢٤٧ -محمـــد رضا:محمد رسول الله /٢١١.

(١٧٩) ابن خويلد بن عبد الله الضمرى،من السابقين فى الإسلام،هاجر إلى الحبشـــة أرســـل النبى رسولا إلى النجاشي،سنة ستة من الهجرة وجعله وكيلا عنه فى تزويج رســـول الله بأم حبيبة ،وأول مشاهدة بئر معونة = توفى آخر أيام معاوية قبل الستين ابن الأثير :أســـد الغابة /ج٣ / صـ ٦٨٩ ،٦٩٠.

بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صـــدر قناة أقبـل رجـلان مـن بنـى عامر حتى نزلا فى ظل هو فيـه وكـان مـع العـامريين فـى عـهد مـن رسول الله ﷺوجوار لم يعلمه عمرو بـن أميـة وقـد سـألهما حيـن نزلا ممن أنتما قالا من بنـى عـامر فأمهلـهما حتـى إذا نامـا عـدا عليـهما وقتلهما وهو يرى أن قد أصاب ثأراً من بنـى عـامر فيمـا أصـابوا مـن أصحاب رسول الله ﷺ فلما بلغ رسـول الله ﷺ مـا فعلـه "عمـرو بـن أمية" ، قال (لقد قتلت قتيلين لأدينَـهمَا) ، ثـم قـال رسـول الله ﷺ:هـذا عمل أبى براء ،قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً)، فبلغ ذلـك "أبـا بـراء" فشـق عليه إخفار "عامر" إيـاه ومـا أصـاب أصحـاب رسـول الله ﷺ بسـببه وجواره أمّا عامر بن الطفيل "ذلك الرَجل الذى تسـبب فـى قتـل أصحـاب النبى ﷺ،فإن المنية أنشبت أظفارها فيه حيـن تصـدى لـه "ربيعـة بـن عامر بن مالك "فطعنه فى فخده فأشواه، ووقـع عـن فرسـه،وقـال :هـذا عمل أبى براء، إن أمت فدمى لعمى ،فلا يتبعـن بـه ،وإن أعـش فسـأرى رأيى[١٨٠] مما تقدم يرى القـارئ عـدل النبـى محمـد ﷺ وحرصـه الشديد على الوفاء بعهده حين ألزم نفسـه بدفـع ديـة المشـركين اللذيـن قتلهما "ابن أمية الضمرى" وهو لا يعلـم بتـأمين رسـول الله لـهما.وفـى الجانب الآخر رأينا فى "عامر بن الطفيل "كيـداً، جعـل علـى الفـؤاد أكنـة فصم الآذان وأعمى الأعين،فاستعدى علـى المسـلمين الأحيـاء المجـاورة ليقتلوهم دون أن يتدبروا فى الأمر الـذى يقدمـون عليـه،فكـانوا بمثابـة الأنعام،بل هم أضل سـبيلاً.

---

[١٨٠] ابن كثير :البداية والنهاية -ج٤ - ٧٣، ٧٤، البوطـى :فقـه السـيرة -١٩٧، ١٩٨، الجزائرى :هذا الحبيب محمد /٢٨٤.

ولقد دعا النبي محمد ﷺ على أولئك الكافرين، الذين غدروا بالقراء المسلمين شهراً(١٨١) فاستجاب الله له، فكان هلاك من هلك منهم ليلقوا جزاءهم من الله على ما اقترفوه.

ولقد كان لفعله المشركين بالقراء، وما ترتب عليها من قتل "ابن أمية الضمرى" للرجلين اللذين أمنهما النبي محمد آثار عظيمة ترتب عليها إجلاء النبي لبني النضير.

إجلاء بني النضير

اختلفت الروايات، حول التاريخ الذى ضرب فيه النبي محمد ﷺ الحصار على بنى النضير فمن الرواة من قال كان ذلك بعد بئر معونة بشهر، ومنهم من قال: إنه كان بعد أحدٍ بستة أشهر، ولم يقتصر خلافهم على التاريخ فحسب، بل تعداه إلى ذكر السبب الذى جعل محمداً يضرب الحصار على يهود بني النضير، فمنهم من قال: إن ذلك بسبب طلب النبي منهم إعانته، فى دفع دية القتيلين لمذكورين سابقاً، من بنى عامر، ومنهم من قال: إن ذلك قد كان بسبب تدبيرهم مؤامرة للغدر برسول الله، دون أن يذكروا علاقة لبنى النضير بأمر بنى عامر.

فمن الأول ما ذكره "ابن إسحاق" ومن دار فى فلكه، أن الرسول ﷺ خرج إلى بنى النضير، ليستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر الذين قتلهما "عمر بن أمية الضمرى"، للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقده لهما، ذلك أنه كان بين بنى النضير، وبنى عامر، عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى ديتهما، قالوا: نعم أبا

---

(١٨١) ابن حجر: فتح البارى: شرح صحيح البخارى جـ٧/٤٤٥، الحديث ٤٠٩٠ كتاب المغازى.

القاسم،نعينك على ما أحببت ،مما استعنت بنا عليه،(اجلس حتى تطعم،وترجع بحاجتك ،فجلس فى ظل جدار من جُدر بيوتهم،ثم خلا بعضهم ببعض ،وقالوا :إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حالته هذه ،ورسول الله ﷺ جالس إلى جنب جدار من بيوتهم فهل من يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة،فيريحنا منه؟فانتدب لذلك "عمرو بن جحاش بن كعب "أحدهم ،فقال:أنا لذلك،فصعد ليلقى عليه صخرةً كما قال ،ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه،فيهم "أبو بكر" و"عمر" و"على" رضى الله عنهم.

فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم،فقام رسول ﷺ راجعاً إلى المدينة ،فلما استلبس أمر غياب النبى ﷺ عن أصحابه ،قاموا فى طلب النبى ﷺ،حتى انتهوا إليه،فأخبرهم الخبر،بما كانت أرادة يهود من الغدر به،فأمر رسول الله ﷺ،بحربهم والسير إليهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم(١٨٢)

ومن الثانى ما رواه "ابن ماردوية" فى سند الصحيح ،أنهم أرسلوا إلى النبى ﷺ قائلين له :[أن اخرج إلينا فى ثلاثين رجلا من أصحابك ولنخرج فى ثلاثين حبْرا حتى نلتقى فى مكان كذا،فقال:بعض اليهود لبعض كيف تخلصون إليه،ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه،كلهم يحب أن يموت قبله؟،فأرسلوا إليه " كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟اخرج فى ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا

---

(١٨٢)ابن هشام :سيرة النبى /جـ٣/١٩١،١٩٢ - ابن سيد الناس:عيون الأثر: جـ٢/٧٣/بركات أحمد محمد واليهود صـ١١٤.

فليسمعوا منك،فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك"،فخـــرج النبـــى ﷺ فـــى ثلاثة نفر مـــن أصحابـــه واشـــتملوا (أى اليـــهود) علـــى الخنـــاجر،وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ فأرسلت امرأة ناصحة من بنـــى النضـــير إلـــى بنـــى أخيها،وهو رجل ﷺ فـــأقبل الأنصـــاري فأخبرتـــه خـــبر مـــا أرادت بنـــو النضير من الغدر برسول الله ﷺ فـــأقبل الأنصـــارى ســـريعاً،حتـــى أدرك النبى ﷺ، فساره بخبره قبل أن يصل فرجع النبـــى ﷺ فلمـــا كـــان مـــن الغد،غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتـــائب،فحـــاصرهم،وقـــال :لـــهم:إنكـــم لا تأمنون عندى إلا بعهد ،تعاهدونى عليـــه،فـــأبوا أن يعطـــوا عـــهداً فقاتلـــهم فى يومهم ذلك،هو والمسلمون،ثم غـــدا الغـــد علـــى بنـــى قريظـــة بـــالخيل والكتـــائب،وتـــرك بنـــى النضـــير،ودعـــاهم إلـــى أن يعـــاهدوه ، فعاهدوه،فانصرف عنهم،وغدا إلى بنـــى النضـــير[١٨٣].

مما تقدم يرى القارئ أن الروايتيـــن الســـابقتين تتفقـــان علـــى أمـــر جوهرى،هو أن بنى النضـــير،أزمعـــوا الغـــدر بـــالنبى محمـــد ﷺ،ســـواء أكان ذلك وهـــو مســـتند إلـــى أحـــد حوائطـــهم،أم وهـــم يجادلونـــه حـــول الأصول والمبادئ التى جاء الناس بـــها.بيـــد أن الروايتيـــن ،تختلفـــان فـــى الطريقة التى علم بها النبى بغـــدر اليـــهود.

فالأولى: تعزوه إلى الوحى،والثانية تعزوه إلـــى امـــرأة اطلعـــت علـــى حقيقة ما بيته بنو النضير،فأرسلت به إلى رســـول الله،عـــبر قريـــب لـــها، اعتنق الإسلام،ليس هذا فحسب بل إن الخلاف بينـــهما اشـــتمل علـــى أمـــر آخر،هو أن بنى قريظة شاركوا بنـــى النضـــير فـــى هـــذا الوقـــت غدرهـــم

(١٨٣) السمهودى :وفاء الوفا:جـ١/٢٩٨/ أحمد حميد الله :الوثائق السياسية ،٦٧

بالنبى،وأن رسول الله لم يمهلهم إلا بعـد أن نزلـوا علـى تجديـد عـهدهم معه وهذا ما أباه بنو النضــير.

وعندى أن الرواية الثانية راجحــة والأولــى مرجوحـة لأن الروايـة الأولى:ذكرت أن النبي ذهب ليطلب من بنــى النضـير المعاونــة فـى ديـة بنى عامر،وهذا ما لم تنص عليه بنود المعــاهدة المبرمـة بيـن المسـلمين واليهود فقد جاء فيها أن كل عاقلة تتحمل ديــة صاحبـها،والمسـلم رهيـن فعله،كما كان اليهودى كذلــك).

فإذا كان ذلك كذلك،فإن السبب الــذى جعـل النبـى يـؤم ديـار بنـى النضير،والحالة هذه منتفــى الحـدوث،اللـهم،إلا أن يكـون ذهابـه إليـهم لطلب الوساطة،فى الأمر وإظهار أن قتل المسـلم لـهما كـان علـى سـبيل الخطأ،وهذا ما لم تذكره الروايــة الأولــى.

كما أن السمهودى بعد أن ذكر رواية "ابــن إسـحاق" وروايــة" ابـن ماردويه" جزم بترجيح الثانية على الأولــىَ وهــو مَـنْ هــو،فـى التـأريخ للمدينة ،،وذكر خططها،فقوله هذا يدعم ما ذهبنا إليــه مـن جعـل الأولـى مرجوحة والثانيةَ راجحــة.

أرسل رسول الله ﷺمحمداً بن مَسلمة إلى بنـى النضـير بعـد الـذى حدث منهم،برسالة فيها أن رسول الله ﷺيقــول لكـم :"أن أخرجـوا مـن بلدى"[١٨٤]فاستغل ابن أبُى الخــلاف بيـن النبـى وبنــى النضـير،فأرسـل إليهم رسالة،أراد منها تأجيج نار الحــرب،بيــن المسـلمين واليـهود،فقـال لهم فيها: لا تخرجوا من ديـاركم وأموالكــم،وأقيمـوا فــى حصونكـم ،فـإن معى ألفين من قومــى وغـيرهم مـن العـرب،يدخلـون معكـم حصنكـم،

---

[١٨٤] الصالحى :سبل الهدى والرشاد جـ٤ــ٣١٩.

فيموتون عن آخرهم قبل أن يصل إليكم،وتُمِدكم قُرَيْظَةُ،فإنهم لن يخذلوكم،ويمُدكم حلفاؤكم من غطفان .وأرسل ابن أبى إلى كعب بن أسد القُرظىّ يكلمه أن يُمِدَّ أصحابه، فقال: لا ينقضْ رجل واحد منا العهد فيئس ابن أبُىّ من بنى قريظة ،وأراد أن يُلْحِمَ الأمر فيما بين بنى النضير ورسول الله ﷺ فلم يزل يُرسل إلى حُيَىّ بن أخطب ،فقال حُيَىّ:أنا أرسل إلى محمدٍ أُعلمه أنّا لا نخرج من دارنا وأموالنا فليصنع ما بَدَا له.وطمع حُيَىّ فيما قال ابنُ أبىّ.لم يوافق سلام بن مشكم حُيَىّ بن أخطب فيما أراد،وحاول هو وغيره إثناءه عن معاداة المسلمين إلا أن حيى بن أخطب وثق فى وعد عبد الله بن أبى له ومن ثمَّ أرسل أخاه برسالة إلى رسول الله ﷺيقول له فيها إنا لا نبرحُ من ديارنا وأموالنا،فاصنع ما أنت صانع.وأمره أن يأتى ابن أبىَّ فيخبره برسالته إلى رسول الله ﷺ ويأمره أن يتعجل ما وعد من النصر.وفعل حُيَىّ نظير ذلك مع عبد الله بن أبى الذى تقاعس عن الوفاء بوعده لبنى النضير [١٨٥]

وعلى كل حال فإن النبى محمداً أمر كتائب المسلمين،بالتجهز لقصد بنى النضير فخرجوا منها،واستخلف النبى "ابن أم مكتوم" على الصلاة بها ،وضربوا على بنى النضير حصاراً استمر ستة أيام بلياليها ،كانت فيها المناوشات بين الفريقين ،الرشق بالنبال يقع بين الفينة والفينة.

---

[١٨٥] الصالحى :سبل الهدى والرشاد جـ٤/٣٢٠،٣٢١.

ولأن رسول الله ﷺ قائد محنك،فقد أرسل عصبة من رجاله،للقيام بمهمة فدائية على حد ما تذكره وسائل الإعلام في عصرنا،وجعل علياً رضوان الله عليه قائداً لها،وطلب منهم أن يكمنوا لرجل من اليهود يسمى عزوك وكان أعسر رامياً،فيرمى فتبلغ نبله قبة النبى ﷺفأمر بقبته فحولت إلى مسجد الفضيخ،فتباعدت من النبل.فسارت تلك الجماعة ولم يعلم أحد من المسلمين بأمرها،فكمنت لليهودى حتى استطاعت الإجهاز عليه،مما كان له أبلغ الأثر في إصابة بنى النضير بالوهن خلال مدة حصار المسلمين لهم وقد زاد من ضعفهم،ويأسهم من نجاتهم،أن "عبد الله بن أبى بن سلول"قد نقض غزله معهم،حين شجعهم على مجابهة النبى محمد وهو يقول لهم: لئن قوتلتم لنقاتلن معكم ولئن أخرجتم لنخرجن معكم ليس هذا فحسب بل إن أمراً ثالثاً جعل بنى النضير يسقط في أيديهم وهم يَرَوْنَ المسلمين،يقطعون نخيلهم مما يؤدى إلى إضعاف حصونهم،فنادوا على النبى قائلين:[يا محمد إنك كنت تنهى عن الفساد فلِم تقطع النخيل؟].ووجد بعض المسلمين فى أنفسهم أثراً من قولهم وخشوا أن يكون فساداً،فقال بعضهم لا تقطعوا،وقال:بعضهم:بل نقطعه لنغيظهم بذلك،وأرسل "حُيىّ" إلى رسول الله ﷺنحن نعطيك الذى سألت ونخرج من بلادك فقال ﷺ :لا أقبله اليوم ولكن أخرجوا منها، ولكم ما حملت الإبل إلا الحلقةَ "فقال"سلام بن مشكم":اقبل ويحك من قبل أن تَقْبَل شراً من ذلك،فقال "حُيىّ": ما يكون شراً من هذا قال

"سلام بن مشكم"، تسبى الذرية وتقتل المقاتلة مع الأموال،والأموال أهون علينا فأبى "حُيى" أن يقبل يوماً أو يومين، فلما رأى ذلك "أمين بن عمير"،وأبو سعد بن وهب"قال:أحدهما لصاحبه: والله إنك لتعلم إنه رسول الله ﷺ،فما ننتظر ،أن نسلم،فنامن على دمائنا وأموالنا[(١٨٦)].

لم يجد بنو النضير مناصاً من قبول حكم النبى محمد فيهم،فرحلوا تاركين ما لهم غنيمةً للمسلمين فقام رسول الله ﷺبتوزيعها بشكل،اختلف عن ذلك الذى كان فى بدر،فخص بها المهاجرين دون الأنصار ،فلم يعط منهم أحد سوى "سهل بن حنيف" ،وأبى دجانة " وذلك لفقرهما فأعطاهما هذا الجزء من الغنيمة لأن الله جل علاه خص النبى بالأموال التى تركها بنو النضير من منقولات وأعيان فكان صلوات ربى وسلامه عليه ينفق منها على ذويه،وما فَضُلَ يجهز منه الجيوش الإسلامية،بما تحتاج إليه من أسلحة وغيرها ولعل الذى جعل النبى محمداً يخص المهاجرين ببعض من أموال بنى النضير،دون الأنصار إرادته أن يتخلص الأنصار من الأعباء،التى ألقاها المهاجرون على كواهلهم ،حين ساروا من مكة إليهم ، فتكون الفائدة والحالة هذه عامة للمسلمين مهاجرين كانوا أم أنصاراً أو كان ذلك الأمر الذى عمد إلى فعله رسول الله يحظى برضا الكافة،فإنهم

[(١٨٦)] ابن الأثير:الكامل /جـ٢/١٧٣ -ابن سيد الناس:عيون الأثر/جـ٢/٧٤-ابن كثير :البداية والنهايةجـ٤/٧٤،٧٥ -الصالحى:سبل الهدى والرشاد جـ٤/٣٢٢،٣٢٣ ،السهيلى :الروض الأُنف -جـ٣/ صـ٢٥٠ .

على يقين من أن رسول الله ﷺ ،ما يفعل شيئاً ولا يقول قولاً إلا عن وحي،فقد قال الله جل علاه: (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)[١٨٧]

وهذا ما كان فقد نزل جبريل عليه السلام،على رَسُول الله ﷺ بقوله تعالى: (ومَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْه مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ،وَلَكِنَّ اللهُ يُسلطَّ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ،واللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ،مَّا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وللرَّسُولِ وَلِذى القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمسَاكِين وَابْنِ السَّبِيلِ،كَىْ لاَ يكُونَ دُوْلَةً بَيّنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ،وَمَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب[١٨٨]

وهكذا يرى القارئ اليهود للمرة الثانية،يعمدون إلى نقض المعاهدة ،التي أبرموها مع المسلمين لأنهم لا يستطيعون العيش فى ظل جو آمن،إذ لا يجدون لأنفسهم سلطاناً،بين الجماعات المحيطةَ بهم إلا بفتن ينشبونها هنا وهناك،لتأجيج نار الحروب،والعداوة،والبغضاء،بين الجماعات والقبائل والأفراد.

---

[١٨٧] سورة النجم ٣،٤ .

[١٨٨] الزمخشري:الكشاف /جـ٤/٥٠٢ - ابن عبد البر:الدرر/١٦٦ -ابن عبد الوهاب:مختصر سيرة الرسول/٢٣٠ - البوطى :فقه السيرة/٢٠٣ - سورة الحشر:آية ٦،٧.

غزوة بدر الموعد

لا خلاف بين علماء السيرة فى أن السبب الذى جعل النبى محمداً يخرج إلى "بدر"،هو ما كان أبو سفيان" قد توعد به المسلمين،فى "أحد" بعد انتهاء الجولة الثانية فيها لصالحهم،بلقاء فى العام القابل عند "بدر" تنال فيه قريش وتر قتلاها فى بدر الكبرى.

ولما كان رسول الله ﷺ قد استجاب لنداء "أبى سفيان" فى "أحد" ، فإنه خرج إلى "بدر" فى ألف وخمسمائة رجل ، حاملين بضائعهم وأسلحتهم من أجل لقاء المشركين والتجارة،فى سوق "بدر"التى دأبت العرب على عقده فى الأيام الثمانية الأولى فى شهر القعدة من كل عام فجعل النبى لواءه "لعلىّ بن أبى طالب،واستخلف على المدينة "عبد الله بن رواحة" وأقام ببدر ينتظر قدوم أبى سفيان،لمنازلته،وإذا كانت هذه حال المسلمين وقد حرصوا على الخروج ليشفوا غلهم من المشركين،فإن الأمر كان على النقيض من ذلك بين المكيين فقد أظهر "أبو سفيان" تلكؤا فى الاستعداد للخروج وتعلل بجدب حل بالقوم،نتيجة قلة المطر مما جعلهم فى ضيق،لا يستطيعون معه التجهز للخروج،حتى يلقوا محمداً، كما طلبوا فتفتق ذهن "أبى سفيان" عن فكرة تحفظ له،بعض ماء وجهه،فأشخص، "نعيم بن مسعود"إلى رسول الله ﷺ برسالة فيها أن قريشا،استعدت بخيلها

ورجالها لتقصده حتى تستأصله،ومن معه كـــى يجعــل المســلمين يجبنـــون عن الخروج،فلما وصل "نعيم إلى النبى محمـــد،وأطلعـــه علـــى جليـــة أمـــر المكيين كما أراده منـــه "أبـــو ســـفيان" وجـــد فـــى النبـــى تصميمـــاً علـــى الخروج،فلما علم قائد المشركين بذلك خرج فـــى ألفـــى رجـــل،ثـــم عـــادوا بعد ما وصلوا إلى الظهران فتنـــدر بـــهم القـــوم،فســـموا جيشـــهم جيـــش السويق لأن الجند لـــم يمضـــوا فـــى الطريـــق حتـــى نهايتـــه،بـــل كـــانوا متنزهين وللسويق المخلوط باللبن شاربين ولقد قال صفـــوان بـــن أميـــة " لأبى سفيان (قد نهيتك أن تعد القـــوم،وقـــد اجـــترأوا، علينـــا،ورأونـــا قـــد أخلفنـــاهم).

وهكذا عاد المسلمون من "بـــدر" الموعـــد ،ولـــم يلقـــوا حربـــاً ،بـــل ربحوا ربحاً طيباً من تجارتهم "ببدر"[١٨٩] فـــنزل قولـــه تعـــالى : [فَـــانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّم يَمْسَسْـــهُم سُـــوءٌ واتَّبَعـــوا رِضْـــوَانَ اللهِ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيـــمٍ][١٩٠].

---

[١٨٩] ابن الجوزى:المنتظم /جـ٢/٢٩٦،٢٩٧ - ابن سيد الناس:عيون الأثر /جـ٢/٨٢.

[١٩٠] سورة آل عمران :آية (١٧٤).

الفصل السادس

من الأحزاب للفتح المبين

استقبلت المدينة مرحلة جديدة من تاريخـها،بعـد أن وضعـت حـرب "أحد" أوزارها وجابه المسـلمون فـي قـوة النتـائج والمواقـف المترتبـة عليها كما ألمعت إلى ذلـك فيمـا أسـلفت وهـذه المرحلـة تبـدأ بغـزوة الأحزاب،أكبر غزوة عرفها العرب،من حيث العـدد والإعـداد.ولقـد كـانت لها ذيول،مثلما كانت "لأحد" "وبدر" وهذا ما ستكشـف عنـه صفحـات هـذا الفصل.

أولاً:غزوة الأحـزاب

اختلف المؤرخون حول التـاريخ ،الـذى وقعـت فيـه تلـك الغـزوة ،فمنهم من ذكر أنها كانت فى العام الرابع للهجرة ومنـهم مـن ذكـر أنـها كانت فى شوال سنة خمس للـهجرة،وهـو مـا رجحـه،وجـزم بـه"ابـن كثير"بعد ما عرض للأقوال الواردة،حـول اختـلاف العلمـاء فـى التـأريخ للغـزوة[١].

ولا خلاف بين كُتَّاب السيرة ،فى أن سـبب تحزيـب الأحـزاب علـى المسلمين، راجع إلى السعايات التى قـام بـها يـهود بنـي النضـير لـدى قريش،فإنهم ما كادوا يحطون الرحال،فى خيـبر،ويسـتقبلون فيـها الأفـراد من بنى دينهم،حتى أزمعوا الكيد للنبـى محمـد -ﷺ- مـن بـاب تصفيـة

---

(١)ابن هشام سيرة النبى جـ٣ صـ٢٢٩،على إبراهيم حسن /ابن كثير البداية والنهاية ،ج٤ -٩٣ ،٩٤التاريخ الإسلامى العربى ١٩٥،١٩٦.

حساباتهم معه بعد أن أجلاهم عن ديارهم،فأشخصوا وفـــدا إلـــى مكـــة فيـــه "حيى بن أخطب" وعبد الله بن سلام بن "أبى الحقيـــق" وكنانـــة بـــن الربيـــع بن أبى الحقيق فزينـــوا لقريـــش أمـــر التجـــهيز "لمحمـــد"والمســـير إليـــه ليستأصلوا شأفته ومن معه من المدينـــة وظلـــوا بـــهم حتـــى أقنعوهـــم،لأن ما عرضه اليهود من نصرة المشركين ،وجعل القبـــائل الأخـــرى تشـــد مـــن أزرهم ،صادف هـــوىً وأمـــانى عذبـــة طالمـــا راودت أنفســـهم،وودوا لـــو حققوها،وأرادت قريش أن تتأكد من نصرة اليـــــهود لـــهم فقـــالوا للوفـــد:- إنكـــم أهـــل الكتـــاب الأول والعلـــم ،بمـــا أصبحنـــا،تختلـــف فيـــه نحـــــن ومحمد،أفديننا خير أم دينه؟قالوا بل دينكم خـــــير مـــن دينـــه وانتـــم أولـــى بالحق منه[٢]. فأنزل الله ســـبحانه وتعـــالى:

(أَلَم تَرَ إِلى الَّذِيْـــنَ أُوتُـــوا نَصِيْبـــاً مِـــنَ الكِتَـــابِ يُؤمِنُـــونَ بِـــالْجِبْتِ والطَّاغُوت وَيَقُولُـــونَ لِلَّذِيْـــنَ كَفَـــرُوا هـــؤلاء أَهْـــدَىَ مِـــنَ الذَّيـــنَ آمَنـــوُا سَبِيْلاً،أُولَئكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِـــدَ لَـــهُ نَصِـــيْرَاً)[٣] جَـــدَّ صناديد قريش،فى حشد الرجال للقيـــــام بـــهذه الغـــزوة الموعـــود بـــالنصر من قبل اليهود ،فأنفذت قريش أربعـــة آلاف رجـــل،جعلـــت عليـــهم"عثمـــان بن طلحةَ" وأشخصت الرسل إلى حلفائها مثل "بنـــــى ســـليم"الذيـــن انضمـــوا إليهم فى سبعمائةَ رجل عليهم "سفيان بن عبد شـــــمس "،وبنـــــى مـــرةَ فـــى

---

[٢] الطبرى :تاريخ الرسل والملوك جـ٢/٥٦٥ - ٥٦٦،ابن الجوزى:المنتظم جـ٢/٣١٧: ٣١٩ -الجزائرى:هذا الحبيب محمد /٢٩٩،٣٠٠ بركات أحمد :محمد واليهود /١٢٦.

[٣] سورة النساء:آية (٥١،٥٢).

أربعمائة.يقودهم الحارث بن عوف المرى وغيرهما،حتى جمعوا "لمحمد"-ﷺ- عشرة آلاف رجل،فيهما العدد الكبير من الفرسان والإبل فكان جيشا،لم تشهده جزيرة العرب من قبل ،من حيث الوفرة العددية وكثرةَ قوات الحلفاء فيه[٤].فلما استيقن"أبو سفيان"من خروجه إلى"محمد"بهذه الجيوش الجرارة،قدم لعمله هذا بحرب نفسية شنها على رسول الله ومن معه في المدينة،ليضعف بها همتهم،ويوهن عزيمتهم،فكتب إلى رسول الله رسالةً أسبق بها جيشه فيها:-

أما بعد فإنك قتلت أبطالنا،وأيتمت الأطفال ،ورملت النسوان،والآن فقد اجتمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك،وقلع آثارك.وقد أنفذنا إليك نريد منك نصف نخل المدينةَ،فإن أجبتنا إلى ذلك،وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار.

تجاوبت القبائل من نزار ∴ لنصر اللات في بيت الحرام

وأقبلت الضراغم من قريشٍ ∴ على خيلٍ مسومةٍ ضوامِ

لم تُجد نفعاً هذه الكلمات في إصابةَ الرسول ومن معه بالوهن بل على النقيض من ذلك ،زادتهم تصميماً على مجابهة المشركين الذين لم يكونوا قد فهموا أن أمر النبي "محمد" ليس على غرار أمر من عاصروهم من الملوك، وشيوخ القبائل،وقادة العشاير،فطالبوه أن يأتى إليه مذعنا مقراً بنصف غلةَ بلده لهم، معلناً سيادة قريش عليه كما هى على غيرهم من القبائل.فكان من الطبعى والحالة هذه أن يجيب

---

[٤]ابن هشام:سيرة النبى/جـ٣/٢٣٠،٢٣١،الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٤/٣٦٤.

الرسول "أبا سفيان" بإجابة تحمل ألفاظها قوةً إيمانية جعل منها المسلمون سلاحاً بتاراً يقضون به على أسلحة المشركين المادية،ليقينهم بوعد الله لهم في قوله: (إن الله يُدَافِعُ عَن ٱلذِيْنَ آمَنُوا).

فأمر النبى"علياً"بأن يعد رسالةً،يجيب بها "أبا سفيان"،فكتب إليه يقول: **بسم الله الرحمن الرحيم** (وصل كتاب أهل الشرك والنفاق،والكفر والشقاق،وفهمتُ مقالتكم،فوالله ما لكم عندى جواب،إلا أطراف الرماح،وأشفار الصفاح فأرجعوا دينكم عن عبادة الأصنام ، واشروا بضرب الحسام وفلق الهام،وخراب الديار،وقلع الآثار،والسلام على من اتبع الهدى[٥]).

لم يُعرْ "أبو سفيان"ما جاء برسالة المسلمين أدنى اهتمام،فاستمر في حشد حشوده،حتى خرج من مكةَ يريد المدينة في شوال سنة خمس للهجرة فلما وقفت خزاعة على أمر جيوش المشركين سيرت الخبر إلى رسول الله -ﷺ- مع رجال أسرعوا السير إلى المدينة فدعا رسول الله -ﷺ- إلى اجتماع ليشاورهم في الأمر،والجميع يذكرون ما كان من أمر خروجهم منها إلى أُحد،فبادر المجتمعين سلمانَ الفارسى،فأشار عليهم بحفر خندق، يمنع خيول المشركين من اقتحام المدينة لحربهم،وأن يجعلوا جبل سَلع" خلف ظهورهم فلا يستطيع العدو اقتحام مكانهم عليهم.

---

[٥] حميد الله:الوثائق السياسية/٧٢.

وهكذا بدأ المسلمون يحفـــرون الخنـــدق،بعدمـــا راقـــت لـــهم فكـــرة "سلمان"وكان رسول الله يعمل معـــهم فـــى إعـــداده كواحـــد منـــهم يحمـــل التراب على بطنه ويحفـــر بمعولـــه كمـــا يحفـــرون،وكانوايـــهونون علـــى أنفسهم أمر هذا الجهد ،بإنشاء الأراجيز التـــى فيـــها .

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ∴ فاغفر للأنصار والمهاجرة.

وقد قسم الرسول مســـاحة الخنـــدق بيـــن جماعـــات مـــن المســـلمين ،جعل لكل واحدة منهم مســـافة تقـــوم بحفرهـــا،فتنـــازعوا حـــول ســـلمان الفارسى "،فقالت:جماعةٌ مـــن المـــهاجرين"ســـلمان" منـــا،فقـــالت:الأنصـــار مثل ذلك فقال الرسول -ﷺ-:[١] (سلمان منـــا أهـــل البيـــت).

فكان المسلمون فى صراع مع الزمـــن ،ليفرغـــوا مـــن الحفـــر ،قبـــل أن يقدم عليهم عدوهم ،فقضوا الليالى والأيـــام بعيـــداً عـــن منازلـــهم،وقـــد عضهم الجوع،حتـــى أن "جـــابر"رضـــوان الله عليـــه قـــد رق لرســـول الله حين رآه يتضور جوعاً،وربط حجـــرا علـــى بطنـــه،فـــأتى رســـول الله-ﷺ- وقال له :[يا رسول الله ائذن لى إلـــى البيـــت ،فـــأذن لـــى فـــأتيت امرأتـــى ،فقلت لها:إنى رأيت برسول الله -ﷺ- شـــيئاً،مـــا كـــان فـــى ذلـــك صـــبر ،فهل عندك شئ؟قـــالت :عنـــدى شـــعير وعنـــاق (جـــدى صغـــير)].قـــال : فذبحت العناق ،وطحنت الشـــعير حتـــى جعلنـــا اللحـــم فـــى البرمـــة بيـــن الأثافى كادت تنضج ،فقلـــت:طعيـــم لـــى فقـــم،أنـــت يـــا رســـول الله -ﷺ-

---

[١] ابن سعد :الطبقات /جـ٢/٥١-السمهودى:وفاء الوفا /جـ١/٣٠١-الجزائرى:هذا الحبيب محمد/٣٠١.

ورجل أو رجلان قال: (كم هو؟) فذكرته له فقال: (كثير طيب،قل لها لا تنزع البرمة ثم جئت النبى -ﷺ- والعجين قد انكسر والبرمة بين ولا الخبز من التنور،حتى آتى) فقال : (قوموا)،فقام المهاجرون والأنصار ،فلما دخل "جابر"على امرأته ،قال لها:ويحك،جاء النبى -ﷺ- بالمهاجرين والأنصار ومن معهم قالت ،هل سألك؟ قلت:نعم ،فقال : (ادخلوا ولا تضاغطوا)فجعل رسول الله -ﷺ- يكسر الخبز،ويغرف من البرمة،حتى شبعوا ،وبقى بقية،فقال لى:"كلى هذا اهدى ،فإن الناس أصابتهم مجاعة[٧] .فكان لهذه الصورة التى وقعت فى بيت "جابر" أثر عظيم إذ هى آية من الآيات التى أجراها الله على يد النبى -ﷺ- ،لتزيد من ثبات المسلمين،وتجعلهم يواصلون العمل بنشاط زائد عن ذى قبل ،وبينما هم يعمقون الحفر ،إذا بصخرة (مدورة،تعترض طريقهم،فكسرت حديدهم ، وشقت عليهم ،فقالوا :"يا سلمان"!ارق إلى رسول الله -ﷺ- فأخبره خبر هذه الصخرة،فإما أن يأمرنا أن نعدل عنها ،فإن المعدل قريب ،وإما أن يأمرنا فيها بأمره،فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، فرقى "سلمان "حتى أتى رسول الله -ﷺ-وهو ضارب عليه قبة تركية،فقال:يا رسول الله-ﷺ-!بأبينا أنت وأمنا،خرجت صخرة بيضاء من الخندق مدورة فكسرت حديدنا،وشقت علينا حتى ما نحيك فيها قليلاً ولا كثيراً،فمُرنا فيها بأمرك ،فإنا لا نحب أن نجاوز

---

(٧) البيهقى :دلائل النبوة/جـ٣/٤١٦-ابن كثير البداية والنهاية /جـ٤/٩٧،٩٨ الجزائرى:هذا الحبيب محمد /٣٠٢ -د/عبد الشافى وآخرون/التاريخ الإسلامى ٩٦: ٩٨.

خطك،فهبط رسول الله -ﷺ-مع"سلمان" في الخندق،ورقينا نحن التسعة على شقة الخندق،فأخذ رسول الله-ﷺ-المعول من"سلمان"فضرب الصخرة ضربة صدعتها،وبرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها-يعنى لابتى المدينة-حتى لكان مصباحاً فى جوف بيت مظلم – فكبر رسول الله-ﷺ-،تكبيرة فتح وكبر المسلمون،ثم ضربها رسول الله-ﷺ-الثانية ،فصد عنها وبرق منها برقةٌ أضاء لها ما بين لا بتيها ،حتى لكأن مصباحاً فى جوف بيتٍ مظلم فكبر رسول الله -ﷺ- تكبيرة فتح وكبر المسلمون ، ثم ضربها رسول الله -ﷺ-، الثالثة،فكسرها،وبرق منها برقة أضاء ما بين لا بيتها ،حتى لكأن مصباحاً فى جوف بيت مظلم ،فكبر رسول الله -ﷺ- تكبيرة فتح وكبر المسلمون ثم أخذ بيد "سلمان" فرقى، فقال"سلمان"،بأبى أنت وأمى يا رسول الله !لقد رأيت شيئاً،ما رأيته قط،فالتفت رسول الله -ﷺ-إلى القوم ،فقال:هل رأيتم ما يقول"سلمان"؟،قالوا :نعم يا رسول الله،بأبينا أنت وأمنا ،قد رأيناك تضرب ،فخرج برق ،كالموج فرأيناك تكبر فنكبر،ولا نرى شيئا غير ذلك فقال:صدقتم ضربت ضربتى الأولى،فبرق الذى رأيتم،أضاءت لى منها قصور"الحيرة" ومدائن كسرى"،كأنها أنياب كلاب،فأخبرنى "جبريل"،أن أمتى ظاهرة عليها،ثم ضربت ضربتى الثانية،فبرق الذى رأيتم ،فأضاءت لى منها قصور"الحمر من أرض"الروم"،كأنها أنياب الكلاب،وأخبرنى "جبريل" عليه السلام إن أمتى ظاهرة عليها.ثم ضربت الثالثة فبرق منها الذى

أضاءت منها"صنعاء" كأنها أنياب الكلاب،فـــأخبرني جـبريل عليـــه الســلام إن أمتـــى ظـــاهرة عليـــها فابشـــروا يبلغـــهم النصـــر،ابشـــروا يبلغـــــهم النصر،وأبشروا يبلغــهم النصـــر.فاستبشـــر المســـلمون وقـــالوا الحمـــد لله موعد صادق بــــار بـــأن الله وعدنـــا النصـــر بعـــد الحصـــر[٨].واســـتمروا يحفرون الخندق،حتى فرغوا منه،فـــأمر رســـول الله-ﷺ-جنـــده المســـلمين بـــالخروج مـــن المدينـــة،ليعســـكروا عنــــد"جبــــل ســــلع"ويحرســـوا الخندق،فجهزوا وخرجوا،منها يوم الاثنيـــن،لثمـــان ليـــالٍ مضـــت مـــن ذى القعدة ، وكان لواء المهاجرين مع "زيد بن حارثـــه" ولـــواء الأنصـــار مـــع "سعد بن عبادة" فعسكر ثلاث آلاف مسلم يرقبـــون وصـــول عدوهـــم.

لم يمض سوى وقت يسير،حتـــى جـــاءت قريـــش فـــى عشـــرة آلاف من رجالها،فنزلوا "الأسيال مـــن رومـــه" بيـــن الجـــرف وزغابـــة،وأقبلـــت غطفان ومن تابعهم ،حتى نزلوا إلى جنـــبٍ "أحـــد"،لتدخـــل المعركـــة بيـــن المسلمين والمشركين مرحلة تستطيع تســـميتها،(بحـــرب الأعصـــاب).[٩]

موقف المسلمين بالمدينة بعد وصـــول المشـــركين:-

لمـــا رأى المؤمنـــون المشـــركين ،قـــد جـــاءوا المدينـــة بخيولـــهم، مُهدِّدين بوجودهم على تخومـــها جماعـــة المســـلمين أصبـــح الجـــو مـــهيأ

---

[٨] الطبرى:تاريخ الرسل والملوك /جـ٢/صـ:٥٦٩،٥٦٨.

ابن سيد الناس:عيون الأثر /جـ٨٩،٨٨/٢.

[٩] ابن هشام :سيرة النبى جـ٢٣٥/٣. -

[١٠] ابن الأثير:الكامل /جـ١٨٠/٢. - ابن الجوزى :المنتظم /جـ٣١٩/٢.

للمنافقين ليبذروا بـــذور الشـــقاق،بيـــن الموحديـــن الذيـــن خرجـــوا مـــن ديارهم لمؤازرة سيد المرسـلين،فـهزئوا مـن قـول النبـى محمـد -ﷺ- لأتباعه بأن الله،سيفتح عليـــهم بـلاد الـروم وفـارس،ويجعلـهم أعـزاء بعدما كـانوا أذلاء (١٠).

ومما زاد الأمر ســـوءاً علـى سـوء بالنسـبة للمسـلمين،أن "بنـى قريظة"،قد نقضوا غزلهم،فقبلـوا محالفـة المشـركين،ليوقعـوا المسـلمين بين فكى كماشة،المشركون من أمامـــهم ،واليـهود مـن خلفـهم ذلـك أن "حيى بن أخطب "قد جاءً" كعـب بـن أسـد القرظـى" صـاحب عقـد"بنـى قريظة" وعهدهم وكـان قـد وادع رسـول الله-ﷺ-علـى قومـه،وعـاهده على ذلك فلما سمع "كعب" "بحيـىً" أغلـق دونـه بـاب حصنـه،فاسـتأذن عليه ،فأبى أن يفتح له،فناداه ،حيى"،ويحك"يا كعـب"!افتـح ،قـال ويحـك يا "حيىّ"إنك امرؤ مشئوم ،وإنى قد عـاهدت محمـداً،فلسـت بنـاقض مـا بينى وبينه ،ولم أر منه إلا صدقاً ووفاءً،قـال:ويحـك "افتـح لـى أكلمـك ، قال :والله ما أنـا بفـاعل ؛قـال:والله إن أغلقـت دونـى إلا خوفـاً علـى جشيشتك أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل – ففتح لـه،فقـال :ويحـك "يـا كعـب"!جئتـك بعـز الدهـر،وبحـر طـام،جئتـك بقريـش علـى قادتـها وسادتها،وقد عـاقدونى ،وعـاهدونى علـى ألا يـبرحوا،حتـى تسـتأصل محمداً ومن معه،قال لـه "كعـب":جئتنـى والله بـذل الدهـر،وبجَـهام قـد أُهْرِقَ ماؤه ،فهو يَرْعَدُ ويبرق ،وليس فيه شئ،ويحـك يـا"حيـىً"! فدعنـى

وما أنا عليه ،فإني لم أرَ من "محمد" إلا صدقاً ووفــــاء،فلــم يــزل "حيــيّ"، "بكعب"،حتى سمح له على أن أعطاه عــهداً وميثاقــاً.لئــن رجعــت قريــش وغطفان،ولم يُصيبوا "محمداً"،أن أدخل معـــك فـــي حصنــك حتـــى يصيبنـــي ما أصابك،فنقض "كعب بن أسد"عهده،وبرئ،مما كـــان بينـــه وبيـــن رســـول الله-ﷺ-[11]،أخــذ رســـول الله-ﷺ-يجيــل بصـــره يمنـــه ويســـرة،باحثـــاً للمسلمين عن طوق نجـــاة،ينجيـــهم مـــن أعدائـــهم الذيـــن جـــاءوهم مـــن فوقهم ومن أسفل منهم،وجعلوا أفئدتهم،تبلغ الحنـــاجر،فـــرأى أن جُـــل مـــن جاءوا المدينة من المشركين المتحـــالفين لقريـــش ،تســـيل لعابـــهم منـــافع مادية يُحَصِلُونَـــهاَ.

فأرسل رسول الله -ﷺ-"إلـــى "عينيـــه بـــن حصـــن"،"والحـــارث بـــن عوف المـــرّيّ"(قـــائد غطفـــان)،ففاوضـــهما علـــى إعطائـــهما ثلـــث ثمـــار المدينة على أن يرجعا بمن معـــهما عـــن رســـول الله -ﷺ-، فأجابـــه إلـــى ذلك ،فاستشار رسول الله" -ﷺ- "سعد بـــن معـــاذ " و"ســـعد بـــن عبـــادة" فقالا:يا رسول الله ،شئ تحب أن تصنعـــه لنـــا ،أم شـــئ أمـــرك الله بـــه – قال رسول الله-ﷺ-إنما هو شئ أصنعه لكم لما رأيـــت العـــرب قـــد رمتكـــم عن قوس واحدة.فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم،فقال"ســـعد بـــن معـــاذ":قـــد كنا نحن وهم على الشرك ولا يطمعون أن يـــأكلوا،منـــا ثمـــرة إلا قِـــرىً أو

---

(11) ابن هشام :سيرة النبى/جـ٣/٢٣٥،٢٣٦ – السمهودى:وفاء الوفا/جـ١/٣٠٣ – الصالحى :سبل الهدى والرشاد/جـ٤/٣٧٣.

بيعاً،فلما أكرمنا الله بالإسلام ،نعطيـــهم أموالنـــا؟!مـــا نعطيـــهم إلا الســـيف حتى يحكم الله بيننا وبينـــهم[١٢].

وهكذا رأينا "سعد بن معاذ"ومن معه مـــن الأنصـــار،يرفضـــون الأخـــذ بما كان النبى محمد -ﷺ-قد أقدم عليه بعدمـــا علمـــوا،أن ذلـــك كـــان عـــن اجتهاد شخصى،لم ينزل به وحى ،على النبى -ﷺ-فـــهذا يؤكـــد لنـــا،مـــدى الثبات الذى تحلى المؤمنون به،وهم فى هـــذه الضائقـــة الشـــديدة.

فلـــم يبـــالوا بشـــىء،ســـوى أن يظـــهروا لعدوهـــم،مـــدى حبـــــهم وإعزازهم،ونصرتهم لنبيهم،ولى أن أتســـاءل أكـــان يريـــد النبـــى "محمـــد" مصالحة"غطفان" صلحاً حقيقياً،بذات الشـــروط التـــى ذكرتـــها الروايـــة ،أم أن حوار النبى مع زعيمى غطفـــان"،قـــد كـــان مـــن قبيـــل السياســـة فـــى الحروب ،حتى يمهل جنده بعض الوقـــت،ليفكـــروا فـــى أمرهـــم ،أو ليطيـــل من مقام عدوهم عند تخوم مدينتهم،دون حـــرب فيضعـــف مـــن عزيمتـــهم وهمتـــهم؟.

والراجح عندى الأخذ بالرأي الثاني وذلـــك لوجـــوه.

أولاها: أن الرواية، صرحت أن مـــا أقـــدم النبـــى عليـــه كـــان بـــدون وحى، وهو كما كان يقتضى من النبى عرض الأمـــر علـــى بســـاط البحـــث للمشاورة فيه،مع أولى الرأى من المســـلمين .مثلمـــا رأينـــاه يفعـــل فـــى سوابق الغزوات والمواقف الصعبة،تلك التى كانت فى "بـــدر" ثـــم "أحـــد".

(١٢) ابن سعد :الطبقات الكبرى/جـ٢/٥٣ - ابن القيم :زاد المعاد/جـ٣/٢٧٣.

ولأنه -ﷺ-اعتبر ما يقوم به من قبيل الاستكشاف،حتى يضع استراتيجية سليمة لرجاله،تمكنهم بعد توفيق الله من الانتصار على عدوهم ،فقد غض الطرف عن مشاورة المسلمين في أمر الصلح،

ثانيها:أن النبي محمداً لو كان يقود الأمة في أمورها المصيرية،التي لم ينزل بها الوحي قيادة فردية ما أقلع عن أمر الصلح بعد مارآه من صلابة موقف "سعد" ومن معه.

ولأنه كان يعدها من قبيل منساورات القادة في المواقف الصعبة ،وقد آتت مناوراته أكلها ،إذ أضعفت من عزيمة"غطفان"في نصرة المشركين،ومن ثَمّ أخذ برأي سعد في عدم إتمام الاتفاقية مع المشوكين.

وثالثها: إن من يمعن النظر في موقف النبي من الأنصار ،قبل الذهاب إلى ميدان المعركة في "بدر"،وتكراره عرض الأمر عليهم،وهم في مجلس المشاورة حتى يقف على رأيهم،حول مشاركتهم للمهاجرين في حرب المشركين "ببدر"،حيث إن بيعة العقبة الكبرى لم تنص على ذلك ،ليدلنا دلالة قطعية على أن رسول-ﷺ-،لم يكن ليقدم على عرض ثلث ثمار المدينة أو نصفها على المشركين ،دون مشاورة الأنصار.ولا سيما أن وحياً ، لم ينزل بذلك ،كما أن بيعة العقبة التي حرص النبي على تطبيقها من باب الوفاء بالعهود ،كما رأينا في "بدر" لا تُخَوِلَهُ ذلك لهذا فإنني أكاد أجزم،بأن ما قام به النبي "محمد" كان

من قبيل السياسة الحربية لا غـــير غايتـــه منـــها ،فَصَنَـم عُـرى تحـــالف الباطل ،حتى يضعف من قوتـــــهم .

ومما يدعم ما ذهبت إليه إجازته-ﷺ-لنعيـــم بـــن مســـعود الأشـــجعى "القيام بدور خادع لتفتيت تحالف المشــــركين واليـــهود.

سفارة نعيم بن مسعود الأشجعى فـــى المشـــركين

قيض الله للمسلمين رجلاً مـــن أعدائـــهم ،فيكـــون ســـبباً فـــى نقـــض الحلف بين المشركين واليهود،وهـــو نعيـــم بـــن مســـعود الأشـــجعى"الـــذى كان معروفاً لدى المكيين ويهود بنـــى قريظـــة بإخلاصـــه،ورجاحـــة عقلـــه رشـــدة بغضـــه،للنبـــى -ﷺ- ،فـــهيأه الله لقبـــول الإســـلام ،والمشـــركون يحاصرون المدينة المنـــورة.

فجاء إلى رسول الله-ﷺ-،وهو يصلـــى العشـــاء،فـــانتظر،حتـــى أتـــم النبى صلاته،فلما رآه النبى -ﷺ-قال له :(ما جـــاء بـــك يـــا نعيـــم؟)،قـــال: (جئت أصدقك،وأشهد أن ما جئت بـــــه حـــق،فأسْـــلم)فقـــال للنبـــى -ﷺ- : مرنى بما شئت،والله لا تأمرنى بأمر إلا مضيـــت لـــه ، وقومـــى لا يعلمـــون بإسلامى ولا غيرهم،فقال رسول الله -ﷺ-: "إنما أنـــت فينـــا رجـــل واحـــد فخذلْ عنا الناس ،ما استطعت ،فـــإن الحـــرب خُدعـــة"،قـــال:أفعـــل ولكنيـــا رسول الله ائذن لى أن أقول،قال:"قل مـــا بدالـــك فـــأنت فـــى حـــل)،فتوجـــه إلى بنى قريظة وأشـــار عليـــهم،ألا يقـــاتلوا مـــع قريـــش،وغطفـــان،حتـــى يأخذوا منهم رهناً من أشرافهم فقبلوا رأيه،واســـتكتمهم مجيئـــه إليـــهم،ثـــم جاء إلى "أبى سفيان" فى رجال قريـــــش،وأعلمـــهم أن قريظـــة قـــد ندمـــت

على ما كان منها ،وأنـــهم راسـلوا محمـداً بـأن يـأخذوا مـن أشـراف قريش،وغطفان سبعين رجلاً،يسلمونهم إليه،ليضـرب أعناقـهم،حتـى يـرد بنى النضير إلى ديارهم،ويكونوا معه،حتـى يـردوا قريشـاً عنـه وأشـار عليهم ألا يجيبوا قريظة إلى عطاء الرهن،وسألهم كتمـان أمـره ،ثـم جـاء إلـى غطفـان،وأعلمـهم عـن بنـى قريظـة بمـا أعلـم بـه قريشـاً عنهم،وحذرهم أن يدفعوا إليهم رهناً،فأرسلت يـهود "عـزال بـن سـموال " إلى قريش بأن الثواء،قد طال،ولـم يصنعـوا شـيئاً،والـرأى أن يتواعـدوا على يوم،تزحف فيه"قريـش وغطفـان"وهـم،ولكنـهم لا يخرجـون لذلـك معهم،حتى يرسلوا برهائن من أشـرافهم،فأنـهم يخـافون إن أصـابكم مـا تكرهون رجعتم ، وتركتمونا فلم يرجعـوا إليـهم بجـواب ، وجـاء "نُعيـم" إلى ،بنى قريظة وقال لهم:إنـى عنـد"أبـى سـفيان"وقـد جـاء رسـولكم ،يطلب منه الرهان فلم يرد عليه شيئاً فلما ولى رسـولكم قـال: لـو طلبـوا منى عناقاً ما رهنتها فلا تقاتلوا معه حتى تـأخذوا الرهـن،فـإنكم إن لـم تقاتلوا محمداً فانصرف"أبو سفيان"تكونوا على مـواد عتكـم الأولـى،فلمـا كانت ليلة السبت بعث"أبو سـفيان"،بعكرمـة بـن أبـى جـهل" إلـى "بنـى قريظـة" أن يخرجـوا غـداً لينـاجزوا محمـداً" جميعـاً ،فقـالوا:إن غـداً السبت،لا نقاتل فيه ولا نعمل عملاً،وإنـا مـع ذلـك لا نقـاتل معكـم،حتـى تعطونا رهاناً من رجالكم لئلا تـبرحوا،فإنـا نخشـى إن أصـابتكم الحـرب أن ترجعوا إلى بلادكم،وتدعونا إلى "محمـد"ولا طاقـة لنـا بـه ،فتحققـت قريش صدق ما قال "نعيم،وأرسلت "غطفان"إلى"قريظـة"بمثـل مـا راسـلهم

به"أبو سفيان"،فأجابوهم إجابـــة علـــى غـــرار إجابـــة "عكرمـــة" فتحققـــت "غطفان" وبنو قريظة"من ما قاله" نعيـــم"،ويـــأس كـــل منـــهم مـــن الآخـــر ،واختلف أمرهـــم}[١٣] .

ولم يكن بين المسلمين والمشركين فى الأيـــام الإحـــدى عشـــر التـــى أقاموها عند الخندق إلا الرشق بالنبال، ومحاولات تمثلـــت فـــى قيـــام ثلـــة من المشركين،باقتحام الخندق من مكـــان ضيـــق لـــم يســـتطيع المســـلمون جعله واسعاً مثل بقية الخندق ،نظراً لصعوبة الأرض التـــى قـــاموا بحفـــره عليها،ومن هؤلاء الذين أقحموا خيولـــهم علـــى المســـلمين،"عكرمـــة بـــن أبى جهل"،وضرار بن الخطاب"و "هبيرة بـــن أبـــى وهـــب" ، "وعمـــرو بـــن عَبْدِ وُدّ "،الذي كان قد قاتل يوم "بـــدر"حتـــى أشـــوتُه الجـــراح،فلـــم يشـــهد "أُحداً"،فلما كان الخندق،خـــرج معلمـــاً،لـــيرى مشـــهده،فلمـــا وقـــف هـــو وخيله،قال "علـــىّ" رضـــى الله عنـــه:" يـــا عمـــرو" قـــد كنـــت تعـــاهد الله لقريش،ألا يدعو رجل إلى خلتين إلا قبلت منه إحداهـــا،فقـــال"عمـــرو":أجـــل ،فقال له "علىّ"فإنى أدعوك إلى الله وإلـــى رســـوله وإلـــى الإســـلام ،فقـــال :لا حاجة لى فى ذلك قال :فإنى أدعوك إلى البراز قـــال لـــه:يـــا ابـــن أخـــى لمَ؟ فو الله ما أحب أن أقتلك،فقال علـــى:ولكنـــى أحـــب أن أقتلـــك، فحمـــى "عمـــرو"فـــاقتحم عـــن فرســـه فعقـــره،ثـــم أقبـــل.،فجـــاء إلـــى علـــى

---

[١٣] الطبرى:تاريخ الرسل والملوك /جـ٢/٥٧٨،٥٧٩ – ابن الأثير :الكامل جـ٢/١٨٢،١٨٣.ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ٢/٩٧،الصالحى :سبل الهدى والرشاد جـ٤/٣٨٣: ٣٨٥.

منازلاً،وتجاولا،فقتلـــه "علـــى" وخرجـت خيلـــهم منهزمــة هاربــة،حتــى اقتحمت من الخنـــدق[١٤].

فكانت هذه إرهاصةً للمسلمين بـــأن فـــرج الله ســيوافيهم وذلـــك مـــا كان،فقد انهزم الأحزاب عند الخنـــــدق.

هزيمة الأحـــزاب

ما فتى رسول الله -ﷺ- يدعوا ربه خلال مـــدة حصـــار المشــركين للمسلمين فى الليل والنهار فكان يقول :(اللهم منزل الكتاب ،سريع الحساب، اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم)، (اللهم اهزمهم وانصرنـــا عليـــهم). وعن "أبى سعيد الخدرى "قال قلت يوم الخندق يا رسول الله هـــل مـــن شـــئ نقوله (فقد بلغت القلوب الحناجر؟!) (نعـــم ،اللـــهم اســـتر عوراتنـــا،وآمـــن روعاتنا)،فلما كانت استجابة الله لنبيه،جاءت الأحزاب جنوداً لم يروا نظـــيراً لها من قبل ،تمثلت فى ريح ،اقتلعت الخيام وقلبت القـــدور،وأمطـــار أطفـــأت النيران،جعلت الظلام يلف المكان ،وأحلت الذعر فى الأفئدة محـــل الطمأنينـــة والأمان فعلا صياح القوم.

فلما سمعه النبـــى "محمـــد" أرســـل "حذيفـــة "دسيســـةً عليـــهم حتـــى يوقف النبى والذين معه على جلية أمر أعدائــــهم فقـــال "لحذيفـــة":(انطلـــق إليهم وانظر حالهم،ولا تحدثن شيئاً حتـــــى تأتينـــا)،قـــال "حذيفـــة":فذهبـــت فدخلت فيهم والريح وجنود الله تفعل فيهم ما تفعل ،لا يقـــــر لـــهم قـــدر ولا بناء ولا نار .فقام "أبو سفيان"فقال :يا معشر قريـــــش لينظـــر الرجـــل أمـــر جليسه،قال:أبو سفيان":والله لقد هلـــك الخـــف والحـــافر،وأخلفتنـــا قريظـــة

---

[١٤] البيهقى: دلائل النبوة/جـ٣/٤٣٧ - الصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٤/٣٧٧،٣٧٨ الطيب النجار :القول المبين/٢٢٦:٢٢٨ أبو زيد شلبى - خالد بن الوليد/٤٤،٤٥.

ولقينا من هذه الريح ما ترون ،فارتحلوا فإنى مرتحل،ثــم قــام إلــى جملــه وهو معقول،فجلس عليه،ثم ضربه فوثب على ثلاثــة قوائــم ،ولــولا عــهد رسول الله -ﷺ-إلى أن لا أُحْدِث شــيئاً لقتلتــه.

قال "حذيفة" فرجعت إلى النبــى "ص"وهــو قــائم يصلــى فــى مــرط لبعض نسائه،فأدخلنى بين رجليه،وطرح علــى المــرط،فلمــا ســلّمَ خبرتــه الخــبر[١٥].

وهكــذا أخــذ الأحــزاب ينســحبون شــيئاً فشــيئاً،مــن عنــد الخندق،يحملون بين جنباتهم إخفاقاً ذريعــاً،ألّــم بحملتــهم الكــبرى ،تلــك الحملة التى علقوا عليها آمالاً كبــاراً،تنجيــهم مــن ديــن "محمــد"-ﷺ- ، وتزيل عن المشركين، ما نال سيادتهم علــى أيــدى "محمــد" -ﷺ-، ومــن آمنوا معــه.

وكان من الطبعى ،أن يقوم"أبو سفيان"بتنظيــم انســحاب القــوم،فــإن الذى لاريب فيه أن اندفاع عشــرة آلاف مقــاتل مــن مكانــهم فــى وقــت واحد يحدث اضطراباً فــى الصفــوف وخلــلاً عســكرياً يمكــن للمســلمين استغلاله،فيأخذون بنواصيهم ويعملون السيف فيــهم،ومــن ثَــمّ أمــر "أبــو سفيان" قائد سلاح الفرســان فــى الجيــش القرشــى "خــالد بــن الوليــد "ومساعده "عمرو بن العاص" بــأن يتوليــا الإشــراف علــى تنظيــم هــذا الانسحاب،ويقوما بحماية مؤخــرة الجيــوش المنســحبة،فــامتثل "عمــرو" و"خالد" ،أمر القائد العــام ،وســارعا إلــى انتخــاب مــائتين مــن الخيالــة

---

(١٥) ابن الأثير :الكامل/جـ٢/١٨٤ ابن عبد البر:الدرر /١٧٧ - محمد رضا :محمد رسـول الله /٢٣٣.

الذين تمركزوا فى المنطقة الواقعة بين مؤخـرة عسكر الأحزاب ،وبين المسلمين ،وصاروا يضربون بخيلهم فى تلك المنطقة ،ويماشون الجيش المنسحب ،وهم على تعبئة واستعداد لحمايته من أية غارة يقوم بها عسكر الإسلام،وظلت كتيبة الفرسان القرشية هكذا حتى اكتمل انسحاب جيوش الأحزاب من مواقعهما ،أمام الخندق (تماماً) وابتعدت عن منطقة الخطر [١٦]،ومن حق المرء أن يتساءل عن الأسباب التى جعلت جيوش المشركين تؤوب إلى مضاربها دون أن تحقق مآربها ، التى منّت النفس بتحقيقها، وهى فى رأيى تتلخص فيما يلى :

١- هول المفاجأة التى فاجأ بها المسلمون المشركين ،عندما قدموا إلى المدينة،فإذا بهم يقفون حائرين أمام الخندق ،ولم يكن لهم به سابقة عهد،ومن ثم فإن رجالهم لم يستطيعوا اقتحامه إلا بمحاولات فردية،تحطمت أمام شجاعة الرجال المسلمين.

٢- إن جيوش المشركين قد جاءت من أماكن عدة،بعضها يريد مجاملة قريش،وبعضها الآخر يريد مشاركتها فى المجد المتمنى،حين تستأصل شأفة "محمد" ومن معه.ذلك المجد الذى رأوه محالاً،نتيجة طول مقامهم أمام الخندق وعدم استطاعتهم اقتحامه ومن ثَمَّ فقد نال طول وقت الحصار للخندق ، من عزيمة المشركين،فكانوا بين مرغب فى الرحيل وبين مطالب بالصمود،حتى

---

[١٦] المقريزى:إمتاع الأسماع /جـ١/١٨٩ - الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٤/٣٨٩ ، باشميل :الغزوات الكبرى /جـ٣ /٢٢٨ ،٢٢٩.

يحصلوا على المراد ولا يئوبوا بالعار إلى مضاربهم،مع وفرة أعدادهم ،وعظم أسلحتهم.

٣- فشل التحالف بين المشركين واليهود،ذلك الذى لعبت فيه سفارة "نعيم بن مسعود "، دوراً عظيماً كان من العوامل المسبطة لعزيمة المشركين ،وتحمسهم فى قتال المسلمين ،فإنهم رأوا فى بنى قريظة طوق نجاة ينجون به أنفسهم من منع المدينة فى هذا الوقت من ناحية ومن ناحية أخرى،فإن اقتحام المدينة على المسلمين من قبلهم،مع وجود هذه الأعداد الغفيرة يجعل ثمار النصر منهم دانيه،فلما رأوا ذلك بعيد المنال سقط فى أيديهم ،وأيقنوا أن لا جدوى من مقامهم،أمام الخندق،فاهتبلوا فرصة الرياح التى هبت عليهم،فتعللوا بأمرها فى فشلهم الذريع أمام المسلمين الذين حفروا الخندق ،وبذلوا النفيس والرخيص فى سبيل حراسته والدفاع عن دينهم.

٤- النصر الإلهى ذلك الذى رأيناه فى جنود غير مألوفة للبشر ،حيث كانت الرياح والأمطار التى هبت على المكان عامل ذعر فى معسكر المشركين،ولم تفعل ذلك فى أفئدة المسلمين،لأن الله ثبتهم بإيمان قوى ،طمأن به أفئدتهم،فلم يخافوا الرياح ،وثبت به أقدامهم على الأرض، فما برحوا المكان ، بل لم يفكروا فى شئ من ذلك إنتظاراً، لأمر نبيهم، فاستحقوا النصر من ربهم

والجدير ذكره هنا،أن هذه المعجزة التى نصر الله بها المسلمين على الكافرين،تعد جزءاً جديداً من أجزاء الصورة الإيمانية التى أرى الله بها المسلمين لأعدائهم ،فإنهم فى "بدر" كانوا قلة انتصرت على

الكثرة بعد مواجهة،وقعت وهاهم فى يوم الأحزاب كذلك يحرزون انتصاراً على كثرة بدون مواجهة ،وفى الغزوتين ،قد أخذ المؤمنون بالأسباب فأعدوا الخيل ولبسوا الدروع،وما كان أحد من دارس العسكرية،يستطيع القول بأن النصر،سيمشى فى ركاب المسلمين للبون الشاسع بينهم وبين أعدائهم فى موازين القوى المادية،فكانت الغزوتان ترجمة واقعية لقول الله تعالى:[إِنْ يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنَ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُم مِنَ بَعْدِهِ وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ][١٧] ،فقوة الإيمان إذن ،هى التى نصرت المسلمين فى "بدر"، ثم يوم "الأحزاب" ليبقى "بنو قريظة فرادى بين المسلمين،وهم لم ينسوا لهم غدرهم بهم فى أصعب ظروف،ألمت بدولتهم من لدن نشأتها إلى أن جاءها الأحزاب،فكان من الضرورى حسم الأمور بين المسلمين وبين يهودبنى قريظة.

غزوة بنى قريظة

ما كاد النبى والمسلمون يؤوبون إلى المدينة بعد رحيل الأحزاب عنها، حتى تأهبوا من جديد للخروج إلى بنى قريظة.

فيذكر رواة السيرة أن رسول الله -ﷺ-لما اغتسل وتطيب بعد عودته من غزوة الأحزاب جاءه "جبريل" عليه السلام فى صورة "دحية الكلبى "يقول له : يا رسول الله ، ما أسرعتم، ما حللتم؛عذيرك من محارب !عفا الله عنك، أوقد وضعتم السلاح قبل أن نضعه؟فقال

---

[١٧] سورة آل عمران :آية ١٦٠.

رسول الله -ﷺ-نعم،قال:فو الله ما وضعت الملائكة السلاح منذ نزل بك العدو،وما رجعنا الآن إلا من طلب القوم حتى بلغت حمراء الأسد" يعني الأحزاب ،وقد هزمهم الله تعالى،وإن الله تعالى يأمرك بقتال "بني قريظة ،وأنا عامد إليهم بمن معي من الملائكة لأزلزل بهم الحصون،فاخرج الناس].فأمر النبي "محمد" مؤذنة أن يؤذن في الناس:[من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر[١٨]إلا ببني قريظة] فاستجاب المسلمون إليه،وخرجوا من أرجاء المدينة، وقد لبوا النداء، وعقد رسول الله -ﷺ-لواء المسلمين إلى "علي بن أبي طالب" واستخلف على المدينة بن أم مكتوم "، والذي يدقق النظر في الملابسات التي جعلت النبي "محمداً" يبادر بالخروج إلى هذه الطائفة من اليهود ،ولما يسترح المسلمون من عناء الأحزاب بعد،يجد أن رسول الله كان أميل إلى منح أتباعه قسطاً من الراحة قبل الخروج إلى بني قريظة،حتى يردوا عليهم اعتداءهم الذي اعتدوا به على المسلمين ،إلا أن النبي لم يجد مناصا من الإسراع في الخروج إليهم ،حين أمره جبريل عليه السلام بذلك ،ويلوح لنا أن بني قريظة قد استيقنوا من حدوث تلك المواجهة بينهم وبين المسلمين،لما رأوا المشركين،قد حزموا أمتعتهم ،وركبوا رواحلهم قاصدين مضارب إقامتهم،فأنشأوا يلوذون بحصونهم ظانين،بأنها تمنعهم من جيوش

---

(١٨) ابن كثير البداية والنهاية /جـ٤/١١٦، ١١٧- الصالحي:سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٤-باشميل :الغزوات الكبرى/جـ٤/١٣٨،١٣٩.

المسلمين،التى سارت إليها بأمر من رب العاملين ومـــا كـــان بنـــو قريظـــة يضعون فى حساباتهم قط،أنهم سيكونون فـــى مثـــل هـــذا الموقـــف،حيـــن وافقوا على إبرام التحالف مع المشـــركين ذلـــك أنـــهم رأوا فـــى الأحـــزاب قوة كبيرةً،لا تهزم من قبـــل قـــوة المســـلمين الفتيـــة ومـــن ثـــم نقضـــوا العهد،وأمدوا الأعداء بالمؤن،دون أن يعتـــبروا بمـــا كـــان مـــن أمـــر بنـــى النضير مع المســـلمين.

قدَّم رسول الله -ﷺ-"على بـــن أبـــى طـــالب "فـــى نفـــر معـــه علـــى جيوش المسلمين ،فلما وصل "علـــى نصـــب الرايـــة هنـــاك،فـــإذا باليـــهود حيـــن يرونـــه ومـــن معـــــه يتنـــــاولون النبـــــى "محمـــــداً"،بألســـــنة حداد،فذكروه،وأزواجه بأقبح الألفاظ ،فـــترك "علـــىّ" كـــرم الله وجهـــه "أبـــا قتاده" وأسرع آيباً إلى رســـول الله -ﷺ-حتـــى يحـــول بيـــن أذنيـــه وبيـــن سماع هذه الكلمات القبيحة من اليهود،فلما لقبه النبـــى محمـــد أنكـــر عليـــه رجوعه وسأله عن سببه فأبى "علىّ"إخباره بمـــا قالـــه اليـــهود فـــى حقـــه نظراً لحب "علىّ"الشديد لرسول الله -ﷺ- ،مما جعلـــه يعـــف لســـانه عـــن النطق بألفاظ تفوه بها اليهود إكباراً لـــذات النبـــى محمـــد -ﷺ-،فقـــال لـــه النبى محمد :[لِمَ تـــأمرنى بـــالرجوع؟] فكتمـــه مـــا ســـمع ،فقـــال :[أظنـــك سمعت منهم لى أذى] فقال: نعم يا رســـول الله .قـــال:[لـــو رأونـــى يقولـــوا من ذلك شيئاً] فسار رسول الله -ﷺ-"إليهم ،وتقدمـــه"أســـيد بـــن الخضـــير" فقال :يا أعداء الله لا نبرح عن حصنكم،حتـــى تموتـــوا جوعـــاً، إنمـــا أنتـــم بمنزلة ثعلب فى جحـــر فقـــالوا :يـــا بـــن الخضـــير ، نحـــن مواليـــك دون الخزرج ،وخاروا فقال:لا عهد بينى وبينكـــم ولا إلاً ولاذمـــة،ودنـــا رســـول الله -ﷺ-من حصونهم ونادى بأعلى صوتـــه نفـــراً مـــن أشـــرافهم،حتـــى

أسمعهم فقال :(أجيبوا يا أخوة القـردة والخنـازير وعبـدة الطـاغوت،هـل أخزاكم الله،وأنزل بكم نقمتـه؟

أتشتمونني؟! فجعلوا يحلفون ما فعلنا، ويقولون:يـا أبـا القاسـم "مـا كنت جـهولا)(١٩).

وهكذا أصبح بنو قريظة ،في مواجهة مـع المسـلمين الذيـن تحلقـوا حصونهم فحاصروهم خمـس وعشـرين ليلـة علـى أحـد قوليـن،وقيـل خمسة عشر يومـا،كـان المسـلمون خلالـها،يظـهرون لليـهود بسـالة وتصميما على مناجازتهم،حتى ينزلوهم من حصونهم،ومـن ثـم فـإن بنـى قريظة قرروا عقد اجتماع لوجهاء رجالهم،حتى ينظروا فـى مـا حـل بـهم على أيدى المسلمين،بعد نقضهم العـهد معـهم.

بنو قريظة يتشـاورون:-

تجرع بنو قريظة كؤوس الذل والهوان بسـبب طـول لحصـار الـذى ضربـه المسـلمون عليـهم فحـالوا بينـهم وبيـن الاتصـال بحلفائـهم ،فأجـهدهم الحصـار ،وأوصـل أفئدتـهم إلـى حنـاجرهم وأزاغ أبصارهم،فتنادى وجهاء طائفتهم إلى عقد اجتمـاع يتشـاورون فيـه،حـول ما ينبغى اتخاذه من موقـف إزاء المسـلمين.

فلما التأم جمعهم بدأهم "كعب بن أسد "قـائلا :[يـا معشـر يـهود،قـد نزل بكم من الأمر ما ترون،وإنى عارض عليكم خـلالا ثلاثـة،فخـذوا أيـها

---

(١٩) المقريزى: إمتاع الأسماع /١٩١ - الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٦ -محمـد رضا :محمد رسول الله /٢٣٥.

شئتم،قالوا:ما هى؟قال:نتابع هذا الرجل ونصدقه،فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل،وإنه للذى تجدونه فى كتابكم،فتأمنون على دمائكم وأموالكم،وأبنائكم،ونسائكم ،قالوا :لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره،قال :فإذا أبيتم على هذه فهلم، فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابة رجالا مصلتين السيوف،لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه،وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء،قالوا:نقتل هؤلاء المساكين!!؟فما خير العيش بعدهم؟قال:فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت،وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ،فأنزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة،قالوا:نفسد سبتنا علينا،وتحد ث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت،فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ،قال:ما بات رجل منكم منذ،ولدته أمه ليلة"واحدة من الدهر حازما"[٢٠] .

مما تقدم يرى القارئ أن بنى قريظة،لم يرضوا بأمر عرضه عليهم زعيمهم "كعب بن أسد"فقرروا أن يرسلوا إلى رسول الله -ﷺ- رسولا يطلب منه أن يشخص إليهم "أبا لبابه"[٢١] لما بينهم وبين قومه

---

(٢٠) ابن هشام:سيرة النبى /جـ٣/٢٥٤ - ابن سعد:الطبقات الكبرى /جـ٢/٥٦ الجزائرى:هذا الحبيب محمد /٣١٤،٣١٥.

(٢١) ابن عبد المنذر الأنصارى،كان من النقباء يوم العقبة،استخلفه النبى على المدينة فى بدر،ممن حملوا الرايات للفتح المبين سنة،اختلف فى تاريخ وفاته،فمنهم من قال توفى فى

من المخالفات اعتقاداً منهم أنت الرجل،إن جاءهم سيرق لهم،فيلعب ذات الدور الذى سبق "لابن أبىّ"أن لعبه مع بنى قينقاع،فأعفاهم من القتل على أيدى المسلمين،فلما أرسله النبىّ إليهم خرجت للقائه نساؤهم وصبيانهم،واحتفى به رجالهم احتفاءً عظيماً،ولم يدعوا سبيلاً إلا وسلكوه معه،حتى يجعلوه،يرق لهم،ويشفق على حالهم،فيتدخل لدى نبيه محمد -ﷺ- ، ليرفق بهم،ويَصْفَحَ عن جريمتهم التى ارتكبوها فى حق المسلمين فقالوا له:[أنزل على حكم رسول الله،فقال:نعم،وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.قال "أبو لبابه" فما برحت قدماى حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله،قلت:والله لا أقمت بمكان ،عصيت الله فيه،وانطلق على وجهه حتى ارتبط فى المسجد،وقال:لا أبرح حتى يتوب الله علىّ(٢٢)،وظل على حالة تلك ست ليال وقيل إحدى عشرة ليلة حتى خرّ مغشيا عليه وقد شد نفسه برباطه إلى سارية من سوارى المسجد لا تفكه عنه إلا زوجه دبر كل صلاة،ولقد تاب عليه الله والنبى فى بيت"أم سلمة"التى قالت قلت مما تضحك أضحك الله سنك ؟قال : (تيب على أبى لبابه]،فقالت:[سمعت رسول الله -ﷺ-من السحر وهو يضحكً] قالت :أفلا أبْشره يا رسول الله قال:بلى إن شئت قال :فقامت على باب حجرتها-وذلك قبل أن يضرب عليهن

خلافة "على ومنهم من يقول عاش إلى سنة خمسين هجرية. ابن حجر :الإصابة /جـ٤/١٦٨.

(٢٢) ابن الأثير :أسد الغابة /جـ٥/٢٦٨،٢٦٩ - ابن الجوزى:المنتظم /جـ٢/٧٧١.

الحجاب – فقالت :يا أبا لبابة" أَبْشِرْ فقد تاب الله عليك.فقالت:فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله-ﷺ-هو الذى يطلقنى بيده،فلما مّر عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه[٢٣].

وقبل المضى قدماً مع مآل بنى قريظة يحسن بى أن أعرض لعدة تساؤلات أظن أن المصادر الأصيلة فى السيرة النبوية قد أغفلت الإجابة عنها ،وإن ألمعت إلى الإجابة عن بعضها.

ومن هذه التساؤلات ، من أين "لأبى لبابه" العلم بما أشار به إلى بنى قريظة من أن النبى سيذبحهم إن نزلوا على حكمه؟.

ومنها أكانت هناك مدة فاصلة بين موقف "أبى لبابه" وبين نزول يهود قريظة على حكم النبى محمد؟.

وثالثها :يتعلق بالوقت الذى نزل فيه الوحى على النبى محمد بتوبة الله على "أبى لبابه"، فأتساءل أكان ذلك بعد إمضاء حكمه فى بنى قريظة بزمن،أم أن ذلك ،قد كان عقب عودة المسلمين من ديار اليهود إلى المدينة مباشرة؟.

والجواب على الأمر الأول:هو أن رسول الله-ﷺ-لم يسبق له أن قال فى أصحابهِ أنه سيذبح يهود قريظة جزاء على جرمهم قبل أن يشخص "أبا لبابه"إليهم،ومن ثمَّ فإنى أرجح أن الإشارة التى أشار بها "أبو لبابه" إلى بنى قريظة"حين وضع يده على عنقه،كانت بناءً على

---

[٢٣]ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ٢/١٠٦ – أبو زهرة :خاتم النبيين/جـ٢/ ٨٠٦ – أحمد فريد :وقفات تربوية /٢٥٩ .

ما قرأه من آيات الذكر الحكيـــم،حيـــن قـــال الله تعـــالى : (فَمَـــنِ اعتَـــدَى عَلَيكُمْ فَاعتَدُوا عَليه بِمِثْل مَا اعتَـــدَى عَلَيكُـــمْ)أو أن ذلـــك قـــد كـــان بنـــاءً على اجتهاد منه رضوان الله عليه جعلــه يعتقــد أن جزاءهــم علــى عظــم جرمهم ذبح النبى لـــهم.

وآية ذلك ما كان من أمر"سعد بـــن معـــاذ" معـــهم حيـــن جـــاءوا بـــه ليحكم فى أمرهم كما سنبينه،فلو كان النبـــى صـــرح بشـــىء فـــى أمرهـــم نزل فيه وحى من قبل،ما وافق على الإتيان"بسعد بـــن معـــاذ" ليحكـــم فـــى مال بنى قريظـــة".

والجواب على الأمر الثـــانى:إن مـــن يقـــرأ الروايـــات التـــى حوتـــها مصادر السيرة حول مدة حصار بنى قريظة ،يجـــد أن بعضـــها يلمـــح إلـــى أن النبى لم يبعث"أبا لبابه" لليهود إلا بعد أن أخـــذ منـــهم الحصـــار مـــأخذاً شديداً،وأن النبى استبطأ عودتـــه.

فهذا يدلك على أن مدة وجـــيزة،فصلـــت بيـــن ســـفارة "أبـــى لبابـــه" وبين نزول اليهود على حكم "ســـعد بـــن معـــاذ"دارت خَلاَلَـــها المفاوضـــات بين المسلمين واليـــهود،وهـــذه فـــى رأيـــى لا تجـــاوز اليـــوم أو اليوميـــن فتكون سفارة "أبى لبابه" والحالة هذه إلى بنـــى قريظـــة" قـــد وقعـــت بعـــد انقضاء ثلاثة "وعشرين يوماً على حصـــار المســـلمين لليـــهود ،فـــإذا مـــا ولينا الوجه شطر التساؤل الثالث وجدنـــا الروايـــات تختلـــف فيمـــا بينـــها حول المدة التى مكثها "أبو لبابة" مقيـــداً، فمنـــها مـــن ذكـــر أن ذلـــك ظـــل ستة أيام بلياليها،ومنها ما زاد المدة فجعلـــها أحـــد عشـــر يومـــاً بلياليـــها

فتكون التوبة على "أبى لبابه" قد نزلت على النبى محمد -ﷺ- بعد انقضاء أربعة أيام على عودة المسلمين إلى المدينة،على أساس ترجيحي للقول الأول،لأن الروايات التى تناولت أمر "أبى لبابه" ذكرت أنه كان حديث المسلمين مع سيد المرسلين بعد عودتهم إلى المدينة،وأن أَمَرَهُ فيهم قد اشتهر،وكان عبرة لمن يعتبر،فالمدة التى رجحنا مكثه فيها مقيداً كافيةً لتحقيق تلك الغاية،نظراً لأن الرجل قد صدقت توبته لربه ومن كان كذلك عجل الله بقبول توبته،والعفو عن زلته التى لم يتعمد فعلها، فلام نفسه لوماً شديداً فهذا مما جعلنى أقول بالحد الأدنى بالنسبة للمدة التى مكثها فى المسجد مُقَيَّداً ؛وسواء أصح ما ذهبت إليه،أم لم يصح فإن بنى قريظة،لما أخفقوا فى تحقيق مأربهم من سفارة "أبى لبابه" لم يجدوا مناصاً من النزول على حكم الرسول -ﷺ-.

حكم الله فى بنى قريظة

لما رأى الأوسيون ما فيه حلفاؤهم من بنى قريظة من الضيق،وما بهم عليه من الآمال التى عقدوها على التوسل لهم لدى رسول الله،أتى الأوسيون النبى محمداً،فقالوا له :يا رسول الله حلفاؤنا دون الخزرج وقد رأيت ما صنعت ببنى قينقاع بالأمس ،وقد ندم حلفاؤنا على ما كان من نقضهم العهد فهبهم لنا،ورسول الله ساكت لا يتكلم،حتى أكثروا عليه،وألحوا،ونطقت الأوس كلها،فقال رسول الله -ﷺ-(أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم؟)قالوا:بلى،قال:

(فذلك إلى سعد بن معاذ)،فخرجت الأوس حتى جاءوه،فحملوه على حمار،وكان رجلاً جسيماً فخرجوا حوله،يقولون يا أبا عمرو،إن رسول الله -ﷺ-،قد ولاك أمر مواليك،لتحسن فيهم فأحسن ، وهو لا يتكلم حتى إذا أكثروا عليه فقال قد رأيتم "ابن أبى وما صنع فى حلفائه وأكثروا من هذا قال "سعد" قد آن لى ألا تأخذنى فى الله لومة لائم ،وأقبل "سعد"إلى رسول الله -ﷺ-فقال له :احكم فيهم يا "سعد" فقال الله ورسوله أحق بالحكم ،قال:قد أمرك الله أن تحكم فيهم ، فقال : سعد "عليكم عهد الله وميثاق أن الحكم فيهم ما حكمت ؟، قالوا:نعم، فقال "سعد" إنى أحكم فيهم أن يقتل كل من جرت عليه الموسى،وتسبى النساء،والذرية،وتقسم الأموال،وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار،فقالت:الأنصار:إخواننا كنا معهم،فقال: أحببتُ أن يستغنوا عنكم "فقال رسول الله-ﷺ- . [لقد حكمت فيهم بحكم الله الذى حكم به من فوق سبع سموات][٢٤] .

فلم يجد بنو قريظة سبيلاً إلا النزول على حكم"سعد بن معاذ"فأمر النبى برجالهم،فساقهم المسلمون إلى المدينة حتى كان يوم تنفيذ

---

[٢٤] ابن كثير :البداية والنهاية /جـ٤/١٢١،١٢٢ ، ابن حجر:الإصابة /جـ٢/٣٧،٣٨. - الصالحى :سبل الهدى والرشاد جـ٥/١٠: ١١ - الجزائرى:هذا الحبيب محمد /٣١٨ بركات أحمد :محمد واليهود /١٣١،١٣٢.

الحكم فيهم،فحفر المسلمون خنادق تكون مقـــابر جماعيـــة لقتلـــى اليـــهود وكانت رجالهم تأتيه جماعة إثر أخرى لتنفيـذ القتـل فيـــهم.

هكـذا جنـــى بنـــو قريظـــة ثمـــرة خيانتـــهم وغدرهـــم بالمســـلمين ،فـأصبحت ديـــارهم غنيمـــة،لمـــن كـــادوا لـــــهم، وحـــالفوا عليـــهم أعداءهم،فحازها المسلمون،وقســـم النبـــى مـــا بديـــار بنـــى قريظـــة مـــن منقولات وأعيان على المهاجرين بعـــد اســتخراج الخُمـــس منـــها،فكـــانت ألفاً وخمسمائة سيف،وثلاثمائة درع ، وألفـــى رمـــح ، وألفـــا وخمســـمائة ترس وحجفة [٢٥]، وجمالاً كانت نواضح[٢٦]، وماشـــية كثـــيرة،وكـــان لـــهم حُمُر وجرار سكر،فأهريق ذلك كله ولـــم يخمـــس واصطفـــى رســـول الله -ﷺ-" ريحانة بنت عمرو"[٢٧] لنفسه ، فأســـلمت وبقيـت فـــى مالـــه حتـــى توفى عنـــها[٢٨].

---

[٢٥] تطلق الكلمة على الترس إذا كان من جلود الإبل التى ليس فيـــها خشـــب ولا عقـــب والجمع جَحَفٌ . -والمحاجف:المقاتل صاحب الحجفة. - ابن منظور :لسان العـرب مـــادة حجف.

[٢٦] النَّاضِحُ : البعير أو الثوْر أو الحمار الذى يُستقى عليه الماء،والنواضح من الإبل:التى يُستقى عليها ،واحدها ناضح،وقائدها نضّاح ،بن منظور - لســـان العـــرب مـــادة نصـــح جـــ٤/٤٤٥١.

[٢٧] اختلف الرواة فى اسم أبيها فمنهم من قال بنت عمرو بن خنافة، ومنهم من قال بنـــت شمعون بن زيد بن قثامة،ظلت على يهوديتها زمن وهى مملوكة لرســـول الله -ﷺ-حتـــى اعتنقت الإسلام لما عرض عليها النبى-ﷺ-أن ينزوجها ويضرب عليها الحجاب قـــالت يـــا رسول الله: بل تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك فتركها، اختلف فى وفاتـــها فذكـــر بعضهم إنها توفيت سنة عشره هـــ عندما رجع رسول الله من حجة الوداع ومنهم من قال

وهكذا رأى القارئ الكريم أطفال اليهود والنساء لم يمسسهم أذىً ،لأن هؤلاء ليسوا من أهل الحرب،وأمرهم إلى غيرهم،فلا يتحملون والحالة هذه وزر الجرم الذى اقترفه العائلون لهم.

فقد ذكرت كتب السيرة أن النبى -ﷺ-لم يقتل من نساء اليهود سوى امرأة واحدة، أقدمت بنفسها على ارتكاب ما استوجب قتل المسلمين لها هى بنانة التى استجابة لرغبة زوجها للنيل من المسلمين فقامت من أعلى بيتها بطرح رحى على "خلاد بن سويد" فقتلته،فاستحق أجر شهيدين كما قال رسول الله-ﷺ- ، فكان قتلها ،كما رأينا قصاصاً للصحابى الجليل[٢٩].

ومع ذلك رأينا غير واحدٍ من المستشرقين ،ومن ظاهرهم من بعض رجالات المسلمين الذين تأثروا بآرائهم يقولون :إن ما قام به المسلمون من قتل يهود بنى قريظة أمر،يجافى ما عرف عنهم من السماحة والصفح عن الأعداء ،حين يتمكنون منهم ،لأنهم قتلوهم،وهم أسرى،والأسير مسلوب الدفاع عن نفسه فلا يقتل[٣٠].

إنها عاشت بعد وفاة النبى -ﷺ-من ابن الأثير : أسد الغابة جـ٦/صـ١٢٤ - ابن حجر : الإصابة جـ٤/صـ٣٠٩.

[٢٨] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك /جـ٢/٥٨٥ ، ٥٩١ - ابن سعد :الطبقات الكبرى /جـ٢/٥٧ ، ابن الجوزى :المنتظم /جـ ٢/٣١٧.

[٢٩] الحلبى :السيرة الحلبية/جـ٢/١٢٠ - باشميل :الغزوات الكبرى /جـ٤/٢٠٢: ٤٠٤

(٣٠)باشميل :الغزوات الكبرى / جـ٤/٢١٨.

ولا أجد كبير عناء فى تفنيد،مثل هـذه الآراء التـى أغفـل أصحابـها النظر ،فيما كان سيقع،ويحل بالمسلمين ،لو لم تنجـح سـفارة "نعيـم بـن مسعود "،فى فصم عُرى التحـالف بيـن اليـهود والمشـركين ،وهـو فـى اعتقادى ،لو تم لأدى إلى سـبى النسـاء وهتـك الحرمـات وقتـل مئـات الرجال وخراب الديـار.

وعلى الجملة،فإنه تدمـير للحـرث والنسـل ،فـأى رحمـة؟بـل أى شفقة؟ يطلبها المرء من رجال كانوا علـى شـفا الهلكـة،بسـبب تحـالف آخرين،مع أعداء،قدموا المدينة ناقضين بذلك العـهود المبرمـة،تلـك التـى كان المشركون الوثنيـون،يحـافظون عليـها،إذا مـا أعطوهـا لغـيرهم!!؟ فما بالنا واليهود أهل كتاب،حَسْبُهُمْ دينهم علـى التمسـك ،بعـهودهم،فكـان نقضهم لها يسـتوجب، عقابـاً مغلظـاً لتعريضـهم إخوانـهم للـهلاك مـن ناحية، ومخالفتهم لتعاليم دينهم من ناحيـة أخـرى .

ولا يستقيم قول مـن قـال : إنـهم أسـرى ،والأسـير لا يقتـل،لأن هؤلاء لم يكونوا كذلك ،إذ لـم يسـلموا أنفسـهم للمسـلمين ،إلا ورجالـهم يعلمون ما هية الحكم الذى حكم بـه عليـهم "سـعد بـن معـاذ"ومـن ثَـمَّ انتفت عنهم صفة الأسَارىَ،ونعتوا بصفـة أخـرى،وهـى الاستسـلام لمـن بيدهم تنفيذ الحكم الصادر فى حقـهم.

يضاف إلى ما تقدم أن الرسـول-ﷺ- ،لـم ينفـذ القتـل فـى رجـال بنى قريظة إلا بناء علـى وحـى نـزل بـه جـبريل الأميـن علـى سـيد المرسلين،يأمره بذلك،فكان الأمر الإلهى موافقـاً لحكـم "سـعد بـن معـاذ" فيهم،فهم إذن حوكموا على جرمهم،بأمر من المولـى جـلا عـلاه ،وهـو لا

يُسأل عما يفعل وصدق الله العظيم القائل فى كتابه الكريم:"فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ"[٣١]وقوله :"ولكم فى القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[٣٢] وعليه فإن ما أوقعه النبى بأمر من ربه كانت الغاية منه أن يكونوا عبرة لغيرهم فلا يعمدوا إلى نقض عهودهم.

وإذا كان رسول الله "ص" قد سار إلى بنى قريظة لرد اعتدائهم على المسلمين فإنه -ﷺ-لماَّ عاد إلى المدينة أنشأ يعد العُدة لنيل وتر شهداء المسلمين فى يوم الرجيع الذين أسلفنا الحديث عنهم،فكانت غزوته ﷺ-بنى لحيان.

سرية بنى لحيان

اختلف رواة السيرة حول التاريخ الذى خرج فيه النبى محمد -ﷺ-من المدينة إلى "بنى لحيان" فابن هشام" يجعل ذلك فى ربيع الأول سنة ست من الهجرة،بينما يذكر غيره أنها كانت فى جُمَادى الأولى من العام المذكور،بعد ستة أشهر[٣٣] انقضت على حكم الله فى بنى قريظة،ولأن النبى محمداً لم يُرِدْ من خروجه هذا إلا ترويع هؤلاء الناس بسبب غدرهم بأصحابه فى يوم الرجيع فإنه لم يأخذ معه من المسلمين سوى مائتى رجل من المهاجرين والأنصار،فخرج بهم من المدينة وهو يُعَمِّى مقصده على أولئك الذين سألوه عن وجهته،فأوهمهم بأنه يريد الشام حتى يأمن" بنو لحيان" على أنفسهم

---

[٣١] سورة البقرة: آية ١٩٤.

[٣٢] سورة البقرة :آية ١٧٩.

[٣٣]ابن هشام :سيرة النبى جـ٣/٣٢١.

،فيتمكن المسلمون من مباغتتهم ،ونيل وتر إخوانهم منهم فسار الرسول إلى مضارب القوم عبر طريق غير مألوف فيه السير إليهم،حتى نزل عند بطن غُرَان ،(واد من أودية بلادهم وهو بين أمج وعسفان)،حيث كان مصاب أصحابه،فترحم عليهم ودعا لهم وسمعت "بنو لحيان"،فهربوا في رؤوس الجبال.فقال رسول الله -ﷺ-لو أنا هبطنا عسفان لرأت قريش أنا قد جئنا مكة "فذهبوا إليها ليداخل أهل مكة الرعب،فبعث عشرة فوارس على قول إلى كُراع الغميم لتسمع به قريش،ثم رجع إلى المدينة،وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة[٣٤]

وعلى الرغم من أن رسول الله -ﷺ-لم يلق حرباً في هذه السفرة إلا أن ما ترتب عليها من نتائج كان له عظيم الأثر،فإنها جعلت "بنى لحيان"،والبطون والعشائر المحيطة بهم يستيقنون من تنامى قوة المسلمين،وأن نبيهم لن يفوّت موقفاً غَدَر فيه الأعداء بأتباعه حتى يقتص منهم، ولا مِراء من أن أخبار هذه الغزوة،قد وصلت إلى مسامع المكيين ، وأنهم علموا بأمر الرجال الذين سَيرهم النبى محمد إلى تخوم بلادهم.

وهذه هي الأخرى كفيلة بنشر الذعر بين المكيين،وإعلامهم بأنه ما تزال فى المسلمين قوة كبيرة،بعد الأحزاب،هذا من ناحية ومن ناحية أخرى،فإن هذه الثلة المؤمنة التى وصلت إلى مقربة من مكة ،أسهمت فى زعزعة السيادة القرشية،بين القبائل والعشائر والبطون

---

[٣٤] الطبرى:تاريخ الرسل والملوك /جـ٢/٥٩٥ - ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ٢/١٢٤ -أبو شهبه : السيرة النبوية /جـ٢/٣٢٢.

المجاورة لمكة،فكانت بمثابة بدايــة لمرحلــة جديــدة مــن مراحــل جــهاد المسلمين ،فيها خرج الجند المؤمنون إلى مضــارب أعدائــهم لقتالــهم فــى ديارهم،حتى لا يدعوا لهم فرصةً للتجمع من جديــد كــى يــأتوا المدينــة ، فيقاتلوا من بــها مــن أتبــاع "محمــد" -ﷺ- ، فكــانت حــرب المســلمين لأعدائهم حرباً وقائية على حــد تعبــير رجــالات الحــروب فــى عصرنــا الحــاضر.

وخير مثال لــهذه الحــروب الوقائيــة الغــزوة التــى غزاهــا النبــى محمد -ﷺ-لبنى المصطلــق.

غزوة بنى المصطلــق[٣٥]

أجمع علماء السيرة على أن خروج النبى محمــد فــى شــعبان ســنه ست من الهجرة،إلى بنــى المصطلــق،قــد كــان مــن بــاب الدفــاع عــن النفس،فإن رسول الله -ﷺ-علــم أن هــؤلاء جمعــوا جموعــهم،وحشــدوا حيولهم،ليقصدوا رسول الله فى المدينة،حتــى يســتأصلوا شــأفته ليُحققــوا ما عجزت قريش ومن معها عن تحقيقــه فــى يــوم الأحــزاب ولــم يشــأ النبى "محمد" المبادرة بالخروج إليهم إلا بعد أن يقــدم بيــن يــدى رجالــه عيناً توقفه على أخبارهم ومدى جديــة اســتعدادهم فــى قصدهــم المدينــة

---

[٣٥]غزوة بنى المصطلق،بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وبكســر الــلام بعدهما قاف مُفتعِل من الصّلق وهو رفع الصوت وهو لقب ،لبطن مــن بنــى خزاعــة. - الصالحى:سبل الهدى والرشاد

جــ٤ صــ٣٥٥ ،ولسان العرب مادة صلق.

لمقاتلة قاطنيها من المسلمين[٣٦]،فأرسل "بُريدة الأسلمى" لهذه الغاية ،فاستأذن رسول الله -ﷺ-أن يقول :فأذن له،فخرج حتى ورد عليهم ماءهم،فوجد قوماً مغرورين قد تألبوا وجمعوا الجموع فقالوا:مَنْ الرجل ؟ قال:رجل منكم ،قدمت لما بلغنى عن جمعكم لهذا الرجل،فأسير فى قومى ومن أطاعنى ، وقال يريده أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومى ، فسروا بذلك منه ،ورجع إلى رسول الله -ﷺ-فأخبره خبر القوم ،فندب رسول الله -ﷺ-الناس وأخبرهم خبر عدوهم[٣٧]

فخرج النبى محمد -ﷺ-فى جيش،انضم إليه كثير من المنافقين الذين طمعوا فى الغنيمة نظراً لقرب مضارب القوم،فلما وصل المسلمون إلى "بنى المصطلق،وهم بطن من خزاعة دارت بين الفريقين مراشقة بالنبال بين الفينة والفينة، تقدمت نشوب القتال بشكل متسع ذلك الذى جعل سيوف المسلمين تحصد رؤوس المشركين،فلما قتل المسلمون منهم العدد الغفير،وجد بنو المصطلق أن الهزيمة حلت بهم،وأنه لا جدوى من استمرارهم فى القتال،فبادر

---

[٣٦] السمهودى:وفاء الوفا /جـ١/٣١٤ - المقريزى :إمتاع الأسماع /جـ١/١٦٠،١٦١ - أحمد فريد :وقفات تربوية/٢٧١.

[٣٧] الطبرى:تاريخ الرسل والملوك:جـ٢/٦٠٤ ، الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٤/٣٤٤.

معظمهم إلى تسليم أنفسهم،فكانوا نساءاً ورجالاً ما بين مأسور،أومسبىّ أو مقتول أو جريح.

فكانت غنيمة النبى محمد -ﷺ-ومن معه فى الغزوة كبيرة،إذا ما قارناها بغنائم المسلمين فى الغزوات السابقة،.

وهكذا حقق الجيش الإسلامى الانتصار عليهم،ذلك الانتصار الذى كان مَجْلباً للسعادة للمسلمين،وفاتحة خير على المشركين الذين خاضوا هذه الحرب فإن النبى محمداً-ﷺ- لما بنى بابنه سيد بنى المصطلق "جويرية" مَنَّ المسلمون على بنى قومها،فأطلقوا سراحهم،ولم يسترقوا أحداً منهم إكراماً لنبيهم "محمد" -ﷺ-فأقبل "بنو المصطلق" على الإسلام ،وأصبحوا من دعاته العاملين على نشره المدافعين عنه[٣٨].

وترتبط بهذه الغزوة،حادثتان على جانب كبير، من الأهمية، هما موقف "عبد الله بن أبى "زعيم المنافقين من المسلمين،خلال تلك الغزوة،وحادثة الإفك التى كان المنافقون أيضاً ممن روجوا لها ،لينالوا بها من مكانة النبى ،وأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

فبالنسبة للحادثة الأولى،فإن ابن أبُى "اهتبل فرصة وجود نزاع بين رجل من الأنصار وآخر من المهاجرين على غرار تلك المنازعات الحياتية العادية،التى نراها تحدث بين أبناء الأسرة الواحدة فى البيت الواحد ،فتدخل فيه،ليبعث به عشبيه جديدة ،أماتها الإسلام،فيستغلها،ليجد بها سبيلاً يعيد به سلطانه ،الذى ضاع بقدوم

---

[٣٨] ابن الأثير:الكامل /جـ٢ / ١٩٢: ١٩٤- عبد العزيز الشناوى :نساء الصحابة /١٠٢.

النبى المدينة ،ذلك أن سقاة المــاء فــى الجيــش الإســلامى حيــن قدمــوا مكان الماء تزاحموا عليه،فأحدث ذلك شــجاراً بيــن رجــل مــن الأنصــار يسمى "سنان الجهنى " حليــف بنــى عــوف ، وأجــير لــدى "عمــر بــن الخطــاب يســمى"جــهجاه" فصــرخ "الجــهينى" يــا معشــر الأنصار،وصرخ"جهجاه" يا معشر المهاجرين!فغضــب "عبــد الله بــن أبــى "وعنده رهط من قومه فيهم "زيد بن أرقم"غــلام حديــث الســن فقــال:أقــد فعلوها!قد كاثرونا فى بلادنا!أما والله (لئن رجعنــا إلــى المدينــة ليخرجــن الأعز منها الأزل)ثم أقبل على من حضره من قومه فقــال:هــذا مــا فعلتــم بأنفســكم!أحللتموهــم ببلادكــم،وقاســمتموهم أموالكــم!والله لــو أمســكتم عنهم،ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم،فمشى بذلك،زيــد بــن أرقــم"إلــى رسول الله -ﷺ-وذلك عنــد فــراغ رســول الله-ﷺ-مــن عــدوه فــأخبره الخبر وعنده"عمر بن الخطاب"فقال:مر به "عبادة بــن بشــر"فليقتلــه،فقــال رسول الله-ﷺ-فكيــف يــا "عمــر"إذا تحــدث النــاس بــأن محمــداً بقتــل أصحابــه؟

فأذن النبى -ﷺ-بالرحيل فى وقــت ،لــم يكــن القــوم توقعــوا ذلــك منه،ولا استعدوا لــه.

فأنشأوا يتساءلون عن الســبب الــذى جعــل النبــى محمــداً،يعجــل برحيلهم،فوقف بعضهم على جلية الأمر،فلما سمع"عبــد الله بــن أبــى"بمــا دار على ألسنة الناس، من أقوال قالها فى حــق النبــى والمــهاجرين فــزع فزعاً شديداً وأسقط ما فى يده،فحاول تدارك الأمر،لينقــذ نفســه ممــا وقــع فيه،فسار إلى رسول الله-ﷺ-منكراً مــا نســبة إليــه "زيــد"وغــيره مــن أقوال،قالها فلم يجبه النبى أما ولده "عبد الله بن عبــد الله بــن أبــى "فإنــه

جاء النبى محمدا فقال له :إنه قد بلغنى أنك تريـــد قتـل أبـى،فيمـا بلغـك عنه،فإن كنت فاعلا،فمرنى،فأنـــا أحمـل لـك رأسـه،فـوالله لقـد علمـت الخزرج،ما كان بها رجل أبـر بوالـده منـى ،إنـى أخشـى أن تـأمر بـه غيرى فيقتله، فأقتل مؤمنا بكافر،فأدخل النـار،فقـال رسـول الله -ﷺ-بـل نترفق به،ونحسن صحبته ما بقـى معنـا[٣٩].

ومن هذا الموقف العظيم الذى وقفه الولد مـن والـده،وإجابـة النبـى محمد -ﷺ- ، يستطيع القارئ الوقوف على معـالم سياسـة النبـى محمـد -ﷺ-فى أصحابه ،فقد أبى رسول الله -ﷺ-أن يقتـل واحـدا مـن وجـهاء الخزرج وهو فى الغزوة،حتى لا يدع مجالا لمروجـى الفتـن كـى ينشـروا سموم فتنهم بين أفراد المجتمع المسـلم ،مـع يقيـن النبـى محمـد -ﷺ- بنفاقه ، فهو بهذا قد جعل من الخزرجين وغـيرهم رقبـاء علـى "عبـد الله بن أبى "يكبحون جماحه كلما هم بأمر فيـه نفـاق.

ومن ثم فإن سياسة رسـول الله-ﷺ-مـع الرجـل جنبـت المجتمـع الإسلامى بالمدينة شرور زعيم المنافقين من ناحيـة،ومـن ناحيـة أخـرى زادت من حب الخزرجيين لرسول الله،الـذى كـان يقـدم العفـو علـى مـا عداه والذي يدلك على أن هذه السياسة الحكيمـة،آتـت ثمارهـا المرجـوة ،ما قاله النبى محمد-ﷺ- "لعمر" وكأنـه يعلمـه كيـف يسـوس المجتمـع فى مثل هذه المواقف الصعبة"؟: كيف ترى يا عمـر ؟أمـا والله لـو قتلتـه

---

[٣٩] ابـن الأثـير :الكـامل /جـ٢/١٩٢،١٩٣. -ابـن سـيد النـاس:عيـون الأثـر /جـ٢/١٣٦،١٣٧. - البوطى ،فقه السيرة /٢١٦.

يــوم قلــت لــى لأرعــدت لــه آنــف لـــو آمرتـــها اليـــوم بقتلـــه لقتلته!!)،فقال"عمر"قد والله علمــت ،لأمــر رســول الله-ﷺ-أعظــم بركــة من أمــرى!!(٤٠)

ولا يفــوت المــرء ،وهــو بصــدد اســتنباط النتــائج،مـــن هـــذا الموقف،الإشارة إلى الرحمة العظيمة التى عــرف بــها النبــى محمــد-ﷺ- بين الناس ،تلك التى رآها القارئ فى حســـن إجابتــه علــى"عبــد الله بــن عبد الله بن أبى"الذى أعلى حب النبى علـــى حبــه لوالــده فــإن الصحــابى الجليل الذى كان مثل غيره مـــن الأنصــار،لا يعنيــهم مــن دنيــاهم إلا أن يحظوا برضا الله وحب النبـــى محمــد -ﷺ-.

وبالنسبة للحدث الثانى الذى ارتبـــط بغــزوة بنــى المصطلــق فــهو تلك الفرية التى أراد بها المنـــافقون،طعــن النبـــى محمــد-ﷺ-فــى أهــل بيته،فيروى غير واحـــد مــن رجــالات الســيرة والحديــث عــن الســيدة عائشة أن رسول الله-ﷺ-عندما كــان يريــد الخــروج مــن المدينــة إلــى السفر أو الغزو،يستدعى نساءه ليقـــرع بينـــهن،حتـــى يتبيـــن مـــن تكـــون منهن مرافقة له فى سفرته أو غزوته،فلما كان وقـــت خروجـــه إلـــى بنـــى المصطلق،أصابت القرعة أم المؤمنين عائشـــة،التـــى قـــالت:خرجــت مــع النبى محمد بعدما أنزل الحجاب،فأنا أحمل فى هودجـــى،وأنـــزل فيـــه،حتـــى إذا فرغ رسول الله-ﷺ-مـــن غزوتـــه تـــلك،وقفـــل ودنونـــا مـــن المدينـــة قافلين،أذن ليلة بالرحيل ، فمشيت،حتـــى جـــاوزت الجيـــش،فلمـــا قضيـــت

---

(٤٠) لطبرى:تاريخ الرسل والملوك /جـ٢/٦٠٨،٦٠٩. -أبـــو شـــهبه :الســـيرة النبويـــة /جـ٢/٢٥٧.

شأنى،أقبلت إلى رحلى فإذا عقد لى من جزع ظفار،قد انقطع،فالتمست عقدى وحبسنى ابتغاؤه،وأقبل الرهط الذين كانوا،يرحلون بى ،فاحتملوا هَوْدجَى،فرحلوه على بعيرى الذى ركبت ،وهم يحسبون أنى فيه،وكان النساء إذ ذاك خفافاً،لم يثقلهن اللحم،إنما يأكلن العُلقة من الطعام،فلم يستنكر القوم خفة الهودج،حين دفعوه،وكنت جارية حديثة السن،فبعثوا الجمل وساروا،فوجدت عقدى بعدما استمر الجيش،فجئت منازلهم،وليس بها داع ولا مجيب،فأقمت منزلى الذى كنت فيه،وظننت،أنهم سيفقدونى،فيرجعون إلىّ،فبينما أنا جالسة فى منزلى،غلبتنى عينى،فتمت،وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذاكونى[٤١] ،من وراء الجيش،فأدلج،فأصبح عند منزلى،فرأى سواد إنسان نائم،فآتانى،فعرفنى حين رآنى،وكان يرانى قبل الحجاب ،فاستيقظت،باسترجاعه حين عرفنى،فخمرت وجهى بجلبابى والله ما يكلمنى،ولا أكلمه،وما سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته،فوطئ على يدها،فركبتها،فانطلق بى يقود الراحلة،حتى آتينا الجيش بعدما نزلوا،موغرين فى نحر الظهيرة ،فهلك من هلك [٤٢].

---

[٤١] قال البغوى إنه ممن سكنوا المدينة المنورة وإنه شهد مع رسول الله-ﷺ-الخندق على قول،وقيل كانت غزوة المصطلق أولى مشاهده.روى صفوان حديثاً عن رسول الله -ﷺ- أخرجه بن حبان،اختلف فى تاريخ وفاته،فقيل توفى زمن عمر بأرمينية سنة تسع عشرة وهو فى جهاده للروم،وقيل إن وفاته.كانت سنة ثمان وخمسين أو ستين بمدينة سميساط. ابن حجر الإصابة :جـ٢/صـ١٩٠ ،صـ١٩١.

[٤٢] البيهقى :دلائل النبوة /جـ٤/٦٣ ،٦٤ - ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ٢/١٣٩،١٤٠/السيد عبد العزيز سالم نساء الصحابة /٣٠

فتكلم الناس وخاضوا في حديثي، وقدم رسول الله -ﷺ- المدينة،ولحقني وجع،ولم أر منه عليه السلام ما عهدته،من اللطف الذي كنت أعرفه منه حين اشتكي،إنما يدخل رسول الله -ﷺ-ثم يقول :كيف تيكم؟ثم ينصرف،فذاك الذي يريبني،ولا أشعر بعد بما جرى حتى نقهت،فخرجت في بعض الليالي مع "أم مسطح" لمهم لنا ،ثم أقبلت أنا وأم [٤٣]مسطح "قبل بيتي حين فرغنا من شأننا،فعثرت أم مسطح في مرطها ،فقالت تعس "مسطح".فأنكرت ذلك،وقلت أتسبين رجلا شهد بدرا!،فقالت وما بلغك الخبر!،قلت :وما قال؟فأخبرتني ما قال وما قاله أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي،فلما رجعت إلى بيتي ،ودخل على رسول الله -ﷺ-،فقلت :أتأذن لي أن آتي أبوي ،فأذن لي فجئت أبوي،وقلت لأمي:يا أمه ماذا يتحدث الناس؟،قالت يا بنية هَوني عليكِ،فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها،ثم قالت:ألم تكوني علمت ما قيل حتى الآن؟فأقبلت أبكي،لما علمت ما قبل في ،حتى أصبحت،فدخل على أبي،وأنا أبكي،فقال لأمي:ما يبكيها؟.قالت :لم تكن علمت،ما قيل فيها حتى الآن فأقبل يبكي،ثم قال :اسكتي يا بنية.[٤٤]

---

[٤٣] ابن عباد القرشي المطلبي،توفي سنة سبع وثلاثين للهجرة ابن الأثير:أسد الغابة /جـ٤/٣٦٤.

[٤٤] الألوسي : روح المعاني:جـ١٨/١٢٠،١٢١. / الزمخشري:الكشاف /جـ٣/٢١٧،٢١٨ - الرازي تفسيره/جـ ٢٣/١٧٦.

كان من الطبعى أن يضيق صدر النبى محمد بسبب ما قاله المنافقون عن "عائشة"،مثلما كان يحدث له وهو بمكة عندما آذاه المشركون بالقول والفعل،فاستدنى إليه "أسامة[٤٥]بن زيد" ثم "عليا" ليستشيرهما فى أمر أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليهم.

فقال الأول رسول الله -ﷺ-،حين سأله رأيه عما قاله المنافقون فى زوجه (يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا).

وأما الثانى، فقال للنبى لم يضيق الله عليك،والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك،فدعا رسول الله -ﷺ-"بريرة " وسألها عن أمرى،قالت "بريرة" يا رسول الله والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أكثر من أنها جارية حديثة السن،تنام عن عجين أهلها،حتى تأتى الداجن فتأكله[٤٦].

هكذا رأى القارئ "أسامة بن زيد "يعبر بهذا عن رأى المؤمنين فى عفة و طهارة السيدة "عائشة"[٤٧] بشكل فيه ما فيه من البراءة،إذ

---

[٤٥] ابن حارثة بن شراحيل الكلبى،أمه أم أيمن حاضنة النبى ،استعمله الرسول عى الجيش المتوجه إلى بلاد الروم لنيل وتر شهداء مؤتة وسنه ثمانية عشر عاماً على قول من الأقوال،أبى الدخول فى الفتن التى وقعت بين المسلمين بعد النبى،فلم يجرد سيفه على مسلم قط،بسبب أنه رأى غضباً شديداً من رسول الله عليه حين قتل أحد المشركين وهو ينطق بالشهادة على أساس أن نطقه لها كان على سبيل الخدعة حتى ينجو من قتل أسامة له - توفى سنة ٥٤هـ على أحد الأقوال - ابن الأثير :أسد الغابة /جـ١/٩١ -ابن حجر :الإصابة /جـ١/٣١.

[٤٦]ابن كثير :البداية والنهاية /جـ٤/١٦٢ /ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ٢/١٤١ - فتح البارى /جـ٧/٤٩٧.

[٤٧] من الأمثلة التى تدلنا على موقف أم المؤمنين من الإفك ما روى عن "أبى أيوب الأنصارى "رضى الله عنه عندما قال لأم أيوب أما ترين ما يقال ؟،فقالت .لو كنت بدل .. صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءا؟،قال :لا ، قالت:ولو كنت بدل "عائشة " ماخنت

أن أسامة قد كان يبلغ من العمــــر حيــن استشــارة النبـــى أربعـــة عشــر عاماً،ومن كانوا على مثل سنهُ ممن تربوا بمثــل تربيتـــه،فـــإن صدقـــهم لا مرية فيه؟ومن ثم فإنه لا عجب،من استشارة النبى له مــــع صغـــر ســـنة.

يضاف إلى ما تقدم أن الرســـــول -ﷺ-قــد شــغفه حبــه،ورأى فيــه نجابة وحكمة بزّبهما قرناءه،فاق بهما من هـــــم أســبق منـــه،وآيـــة ذلــك توليه النبى وهو يبلغ مـــن العمـــر ثمانيـــة عشـــر عامـــا قيـــادة الجيــش المتوجه إلى الروم،وفى الجند من يفضل أســــامة بمراحــل ســنيه.

مع وضعنا فى الاعتبار،أن أسامة كان أكـــثر الصحابـــة ولوجـــاً إلـــى بيت رسول الله-ﷺ-فرأيه والحالة هذه من الأهميـــة بمكـــان،إذ هـــو يعــبر عن حال زوج رآها مرات عدة وعـــاين مـــن أحوالـــها،مـــا عـــاين ،فقــد شهدها فـــى حزمـــها، وضحكـــها،وفـــى خطابـــها لقريناتـــها مـــن أمـــهات المؤمنين ،والذى يدلنا علـــى أن مـــا ذكرنـــاه،كـــان موضــع اعتبـــار مـــن رســـول الله ،أنـــه استشـــار فيـــه "عليـــاً" بعــد أســـامة ،نظـــراً لأن الأول شارك"أسامة" فى كثير مـــن الصفـــات التـــى ذكرناهـــا، فـــهو ربيـــب بيـــت النبـــوة،يـــأتى النبـــى -ﷺ-فـــى أوقـــات ،جعلتـــه ممـــيزاً عـــــن بقيــــة الصحابة،فلما أدنى النبى "علياً" إليه وبثه مــــا اعتلـــج فـــى صـــدره،بشـــأن أقوال المنافقين عن السيدة "عائشة" أشار عليه إشـــارة ليـــس فيـــها كمـــا زعم البعض[٤٨]إدانة للسيدة "عائشة"أو تلميح باتهامه لـــها بـــل قـــال فيـــها

رســـول الله -ﷺ-،فعائشـــة خـــير منـــى،وصفـــوان خـــير منـــك - الـــرازى- مفـــاتيح الغيب/جـ٢٣/١٧٨

[٤٨] ابن الأثير -أسد الغابة ،جـ١ ،٩١، - ابن حجر: فتح البارى/جـ٧/٥٠١،٥٠٢.

فولا جعل النبى محمداً ينعم براحة عظيمة ذلك كذلـــك ،حيـــن أشـــار علـــى النبى بسؤال "بريرة"فإنها امرأة تعايش الســـيدة "عائشـــة" معايشـــة تجعلـــها أعرف بحالها وأمرها منه،إذ المـــرأة أعـــرف بـــالمرأة ، فكـــانت إجابتـــها على رسول الله موافقة لرأى أسامة وغـــيره مـــن المؤمنيـــن.

ولا يعارض ما ذهبت إليه فـــى تحليلـــى لموقـــف "علـــى" قولـــه: لـــم يضيق الله عليك،والنساء غيرها كثير لأنه وردت أكـــثر مـــن روايـــة حـــول قول على للنبى غير تلك التى أسلفت ذكرها،فإن إحداهـــا تذكـــر عـــن علـــى أنه قال للنبى:يا رسول الله -ﷺ-(قد قال الناس ،وقد حـــل لـــك طلاقـــها)

فى حين أن دولية أخـــرى تقـــول :إن عليـــاً ضـــرب بديـــره وقـــال : اصدقى رسول الله -ﷺ- دون أن تشير إلـــى قـــول قالـــه "علـــى بـــن أبـــى طالب" للنبى فى حق "عائشة "رضوان الله عليـــها،ومـــن ثـــمّ فعلـــى فـــرض تســـليمنا،بـــأن عليـــاً قـــال للنبـــى مـــا قالـــه فـــى حـــق عائشـــة مـــن التطليق،واستبدال غيرها بها،فإن هذا كما يقـــول الألوســـى ينســـحب علـــى أن عليا أراد (أن يسرى عن رســـول الله -ﷺ- مـــا هـــو فيـــه مـــن الغـــم غاية ما فى الباب ، أنه لم يسلك فى ذلك مسلك "أســـامة"،وهـــو أمـــر غـــير متعين،ومن دقق النظر ،عرف مغزى الإمام "علـــى"كـــرم الله وجهـــه[٤٩])

ولعل أعداء "على بن أبى طالب " من الأمويـيـــن،هـــم الذيـــن روجـــوا لفكرة اتهام"على" "لعائشة"،وتحريض النبـــى عليـــها،فعملـــوا علـــى إشـــاعة ذلك بقصد النيل من مكانة ابن أبـــى طـــالب .

فيذكر غـــير واحـــد مـــن أصحـــاب المصـــادر الأصيلـــة،أن الزهـــرى قال:إن "سليمان بن يسار" دخل على "هشام بـــن عبـــد الملـــك "،وهـــو فـــى

---

[٤٩] الألوسى : روح المعانى /جـ١٨/١١٧ - السهيلى الروض الأنف /جـ٤/١١

مجلسة فبادرة الخليفة بسؤاله: يا "سليمان" الذى تولى كبره من هو ؟.قال:" عبد الله بن أبى "،قال :كذبت،هو "على"،قال:أمير المؤمنين أعلم بما يقوله فدخل الزهرى فقال : يا "ابن شهاب" من الذى تولى كبره،قال:"ابن أبّى "،قال : كذبت هو على،فقال:أنا أكذب لا أبا لك،والله لو نادى مناد فى السماء إن الله أحلّ الكذب ما كذبت،حدثنى "عروة" "وسعيد" عن "عائشة" أن الذى تولى كبره "عبد الله بن أبى"(٥٠) .

وعلى كل حال فإن عائشة رضوان الله عليها،ظلت فى بيت أبيها ترجو الفرج لأمرها،فبينما هى كذلك جاءها رسول الله -ﷺ- ، وجلس ، وتقول "عائشة" لم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل قبلها،ولقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى،فتشهد رسول الله -ﷺ-حين جلس،ثم قال:أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا،فإن كنت بريئة فسيبرئك الله،وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله،وتوبى إليه،فإن العبد إذا اعترف بذنبه،ثم تاب إلى الله،تاب الله عليه،فلما قضى رسول الله-ﷺ-مقالته،قلص دمعى،حتى ما أحس منه بقطرة،فقلت لأبى:أجب رسول الله-ﷺ-فيما قال:والله ما أدرى ما أقول لرسول الله-ﷺ- ، فقلت لأمى:أجيبى رسول الله-ﷺ-فقالت:ما أدرى ما أقول لرسول الله-ﷺ- ، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن،والله لقد علمت،لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم،وصدقتم به ،فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا

---

(٥٠) البيهقى :دلائل النبوة /جـ٤/٧٢ - ابن حجر :فتح البارى /جـ٧/٥٠٢.

تصدقونى،والله ما أجد لكم مثـــلا إلا قـــول "أبـــى يوســـف":(فصـــبر جميـــل والله المستعان علــــى مـــا تصفـــون)[٥١] ثـــم تحـــولت،فـــاضطجعت علـــى فراش،وأنا حينئـــــذ،أعلـــم أنـــى بريئـــة،وأن الله مـــبرئى بـــبراءتى،ولكـــن والله،ما كنت أظن أن الله مـــنزل فـــى شـــأنى وحيـــاً،يتلـــى ،ولشـــأنى فـــى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بـــأمر يتلـــى،ولكـــن كنـــت أرجـــو،أن يرى رسول الله -ﷺ-فى النوم رؤيا يـــبرئنى الله بـــها[٥٢].

قالت:فوا لله مـــا رام رســـول الله-ﷺ- ، ولا خـــرج أحـــد مـــن أهـــل البيت،حتى أنزل الله عليه،فأخذه ما كان يـــأخذه مـــن الـــبر حـــاء[٥٣]،حتـــى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يـــوم شـــات، مـــن ثقـــل القـــول الذى ينزل عليه،قالت:فلما سرى عن رســـول الله-ﷺ-ســـري عنـــه،وهـــو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها:يا عائشة!أمـــا والله فقـــد بـــرأك !!.

فقالت أمـــى:قومـــى إليـــه،قـــالت :والله لا أقـــوم إليـــه،ولا أحمـــد إلا الله،وأنزل الله:(إن الذين جاءوا بالإفك عصبـــــة منكـــم)[٥٤].

فلما أنزل الله هذا فى براءتي قال أبـــو بكـــر الصديـــق،وكـــان ينفـــق على "مسطح بن أثاثة" لقرابته منـــه وفقـــرة :والله لا أنفـــق علـــى مســـطح

---

[٥١] سورة يوسف آية (٨٣)

[٥٢] ابن كثـــير:البدايـــة والنهايـــة /جـــ٤/١٦٢ - بـــن ســـيد النـــاس:عيـــون الأثـــر /جـــ٢/١٤٢،١٤٣ - السهيلى:الـــروض الأنـــف /جـــ٤/١٢ - الطيـــب النجـــار:القـــول المبين/جـــ٢٦١.

[٥٣] شدة القرب من ثقل الوحى - ابن منظور - لسان العرب - مادة برح.

[٥٤] سورة النور:الآيات التى نزلت حول هذه الحادثة من الآية رقم (١١،٢٢).

شيئاً أبداً بعد الذى قال "لعائشة" فأنزل الله:(وَلاَ يَــأْتَلِ أُوْلُــواْ الْفَضْــلِ مِنْكُــمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُواْ أُولِى القُرْبَــى وَالمَسَــاكِيْنَ والمُــهَاجِرِيْنَ فِــى سَــبِيْلِ الله وَلْيَعْفُــواْ وَلْيَصْفَحُــواْ أَلاَ تُحِبُّــونَ أَن يَغْفِــرَ الله لَكُــمْ واللهُ غَفُــورٌ رَّحِيْـمٌ).(٥٥)

ولقد أنــزل رســول الله-ﷺ-العقوبــة الشــرعية ببعــض المؤمنيــن الذين تورطوا فى الكلام عن حادثة الإفك وهم حســان بــن ثــابت "وحمنــه بنت جحش" ومســطح.(٥٦)

ولقــد جذبــت حادثــة الإفــك أقــلام البــاحثين،قُدامــى ومحدثيــن فاستلهموا العبر من مواقفها وبينــوا الفــائدة التــى عــادت علــى النبــى والمجتمع المدنى من حدوثــها.

ومن هؤلاء الإمام "ابن القيم" الذى قــال فــى معــرض تعقيبــه علــى القصة:[إن هذا من تمام الحكم الباهرة التى جعــل الله هــذه القصــة ســببا لها،وامتحانــا وابتــلاءً لرســول الله -ﷺ- ، ولجميــع الأمــة إلــى يــوم القيامة،ليرفع بهذه القصة أقواماً،ويضــع بــها آخريــن،ويزيــد الله الذيــن اهتــدوا هــدى وإيمانــا ولا يزيــد الظــالمين إلا خســارا واقتضــى تمــام الامتحان والابتلاء أن حبــس عــن رســول الله-ﷺ-الوحــى شــهراً فــى شــأنها،لا يوحــى إليــه فــى ذلــك شــئ لتتــم حكمتــه التــى قدرها،وقضاها،وتظهر على أكمل الوجــوه، ويــزداد المؤمنــون الصــادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصــدق،وحســن الظــن بــالله ورســوله،وأهــل

(٥٥) سورة النور :آية (٢٢).

(٥٦) ابن الأثير :أسد الغابة /جـ٤/٣٦٤.

بيته،والصديقين مـــن عبـادة،ويـزداد المنـافقون إفكـا ونفاقـا،ويطـهر لرسوله وللمؤمنيـن سـرائرهم،ولتتـم العبودية المـرادة مـن الصديقـة وأبويها،وتتم نعمــة الله عليـهم،ولتشـتد الفاقـة والرغبـه،منـها ومـن أبويها،والافتقار،إلى الله،وحسن الظن به،والرجـاء لـه،ولينقطـع رجاؤهـا من المخلوقين،وتيأس من حصول النصـرة والفـرج علـى يـد أحـد مـن الخلق ولهذا،وفت هذا المقام حقه،لما قال لـها أبواهـا:قومـى إليـه،وقـد أنزل عليه براءتها،قالت:والله لا أقـوم إليـه،ولا أحمـد إلا الله،هـو الـذى أنزل براءتـى.

فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلـة رسـوله،وأهـل بيتـه عنـده، وكرامتهم عليه،وأن يخـرج برسـوله عـن هـذه القضيـة،ويتولـى هـو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه،والرد على أعدائه،وذمـهم وعيبـهم،بـأمر لا يكون له فيـه عمـل،ولا ينسـب إليـه،بـل يكـون هـو وحـده المتولـى لذلك،الثائر لرسوله وأهل بيتـه.[٥٧]

ومن البـاحثين المحدثيـن من ذكـر بعـد عرضـه لتفاصـيل الحـادثة

١- إن فى هذه القصة عزاء وسلوى للعفيفات اللاتى يُرْمَينَ زوراً وكذباً بالفاحشة فهذه الصديقة بنت الصديق ،وزوج الرسول،والمبرأة من فوق سبع سماوات،قد رميت بما هى براءة منه،ومن المنافقين،ومن شايعهم من ضعفـاء الإيمان،ومن قبل رمى اليهود صديقة بنى إسرائيل السـيدة "مريـم" البتـول بالزنا،فما دنس ذلك من شرفها،ولا أنزل من كرامتها عند ربها،بل زادها رفعةً

[٥٧] ابن القيم:زاد المعاد /جـ٣/٢٦٢.

وشرفاً،ولا تزال هذه أتقصه تتكرر على مسرح الحيـــاة،فليكــن للمحصنـــات المؤمنات الغافلات اللاتى لا يسلمن،من قالة السوء فيها،؟عزاء وسلوى.

٢- أدب الصحابة رضوان الله عليهم فى معاملة النساء المســلمات،ولا سيما نساء النبى والمبالغة فى توقى مواطن الريبة والتهمـــة،فقـد ثبـت أن "صفوان" رضى الله عنه.اكتفى بالاسترجاع،حتى استيقظت السيدة عائشة،وفى استرجاعه ما يدل على استفظاعه وأسفه أن تترك زوج النبى فى العراء،ولـم يكلمها قط ،غير أنه سألها عن شأنها،وعرض عليها الركوب،وحين الركــوب أولاها ظهره ولما ركبت قاد بها ولم يسر خلفها.

٣- حَسن معاشرة النبى -ﷺ-لأزواجه، ورحمته بهن وضبــط النفــس حتى فى المواقف التى يستبد بالنفس البشرية فيها الغضب،فتخرج عــن حـد الاعتدال ، فعلى الرغم مما قيل فى "عائشـــة" ممـــا جـــرح القلــب،ويــؤذى النفس،كان يدخل عليها،وهى مريضة،فيسأل عنها،وإن لم تجــد منــه -ﷺ- اللطف الذى كانت تجده منه،حينما كانت تشتكى، وغاية ما يطمع فيه من بشر كريم فى مثل هذا الموقف المؤلم المحير، أن يكظم غيظه ويكف غضبه، أمـــا الملاطفة فأمر خارج عن طوق البشر ولن تكون إلا ممن فقد غيرته وذهبــت من نفسه معالم الرجولة والنخوة[٥٨].

وأضيف إلى ما ذُكر ،أن هذه الحادثة تثبــت بشــرية النبـــى محمــد -ﷺ-فلا يعلم من الغيب إلا ما أراد الله لـــــه،أن يعلمـــه.

ممـــا يؤكـــد كـــذب المنجميـــن فـــى عصرنـــا،الذيـــــن يزعمـــون العلم،بالأشياء قبل حدوثـــها.

---

[٥٨] أبو شهبه :السيرة النبوية/جــ٢/٢٦٥ ،٢٦٦.

كما أن حادثة الإفك،تعلمنا من خلال معالجة النبى -ﷺ-لمواقفها المختلفة ضرورة أن يتأنى الرجل فى اتخاذ قرار حول،ما يسمع،فليس كل ما يقال صدقاً،حتى يكون حكمه على أساس من البراهين،ليجنب نفسه الزلل والندم،على ما أقدم عليه من الأمور ،ليس هذا فحسب،بل إن حادثة الإفك أرتنا رحمة النبى بزوجه،ثم فقراء المؤمنين ذلك كذلك حين رأيناه ،يجهد نفسه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ليعامل السيدة "عائشة" معاملة لا تؤذيها،حتى يتثبت من حقيقة أمرها،وإن كان لا يستطيع ملاطفتها،على غرار سابق حياته معها،لأن صدره كما قلت ضاق بما سمع من المحيطين به فى المدينة من أقوال كانت كفيلة بجعل أعتى الرجال يفقدون صوابهم بدافع الغيرة على عرضهم،لكن هذا الابتلاء قوبل منه-ﷺ-بالصبر وحسن التصرف.

وما توجهاته بعد نزول البراءة إلى أبى بكر الصديق باستمرار الإنفاق على"مسطح" إلا ترجمة حقيقية لرحمة النبى محمد بأتباعه،فلا يعامل من أساء منهم بإساءته بل يقابل ذلك بإحسان إليه،فكانت شيمته العفو والصفح.ومن ثم نعته الله تعالى،بقوله "بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ"(٥٩)

وعلى كل حال فإن المسلمين،لما عادوا من ديار بنى المصطلق ،مكثوا فى المدينة شهرى رمضان وشوال،وقد شغلهم حادث الإفك،فما إن فرَّج الله على النبى وزوجة بإنزال البراءة حتى وجدوا أنفسهم

---

(٥٩) سورة التوبة آية ١٢٨.

أمام حرث لرسول لطالما تمنوه،وودوا لو عاشـــوه لمـــا فيـــه مـــن عـــزة وإعزاز للمسلمين ،ألا وهو أداؤهم لنسك العمـــرة برفقـــة ســـيد المرســـلين فكان يوم عظيم،يوم أن طلع عليـــهم الرســـول،يـــأمرهم بالتجـــهيز للذهـــاب معه إلى مكة لأداء العمرة،فكان ما كان مـــن أمـــر الحديبيـــة[٦٠].

صلح الحديبيـــة

من لدن أمَّ المهاجرون والنبى المدينةِ،وأفئدتـــهم معلقـــة بمكـــة وهـــذا أمر طبعى،فالإنسان،يشده حنين عظيم إلـــى مســـقط رأســـه،يُجعلـــه يعـــود إليه بعد طول نأىٍ فُرِضَ عليه،وذلك ما كان فـــإن البلـــد الأميـــن،قـــد كـــان حديث المهاجرين فى مجالســـهم،وهـــم بالمدينـــة يجـــترون فيـــه ذكريـــات طفولتهم،وحيـــاة شـــبابهم،ومـــا حققـــوه فيـــها مـــن آمالـــهم ،ومـــا لـــم يحققوه،فلما رأى النبى فى منامه أنه دخل مكـــة ، هـــو وأصحابـــه آمنيـــن محلقين رؤوسهم ومقصرين وأنه دخـــل البيـــت ،وأخـــذ مفتاحـــه،وعَـــرف مع المُعَرَّفيـــن [٦١].

---

[٦٠] بالضم ،وفتح الدال،وياء ساكنه،وباء موحدة مكسورة،موقع تـــاريخى يعـــرف اليـــوم بالشميس على طريق القوافل والسيارات من جدة إلـــى مكـــة،وهـــو أقـــرب إلـــى هـــذه الأخيرة،وعنده يتفرع طريق يسير شمالاً إلى وادى فاطمة وعسفان،وبهذا الموقـــع اليـــوم مكان لنزول المسافرين وبالقرب منه مسجد الرضوان أقامه السلطان محمود العثمانى فـــى مكان الشجرة التى قيل أن تحتها جرت بيعة الرضوان. - ابن عبد الحق :مراصد الإطـــلاع /جـ١/٣٨٦ - أحمد عطية الله :القاموس الإسلامى /جـ٢/٥٢،٥٣.

[٦١] الصالحى :سبل الهدى والرشاد جـ٥/٣٣.

استقبل رسول الله الغد،وقد أمــر أصحابــه بالتجــهيز للعمــرة،فغمــر الفرح الجميع،فكان منهم مــن أحــرم بــإحرام الرســول،منـــهم مــن أخــر إحرامه إلى الجحفه، فخرجوا من المدينـــة فـــى مســـتهل ذى القعــدة ســنة ست للهجرة،وقد ضم ركب النبـــى مـــا بيـــن الســـبعمائة إلـــى ألـــف رجـــل وعدد من النسوة ،وقد ساقوا أمامهم من الـــهدى ســبعين بدنـــه.

فلما وقف رسول الله -ﷺ- على علـــم قريـــش بخروجـــه،واســـتنفارها رجالها حتى تتصدى له،سار عـــبر طريـــق غـــير مـــألوف إلـــى أن أنـــاخ الرجال عند الحديبية،وكان الوادي مجدباً،فأرى أصحابـــه آيـــةً مـــن الآيـــات التي أيده الله بها، إذ أعطى رسول الله من كنانتـــا ســـهماً لناجيـــة وأمـــره ان يضرب بها بئرا من بئار الوادي،فجـــاش المـــاء بـــالبئر،حتـــى ضـــرب الناس[١٢] عنه بعطـــن.[١٣].

مما يجدر ذكره هنا،أن نزول النبى فى هـــذا المكـــان،قـــد كـــان بـــأمر من الله،فإن ناقته قد بركت فيه،فقال الناس إنـــها خـــلأت فقـــال النبـــى مـــا خلأت ولكن حبسها حابس الفيل (عـــن مكـــة)[١٤].

ولا شك أن هذه الكلمة من الرسول -ﷺ- تشـــير إلـــى معنـــى كريـــم فطن إليه المسلمون واطمأنت إليـــه نفـــوس كثـــيرة منـــهم،وهـــو أن الله لا

---

(١٢) ابن هشام :سيرة النبى /جـ٣/٣٥٨،٣٥٩،ابن الأثير:الكـــامل /جـــ٢/٢٠٠،٢٠١ - النجار :القول المبين/٢٦٤،٢٦٥.

(١٣) مراده أن الماء الذى انبجس من ضربة السهم سد حاجه الآدميين والإبل إليه فشـــربوا منه مرة بعد مرة. - ابن منظور :لسان العرب - مادة عطن.

(١٤) ابن كثير :البداية والنهاية /جـ٤/١٦٥ - الجزائرى :هذا الحبيب محمد /٣٣٨.

يريد للمسلمين،أن يؤدوا نسك العمرة فـــى هـــذه المـــرة،ومـــن أجـــل ذلـــك حبس الناقة عن المضى إلـــى الكعبـــة،وبذلـــك كـــف أيـــدى قريـــش عـــن المسلمين،كيلا تنتهك حرمات البيت الـــذى أراد الله أن يكـــون بعـــد عـــامين حرماً آمناً،وأن يكون مثابة للمســـلمين مـــن كـــل فـــج،يوطـــدون دعـــائم اخوتـــــــهم فـــــــى ظلالـــــــه الوارفـــــــة .[٦٥]

ويبدو لنا أن مكث رسول الله-ﷺ-فى الحديبيـــة برجالـــه،جعـــل قُريشـــاً فى موقف بالغ الحرج ،فأنشأت،تطرح الخيـــارات،لتتعـــامل معـــها،أتزحـــف إليه برجالها لتجليه عن مكانه،حتى تحافظ علـــى ســـيادتها ؟ أم تفســـح لـــه الطريق إلى مكة، حتى يؤدى نسكه عند البيـــت الحـــرام؟فوجـــد القرشـــيون أن كلا الأمرين سيلحق ضرراً بالغـــاً بســـيادتها،فإنـــها إن أخـــذت بـــالرأى الأول،فسيرت إليهم الرجـــال ليعملـــوا الســـيوف فيـــهم ،وكـــان المســـلمون عماراً ،ليسوا محاربين جلـــب ذلـــك عليـــهم العـــار،ونفّـــر منـــهم العـــرب أجمعيـــن.

وإن هى أخذت بالرأى الثانى،فإن ذلك سيكســـب محمـــداً مزيـــداً مـــن المكانةِ والشهرة بين العرب حين يؤدى ،ما يؤدى،مـــن النســـك فـــى مكـــة تحت سمع وبصر قريش،فـــهى إذن تهابـــه وتعـــترف بـــه وبرجالـــه قـــوة تملك التأثير عليها،وهى أكبر القبائل،فيجعـــل ذلـــك الأمـــر،بعـــض القبـــائل، تخطب ودّ محمد ٍ حتى تتخلص من الســـيادة القرشـــية عليـــها،تلـــك التـــى طال أمرها فيهم،وحتى تُجنـــب قريشـــاً نفســـها هـــذه المحـــاذير ، رأت أن

[٦٥] النجار :القول المبين/٢٦٦.

أفضل سبيل ، تسلكه والحالة هـذه،إرسـالها الرسـل إلـى النبـى والذيـن معه،للوقوف على جلية أمرهم،ومن ثـمّ مفاوضتـهم، حتـى ترفـع قـرش الحرج عن نفسـها.

السفارات بين قُريش والنبى -ﷺ- فـى الحديبيـة

أشخصت قريش أكثر من رسـول إلـى النبـى محمـد -ﷺ- ، فكـان أول رسلها إليه "بديل بن ورقاء الخزاعى"الذى قال لـه:جئنـاك مـن عنـد قومـك "كعـب بـن لـؤى"،وعـامر بـن لـؤى"،قـد اسـتنفروا لـك الأحابيش[٦٦]،ومن أطاعهم،وقد نزلوا أعداد ميـاه الحديبيـة،معـهم العُـوذُ المطافيل والنساء والصبيان،يقسمُون بالله،لا يخلُّـونَ بينـك وبيـن البيت حتى تُبيد خضراءهم فقال رسول الله -ﷺ- :إنـا لـم نـأت لقـتال أحـد ، وإنما جئنا لنطوف بهذا البيت،فمن صدنا عنـه قاتلنـاه،[٦٧]،إن قريشـاً قـد أضَرّتْ بهم الحرب،وأنهكتهم،فـإن شـاءوا مادتـهم مـدة يـأمنون فيـها ،ويخلون فيما بيننا وبيـن

الناس ،والناس أكثر منـهم،فـإن أصـابونى،فذلـك الـذى أرادوا،وإن ظهر أمرى على الناس،كانوا بين أن يدخلـوا فيمـا دخـل فيـه النـاس،أو يقاتلون وقد جَمُّوا [٦٨]،وإن هم أبوا فـوالله، لأجْـهَدَنَّ علـى أمـرى هـذا

---

[٦٦] جماعة انضمت إلى بنى ليث فى الحرب التـى وقعـت بينـهم وبيـن قريـش قبـل الإسلام،وسموا بذلك لشدة اسودادهم،فصاروا بعد ذلك الحلفاء لقريش - ابن منظور :مـادة حبش.

[٦٧] ابن سعد الطبقات الكبرى جـ٢/٧٣،ابن الجوزى المنتظم :جـ٢/٣٤٧

[٦٨] إستراحو أو كثروا - ابن منظور لسان العرب مادة جمم . -الصالحى :سـبل الـهدى والرشاد جـ٥/٤٣.

،حتى تنفرد سالفتى[٦٩]، ولينفذن الله تعالى أمره،فوعى "بديل "مقالة رسول الله،،وقال: سأبلغهم ما تقول،ولما عاد ركبه إلى قريش.

قال لهم :إنكم تعجلون على محمد -ﷺ- ، إنه لم يأت لقتال إنما جاء مُعتمراً،وأخبرهم بمقالة النبى -ﷺ-.

فقال :عروة بن مسعود الثقفى"يا معشر قريش أتتهموننى[٧٠]قالوا: لا فجاء "عروه النبى محمداً فقال له :مثل ما قاله "بديل بن ورقاء النزاعي"،أجابه النبي إجابة على غرار إجابته لسابقه، فلما عادَ عروة" إلى قريش قال لهم:إنى وفدت إلى الملوك "كسرى"وقيصر، والنجاشى "وإنى والله إن رأيت ملكا قط أطوع فيما بين ظهرانيه من "محمد" -ﷺ- فى أصحابه ، والله إن رأيت ملكاً قط ،يعظمه أصحابه ما يعظم "أصحاب محمد" "محمداً"،وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، ولا يتكلم رجل منهم،حتى يستأذن،فإن هو أذن له تكلم،وإن لم يأذن له سكت،وقد عرض عليكم خطة،رشد،فاقبلوها،قد حَزَرْتُ القوم،واعلموا أنكم إن أردتم منهم السيف بذلوه لكم،وقد رأيت قوماً لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعتم صاحبهم والله لقد رأيت معه نساء ما كُنَّ ليسلمنه أبداً على حال،فأروا رأيكم،فأتوه يا قوم،واقبلوا ما عرض عليكم،فإنى لكم ناصح،مع أنى أخاف،أن لا تُنصروا على رُجل أتى زائراً لهذا البيتُ معظماً له،معه الهدى ينحره وينصرف،فقالت فقريش:تتكلم بهذا أبا يغفور ولكن نرده عامنا هذا

---

[٦٩] هى صفحة العنق وهما سالفتان من جانبيه وكَنَّى بانفرادها عن الموت،لأنها لاتنفرد عما يليها إلا بالموت وقيل أراد أن يفرق بين رأسى وجسدى ابن منظور :لسان العرب مادة :سلف.

[٧٠] ابن سعد :الطبقات الكبرى/جـ٢/٧٣- ابن الجوزى :المنتظم /جـ٢/٧٩١.

،ويرجع إلى قابل ،فقال:ما أراكم تعيبكم قارعة،فـانصرف هـو ومـن تبعـه إلى الطـائف[٧١].

أما رسول الله -ﷺ-فانه أزمع على إرسال رسـول مـن لدنـه،حتـى يكون لسان حالة عند المكيين،ويعلمـهم،أنـهم لـم يـأتوا لحـرب،ومـا يريدون من خروجهم هذا إلا الطـواف ببيـت الله الحـرام،فعـرض النبـى على "عمر" أن يكون رسـوله إلـى المكييـن فقـال: يـا رسـول الله إنـى أخاف قريش على نفسى وقد عرفت قريش عداوتى لـها،وليـس بـها مـن بنى عدى من يمنعنى ،وإن أحببت يا رسول الله دخلـت عليـهم،فلـم يقـل له رسول الله -ﷺ-شيئاً،فقال "عمر":يـا رسـول الله ولكنـى أدلـك علـى رجل أعز بمكة منىّ،وأكـثر عشـيرة وأمنـع، وأنـه يبلـغ لـك مـا أردت "عثمان بن عفان"، فدعـا رسـول الله -ﷺ- "عثمـان فقـال: اذهـب إلـى قريش وأخبرهم إنّا لم نـأت لقتـال، وإنمـا جئنـا عمـاراً وادعـهم إلـى الإسلام، وأمره أن يأتى رجالاً بمكـة مؤمنيـن ونسـاء مؤمنـات،فيدخـل عليهم، ويبشرهم بالفتح،ويخبرهم أن الله تعـالى وشـيكاً أن يظـهر دينـه بمكة، حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان. فانطلق "عثمـان " إلـى قريـش فمـر عليهم "ببلدح"[٧٢]فقـالوا:أيـن تريـد فقـال: بعثنـى رسـول الله -ﷺ- إليكم لأدعوكم إلى الإسلام وإلى الله جـل ثنـاؤه ، وتدخلولـوه، وتدخلـون فى الدين كافة،فإن الله تعالى مظهر دينه،ومُعِـزُ نبيَّـهُ، وأخـرى: تَكُفُـونَ، ويكون الذى يلى هذا الأمر منـه غـيركم،فـإن ظَفِـرَ برسـول الله -ﷺ- ، فذلك ما أردتـم، وإن ظفـر كنتـم بالخيـار فيمـا دخـل فيـه النـاسُ أو تقاتلوا،وأنتم وافرون جَـامُّون.

---

[٧١] ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ٢/١٦٤،١٦٥. - الصالحى :سبل الـهدى والرشـاد /جـ٥/٤٣،٤٥.

[٧٢] آخره جاء مهملة والدال قبله ،واد قبل مكة من جهة الغرب - ابن عبد الحق:مراصد الإطلاع ،/جـ١/٢١٧.

إن الحرب قد نهكتكم، وأذهبت الأماثل منكم،وأخرى إن رسول الله -ﷺ-يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد،إنما جاء معتمراً،معه الهدى، عليه القلائد،يَنْحَرُهُ،ويَنْصَرِفُ[٧٣].

ظل " عثمان بن عفان"وقتاً ليس بالقصير ينتقل فيه بين دور وجهاء المكيين يحدثهم،ويحدثونه فلما استبطأ المسلمون عودته ذاعت الأراجيف فى أمره،فظنوا قتله،على أيدى المكيين،فجعلهم ذلك الظن يقبلون على رسول الله -ﷺ-ليبايعوه بيعة تاريخية،تعرف عند مؤرخى السيرة ببيعة الرضوان فيها ألزم المبايعون أنفسهم،بالموت وعدم الفرار ومناجزة المكيين،فأثلج هذا الأمر،صدر سيد المرسلين فكان أول من ضرب على أيدى النبى من المسلمين "أبو سنان الأسدى[٧٤]ومنهم من كان بايع النبى مرات ثلاث،مثل "سلمة بن الأكوع"[٧٥]ولقد سجل هذا الموقف العظيم القرآن الكريم فى قوله تعالى "(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِم فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيهم وَأَثَابَهُم فَتْحاً قَرِيباً)[٧٦].

---

[٧٣] الطبرى:تاريخ الرسل والملوك /جـ٢/٦٢٦،٦٢٧ - الصالحى :سبل الهدى والرشاد جـ٥/صـ٤٦ - أحمد فريد وقفات تربوية/٢٩١.

[٧٤] ابن وهب بن عبد الله بن غنم ،شهد بدراً،توفى بعد بيعة الرضوان - ابن الأثير أسد الغابة/جـ٥/١٥٨ - ابن حجر :الإصابة /جـ٤/٩٥،٩٦.

[٧٥] الزمخشرى:الكشاف /جـ٤/٣٣٩ - ابن هشام :سيرة النبى /جـ٣/٣٦٤،٣٦٥- ابن القيم :زاد المعاد/جـ٣/٢٩١ - هيكل :حياة محمد /٣٧٩ ،٣٨٠.

[٧٦]) سورة الفتح :آية (١٨).

ولم يكن هذا الحدث بـــالأمر العـــابر الـــذى يمـــر بـــه الـــدارس دون الوقوف أمامه لاستنطاقه فـــإن الظـــرف الـــذى وقـــع فيـــه،يجعـــل المـــرء ،يطلق العنان لقلمه، حتى يُجَلى للقـــارئ حـــب المســـلمين لنبيـــهم،وحـــب بعضهم بعضاً فإن ما شـــاع بينـــهم مـــن "قتـــل"عثمـــان" كـــان فـــى شـــهر حرام،وفى بلد حرام،وهو فوق ذلك رسول،والرســـل لا تُقتـــل يضـــاف إلـــى هذا كله،أنه جاء المكيين عقب رجال أرسلوهم،ليقفـــوا علـــى حقيقـــة نوايـــا المسلمين،فهم إذاً خالفوا العرف والإلف، ومن ثـــم أقبـــل المســـلمون علـــى رسول الله -ﷺ-مبايعين له غير مبالين بقلة ما معـــهم مـــن ســـلاح،حيـــث إنهم ما جاءوا الا لعمرة يؤدونـــها.

فهذا كله يؤكد لنا بلا ريب،مدى قوة البنيـــان الـــذى شـــد بـــه "النبـــى محمد"أركان الدولة الإسلامية فكانت رعيته فيـــها كرجـــل واحـــد .

وعلى كل حال فإن أنفس المسلمين،قـــد هـــدأت لمـــا وقعـــت أعينـــهم على "عثمان" وقد عاد إليهم سالماً وبـــدا فـــى الأفـــق أن قريشـــاً،لا تريـــد منازلتهم،بل على النقيض من ذلك،تريـــد مصالحتـــهم.

عقد الصلـــح

لما أزمعت قريش على الصلح،اختارت لإبرامـــه مـــع "النبـــى محمـــد-ﷺ-ســـهيل بـــن عمـــرو"ويبـــدو أن الرجـــل،قـــد عُـــرف بـــالخير بيـــن المكيين،وآية ذلك أن رســـول الله -ﷺ-حيـــن رآه،يقـــدم علـــى المســـلمين قال:أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ،فلمـــا انتـــهى "ســـهيل " إلـــى رسول الله -ﷺ-تكلم فأطال الكلام وتراجعـــا ثـــم جـــرى بينـــهما الصلـــح ، فلمـــا التـــأم الأمـــر -ﷺ- ، ولـــم يبـــق إلا الكتـــاب،وثـــب "عمـــر بـــن

الخطاب"فأتى "أبا بكر" فقال له،[أليس برسول الله؟قـال:بلـى قـال:أو لسـنا بالمسلمين!قال:بلى قال:أو ليسوا بالمشركين!قال بلـى ،قـال:فعـلام نعطـى الدنية فى ديننا]!قال "أبو بكر" يا عمـر "[الـزَمْ غَـرزَهُ فـإنى أشـهد أنـه رسول الله -ﷺ- قال عمر : وأنـا أشـهد أنـه رسـول الله -ﷺ-، فـأتى أشهد أنه رسول الله -ﷺ- ثم آتى الرسول ،فقال لـه :مثـل ذلـك،فأجابـه النبى قائلاً:[أنا عبد الله ورسوله،لن أخـالف أمـره،ولـن يضيعنـى]،قـال :فكان "عمر" يقول: ما زلت أصوم وأتصـدق،وأصلـى،وأعتـق مـن الـذى صنعت يومئذ،مخافة كلامـى الـذى تكلمـت بـه،حتـى رجـوت أن يكـون خـيراً[٧٧].

ولم يكن" سهيل بن عمرو" بالرجل الـذى يمكـن،مفاوضتـه بسـهولة ،فإنه أبى استفتاح كتاب الصلح بالبسملة،ونعـت "النبـى محمـد"بالرسـالة فقـال: لا نعـرف إلا قـول (باسـمك[٧٨]اللـهم)، ولـو كنـا نسلـم لـك بالرسالة،ما خرجنا عليك،فأجابه النبـى محمـد إلـى مـا طلـب،فاسـتبدل البسملة.باسمك اللهم ووافق على كتابة اسمه مجـرداً عـن الرسـالة،علـى الرغم من اعتراض"على"كـاتب الصلـح علـى ذلـك،وإبائـه محـو كلمـه رسول الله،بعد ما كتبت وهذا بلا ريب يدلنا علـى عمـق ودقـة السياسـة التى ساس بها النبى أتباعه فى هذا الظـرف الدقيـق،فلـم يشـأ الوقـوف لأمرين إذ الأول فيه تقديس للمولى عز وجـل ،وإن اختلـف اللفظـان فـى

---

[٧٦] الطبرى: تـاريخ الرسـل والملـوك /جـ٢/٦٣٣،٦٣٤ -ابـن سـعد :الطبقـات الكبرى/جـ٢/٧٤،٧٥_.

[٧٧] ابن عبد البر:الدرر /١٩٣،١٩٤ - ابن الجوزى:المنتظم /جـ٢ /٣٤٨.

الدلالـــــة على ذلك،وضمـــن نافلـــــة القــول الإشــارة إلـــى أن لفــظ "بسم الله الرحمن الرحيم" أكثر إبرازاً لصفتيـــن مـــن صفــات المولـــى جــلّ علاه من اللفظ الذى ارتضى "سُهيل" كتابته فى صـــدر كتـــاب الصلـــح.

ومع هذا فإن النبى وافق على اســـتبداله بلفظـــة "باســمك اللـــهم" أذلا تعارض بين معناها بل بين دلالتـــها وبيـــن الأصـــول التـــى قـــامت عليـــها العقيدة الحقيقيـــة.

وبالنسبة للأمر الثانى فإن رســـول الله -ﷺ-وهـــو الـــذى مـــا ينطــق عـــن الـــهوى،أراه الله انتصـــارات يتلـــوا بعضـــها بعضـــا ، وآيـــات أيـــده بها،فرسالته إذن هى من الظهور والنصــــرة مـــن الله بحيــث لا يضرهـــا أن لا يعترف بها "سهيل بن عمرو" أو المكيون فى هــــذا الوقـــت،لأن مـــا فـــى كتاب الصلح الآتى ذكره من إيجابيات ومواقف أعقبتـــه،تجعــل مـــن تســـليم "النبى" "لسهيل بن عمرو" بما طلب آية أخرى أيـــد الله بـــها نبيـــه ،وليـــس إذعاناً وخنوعاً للمكيين كمـــا فهمـــها إذ ذاك كثـــير مـــن المســـلمين،مثلمـــا رأيناه فى موقف "عمر" عند إبـــرام الصلـــح.

وعلى كل حـــال فـــإن كتـــاب الصلـــح الـــذى أبرمـــه "النبـــى محمـــد "،"وسهيل بن عمرو "نص علـــى الآتـــى:

١- باسمك اللـــهم.
٢- هذا ما صلح عليه "محمد بن عبد الله " "وســـهيل بـــن عمـــرو".
٣- واصطلحا على وضع الحـــرب عـــن النـــاس عشـــر ســـنين،يـــأمن فيهن الناس،ويكف بعضهم عـــن بعـــض.
٤- على أنه من قدم من أصحـــاب "محمـــد" حاجـــاً،أو معتمـــراً،يبتغـــى من فضل الله،فهو آمن على دمه وماله،ومــــن قـــدم المدينـــة مـــن

قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام يبتغى مـــن فضــل الله،فـــهو آمن على دمه ومالــه.

٥- على أنـــه مــن أتـــى محمــداً مــن قريــش بغــير إذن وليـــه رده عليهم،ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يـــرده عليــه.

٦- وأن بيننا عيبة مكفوفة[٧٩]،وإنـــه لا أســلال ولا إغــلال[٨٠].

٧- وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعـــهده دخـل،ومــن أحـب أن يدخل فى عقد قريش وعـــهدهم دخــل فيــه،فتواثبــت خزاعــة فقالوا:[نحن فى عقد محمد وعـــهده]،وتواثبــت بنــو بكـر فقــالوا :نحن فى عقد قريش وعـــهدهم.

٨- وأنت ترجع عنا عامك، هذا،فلا تدخـــل علينـــا مكـــة،وأنـــه إذا كـــان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فـــأقمت بـــها ثلاثـــاً معـــك سلاح الراكب السيوف فى القرب،ولا تدخلـــها بغيرهـــا.

٩- وعلى أن هذا الهدى حيث ما جئناه ومحله فـــلا تقدمـــه علينـــا.

١٠- أشـــهد علـــى الصلـــح رجـــالاً مـــن المســلمين،ورجـــــالاً مـــــن المشركين،هم "أبو بكر الصديـــق،"وعمــر بــن الخطـــاب"، "وعبـــد الرحمن بن عوف" و "عبد الله بن سهيل بن عمـــرو"، "وســـعد بـــن أبى وقاص"، "ومحمود بن مســـلمة[٨١].

---

[٧٩] معناه أن بيننا وبينهم فى هذا الصلح صدراً معقوداً على الوفاء بما فى الكتاب،نقياً من الغل والغدر والخداع. - والمكفوفة: المشرجة المعقودة -ابن منظور :لسان العرب - مـادة :عيب.

[٨٠] قال أبو عبيده الأغلال الخيانة،والأسلال السرقة- ابن منظور :لسان العرب مادة غل.

[٨١] البيهقى:دلائل النبوة /جـ٤/١٠٥ - المقريزى :إمتاع الأسماع /جـــ١/٢٢٧،٢٢٨ - محمد حميد الله :الوثائق السياسية/٧٧،٨٠ - بركات أحمد :محمد واليهود /١٩٤.

ولقد وقف غير واحد من الباحثين المحدثيـن أمـام نصـوص الصلـح ،ليبين من خلال التعقيب عليه الفوائد التـى جناهـا المسـلمون مـن عقـد هذه المعاهدة مع قريـش.

فذكر أحدهـم، أن الصلـح يتيـح للمشـركين الاختـلاط بالمسـلمين فيـأتون إلـى المدينـة،وجـاء المسـلمون إلـى مكـة ودخلـوا بأهلهم،وأصدقائهم،وغيرهم ممـن يسـتنصحونهم،وسـمعوا منـهم أحـوال النبى -ﷺ-ومعجزاته،الظاهرة وأعلام نبوتـه المتظـاهرة،وحسـن سـيرته وجميل طريقته،وعاينوا بأنفسهم كثـيراً مـن ذلـك،فمـالت أنفسـهم إلـى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبـل فتـح مكـة،فأسـلموا فيمـا بين صلح الحديبية ،وفتح مكة،كخالد بـن الوليـد"،"وعمـرو بـن العـاص" وغيرهم وازداد الذين لم يسلموا ميلاً إلى الإسلام،فلمـا كـان يـوم الفتـح أسلموا كلهم،لما قد تم لهم مـن الميـل[٨٢].

واذا كانت هذه نظرة أحد البـاحثين للصلـح،فـإن باحثـاً آخـر ،رأى هـذه المعـاهدة مفيـدة مـن حيـث إن الهدنـة أفسـحت المجـال للدعـوة،وأعطـت الفرصـة ليتفـرغ المسـلمون للانتـهاء مـن الجبهـة الشمالية والتخلص من خطر اليـهود نـهائياً.

أما إعادة مـن جـاء مسـلماً دون إذن وليـه، فـإن مـن مصلحـة المسلمين أن يكون لـهم عيـون بيـن المشـركين يخبرونـهم،بكـل خـبر ويرسلون إليهم خبر كل كيد يحـاول المشـركون أن يكيدوهـم بـه،وهـذا

---

[٨٢] محمد رضا:محمد رسول الله/٢٥٩.

بالإضافة إلى ما يمكن أن يكون لهم من تـــأثير علـــى معارفـــهم وأقربائـــهم ، وما يكون من سلوكهم،فانتشار الإسلام لا يكـــون بطريقـــة واحـــدة،وإنمـــا بعدة طرق،منها الدعوة ،ومنها التأثير في الســـلوك ، ومنـــها القـــوة.

وأما عدم إعادة قريش،من جاءهم مرتدً،فإنـــا نكـــره أن يكـــون بيننـــا عيون لأعدائنا،وبالأصل فلا خير فيمن يرتد، بـــل لـــو بقـــى فـــى صفوفنـــا لوجب قلتـــه ردةً [٨٣]

ومن الباحثين من عقب على اشتراط قريـــش رجـــوع المســـلمين فـــى عامهم،دون أن يؤدوا العمـــرة،فقـــال:ظـــن البعـــض مـــن المســـلمين فـــى رجوعهم أنه مخالفة للرؤيا التـــى رآهـــا الرســـول -ﷺ-ووعـــد أصحابـــه بتحقيقها وهى أنهم سوف يدخلون المســـجد الحـــرام،إن شـــاء الله آمنيـــن محلقين رءوسهم ومقصريـــن،وغفـــل هـــؤلاء عـــن أمْـــرٍ مُـــهِمٍ،وهـــو أن رسول الله -ﷺ-لم يحدد زماناً خاصـــاً لدخـــول المســـلمين إلـــى المســـجد الحرام[٨٤]،ويضاف إلى مـــا تقـــدم أنـــى أرى هـــذا الصلـــح مكســـباً كبـــيراً للمسلمين،حين ننظر إليه نظرة المفـــاوض الـــذى يحـــرص علـــى،تحقيـــق أكبر قدر من الربح للطرف الذى يمثله،على حســـاب الطـــرف الآخـــر ،مـــن حيث إنه يحقق للمســـلمين.

(أ) تمكنهم من أداء العمرة فـــى عامـــهم القـــابل،وذلـــك مقصدهـــم مـــن خروجهم من المدينة إلى مكـــة.

---

[٨٣] محمود شاكر "التاريخ الإسلامى /جـ٢/٢٩٩.

[٨٤] الطيب النجار:القول المبين/٢٧١.

(ب) جعلهم على قدم المساواة مع قبيلة طال أمد سيادتها على بقية القبائل العربية ، ولم تمض على دولتهم سوى ست سنوات.

(جـ) جعل الصلح المسلمين يتفرغون للعناية بجبهتهم الداخلية ومحاورة القبائل الأخرى الضاربة فى الجزيرة العربية،حتى ينشروا الإسلام بينهم فتزداد قوتهم،والحالة هذه يوماً بعد آخر ،بينما يزداد الطرف الآخر ضعفاً.

ومما يجدر ذكره هنا،أن النسوة المؤمنات قد استثناهن الله من شرط رد المسلمين،لهن على المشركين فى مكة إن جئن المدينة مهاجرات عملاً بقولة تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُواْ مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُواْ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[٨٥] .

فذكر المفسرون،أن السبب فى نزول تلك الآية،هى مجئ "سبيعة بنت الحارث[٨٦]" بعد الفراغ من الكتاب ،والنبى -ﷺ-بالحديبية،فأقبل زوجها وكان كافراً وهو صيفى بن الراهب "وقيل" مسافر المخزومى

---

[٨٥] سورة الممتحنة :آية (١٠)

[٨٦] الأسلمية تزوجها سعد بن خوله فتوفى عنها حجة الوداع فولدت بعد وفاته بليال فقال لها رسول الله -ﷺ-قد حللت فانكحى من شئن بن سعد الطبقات الكبرى جـ٨/٢٤٤. ابن الأثير :أسد الغابة :جـ٢/٢٠٩/جـ٣/١٤١ .

فقال يا محمد :اردد على امرأتي فإنك شرط ذلك!وهـذه طينـة الكتـاب لـم تجف بعـد.

وقيل إن التـي جـاءت هـي "أم كلثـوم"[٨٧]بنـت عقبـة بـن أبـي معيط"،فأقبل أهلها يسألون رسول الله -ﷺ-أن يردهـا ،وقيـل:هربـت مـن زوجها "عمرو بن العاص"ومعها أخواهـا "عمـارة،"والوليـد"،فـرد رسـول الله -ﷺ-أخويها وحبسها،فقالوا للنبى-ﷺ-:ردهـا علينـا للشـرط،فقـال -ﷺ-:(كان الشرط فى الرجال لا فـي النسـاء)[٨٨].

ولعل السبب فى استثنائهن من شرط الرد راجـع إلـى أمريـن:

أولهما : أنهن ذوات فروج فيحرمن علـى الرجـال المشـركين.

ثانيهما: أنهن أرق قلوبا وأسرع تقلبـا مـن الرجـال،بخـلاف مـن بقيت منهن علـى شـركها فإنـها إن جـاءت المسـلمين يردهـا عليـهم لافتقادها شرط الإيمان المستوجب تحريم نكاح رجـل مشـرك لـها[٨٩].

ومن ثَمّ تثبت لنا الحكمة من اسـتثناء الله للنسـوة المـهاجرات مـن صلح الحديبية،وأن ذلك لم يكن نقضاً لعهد من قبـل المسـلمين،وإنمـا هـو

---

[٨٧] ابن أبى معيط بن عبد شمس القرشية ،أسلمت بمكة قديماً،وصلـت القبلتيـن،بـايعت رسول الله -ﷺ-وهاجرت إلى المدينة ماشية تزوجها زيد بن حارثة،ثم الزبير بن العوام،ثم عبد الرحمن بن عوف،فعمرو بن العاص. -ابن الأثير :أسد الغابـة /جـ٦/٤٠١،٤٠٢ - ابن حجر:الإصابة /جـ٤/٤٩١.

[٨٨] الزمخشرى :الكشاف/جـ٤/٥١٨ - الصابونى:مختصر بن كثير /جـ٣/٤٨٧ - ابـن حجر:فتح البارى /جـ٧/٥٢٠.

[٨٩] القرطبى :الجامع لأحكام القرآن /جـ١٠/٦٧٨٦.

أمر من الله نزل به جبريل الأمين،على سيد المرسلين للأسباب سالفة الذكر.والآيات في الوقت ذاته تحمل ألفاظها مراعاة لحقوق الكافرين المالية التي أنفقوها على الزوج المهاجرة،فألزمت المسلمين برد ما أنفقه الرجل الكافر على امرأته المؤمنة،كما أن الآيات لم تفتح الأبواب على مصاريعها ،للمشركات الناشزات ، حتى يهربن من مكة إلى المدينة،فجعلت شرط إقامتهن بين ظهراني المسلمين ينعمن بحمايتهم لهن،اجتيازهن الامتحان الذي أمر الله المؤمنين امتحان المهاجرات به،فإن علمتموهن مؤمنات استوجبن الإقامة بينهم،وعدم إعادتهن إلى الكافرين.؛ على كل حال،فإن مصداقية المسلمين،في وفائهم بعهدهم الذي ارتضوا عقده مع القرشيين،قد بدت ظاهرة للعيان،ولما يجف مداد كتاب الحديبية بعد،ذلك أن"أبا جندل" جاء المسلمين وهم بالحديبية وجلهم غير راض عمًا تضمنه من بنود،رأوا فيها جوراً عليهم،فرمى بنفسه بين أظهر المسلمين وكان أبو "سهيل" قد أوثقه في الحديد وسجنه،فخرج من السجن واجتنب الطريق،وركب الجبال،حتى أتى الحديبية.فقام إليه المسلمون يرحبون به ويهنئونه،فلما رآه أبوه "سهيل"قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك،وأخذ بتلابيبه ثم طالب المسلمين برده.

فقال أبو جندل:(أي معاشر المسلمين،أُردُّ إلى المشركين،وقد جئت مُسلماً؟ألا ترون ما قد لقيت من العذاب).

فرفع رسول الله-ﷺ-صوته وقال:[يا أبا جندل،اصبر،واحتسب،فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً،إنا قد عقدنا مع القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً،وإنا لا نغدر]،ومشى "عمر بن الخطاب"إلى جنب "أبي جندل"

وقال له:اصـــبر واحتســب،فإنمـا هــم المشــركون،وإنمـا دم أحدهــم دم كلب،جعل"عمر" يدنى قــائم الســيف منـــه قــال "عمــر":رجــوت أن يــأخذ السيف فيضرب به أباه،قال:فضن الرجـــل بأبيـــه][٩٠].

وكان لموقف "أبى جندل" الأثر العظيم علـــى أنفـس المســلمين،فـزاد من آلامهم بســـبب توقيـــع النبـــى محمــد الصلـــح مـــع المشــركين عنـــد الحديبية،تلك الآلام التى جعلتهم لا يُجيبـــون النبـــى بشـــىء حيـــن أمرهـــم بالتحلل من إحرامهم،ونحر بدُنَـــهُمْ،فســـار النبـــى محمـــد إلـــى زوجـــه "أم سلمة" رضوان الله عليها يبثها آلامه،بسبب عـدم اســتجابة المســلمين لـــه فيما أمرهم به،فقالت له يا رسول الله [لا تلمـــهم،فإنـــهم قـــد دخلـــهم أمــر عظيم مما داخلت على نفسك من المشـــقه فـــى أمــر الصلــح،ورجوعــهم بغير فتح،يا نبى الله اخرج ولا تكلم أحـداً،فقـام رســول الله-ﷺ-واضطبـــع بثوبه،فخرج وأخذ الحربة ويمـــم هديـــه ، وأهـــوى بالحربـــة إلـــى البـــدن رافعـــاً صـــوت بســم الله ،الله أكــبر،ونحــر،فتواثــب المســلمون إلـــى الـــهدى،وازدحمـــوا عليـــه ينحرونـــه حتـــى كـــاد بعضـــهم يقـــع علـــى بعض،وأشرك رسول الله-ﷺ-بين أصحابه فى الـــهدى،فنحـــر البدنـــة عـــن سبعة،وكان هدى رسول الله-ﷺ-ســـبعين بدنـــة][٩١].

وهكذا عاد المسلمون إلـــى المدينـــة،بعدمـا تحللـــوا مـــن إحرامـــهم ،ليعيشوا فيها مع النبى محمد،وقد نظمـــت علاقاتـــهم بـــالمكيين،ومـــن دار

---

[٩٠] ابن القيم:زاد المعاد/جـــ٣/٢٩٥ - المقريــزى:إمتــاع الأســماع /جـــ١/٢٢٥ - الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٥٥/٥٦.

[٩١]- الطبرى :تاريخ الرسل والملوك/جـ٢/٦٣٧ - ابن سعد :الطبقات الكبرى/جـ٢/٧٥ البيهقى :دلائل النبوة /جـ٤/١٥٠. - عبد العزيز الشناوى نساء الصحابة /صـ٨١.

فى فلكهم بنود صلح الحديبية،تلك البنود التى جعلت المسلمين يأبون استقبال "أبى بصير" ومن جاء معه من مكة ليكون فى موقفه وموقفهم منه آيةٌ أخرى أيد الله بها سيد المرسلين فى الحديبية ،فأراها المسلمين ليزدادوا يقيناً على يقينهم وإيماناً بصدق نبيهم ولأهمية هذا الموقف الذى وقفه الطرفان أبو بصير والمسلمون فى المدينة تذكر ما كان من أمر هذا الرجل بشىء من التفصيل.

قدوم أبى بصير إلى المدينة

ذكر رواة السيرة أمر هذا الرجل،من خلال روايتين منسوبتين،إلى "ابن إسحاق"،و "موسى بن عقبه " فذكرت الرواية الاولى:ان أبا بصير"،قد فر من مكة يريد المدينة المنورة،فلما وقف على خبره أزهر بن عوف "،والأخنس بن شريف" كتبا إلى رسول الله -ﷺ-فى شأنه حتى يرده عليهما بناءً على ما نص عليه صلح الحديبية،وأرسل من يتسلم" أبا بصير" من المسلمين،فاستدعى النبى -ﷺ-أبا بصير ... لمه إلى رسل المكيين فقال للنبى:أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟قال:يا أبا بصير:انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً،فانطلق إلى قومك ،فانطلق معهما،حتى إذا كان بذى الحليفة جلس إلى جدار ،وجلس معه صاحباه،فقال أبو بصير:أصارم سيفك هذا يأخا بنى عامر؟فقال:نعم انظر إليه إن شئت ،فإستله "أبو بصير" ثم علاه حتى قتله وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله -ﷺ-وهو جالس فى المسجد فلما رآه رسول الله -ﷺ-طالعاً ، قال : إن هذا الرجل قد خزع ، فلما

انتهى إلى رسول الله -ﷺ- قال : ويحك مالك ؟قال :قتل صاحبكم صاحبى ، فوالله ما برح حتى طلع "أبو بصير" متوشحا السيف ، حتى وقف رسول الله -ﷺ-فقال:يا رسول الله!وفت ذمتك ،وأدى الله عنك،أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى، أن أفتن فيه ،أو يعبث بى،قال :فقال رسول الله -ﷺ- : "ويل أمه مَحْشُ(٩٢) حرب ،لو كان معه رجال"ثم خرج"أبو بصير" حتى نزل العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر،بطريق قريش،التى كانوا يأخذون إلى الشام،وبلغ المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكة قول رسول الله -ﷺ-لأبى بصير" فخرجوا إليه ،فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً،فكانوا قد ضيقوا على قريش لا يظفرون منهم إلا قتلوه،ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها،حتى كتبت قريش إلى رسول الله-ﷺ- ، تسأله بأرحامها ألا آواهم،فلا حاجة لهم بهم،فآواهم رسول الله-ﷺ-فقدموا عليه المدينة(٩٣).

أما رواية ابن عقبة فإنها تختلف عن سابقتها وذلك من وجوه:

إحداها: أنها ذكرت اسم الرسول الذى أشخصه المكيان فقالت:إنه جحُيش بن جابر من بنى منقذ،وكان ذا جلد ورأى،.

ثانيها: أنها ذكرت سبباً،يختلف عما ذكرته الرواية الأولى،فى قتل "أبى بصير" لأحد المكيين اللذين تسلماه من عند "النبى-ﷺ-

---

(٩٢) يريد أنه يحرق عدوه بلهيب ناره فيخشاه من يحاربه - ابن منظور :لسان العرب /مادة محش.

(٩٣) ابن هشام:سيرة النبى/جـ٣/٣٧٢ : ٣٧٣- ابن الأثير :الكامل/جـ٢/٢٠٥،٢٠٦.

فقالت:إن "جحيشاً" لما وصل إلى ذى الحليفة سـل سـيفه،وقـال لأضربـن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوماً،فجاء إلى الليـل فقتلـه أبـو بصـير وجاء بسلبه إلى رسول الله -ﷺ-فقال خَمِّسـه يـا رسـول الله قـال:إنـى إذا خمّسته لم أفِ بالذى عاهدتـهم عليـه ولكـن شـأنك بسـلب صـاحبك واذهب حيث شـئت.

وثالثها: أن "أبا جندل" الذى سـلّفنا ذكـره، قـد انضـم إلـى "أبـى بصير" فى رجال،وأن جمعهم قد كثر بحيـث بلـغ ثلاثمائـة رجـل شـكلوا تهديداً للغادى والرائح من قريـش.

ورابعها: ما تفردت به رواية "بـن عقبـة" مـن ذكـر حـال "أبـى بصير" حين وافاهم كتاب النبى الـذى يخـبرهم فيـه بيـن الوصـول إليـه وبين العودة إلى أهليهم،فقالت:إن الرجل كان قد نـزل بـه مـرض المـوت فمات، وكتاب رسول الله فى يده يقرأه،فدفنه "أبـو جنـدل " مكانـه،وجعـل عند قبره مسـجداً[٩٤] .

أن من يمعن النظـر فـى الروايتيـن سـالفى الذكـر،يجـد الروايـة الثانية راجحة والأولى مرجوحة وذلـك لأن راويـها "موسـى بـن عقبـة" أسبق[٩٥] ميلاداً من صاحب الروايـة الأولـى لـيس هـذا فحسـب،بـل إن معلوماته عن السير والمغازى كانت الينبوع الـذى أمـد صـاحب الروايـة

---

(٩٤) ابن سيد الناس:عيون الأثر /جـ٢/١٧٩.

(٩٥) ولد ما بين ٥٥ ،٦٠ من الهجرة (ت) (١٤١هـ) - شاكر مصطفى :التاريخ العربـى المؤرخون /جـ١/١٥٨.

الأولى ومن جاء بعده من المؤرخين،مثـــل "الطــبرى"، "وابــن عبــد الــبر" وغيرهما،مما لا يتسع المقــام لذكرهــم.

أضــف لــهذا وذاك،أن المشــــتغلين بعلـــم الحديـــث والســـير والتاريخ،شهدوا له بالصلاح مثل ابن سعد ومالك بــن أنــس"تلميــذه الــذى قال:(عليكم بمغازى الرجل الصالح يعنى موســـى بــن عقبــه فإنـــها أصـــح المغازى)[٩٦]، وفضلاً عن ذلك،فإن ما بـــها مــن تفصيــلات وافيــه،تجعــل المرء يميل إلى الأخــذ بــها دون ســابقتها ،فــإن مــن يســتقرئ جملــها ،ويشــعر بــأن راويــها قــد اســتقاها مــن ثقــاة ، فجــاءت معلوماتـــها متسلسلة،فبدت فى صورة أقرب ما تكون للكمــال، بخــلاف ســابقتها التــى أغفلت ذكر أموراً كثيرة ،أسلفناها ونحـــن نُبيــن الفــرق بيــن الروايتيــن ،ومن ثم فإننا نميل للأخذ بما جــاء فــى روايـــة "موســـى بــن عقبـــة"دون رواية ابن إسحاق،وعلى أى حال فـــإن ثــورة"أبــى بصــير"علــى وثنيــى مكة،واضطرارهـــم إلـــى الإســـتعانه بـــالنبى محمــد -ﷺ- ، حتـــى يتنقــذ القرشــين منـــه ومــن أتباعـــه،فيســـمح لـــهم بالإقامـــة بيـــن إخوانــــهم المسلمين،لهى بحق آية عظيمة أيد الله بـــها النبـــى محمـــداً -ﷺ- .

فصلح الحديبية والحالةُ هذه لـــم يمنـــع وفــود عــدد مــن المكييــن المســـلمين إلـــى إخوانـــهم بالمدينـــة بموافقـــة قريـــش،وفـــى الوقـــت ذاته،يجعل"محمداً"-ﷺ- ، صــاحب فضــل عليــهم،ومحافظــاً علـــى عــهده

---

[٩٦] ابن حجر :تهذيب التـــهذيب /جــــ١٠/٣٦١ – شــاكر مصطفــى :التــاريخ العربــى والمؤرخون /جــ١/١٥٨،١٥٩.

معهم فيفقد القرشيون ولو بشكل نسبى مـــيزة رد مســـلمى المدينـــة علـــى المكيين كل من أتى من مكة إليـــهم مســـلماً[٩٧].

لم يكن من المعقول أو المقبول أن يمر خـــبر صلـح الحديبيـــة علـــى مناوئى "محمد -ﷺ-مروراً عابراً،فمنهم من فكر أكـــثر مـــن ذى قبـــل فـــى الإنضمام إليه، ومنهم من ازداد حنقاً عليـــه،ومـــن هـؤلاء اليـــهود الذيـــن اعتقدوا أن صلح الحديبية ضربة قاصمة لظـــهورهم ،تجعـــل وجودهـــم فـــى البلاد التى ســـكنوها علـــى تخـــوم الجزيـــرة العربيـــة وفـــى وادى القـــرى وغيرها مـــهدداً.

ومن ثمَّ ظهر من جديد أمر الصراع علـــى الســـيادة،بيـــن المســـلمين واليهود،فكانت واقعة خيبر[٩٨]نقطة الحســـم فـــى موازيـــن هـــذا الصـــراع التى تعددت مراحلـــه.

غزوة خيـــبر

الذى لا ريب فيه أن هذه الغزوة،كانت إحـــدى النتـــائج التـــى ترتبـــت على إبرام صلح الحديبية بين المسلمين والمشـــركين ،فقـــد جعـــل الصلـــح جماعة المؤمنيـــن تتفـــرغ إلـــى تـــأمين نفســـها مـــن الأخطـــار المحدقـــة بها،واليهود أكثر الجماعـــات التـــى شـــكلت خطـــراً كبـــيراً علـــى انتشـــار الدعوة الإسلامية بين العـــرب.

---

[٩٧] الصالحى :سبل الهدى والرشاد جـ٥/٦٢،٦٣.

[٩٨] موضع فى شمال المدينة يقع على خط طول ٤٠ شرقاً.يفصله عنها نحو من ٦٠ ميلا، كانت تقطعها القوافل فى ثلاثة أيام – تنمو بها أحراش النجيل والحلفاء،وبساتينها شـــهرة عظيمة أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى /ج٢ /٣٠٨.

وإذا كان المسلمون، قد نجحوا فـــى مراحــل صراعـــهم،مـــع اليـــهود قبل صُلح الحديبية ،فإن مواصلة مواجهتهم لهم بـــدت أكـثر ضـــرورةً بعـــد عقـــد الهدنـــة بيـــن المشـــركين والمســـلمين كـــــى لا يـــأخذ اليـــــهود حذرهم،ويستجمعوا قوتهم،فيأتوا المدينة لضرب المســـلمين بـــها ثـــأراً مـــن النبى، لما أنزله ومن معه ببنى دينـــهم فـــى قينقـــاع والنضـــير وقريظـــة ، والدارس لاستراتيجية السياسة والمكـــان فـــى هـــذا الوقـــت يؤمـــن ،بـــأن التوجه " لخيبر" ضرورة دفاعية حتمية بعد صلـــح الحديبيـــة،إذ هـــى كـــانت الملاذ الذى أوى إليه اليهود،فأصبح قاطنوها قـــوة مهابـــة إذا مـــا قيســـت بقوة القبائل العربية غير المُتحـــدة والمُتنـــافرة.

فالمؤرخون يذكرون أن مُقاتلى اليـــهود "بخيـــبر" بلغـــوا عشـــرة آلاف مقاتل[٩٩] وهذه كما ترى فاقت قوة الأحزاب التـــى أتـــت المدينـــة وزلزلـــت ساكينها،وكانت أكبر قوة جمعتها قريش فى تاريخـــها لخـــوض حـــرب ضـــد أعدائـــها.

لذلك فإن رســـــول الله أمـــر بالتجـــهيز للخـــروج إلـــى "خيـــبر" بعـــد عشرين يوماً،انقضت على عودته من الحديبيـــة إلـــى المدينـــة[١٠٠] .

والدارس للملابسات التى أحـــاطت بخـــروج المســـلمين مـــن المدينـــة إلى "خيبر" ،يجد خروجـــهم هـــذه المـــرة،قـــد تفـــرد بـــأمور مَيّزتـــه عـــن الغزوات والسرايا السابقة،فالصحابـــةُ الذيـــن كـــان عليـــهم الخـــروج مـــع رسول الله -ﷺ-،كانوا على علم بالوجهة التـــى يقصدونـــها،بـــل إن اليـــهود

---

[٩٩] باشميل الغزوات الكبرى جـ٣٦/٦.

[١٠٠] الصالحى :سبل الهدى والرشاد -جـ١١٥/٥.

الذين وادعوا النبى محمداً وظلوا مقيمين بالمدينة كانوا أيضا على معرفة بقصد المسلمين إخوانهم فى "خيبر".

وآية ذلك ما رواه "الصالحى":أن اليهود ،لما عرفوا بخروج الرسول -ﷺ-إلى "خيبر" جدوا فى مطالبة مُسلمى المدينة بما عليهم من ديون،لهم فألزموهم أداءها قبل الخروج.

فهاهو ذا "أبو حدرد" يذكر أنه [كان لأبى الشحم"اليهودى،خمسة دراهم فى شعير أخذه أبو حدرد لأهله،فلزمه،فقال:أجّلْنى فإنى أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقكَّ إن شاء الله،وقد وعد الله نبيه أن يغنمه. "خيبر" ، فقال "أبو الشحم" حسداً وبغياً أتحسبون أن قتال خيابر مثل ما تلقون من الأعراب فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل وترافعا إلى رسول الله -ﷺ-فقال رسول الله-ﷺ-له:أعطه حقه ،قال "عبد الله"والذى بعثك بالحق ما أقدر عليها ،قال:أعطه حقه،قال :وكان رسول الله -ﷺ-إذا قال ثلاثاً لم يراجع قال"عبد الله":فخرجت فبعث أحداً ثوبىَ بثلاثة دراهم:وطلبت بقية حقه،فدفعت إليه،ولبست ثوبى الآخر،وأعطانى "ابن أسلم بن حريش"ثوباً آخر،فخرجت فى ثوبين مع المسلمين ونفلنى الله تعالى من "خيبر" وغنمت امرأة بينها وبين أبى الشحم قرابه قرابتى ،فبعتها منه].[١٠١]

ومما تفرد به هذا الخروج أن رسول الله-ﷺ-قصره على من كان معه بالحديبية،فحال بذلك بين الأعراب وغيرهم،ممن جاءوا النبى

---

[١٠١] الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٥/١١٦.

محمداً للانضمام إليه رغبه فى الغنيمة،مثلمـــا كـــانت حالـــهم فـــى غـــزوة بنى المصطلق سالفة الذكـــر.

لأن الله وعده بالغنيمة،فكان الوعـــد المذكـــور فـــى القـــرآن الكريـــم تالياً لأخبار أهل الحديبية برضا الله[١٠٢] عليهم حيـــن أقبلـــوا علـــى نبيـــهم مبايعين له بيعة الرضـــوان".

فتكون الغنيمةُ الموعودةُ والحالةُ هـــذه،مكافـــأةً وتكريمـــاً لـــهم علـــى إخلاصهم ووفائهم لنبيـــهم.

ولا يعارض ما ذهبتُ إليه ما كـــان مـــن أمـــر قصـــر الخـــروج إلـــى "حمراء الأسد"على من شهد أُحـــداً،ولأن البـــون شاســـع بيـــن الغايـــة فـــى الأمرين فالخروج.إلى "حمراء الأسد" كـــان لإثبـــات قـــوة المســـلمين أمـــام المنافقين والمشركين،وذلك لا يتحقـــق إلا لمـــن كـــانوا فـــى غـــزوة احـــد مقاتلين،فإن استعانوا والحالة هذه،بغـــيرهم،انتفـــت الغايـــة المذكـــورة مـــن خروجهم،فيقال إنهم تقووا بمن انضـــم إليـــهم أمـــا الخـــروج إلـــى "خيـــبر" فإنه كان ابتداء غـــير مســـبوق بقتـــال؛فمنـــع مـــن لـــم يشـــهد الحديبيـــة منه،ليـــس لـــه مـــن تـــبرير معقـــول ســـوى أن ينـــال الخـــارجون إلـــى "الحديبية"ثم "خيـــبر" تكريمـــا دنيويـــا بحيـــازة الغنيمـــة،وأخرويـــا بجزيـــل الثواب،من رب العالمين الذى رضى عليـــهم وهـــم يبـــايعون نبيـــهم عنـــد الشـــجرة.

---

[١٠٢] الزمخشرى:الكشاف /جـ٤/ ٣٤٠،٣٤١.

وعلى كل حال فقد خرج المسلمون فى المُحرم سنة سبع من الهجرة فى ألف وأربعمائة رجل يُريدون "خيبر" وكان رسول الله - ﷺ-يسرع السير بهم حتى لا يعلم عدوهم بأمرهم فيزداد حيطةً،الأمر الذى إن تم يجعل مهمة المسلمين جد عسيرة عند "خيبر" لما للمكان من منعةٍ ممثلة فى الحصون وكثافة النخيل،ناهيك عن كثرة ما به من مقاتلى اليهود.

استمر المسلمون يقطعون مراحل السير إلى "خيبر" حتى نزلوا "الصهباء" وهى على مقربة منها فصلى النبى بها العصر،وتزود ومن معه بالطعام فلما كانت العشاء دعا رسول الله -ﷺ-دليله إلى "خيبر" وسأله أن يسمى له الطرق المؤدية إليها،فاختار النبى محمد -ﷺ- منها ما كان مسما باعثا على التفاؤل منها فأمره أن يسير بالمسلمين فيه،فلما أشرف رسول الله-ﷺ-على "خيبر" قال (اللهم رب السموات السبع وما أضللن ورب الأرضيين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أظللن ورب الرياح وما أذرين،فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها،ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها،اقدموا بسم الله)(١٠٣)فأقام المسلمون عندها إلى الصباح،حيث كانوا وصلوا ليلا فلما رآهم اليهود فزعوا فزعاً شديداً ،وولوهم الأدبار.

وهكذا أصبح المسلمون محاصرين لحصون "خيبر" وقتا ليس بالقليل ،فقد استغرق حصارهم لها ستة أسابيع،فلما رأى النبى طول

---

(١٠٣) ابن الجوزى :المنتظم /جـ٢/٣٦٩،٣٧٠ - الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٥/١١٨ - التاجى:سيرة النبى /جـ٢/١٣،١٤. الامام أحمد فى مسنده جـ٥/٣٥٣، ٣٥٨،٣٥٩.

أمد الحصار لها،قال لأصحابه{ لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله،يفتح عليه،فكان كل واحد من الصحابة يرجو أن يكون هو فلما أصبح الناس غدوا على النبي -ﷺ-كلهم يرجو أن يعطاها فقال:أين "على بن أبى طالب"فقالوا:هو يا رسول الله يشتكى عينيه،قال فأرسلوا إليه فأتى،فبصق رسول الله -ﷺ-فى عينيه ودعا له،فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع،فأعطاه الراية فقال على :يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟.فقال -ﷺ-انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم،ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه،فو الله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً ،خير لك من أن يكون لك حُمرُ النعم[١٠٤]}.

سار "على" بجند المسلمين فشدد الحصار على ما بقى من حصون "خيبر" بأيد يهودها وكان "مرحب" القائد اليهودى يفخر بينهم بقوته وفصاحته فخرج على المسلمين يريد المبارزة وهو يقول:

قد علمتْ خيبرُ أنى مرحبُ .. شاكى السلاح بطلٌ مُجَرَّبُ

أطعنُ أحياناً وحيناً أضربُ .. إذا الليوث أقبلت تلهبُ

كانَ حمَاى كالحِمى لا يُقربُ

فمن الرواة من ذكر أن "محمد بن مسلمة" هو الذى برز له فقتله،ومنهم من قال :إن "عليا" هو الذى بارز "مرحبا" فقتله وهو ما نميل إليه حيث إن ابن الأثير قال بعد القولين:إن القول الأخير هو

---

[١٠٤] ابن هشام :سيرة النبى/جـ٣/٣٨٩:٣٨٣ - ابن سيد الناس عيون الأثر /ج٢/١٨٣ -ابن كثير /البداية والنهاية /ج٤ /١٨٥.

الأشهر [١٠٥] والأصح ونحن نميل إلى الأخذ بالرواية التى تقول :إن "عليا" هو الذى قتل القائد اليهودى لأنه من الطبعى أن يبرز لقائد الأعداء نظيره،فذلك متعارف عليه بين المتحاربين فى العصر الذى ندرسه،ولما كان "على" قد آلت إليه القيادة كما ذكرنا،فإن بروزه "لمرحب" والحالة هذه هو الراجح وما قيل عن بروز "محمد بن مسلمة" إليه مرجوح.

وعلى كل حال فإن "على بن أبى طالب" قاد الجيش الإسلامى بنجاح ففتح حصونا جديدة من "خيبر" لما رأى اليهود أن معظم قادتهم قد قتلوا،وأن السيئ قد كثر فى نسائهم ،رأت البقية الباقية التى ما تزال فى القليل من الحصون مفاوضة النبى -ﷺ-لتحصل لنفسها على شروط تحفظ لها حياتها فى مكانها إذ لا جدوى تُرتجى من استمرارها فى المقاومة،فأرسلوا إلى النبى محمد -ﷺ-يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم،وكان رسول الله -ﷺ-قد حاز الأموال كلها:الشق،ونطاه والكتيبة،وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينك الحصنين[١٠٦]اللذين لم يفتحا بعد،وتمنوا عقد معاهدة تقضى بأن يجلوا ويخلو ما بقى من أهل خيبر على أرضهم،وألا تحول بين المسلمين وبين ما لهم من الصفراء والبيضاء والبزة[١٠٧]، إلا ما كان منها على

---

[١٠٥] ابن الأثير :الكامل /جـ٢/٢١٨ : ٢٢٠- ابن الجوزى :المنتظم /جـ٢/٣٧٠،٣٧١.

[١٠٦] الطبرى:الرسل والملوك جـ٣/١٥.

[١٠٧] الهيئة والشارة واللبسة - ابن منظور :لسان العرب - مادة :بزز.

الأجســاد،وأن لا يكتمــوه شــيئاً. ثــم قــالوا لرســول الله -ﷺ-:إن لنـــا بالعمارة والقيام علــى النخيــل علمــا فأقِرّنــا. فــأقرّهم رســول الله -ﷺ- وعاملهم على الشطر من الثمر والحب ، وقال:أقركــم مــا أقركــم الله.

فلما كانت خلافة "عمر بــن الخطــاب" رضــى الله عنــه ظــهر فيــهم الوباء وتعبثوا بالمسلمين،فأجلاهم "عمر" وقسم "خيبر" بيــن مــن كــان لــه فيها سهم من المســلمين.(١٠٨)

ومن الباحثين المحدثين مــن رأى أن الصلــح الــذى أبرمــه اليــهود مع المسلمين بعد معاركهم عند "خيبر" كــان عقــب معركــة غــير حاســمة وأن التفاوض بين اليهود والمسلمين لــم يتــم إلا بعــد إصابــة الفريقيــن بخسائر كبيرة فى الأرواح.الأمر الذى جعل كل فريق مــن الفريقيــن يــرى فى هذا الصلح من وجهة نظره الخاصــة نفعــاً يعــود علــى أتباعــه وأن من الخطأ الجسيم تفويته ،عليهم "فاليــهود الذيــن وعــدوا النبــى محمــداً بنصف تمر "خيبر"ونظير ذلك مــن حبوبــها إنمــا اســتبدلوا فــى الواقــع طرفا بطرف آخر إذ كان اليهود يعطون غطفان مــا وافقــوا علــى تقديمــه للمسلمين بصفة سنوية،فكــان الخاسـر الوحيــد فــى العمليــة هــم بنــو فزارة.

والمسلمون رأوا فى الصلح،بصورته تلــك خــيراً عظيمــاً ،فــإن مــا اتفقوا عليه مع اليهود من نصيب فــى تمــر "خيــبر" وحبوبــها ســيأتيهم دون أن يتركوا رجالا مســلحين يعملــون علــى حمايــة انتصــارهم الــذى أحرزوه على اليهود فى هــذه المنطقــة.

---

(١٠٨) الطبرى:تاريخ الرسل والملوك /جـ٣/١٥ - البلاذرى :فتوح البلدان /جـ١/٢٥.

حيث إن المسلمين،لو تركوا مقـــاتلين ،بصفـــة دائمـــة لحملـــهم،ذلـــك عبئاً مالياً لا طاقة لهم به فى هـــذا الوقـــت .

ومن هنا تبـــدو للقـــارئ حقيقـــة أن الصلـــح حقـــق مصلحـــة لكـــلا الفريقيـــن[١٠٩]

والنفس تكاد تسكن إلى ما ذهـــب إليـــه هـــذا البـــاحث،لاتفاقـــه مـــع الاستراتيجية التى جعلها النبى محمداً أساساً لكـــل ســـريةٍ أو جيـــشٍ قـــاده بنفسه أوعهد بقيادته إلى أحد المسلمين الأشـــاوس فليســـت إراقـــة الدمـــاء فى – شرعة– الإسلام مطلوبة – حين يبذل الأعـــداء الطاعـــة فـــى صـــورة جزية يعطونها وهذا ما كان من اليـــهود المقيميـــن "بخيـــبر".

والقرآن الكريم بيَّن للمسلمين ذلـــك كلـــه فـــى آيـــات بينـــات أســـلفنا الحديث عنها ونحن نتناول مشروعية القتـــال فـــى الإســـلام .

وهكذا وضعت حـــرب "خيـــبر" أوزارهـــا فكـــان قتـــل اليـــهود خـــلال معركتها ثلاثة وتسعين رجـــلاً واستشـــهد مـــن المســـلمين خمســـة عشـــر رجلا،وحاز المسلمون غنائم كثيرة،جعل النبـــى عليـــها "فـــروة بـــن عمـــر البياض"فخمسها رسول الله –ﷺ–وأسهم فيـــها لجماعـــة مـــن الدوســـيين ، والأشعريين جاءوه "بخيبر" بعد فراغه من قتـــال اليـــهود بـــها.

و علي الجملة :فإن كل من كان من جنـــد المســـلمين عنـــد " خيـــبر " حصلوا علي قدر عظيم من الغنيمة [١١٠]حســـبما وعدهـــم الله فـــي ســـورة

---

[١٠٩] بركات أحمد :محمد واليهود /١٩٩،٢٠٠.

[١١٠] ابن الجوزى :المنتظم -ج٢ /٣٧٠ ، المقريزى /إمتاع الأسماع /٢٤٤

الفتح ذلك في قولة تعالى("وَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ، وَ عَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ و لِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيما ")[١١١] .

ومما يجدر ذكره هنا أن رسول الله -ﷺ-بعد ما تمم الله له فتح "خيبر" وأمن المسلمون اليهود بعد الصلح الذى عقد بين الفريقين،واصطفاء النبى "صفيه"لنفسه وتوزيع الغنائم.

جاءت زوج "سلام بن مشكم" اليهودى إلى النبى محمد وقد حملت إليه شاة مسمومة فتناول رسول الله -ﷺ-الكتف،وانتهس منها فلاكها رسول الله-ﷺ-وتناول "بشر بن البراء"عظما فانتهس منه فأساغها وأما رسول الله -ﷺ-فلفظها فلما استرط رسول الله -ﷺ- لقمته اشترط "بشر بن البراء" ما فى فيه،فقال رسول الله -ﷺ-ارفعوا ما فى أيديكم،فإن كتف هذه الشاه تُخبرنى أنى نُعيت فيها،فقال "بشر بن البراء" والذى أكرمك لقد وجدت ذلك فى أكلتى التى أكلت فما منعنى أن ألفظها إلا أنى أعظمت أن أنغصك طعامك،فلمَّا سغت ما فى فيك لم أكن لأرغب بنفسى عن نفسك ورجوت ألا تكون استرطتها،وفيها نعى فلم يقم "بشر" من مكانه حتى مات.

ولما وقف النبى "محمد" على أمر تلك الشاه إستدعى "زينب بنت الحارث" التى أهدتها له،فقال لها: [أسممت هذه الشاة؟] فقالت: من أخبرك؟ قال:(أخبرتنى هذه التى فى يدى وهى الذراع) قالت

---

[١١١] سورة الفتح :آية (١٩، ٢٠).

:نعم،قال:وما حملك على ما صنعت؟،قالت بَلَغتَ من قومي ما لم يَخْفَ عليك،فقلت:إن كان ملكاً استرحنا منه،وإن كان نبياً فسيُخْبَرُ،فأمر النبى بقتلها قصاصا "لبشر بن البراء" على أحد الأقوال.

وقد ظل رسول الله -ﷺ-لثلاث سنوات تاليات يُعانى من آثار السم الذى أصابه من تلك الشاه فكان سببا فى موته،وآية ذلك ما قاله -ﷺ-:(ما زلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم "خيبر" عواداً حتى كان هذا[١١٢]،وانقطع أبهرى[١١٣]

وعلى كل حال فإن نبأ فتح المسلمين "لخيبر" قد نزك على يهود "فدك" نزول الصاعقة،فأرسلوا إلى رسول الله -ﷺ-يعرضون عليه الصلح على ذات الشروط التى صالح عليها أهل "خيبر" فكانت "فدك" لرسول الله -ﷺ-خاصة لأنه لم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب[١١٤].

وهكذا رأى القارئ يهود "خيبر" يدفعون ثمن إيوائهم لإخوانهم الذين تربصوا بالنبى محمد الدوائر وهم الذين كانوا يحرصون كل

---

[١١٢] ابن حجر:فتح البارى /جـ٧/٥٦٨،٥٦٩ – المقريزى :إمتاع الأسماع/٢٤٣ – الصالحى:سبل الهدى والرشاد/جـ٥/١٣٤.

[١١٣] عرق منشؤة من الرأس ويمتد إلى القدم وله شرايين تتصل بأكثر الأطراف والبدن،فالذى فى الرأس منه يسمى النامة،ويمتد إلى الحلق فيسمى الوريد ويمتد إلى الصدر فيسمى الأبهر ويمتد إلى الظهر فيسمى الوتين ويمتد إلى الفخذ فيسمى النسا ويمتد إلى الساق فيسمى الصافى. – ابن منظور :لسان العرب – مادة بهر.

[١١٤] البلاذرى :فتوح البلدان /جـ١/٣٤ – البيهقى :دلائل النبوة /جـ٤/٢٧١.

الحـرص علـى عـدم الـزج بأنفسـهم فـى الصـراع بيـن يـهود "يـثرب"والمسـلمين فـإذا بـهم يتجرعـون ذات الكـأس التـى تجرعـها إخوانهم من قبل لما فتحوا أبواب بلادهم "لحـى بـن أخطـب" ومـن كـان معه فصارت بلادهم قاعدة لتأليب أعـداء المسـلمين علـى رسـول الله - ﷺ-فكانوا بذلك مُعتدين وعن الحياد متخليـن فلـم تغـن عنـهم أسـلحتهم ولا كـثرة مقاتليـهم ليكـون فتـح بلادهـم آيـة جديـدة أرى فيـها الله المسلمين آيات أيدّ بها نبيه،فقـد رأينـاه يتفـل فـى عيـن "علـى" فتـبرأ وتكلمه الشاه المسمومة بعـد أن أنضجـت النـيران لحمـها ويعـود إلـى المدينة بما معه من فئة قليلة محرزا الانتصـار علـى فئـة "يـهود خيـبر" وهم من الكثرة بمكان كما قلنا فـلا العسـكرية ولا المقابلـة العدديـة بيـن رجالات المسلمين واليهود تجعل أحداً يقـول بانتصـار المسـلمين الفقـراء على اليهود الأغنيـاء إلا بمعجـزة إلهيـة جعلـت كلمـة اليـهود السـفلى وكلمة الموحدين العُليـا.

ولم يكن عودة أهـل الحديبيـة مـن "خيـبر" غـانمين فـى السـنة السابعة من الهجرة بمثابة التكريم الوحيـد لـهم مـن رب العـالمين فـإن الله زادهم على ذلك فى عامهم هـذا تكريمـاً آخـر حيـن مـلأوا أعينـهم وأثلجوا صدورهم بمرافقة نبيّهم يراهـم ،ويرونـه،وهـم يـؤدون العُمـرة بمكة تلك التى تعرف بعمرة القضـاء.

عمرة القضـاء

لما استقبل مسلمو المدينة شـهر ذى القعـدة فـى السـنة السـابعة للهجرة،عقد النبى عزمه على السير بهم إلـى مكـة حتـى يـؤدوا العمـرة التى مُنعوا من آدائها فى العام الماضى،فنادى منـادى النبـى "محمـد" فـى المسلمين،بأن يخرج معه كل من كـان فـى الحديبيـة فـى العـام السـابق

ليؤدوا العمرة.لأن هؤلاء،صارت العمرة واجبة عليهم،إذ هم كانوا قد أزمعوا آدائها.فحالت قريش بينهم وبين ذلك،ومن كانت حالة كذلك، وعاد إلى دياره، ولم يؤد نسك عمرته،فإنها تصبح واجبة فى حقه بعد زوال مانع الأداء[١١٥]

فخرج المسلمون،وقد ساقوا الهدى أمامهم، من الإبل والبقر،تتحاكى بأخبارهم القبائل التى مروا عليها فلما وصل الركبُ إلى ممر الظهران،وجعل النبى "محمداً" بن مَسلمة" على السلاح والخيل ودخل الرسول مكة،بعد ما أخلتها قريش،فطاف المسلمون بالبيت ،وسعوا بين الصفا والمروة،وقد أمر أصحابه أن يهرولوا فى أشواط ثلاثة من أشواط السعى حتى يظهروا للمشركين القوة التى مَنَّ الله بها عليهم فترتعد فرائصهم،ويظلون على وفائهم بعهدهم،وصعد "بلال بن رباح" على الكعبة لأول مرة يؤذن للصلاة،فكان ذلك إعزازاً للإسلام والمسلمين رغم أنوف المشركين وتصديقاً لما أخبر به رب العالمين،نبيه الأمين [١١٦]فى الكتاب الكريم فى قوله تعالى :(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ

---

[١١٥] يمكن للقارئ إن هو أراد الوقوف على الآراء التى ذكرها الصالحى إجمالاً فى شأن حكم من منع من العمرة الرجوع إلى سبل الهدى والرشاد جـ٥/١٩٥،١٩٦ .

[١١٦] ابن هشام: سيرة النبى /جـ٣ /٤٢٥:٤٢٧ - ابن سعد الطبقات الكبرى:جـ٢/٩٢:٩٤ - الحلبى : السيرة الحلبية /جـ٢/٧٨٠ - أبو زهرة :خاتم النبيين /جـ٢/٩٤٢،٩٤٤ - أبو زيد شلبى :خالد بن الوليد /٤٦،٤٧.

آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً.)[١١٧]

وعلى كل حال فإن النبى مُحمداً ،قد عقد على أم المؤمنين "ميمونة"،وهو بعمرته تلك،فلما انقضت الأيام التى حددها الطرفان فى صُلح الحديبية،لإقامة المسلمين "بمكة" حتى يؤدوا نسكهم أرسل المشركون إلى الرسول -ﷺ-مع "على بن أبى طالب"،ليخرج عنهم،فقال:ما عليهم لو أعرست بين أظهرهم،وصنعنا لهم طعاماً فحضروه معنا.

فقالوا:لا حاجة لنا فى طعامه،فخرج وبنى بميمونه[١١٨]بسَرِف"[١١٩]فأنت ترى رسول الله يلتمس دعوة المشركين،إلى طعام عُرسه،ليزيل بدعوته تلك الجفوة،لتَحل محلها،ألفة تزيل الأكنة عن أفئدتهم،لتجد كلمات الرسول سبلاً معبدةً إلى قلوب المشركين فيفكروا فيها من جديد.

---

[١١٧] سورة الفتح :آية (٢٧)

[١١٨] ابن الأثير: الكامل جـ٢/٢٢٧/٢٢٨ - الصالحى :سُبل الهدى والرشاد /جـ٥/١٩٤، ١٩٥ - الطيب النجار :القول المبين/٢٧٧،٢٧٨.

[١١٩] بفتح الأول وكسر الثانى،موضع بالحجاز فى شمال مكة،يفصله عنها ستة أميال،يقع بالقرب من وادى فاطمة وحد التنعيم يقوم عنده اليوم مسجد يعرف بمسجد ميمونة زوجة الرسول -ﷺ-ودفنت به ميمونة بسرف كما أوصت،وقد أقيم هذا المسجد فى عصر متأخر،ويرتفع وحده فى الصحراء بعد خروج المسافر من مكة وهو فى طريقة إلى المدينة. - ابن عبد الحق : مراصد الإطلاع /جـ٢/٧٠٨ - أحمد عطية الله :القاموس الإسلامى /جـ٣/٣٠٩.

فكم من مسئ .أقلع عن الاساءة،حين يجد من أساء إليه،يقبل محسناً عليه باسطاً يدى السلامة له،فإذا بالمشركين يأبون قبول هذه المساعى الكريمة،وهى صادرة عن قوى ،جاء بلادهم بأتباعه،فأدى العمرة رغم أنوفهم ،صحيح أنهم،رفضوا ذلك بالأمس،كما رفضوه اليوم إلا أن حالة الداعى لهم بالأمس،تختلف عنها اليوم،فقد كان قبلاً بينهم ضعيفاً،يلاحقونه،وأتباعه أنىَّ كانوا ،و هاهو اليوم مع قوته،يدعوهم إلى ما فيه صلاح لهم،فصموا آذانهم عن دعوته،لينصرف الرسول إلى المدينة فرحاً مسروراً،بعمرة قضاها مع اتباعه،جعلت أنفس المسلمين،تتمتع بمعنويات مرتفعة تختلف عن تلك التى عادوا بها من الحديبية إلى المدينة فى السنة الفائتة،وظل المسلمون، ينعمون بالراحة بعد العودة حتى أذن فيهم مؤذن النبى "محمد" بالتجهيز للخروج إلى "مؤته"[١٢٠].

غزوة مؤتة

إن من يتأمل التوقيت الذى أمر فيه النبى "محمد" أصحابه بالخروج من المدينة إلى الروم يجد الغزوة ثمرةً من الثمار،التى حققها للمسلمين صلح الحديبية،فقد رأيناهم يؤمون "خيبر" ثم يؤدون عُمرة القضاء،ليؤكدوا سيادتهم ويُظهروا قوتهم.

وقد آن لهم الأوان للخروج إلى الروم،الذين شجعوا العرب المتنصرة الموالين لهم،على الكيد للمسلمين وقتل عدد منهم غِيلةً.

---

[١٢٠] بالضم ،وميم واو مهموزة ساكنة،وتاء فوقها نقطتان :إحدى القرى فى جبال الشراة بين الحجاز والشام،قرب أزرح - ابن عبد الحق :مراصد الإطلاع /جـ٣/١٣٣٠ - الترمياتى :أزمنة التاريخ الإسلامى /ق٤/١٠٨٦.

وحين أرسل النبى "محمد" -ﷺ- [١٢١] كتاباً من عنده إلى أحد زعماء هذه الجماعات العربية،فلم يجب عليه ، بل قام بتمزيقه.

لذلك كله رأى رسول الله -ﷺ-ضرورة إرسال هذه القوة الإسلامية الكثيرة التى بلغت ثلاثة آلاف جندى، إلى الروم والعرب المتنصرة الموالين لهم ، ليردوا الاعتداء الذى وقع منهم،على بعض المسلمين عند " طلح ".

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، لتعلم الروم أن العرب المسلمين ، ليسوا على شاكلة العرب الذين شاهدوهم ، وبنوا سياستهم معهم على الإخافة تارة ، والترغيب أخرى،وحتى تكف عن تشجيع العرب الذين داروا فى فلكهم،على التصدى للدعوة الإسلامية تلك التى أصبح التجار المسلمون ، يحدثون بها كل قبيلة ، أو عشيرة أو بطن ، مروا بها ، وهم فى طريقهم إلى بلاد الشام للبيع أو الشراء.

ومهما يكن من أمر ،فإن النبى "محمداً" -ﷺ-"عيّن " زيد بن حارثة" لقيادة الجيش الإسلامى،فإن مات "فجعفر بن أبى طالب" ، فإن مات" فعبد الله بن رواحه"، فخرج المسلمون من المدينة فى جُمَادى

---

(١٢١) جاء الكتاب الذى أرسله النبى محمد للحارث الغسانى:بسم الله الرحمن الرحيم:من "محمد رسول الله"إلى الحارث بن أبى شمر؛سلام على من اتبع الهدى،وآمن بالله وصدق،فإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له،يبقى لك ملكك - أحمد حميد الله:الوثائق السياسية /جـ١٢٦.

الأولى سنة ثمانى للهجرة،فساروا ،حتــى نزلــوا ، "معانــاً"[١٢٢] مــن أرض الشام،فعلموا بواسطة أعينــهم،أن "هِرَقْــل"،حشــد لــهم مائــة ألــف مــن الروم،بالإضافة إلى جماعــات مــن "لخــم" ،و"جُــزام" والقيــن،وبــهراء" ، "وبلــى".

وأمام هذا الموقف العصيب الذى واجه المســلمين،فإنــه كــان علــى قادتــهم،أن يختــاروا أحــد أمريــن:إمــا أن يمضــوا قدمــاً فــى لقائــهم لعدوهم،وإم أن يكتبوا بذلك لنبيهم ،حتــى يمدهــم بمزيــد مــن الرجــال أو بطلب منهم الرجــوع

ولما كان الذين خرجوا من المدينة إلى بــلاد الشــام،قــد اســترخصوا الموت ليفوزوا بالشهادة،ولــم تغــب عــن أعينــهم الانتصــارات المعجــزة التى أحرزوها،على أعدائهم وهم يجــاهدون بحضــور "النبــى محمــد" فــى "بدر" ثم "الأحزاب"،فإنهم فضلوا الأخذ بــالأمر الأول،وكــان "عبــد الله بــن رواحة"على رأس المنتصرين لهذا الرأى،فقد وقــف فــى المســلمين يقــول :(يا قوم والله إن التــى تكرهــون للتــى خرجتــم تطلبــون الشــهادة ومــا نقاتل الناس بعدد ولا قوة،ولا كــثرة،مــا نقاتلــهم إلا بــهذا الديــن الــذى أكرمنا الله به،فانطلقوا فإنما هــى إحــدى "الحســنيين،إمــا ظــهور،وإمــا

---

(١٢٢) ابن كثير :البداية والنهاية /جـ٤/٢٤٢ - الحلبى السيرة الحلبيــة /جـــ٢/٧٨٦ - باشميل :الغزوات الكبرى/جـ٧/٩ د.على سامى النشار :شُهداء الإسلام فى عــهد النبــوة /١٦٠.

شهادة، قال الناس:قد والله صدق ابن رواحة](١٢٣)،فساروا حتى وصلوا "مؤت"،لتدور على أرضها أكبر معركة فى هذا الوقت،بين الروم والمسلمين،وكان من الطبعى،أن تستأصل جُيُوش الروم المسلمين،للبون الشاسع بين الفريقين،فى العدد،والعتاد ناهيك عن وعثاء السفر،إلا أن المسلمين ،قد استطاعوا على قلة عددهم الظهور بمظهر،المستأسدين،أمام الرومان،فلم يؤثر فيهم استشهاد" زيد بن حارثة"،بل على العكس من ذلك زادهم قوةً على قوة،حيث تقدم ،"جعفر بن أبى طالب" وأخذ اللواء بيمينه،فقطعت فأخذه بشماله فقطعت،فاحتضنه،بعضدية،حتى قُتل،وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة،فَأثَابَه وَاللّهُ بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء.

وكان "عبد الله بن رواحة"كسابقيه آلت إليه القيادة،فحمل سيفه،وراح يُجاهد الروم ،حتى جعلوه فى عِداد الشهداء لتؤول قيادة الجيش إلى "خالد بن الوليد" الذى استطاع بمهارة حربية فائقة تضنيل الروم ليعود بمن بقى من المسلمين إلى المدينة(١٢٤)التى خرجت لاستقبالهم فى صورة زادت من آلام العائدين ،فقد راح الناس (يحثون

---

(١٢٣) ابن الأثير: :أسد الغابة /جـ٣/١٣٢ - ابن سيد الناس :عيون الأثر /جـ٢/٢٠٩.

(١٢٤) ابن سعد :الطبقات الكبرى:جـ٢/٩٨،٩٩ - الصالحى: سبل الهدى والرشاد /جـ٦/١٤٩،١٥٠ - الحلبى:السيرة الحلبية/جـ٢/٧٨٨ - السهيلى:الروض/جـ٤/٧٢،٧٣ - على سامى النشار :شهداء الإسلام /١٦٥،١٦٦.

على الجيش التراب ، ويقولـــون يــافرار،فررتــم مــن ســبيل الله،فيقــول رسول الله -ﷺ-:ليسوا بالفرار،ولكنـــهم الكُــرار إن شــاء الله).

وعلى الرغم من أن الجند العائدين،لـــم يقصــروا،فـــى الجـــهاد،فــإن الصــورة التـــى اســتقبلهم،بـــها المدنيـــون،ظلـــت تؤثـــر فيــــهم بعـــد عودتهم،فمنهم من استحى الخـــروج علـــى النـــاس،كـــى لا يعـــير بـــالفرار ،ومنهم من كان يصلى فى بيته،ولا يؤدى الفرض،مـــع النبـــى محمـــد مثـــل "سلمة بن هشـــام" الـــذى رأت أمـــه تخلفـــه عـــن الصـــلاة فـــى جماعـــة المسلمين،فسألت زوجه عن سبب ذلـــك ،فقـــالت لـــها:(والله مـــا يســـتطيع ،ان يخرج كلما خرج صاح به الناس،يافرار،فررتـــم مـــن ســـبيل الله،حتـــى قعد فى بيته فما خـــرج)[١٢٥] .

وهكذا رأى القارئ صدور العائدين،قد ضـــاقت بســـبب مـــا كـــان مـــن أمرهم،"فى"مؤته"،وصاروا يرقبون الفـــرج القريـــب الـــذى يســـتطيعون بـــه جعل المسلمين،ينسون ،ولو مؤقتاً أمر " مؤته" فكـــان الفتـــح المبيـــن.

---

[١٢٥] الطبرى :تاريخ الرسل والملوك /جـ٣/٤٢ - ابن الأثـــير :الكـــامل/جـــ٢/٢٣٨ - الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٦/١٥٦.

الفصل السابع

من الفتح المبين – إلى وفاة سيد المرسلين

الذى لا ريب فيه،أن فتح مكة يُعَدُ بدايةً المرحلة جديدة من مراحل تاريخ الدولة الإسلامية،نظراً لأن صناديد الكُفر،أسلموا بعده،فآلت قيادة بلادهم إلى الرسول الأمين،فصار لزاماً على بقية القبائل الضاربة فى شبه الجزيرة العربية المبادرة إلى إعادة حساباتهم،فى موقفها من النبى محمد -ﷺ-، فكان منها من رأى الاستمرار فى المجابهة والتصدى لدعوته،لعلها تنجح فى ذلك،فتَسُوُد به فى العرب،بعد قريش التى أخفقت فى تحقيق مآربها ومنها من رأى،ألا جدوى من التصدى للدين الجديد،بعد الذى أنزله محمد -ﷺ- بقريش ، فراحت تعمل على إرسال وفودها إلى معلنة دخولها الإسلام.

ومن ثمَّ كانت مكة محوراً لهذه المرحلة الجديدة التى بدأت ، بفتحها، وانتهت بحجة الوداع التى علّم النبى فيها المسلمين نسكهم ثم وفاته -ﷺ-لذلك كله،رأيت أن يكون،هذا الفصل مُتضمناً، للفتح المبين، وما أعقبه من غزوات لسيد المرسلين ثم عام الوفود،وحجة الوداع،ثم وفاته -ﷺ- .

فتح مكة

لم يكن أحد فى ذلك الوقت الذى،تتناوله الدراسة يعتقد أن المسلمين،يدخلون مكة بعد سبع سنوات وبضعة أشهر،انقضت على خروج الرسول منها، لما لقريش من سيادة على القبائل العربية تلك

التى لم تتجرأ قبيلة ما !!على عـدم الإقـرار بـها،فكيـف "لمحمـد" ومـن معه القضاء على هذه السيادة المبنية علـى وجـود الأوثـان عنـد البيـت الحرام،وهو من هو فى قلة أتباعـه وعتـاده.

مـا أومأنـا إليـه كـان مـن قبيـل المسـلّمات التـى لا يسـتطيع عـاقل،ينظـر الأمـور نظـرة المقـارن،بيـن الفريقيـن مـن النواحـى المادية،نفيـها، إلا أن الله جـلَ عـلاه، أعـان المسـلمين ليفتحـوا البلـد الأمين نتيجة أمر عظيم،قام به المشـركون، ليجعلـوا منـه سـبباً معقـولاً ،مقبولاً،يستند إليه المسـلمون فـى تجريـد الجيـوش إلـى مكـة،حتـى يطهروها من الوثنية التى طال – أمد مكثـهاَ عنـد البيـت الحـرام،الكـائن بين جنباتها،فإن صلح "الحديبية" الذى ذكرنـاه،قـد نظـم لسـنوات عشـر العلائق، بين قريـش والمسـلمين،ومـن دار فـى فلكـهما مـن القبـائل العربية،فحرم على كلا الفريقين القيام بـاعتداء،أو اسـتفزاز علـى الفريـق الآخر .

بيد أن قريشاً قد نقضت غزلها حيـن،أقبلـت،ثلـة مـن أهلـها،علـى بنى بكـر الأعـداء الألـداء للخزاعيـن الذيـن انضمـوا "لمحمـد" -ﷺ-، فباغت البكريون، ومن معـهم مـن القرشـيين ، الخزاعييـن عنـد مـاء "الوتير"، فأعملوا السيف فيـهم،فقتلـوا ،وأصـابوا مـن الخزاعييـن،مـا أصـابوا.

فكان من الطبعى،والحالـة هـذه،أن يُسـيرَّ الخزاعيـون رجـالاً مـن عندهم إلى رسـول الله -ﷺ- ، حتـى يطلعـوه علـى الأمـر،ويطالبونـه الوفاء بحلفه معـهم.

ومما هو جدير بالذكر هنا،أن حلف الخزاعيين،مع النبى محمد -ﷺ-يوم الحديبية قد كان امتدادا لحلف أبرموه مع بنى هاشم قبل بعثة النبى -ﷺ- ، الذى كان فيه:"باسمك الله،هذا حِلفُ " عبد المطلب بن هاشم" لخزاعة، إذ قَدُم عليهَ سَرَوَاتُهم وأهل الرأى،غائبهم،مقرٌ بمَا قَاضَى عَلَيْه شاَهِدُهُم، إنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم عهوَد الله وعقودَه،وما لا يُنْسَى أبداً،اليدُ وَاحِدة،والنصرُ وَاحِدُ، ما أشرف ثبير[1] وثبت حراء مكانه، ومابلَّ بحر صوفة[2]

ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبد الدهر سرمداً "فقال رسول الله -ﷺ-لما جاؤه بحلفهم هذا :(ما أعرَفَنِى بِحَلْفكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا أَسلَمْتم عَليْه مِنَ الحَلفِ فكل حلفٍ كَانَ فى الجَاهِلِيَّةِ فلا يزيده الإسلام إلاَّ شِدةً ولا حِلْفَ فى الإسلامِ](٣).

---

(١)ثبير:بثاء مثلثة،فموحدة فتحتية،وزن عظيم جبل بمكة (الصالحى سبل الهدى والرشاد جـ٥/صـ٢٧٥.

(٢) ما بلَّ :يراد بها أبدية الحلف،أما صوفة فهى تطلق على شئ يوجد فى صدفة كبيرةعلى قدر يد الإنسان، أعلاها عريض وطرفها دقيق إلى الطول ما هو كأنه فم طائر،ظاهرها خشن،فيه زوايا طويلة نائتة،منها دقاق،ومنها ما يكون فى غلظ أقلام الكتاب،فارغة الداخل.- ولون الصدفة داكن اللون،وداخلها لونه أصفر مليح ==المنظر يميل إلى لحُمرة ما هو، وفى داخل الصدفة حيوان مؤلف من أشياء تشبه الأعصاب ولكن الأبيض والأسود كنبات اللوبيا ، قائم غير معوج المصير ،وفى الطرف من المصير مما يلى الطرف الحاد من الصدفة يكون الصوف المعروف خلفه عجيبة للخلاق العظيم سبحانه وتعالى محمد حميد الله/ الوثائق السياسية ٥٨٦، ٦١٦، ٦١١٧.

(٣) الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٢٠٠.

ولم يكن هذا الأمر الـذى يغيـب عـن صنـاديد مكـة،فَسَـيَّروا إلـى المدينة "أبا سفيان" ليلقـى النبـى "محمـدا،حتـى يزيـد فـى مـدة صُلـح الحُديبية،ويقف على ما إذا كانت خُزاعـة "، أرسـلت للنبـى محمـد -ﷺ- منْ يُبلغه بالذى كان من قريش،وبنـى بكـر مـع خزاعـة أم لا،كـى تعـد قريش للأمر عدتـه.

فبينما يسير "أبو سفيان"، فى الطريق إلى المدينـة،لقـى بديـل[٤]بـن أبى ورقاء الخز اعى" ومَنْ معه وهم فـى طريـق عودتـهم مـن المدينـة إلى ديارهم فسأله أبو سفيان قال: من أين أقبلت يا بديـلُ؟ فظن أنـه أتـى النبى محمد -ﷺ-، فقال سرت فى خزاعة فـى هـذا السـاحل وفـى بطـن الوادى،قال:أو ما جئت محمداً؟ قـال:لا .فلمـا راح بديـل إلـى مكـة،قـال "أبو سفيان" لئن كان جاء المدينة لقـد علـف بـها النـوى،فـأتى مـبرك راحلته،فأخذ من بعرها،ففته،فرأى فيها النـوى،فقـال :أحلـف بـالله لقـد جاء "بديل" محمـداً".

ثم خرج "أبو سـفيان" حتـى قـدم المدينـة،فدخـل علـى ابنتـه "أم حبيبة" رضى الله عنها فلما ذهب ليجلـس علـى فـراش رسـول الله -ﷺ- ، طوته عنه،فقال:يا بنية مـا أدرى،أرغبـت بـى عـن هـذا الفـراش،أم رغبـت بـه عنـى؟قـالت: بـل فـراش رسـول الله-ﷺ-وأنـت مُشـرك نجس،فقال:والله لقد أصابك بعـدى شـر.

---

(٤) ابن عمرو من ربيعة الخز اعى - أسلم يوم فتح مكة بمر الظـهران - وشـهد حنيـن والطائف وتبوك - توفى فى حياة النبى،ابن الأثير :أسد الغابة /جـ١/٢٣٦.

ثم خرج،حتى أتى رسول الله -ﷺ-، فكلمه فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى "أبى بكر"، فكلمه أن يكلم رسول الله -ﷺ-فقال: ما أنا بفاعل ،ثم أتى "عمر بن الخطاب" فكلمه ،فقال:أنا أشفع لكم إلى رسول الله -ﷺ-؟فو الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به،ثم جاء فدخل على "على بن أبى طالب " وعنده فاطمة "والحسن غلام يدب بين يديهما،فقال:يا "على" انك أمس القوم بى رحماً،إنى قد جئت فى حاجة،فلا أرجعن كما جئت خائباً،أشفع لى إلى محمد،فقال:ويحك يا أبا سفيان" والله لقد عزم رسول الله -ﷺ-على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.فالتفت إلى فاطمة،فقال:هل لكِ أن تأمرى بنيك هذا، فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟قالت:والله ما يبلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس،وما يجير أحد على رسول الله -ﷺ- قال:"يا أبا الحسن إنى أرى الأمور ،قد اشتدت علىَّ،فانصحنى،قال:والله ما أعلم لك شيء يغنى عنك، ولكنك سيد بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس،ثم الحق بأرضك،قال: أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً،قال: لا والله ما أظنه،ولكن ما أجد لك غير ذلك،فقام "أبو سفيان فى المسجد،فقال:أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس[٥]].

لما عاد "أبو سفيان"إلى مكة، يجر ذيول إخفاق سفرته إلى المسلمين،أوقف قومه على ما دار من حوار بينه،وبين غير واحد من المسلمين،فأصبحت قريش،وقد لام بعضها بعضاً،على ما كان من نقضها لعهدها مع المسلمين،وإذا كانت هذه حالة المكيين،فإن الأمر كان على النقيض،من ذلك فى المدينة المنورة،فقد أخذ الجميع

---

[٥] ابن هشام :سيرة النبى /جـ١٣،١٢/٤ - ابن كثير :البداية والنهاية /ج٤ / ٢٨١ ،٢٨٢- ابن القيم:زاد المعاد جـ٣٩٨،٣٩٧/٣.

يستعدون للفتح المبين،بعدما وقفوا على نقـض قريش لعهدها وبـالرغم من عموم ذيوع ذلك الشعور ،والوقوف على ما أزمـع عليه النبى،فـإن أحداً من المسلمين لم يسمح للسانه بـالخوض فيه والحديث،مع الآخرين عن الاستعدادات للخروج،قبل أن يـأذن النبى لهم بذلك،لأن النبى "محمداً،رأى أن يكون ذلك الاستعداد من السرية بمكان حتى يباغت قريشاً،وآيه ذلك ما روى،أن "أبـا بكر الصديق"،حين أمّ بيت "النبى محمد -ﷺ-وجد "عائشة أم المؤمنين "[عندها حنطة،تنسف،وتنفى ،فقال لها يا بنيةَ،لم تصنعين هذا الطعام؟فسكتت،فقال:أيريد رسول الله -ﷺ- ، أن يغزو؟فصمتت،فقال:يريد بنى الأصفر،وهم الروم فصمتت قال :فلعله يريد أهل نجد:؟فصمتت قال:فلعله يريد قريشاً؟فصمتت،فدخل رسول الله -ﷺ-، فقال له:يا رسول الله،أتريد أن تخرج مخرجاً؟فقال:نعم،قال فلعلك تريد بنى الأصفر قال:لا؛قال:أتريد أهل نجد قال:لا قال فلعلك تريد قريشاً ؟قال:نعم،قال أبو بكر:يا رسول الله أليس بينك بينهم مدة؟قال:ألم يبلغك ما صنعوا ببنى كعب].

فلما تجهز رسول الله -ﷺ- قال:[اللهم خذ على أبصارهم ،فلا يرونى إلا بغتة [٦]!).

وبينما يتأهب المسلمون للخروج،إذا بموقف يحدث يكون فيه آية، ولصاحبه زلة وسوس بها الشيطان إليه،فأعلى بها قرابته على دينه،ذلك الذى كان من "حاطب بن أبى [٧]بلتعة".

---

(٦) ابن سعد:الطبقات الكبرى /جـ٢/١٠٢ - ابن كثير:البداية والنهاية/جـ٤/٢٨٣ - ابن حجر :فتح البارى/جـ٧/٥٩٣.

(٧) ابن عمرو بن عمير اللخمى،أرسله النبى -ﷺ-رسولا إلى المقوقس سنة ست للهجرة،روى عن رسول الله أحاديث -توفى سنة ثلاثين للهجرة،وصلى عليه عثمان بن

زلة صحابى وموقف النبـــى

أراد "حاطب بن أبى بلتعة" اغتنام فرصـــة تجـهيز المسـلمين،لقصـد القُرشيين،فيجعل منها يداً على المكيين تساعده فـــى رفـــع مكانتــه،بينـــهم حيث كان من أهل اليمن ،ولـــه حلــف بمكـــة فـــى "بنـــى أسـد بـــن عبـد العزى"رهط "الزبير بن العوام"فلمـــا قدمـت "سـارة"زوج"أبـى عمـرو بـن صيفى بن هاشم بن عبد مناف "من مكة إلى المدينـــة التقاهـــا" حـــاطب بـــن أبى بلتعة"فقال لها:أعطيــك عشــرة دنـــانير،وبــرداً علـــى أن تبلغــى هــذا الكتـــاب إلـــى أهــل مكـــة، وكتــب فـــى الكتـــاب،إن رســـــول الله -ﷺ- يريـدكم،فخذوا حذركم ،فخرجت "سارة" ونـــزل جــبريل،فـــأخبر النبـــى -ﷺ- ،بذلـك،فبعـث "عليـــا"والزبـــير"،وأبـــا المرثـد الغنـــوى،وكـــانوا كلــــهم فرسـاناً،وقال لــــهم. [انطلقـــوا حتـــى تـــأتوا "روضـــة[٨]خـــاخ" فـــإن بـــها طعينه ،ومعـــها كتـــاب "حـــاطب" إلـــى المشـــركين ،فخـــذوه منـــها،وخلـــوا سبيلها،فـــإن لـــم تدفعـــه لكـــم فـــاضربوا عنقـــها]،فأدركوهـــا فـــى ذلـــك المكان،فقالوا لها:أين الكتاب ؟فحلفت مـــا معـــها كتـــاب،ففتشـــوا أمتعتـــها ،فلم يجدوا معها كتاباً،فهموا بـــالرجوع،فقـــال "علـــى":والله مـــا كَذَبْنَـــا ولا كَذَبْنَا! وســـل سـيفه وقـــال: أخرجـــى الكتـــاب وإلا لأجردنـــك ولأخريـــن عنقك،فلمـــا رأت الجـد أخرجتـــه مـــن ذؤابتـــها عقـــاص شـــعرها فخلـــوا

عفان رضوان الله عليهما – ابن الأثير:أسد الغابة/جـ١/٤٩١،٤٩٢ – ابن حجر :تـــهذيب التهذيب/جـ٢/١٦٨.

[٨] موضع بالقرب من المدينة فى الطريق إلى مكة بقرب حمراء الأسد،عرف بهذا الاســـم لما به من أشجار وزرع ابن عبد الحق:مراصد الاطلاع/جــــ١/٤٤٤-أحمـــد عطيـــه الله :القاموس الإسلامى /جـ٢/١٩٦.

سبيلها،ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله-ﷺ- ،فأرسل إلى "حاطب" وقال له : (هل تعرف الكتاب؟ قال:نعم[٩]، فسأل النبى محمد -ﷺ- "حاطباً" عن الدواعى التى جعلته يكتب إلى المكيين فقال معتذراً يا رسول الله،إنى كنت أمرأ ملصقاً فى قريش،يعنى حليفاً،ولم أكن من أنفسها،وكان من معك من المُهاجرين،من لهم قرابة،يحمون بها أهليهم وأموالهم ،فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم،أن أتخذ عندهم يداً،يحمون بها قرابتى بها،ولم أفعله ارتداداً عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام).

وكان "عمر بن الخطاب" رضوان الله عليه،ممن شاهدوا حوار النبى"محمد"مع البدرى"حاطب بن أبى بلتعة"فثارت ثائرته،وقال لرسول الله -ﷺ-:ائذن لى حتى أضربه بسيفى،فإن الرجل قد نافق فيأبى النبى -ﷺ-على الفاروق إشهار حسامه،فى وجه أخيه،فى الدين،وينطق بلسانه الكريم،بألفاظ،تحمل العفو عن "حاطب"،فقال "لعمر" ومن معه من المسلمين الحاضرين للتحقيق مع "ابن أبى بلتعة": "إنه قد صدقكم،ولا تقولوا له إلا خيراً[١٠]

ولقد جذب هذا الموقف الكريم لسيد المرسلين،أقلام الكثير من الباحثين فوقفوا أمامه ليُبرزوا العبر والمعانى العظيمة لقرائهم،حتى يجعلوا من سياسة نبيهم،فى أتباعه قدوةً لهم، وهم يتعاملون مع مرءوسيهم أو قرنائهم.

---

[٩] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك/جـ٣/٤٨،٤٩ - الزمخشرى :الكشاف/جـ٤/٥١١،٥١٢- القرطبى:تفسيره/جـ١٠/٦٧٧٤،٦٧٧٧ - السهيلى:الروض الأنف /جـ٤/٩٧ الحلبى:السيرة الحلبية/جـ٣/١٠/١١.

[١٠] ابن الجوزى المنتظم /جـ٢/٣٩٢،٣٩٣ - ابن الأثير :الكامل /جـ٢/٢٤٢.

فعلى سبيل المثال لا الحصر ،ما ذكره أحدُهم في معرض تعقيبه على عفو النبي "محمد" عن "حاطب" (أنه لم يكن منافقاً ولا ضعيف الإيمان، بتزكية الرسول له،ولكن في النفس الإنسانية جوانب ضعف،تطغى عليها في بعض الأحيان،وتهوى بها إلى ما لا ترضاه لنفسها،وكل بني آدم خطاء، وما كان هذا الضعف الإنساني،ليخفى على صاحب القلب الكبير، والقوى الأمين،، صاحب الخلق العظيم،فلا تتعجب إذا كان الرسول صدقه فيما قال، ورحم ضعفه،ونافح عنه، والقوى حقاً هو الذى يرحم الضعفاء ،والعظيم حقاً هو الذى يلتمس المعاذير لمن يستزلهم الشيطان في غفوة من صدق الإيمان،ووازع الضمير!!([11])] يضاف إلى ما تقدم أن عفو رسول الله عن "حاطب" قد كان بناء عن آيات نزل بها جبريل الأمين على سيد المرسلين فقد قال تعالى:[يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ) إلى قوله سبحانه (فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ([12])].

فأنت ترى الآية،تُدْخِلُ "حاطباً" في المؤمنين وما فعله والحالة هذه مع عظمته يعد هيناً بالنسبة لكثير قَدَّمَهُ،في سبيل إعلاء شأن الدين ،فحسبه – رضوان الله عليه أنه بدري وأن الله أطّلع على أهل بدر ،فقال لهم على لسان نبيه:قد غفرت لكم.

([11]) أبو شهبة/ السيرة النبوية /جـ٢/٤٣٨،٤٣٩.

([12]) سورة الممتحنة : آية (١).

وإن كان لى من عبرة،أبرزها بعــد الــذى ذكــرت فــهى أن الصــدق الذى تحدث به"حاطب"مع النبى كان عاملاً من العوامــل التــى أنجتــه مــن عقاب،ينزل به،بسبب إفشاء أســرار الدولــة الإســلامية لعدوهــا،فينبغــى على كل من يقرأ هذه القصة،إدراك مــا للصــدق مــن قيمــة فــى تفريــج الضوائق كما أن موقف الصحابة رضــوان الله عليــهم،مــن المــرأة التــى حملت الرسالة وعدم التعرض لها،بــأذى بعــد مــا ظفــروا منــها بكتــاب "حاطب" ليدلنا على أن أتبــاع رســول الله ﷺ- ، لــم يجاوزهــا حــداً،ولــم يريقــوا دمــاً،دون داعٍ يدعوهــم إلــى ذلــك وهــم يجــاهدون أعداءهــم ويؤمنون دولتهم بالذب عن دينهم،مع أنهم لو فعلوهــا، مــا لا مــهم أحــد على فعلهم،فقد كان منهم من قــدم لــها الأعطيــات لســد حاجاتــها،حيــن سألت النبى مالاً لتقتات به،ناهيك عن الضرر الــذى كــانت،ستتســبب فيــه لو أنها نجحت فى إيصال رسالة "حاطب" إلــى المكيين،فــهى بــهذا تعــد معتدية على المسلمين مستحقة للعقاب الذى أنزلــه بــها،بعــد ذلــك ســيد المرسلين حين جعلها عند الفتح من الذين أبــاح للمســلمين دمــاءهم كمــا ســأبينه[١٣].

وعلى كل حال فإن النبــى والذيــن ،آمنــوا بــه ،مضــوا قُدُمــاً،فــى تجهيزاتهم للخروج من المدينة إلــى أم القــرى.

خروج النبى لفتح مكــة

أجمع رجالات السيرة،على أن خروج النبــى محمــد مــن دار هجرتــه إلى مكة المكرمة،قد كان فــى شــهر رمضــان ســنة ثمــانى للــهجرة،وأن عدداً من القبائل العربية، قــد ســعت لإرســال رجالاتــها للانضمــام إلــى الجيوش الإســلامية.

---

(١٣) القرطبى:الجامع لأحكام القرآن /جـ١٠/٦٧٧٤،٦٧٧٥.

فكان خروج الجيش الإسلامى للقاء قُريش مُساويًا فى عدده وعتاده لتلك الجيوش التى أشخصتها قريش إلى المدينة،يوم الأحزاب،مع أن الفارق كبير بين الجيشين،فقريش حين جاءت،بجيوشها،لم يكن جندها وجند القبائل التى آزرتها موحدى الأهواء،كما قلنا بخلاف جيش الفتح الذى خرج من المدينة وقد عَمر الإيمان أفئدة رجاله،فهم إذن على غاية واحدة وهى إعلاء شأن الدين،،وفوق ذلك فإن أخبار المشركين قد جاءت المسلمين،وهم بالمدينة قبل مجيئهم إليها فترة سمحت لهم بالخندقة،حولها،حتى يحفظوها من أعدائهم.

أما قريش فإن أخبار النبى "محمد"،ظلت معماة عليها،لا تدرى له وجهة ولم تقف له على غاية،فإن الصلح المبرم بينها وبينه،جعلها فى حيرة من أمرها،بالرغم من نقضها له.

فإن رسول الله ﷺ-بعدما وقف على خُلف قريش واعتدائها على حلفاء المسلمين،عقد الخناصر على مباغتتها،لأن من كان على شاكلة المشركين ،فى نقض العهود لا ينبذ إليهم بالحرب.لأنهم صاروا بالنقض معتدين" ومن اعتدى عليكم ،فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" بذلك أمر رب العالمين المسلمين الذين استمروا،فى سيرهم إلى مكة،فكانت تنضم إليهم كثير من الجماعات،بعدما أعلنت دخولها فى الإسلام ،مثل "بنى غفار فى أربعمائة،ومن "مزينة"ألف وثلاثة نفر،ومن "بنى سليم" سبعمائة،وغيرهم من الجماعات الأخرى، حتى أناخوا

الرجال فى ممر الظهران ،وأمرهم النبــــى بإشــعال النــيران،فكــانت عــدد نيرانهم عشرة آلاف الأمر الذى أصـــاب المكيين بــالذعر،فأرســلوا مــن قبلهم من يقف على خبر هذه النيران،التى لــم يســبق لـــهم أن رأوا نظــيراً لها،فخرج "أبو سفيان بن حرب"،"وبديــل بــن ورقــاء الخزاعــى " لينظــرا الأمــر[١٤].

وكان العباس عم النبى محمــد -ﷺ-قــد تــرك مكــة يريــد المدينــة حــاملاً معــه مالــه وولــده فالتقــاه رســول الله ﷺ-وهــو فــى وجهتــه إليها،فرده وأذن لرحلة بالمضى قدماً إلــى المدينــة فلمــا رأى مــن كــثرة العدد والعتاد،رقَّ فؤاده للمكييــن فخــرج،وهــو يركــب بغلــة رســول الله يلتمس حطاباً أو راعياً حتى يُحمّلـــه إلــى المكييــن،رســالة تحذيــر مــن الاســتمرار فــى ركــوب رؤوســهم وإفســاح المجــال للشــياطين،حتـــى توسوس لهم،ونصحهم،بأن يــأتوا مُحمــداً" مســتأمنين كــى لا يُســتأصلوا عن أخرهم،بسيوف المســلمين،فبينمــا هــو كذلــك ســمع صــوت "أبــى سفيان" وهو يحاور "بديل بن ورقاء"فى أمــر هــذا الجيــش الجــرار الــذى جاءهم به "محمد" ﷺ-فعــرف العبــاس صوتــه،فنــاداه،فلمــا لقيــه "أبــو سفيان" قال "للعباس":والله مالك، فداك أبــى وأمــى؟،فقــال "العبــاس":هــذا رسول الله ﷺ-فى الناس ،والصباح قريش والله!لئــن ظفــر بــك ليضربــن عنقك،فاركب فــى عجــز هــذه البغلــة حتــى أتــى بــك رســول الله ﷺ-

---

(١٤) ابن الأثير:الكامل /جـ٢/٢٤٤ – هيكل :حياة محمد/٤٢٠ –عبد الشــافى وآخــرون – التاريخ الإسلامى ١٠٥: ١٠٦.

فأستأمنه لك ،فركب خلفى،ورجع صاحباه قال:العباس فجئت به،فكلما مررن به على نار من نيران المسلمين قالوا من هذا ،فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا:عم رسول الله ﷺ-(على بغلته)، حتى مررت بنار "عمر بن الخطاب"فقال: من هذا؟وقام إلىَّ،فلما رأى "أبا سفيان" على عجز الدابة قال:"أبو سفيان" عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك،بغير عقد ولا عهد ،ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ-، ودخل عليه،ودخل "عمر بن الخطاب"،فقال:يا رسول الله!هذا "أبو سفيان"قدعنى أضرب عنقه،قال العباس:يا رسول الله إنى قد أجرته[١٥]].

فلما كانت صبيحة الغد ،أتى "العباس" النبى "محمداً" "بأبى سفيان"، فبدأه النبى محمد "بالحوار الذى فيه من الموعظة الحسنة،ما فيه، لعله يُسلم، فيحقن دمه،فقال له النبى :(ويحك يا "أبا سفيان"!، ألم يأن أن تعلم،،أن لا إله إلا الله؟. قال:بلى،يا بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لو كان مع الله غيره،،لقد أغنى عنى شيئاً،فقال:ويحك ألم يأن لك (أن تعلم) أنى رسول الله؟ فقال :بأبى أنت وأمى. أما هذه ففى النفس منها شئ،قال "العباس" "لأبى سفيان": ويحك،تشهد شهادة الحق،قبل أن تُضرب عنقك!، قال :فتشهد،وأسلم معه"حكيم بن حزام"وبديل بن ورقاء").

وأراد النبى محمدﷺ-أن يُرىَ "أبا سفيان" القوة التى أصبح المسلمون عليها،بسب اعتزازهم بدينهم، وإيمانهم بنبيهم،فلا يفكر فى

---

(١٥) ابن هشام:سيرة النبى/جـ٤/٢٠،٢١ - ابن القيم :زاد المعاد/جـ٣/٤٠١، ٤٠٢.

الغدر ،وهذا يعد ضرباً من ضروب الحرب المعنوية التي يهتم بها قادة عصرنا الحديث في حروبهم لأعدائهم ،هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى،ليجعل منه لسان صدق لقومه،فيخبرهم في صدق بما للمسلمين من قوة تفنى قريشاً بالسيوف،لو أنها أزمعت منازلتهم ،فيحقن ذلك دماء القوم،ويحفظ للبلد الأمين حرمته ،فأمر رسول الله "العباسي" "أن يذهب" أبا سفيان" إلى مكان عينه له حتى يشهد عرضاً عسكرياً،للجماعات المسلمة قبل منصرفة إلى قومه بمكة فكلما مرت عليه جماعة مدرعة بالحديد سأل عنها فيجيبه "العباس"،حتى قال "أبو سفيان" لعم النبي قوله المأخوذ المبهور،بما رأى:(لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!.. فقال يا "أبا سفيان "إنها النبوة،قال :نعم إذن فقال له "العباس": الحق بقومك سريعاً فحذرهم)[١٦].

فأنت ترى في عبارة "أبي سفيان" ما يدل على أن إسلامه كان في بدايته على غير اقتناع الأمر الذي يستبين لنا معه أهمية النتيجة التي ترتبت على رؤيته للعرض العسكري فإنه ما كاد يصل إلى مكة،حتى أنشأ ينادي في أهلها،من دخل داري فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ،ومن أغلق بابه فهو آمن ، ثم قال :(يا معشر قريش،أسلموا تسلموا فأقبلت امرأته "هند" فأخذت بلحيته،وقالت يا آل غالب:اقتلوا هذا الشيخ الأحمق،فقال:أرسلي لحيتي،وأقسم لئن لم تُسلمي لَتُضْرَبَنَّ عنقك ،ادخلي بيتك ،فتركته وذهبت)أتت هذه الكلمات

---

[١٦] ابن الأثير :الكامل /جـ٢/٢٤٥،٢٤٦ – ابن كثير البداية والنهاية /جـ٤/٢٩٠،٢٩١– الفاسي:العقد الثمين /جـ١/٢٦١.

التى قالها،زعيم قريش فى المكيين،ثمارها المرجوة،فدخلوا دورهم،وأغلقوا أبوابهم،وبدت المدينة،وقد فتحت ذراعيها،لاستقبال الموحدين الذين جاءوها حتى يخلصوها من رجس الوثنية الأثيم،ويعيدوا إليها دين أبى الأنبياء "إبراهيم" على يدى سيد المرسلين ،الذى جعل الله دينه خاتماً للأديان،فوضع رسول الله ﷺ خطة اقتحام مكة بشكل حكيم،مما قلل من إراقة الدماء فى أهلها[١٧].

دخول المسلمين مكة

جعل النبى "محمد" جنده،يدخلون مكة من جهات عدة فى جماعات جعل على رأس كل واحدة منها رجلاً من كبار قادة المسلمين.

فأرسل "الزبير بن العوام"أميراً على خيل المهاجرين والأنصار،وأمر أن يضع رايته بالحجون فى أعلى مكة،ولا يبرح مكانه،حتى يأتيه النبى ﷺ وأما "خالد بن الوليد" فإن رسول الله،جعله على من أسلم من قضاعة و"بنى سليم" وأمره أن يدخل مكة من أسفلها،فقاتل" خالد بن الوليد" من تصدى له،من الأحابيش،وبعض رجالات قريش وأتى بسيفه على أربعة عشر رجلاً،ممن كانوا آلوا على أنفسهم التصدى للنبى "محمد"،حتى يمنعوه من مكة، فما توا فداءً

---

[١٧] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك /جـ٣/٥٤ - باشميل:الغزوات الكبرى: جـ٨/١٥٢،١٥٣، الجزائرى:هذا الحبيب محمد /٣٩٤ - عبد العزيز الشناوى - نساء الصحابة /٣١٣.

للوثنية التى اعتقدوها من دون الله(١٨)،نافعة وضـــارة،فمـا أغنـت عنـهم فى هذا اليوم شيئاً،وأقبل:أبـــو عبيـدة" فـى جـم غفـير مـن المسـلمين يُحيطون رسول الله" ﷺ وهو يدخل مكة،فلمـا دخلوهـا أقـام رسـول الله"ﷺ فى قبة نصبت له،وقـد أخـذ المكيـون يفـدون إليـه جماعـات معلنيـن الطاعة،نـابذين مـن الوثنيـة،فكـان يومـاً عظيمـاً فـى تـاريخ الدولـة الإسـلامية .

وكـان النبـى "محمـد" ﷺ قـد أبـاح دم رجـال ونسـاء مـن المكيين،فأمر جيوشه بقتل من وجـدوه منـهم،ولـو كـان لائـذاً بأسـتار الكعبة ،لعظيم الجرائم التى ارتكبوها،ومن هؤلاء:"عبـد الله بـن سـعد بـن أبى السرح". الذى كان كاتباً للوحى،فإذا به يرتد عـن الديـن،ويزعـم أنـه حّرف على النبى،ما كان يمليه عليه من كتـاب الله،فلمـا رأى النبـى ومـن معه يدخلون مكة،التجأ إلى "عثمان بـن عفـان" فسـعى بـه إلـى رسـول الله، حتى أمنه وحفظ دمه ،فتاب وقام بأعمال جليلـة فـى ميـادين الجـهاد بعد ذلـك.(١٩)

ومنـهم "الحويـرث بـن نُقَيـذ " الـذى بـالغ فـى إيذائـه للنبـى "محمد" وبنته "زينب" فاهدر النبى دمـه فلمـا رأى المسـلمين قـد دخلـوا مكة التجأ الى بيته و أغلق بابه فلاحقه "علـى" حتـى يظفـر بـه إذ كـان صحابة رسول الله ،يتنافسون ،فيما بينـهم علـى تنفيـذ ،أوامـر رسـول الله ،فسبق عليا" غيره الى "الحويـرث" فقتلـه.

(١٨) الطبرى:تاريخ الرسل والملوك جـ٣/٥٧ - ابن سيد الناس :عيون الأثر/جـ٢/٢٣٦.
(١٩) ابن الأثير :أسد الغابـة /جـ٣/١٥٤،١٥٥ - د.محمـد الأعظمـى :كتـاب النبـى /جـ١٦:٨٤.

وثالث أهل مكة الذين أهدر النبــــى "محمــد" "ﷺ" دمـــهم"مقْيَــسُ بــن صُبَابة "الذى كان أسلم،ثم أتـــى علـــى رجـل مـــن الأنصـــار،فقتلـــه،وكـــان الأنصارى قتل أخاه "هشاماً" خطأً،فـــى غـزوة ذى قَـرد ظَنَّـــه مـــن العـدو فجاء مقيس فاخذ الدية،ثم قَتَلَ الأنصارى،ثم ارتد،فقتلـــه "نُميلـــةُ بـــن عبـد الله "يوم الفتح.أما النسوة اللواتى أهـــدر النبـــى محمـــد دمائــــهن فمنــــهن ، سارة مولاة عمرو بن هاشم بن المطلب بن عبـــد منـــاف، وكـــانت مغنيـــةً نواحةً بمكة،وكانت قَدِمَتْ على رســـول الله "ﷺ"قبـل الفتـــح وطلبـــت منــــه الصِّلة وشكت الحاجة.فقـــال رســـول الله "ﷺ"(مـــا كـــان فـــى غنـــائك مـــا يغنيك؟) فقالت :إن قريشاً منذ قتل مــــن قتـــل منــــهم ببـــدر تركـــوا الغنـــاء فوصلها رسول الله "ﷺ"وأوقر لــــها بعـــيراً طعامـــاً،فرجعـــت إلـــى قُريـــش وكان ابن خطل يلقى عليها هجاء رســـول الله "ﷺ" فتغنـــى بـــه.

وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان بن حرب،وهـــى التـــى شـــقت عـــن كبد حَمْزة بن عبد المطلب عمَّ رسول الله "ﷺ" فأســـلمت فعفـــا عنــــها.

وأرنب مولاه ابن خَطَل وقينتان لابـــن خَطـــل ،كانتـــا تُغنيـــان بـــهَجْو رسول الله "ﷺ" إسم إحداهما فَرْتَنى،والأُخـــرى قَرِيبَـــة فســـتؤمن لإحداهمـــا فأسلمت وقتلت الأخرى وقيل إن فَرْتَنـــــى هـــى التـــى أســـلمت وأن قريبـــة قتلـــت[٢٠].

وعلى كل حال،فإن النبى "ﷺ" لما دخل "مكـــة" طـــاف بـــالبيت.وحـــول الكعبة ثلاثمائة وســـتون صنمـــاً،فجعـــل كلمـــا مـــر بصنـــم منــــها يشـــير إليه،بقضيب فى يده وهو يقول:"جـــاء الحـــق وزهـــق البـــاطل،إن البـــاطل

---

(٢٠) المقريزى:إمتاع الأسماع/٢٨٠- الصالحى:سبل الهدى والرشـــاد/جـــ٥/٢٢٤،٢٢٥، ٢٢٦ - المباركفورى الرحيق :المختوم/٤٥٧،٤٥٨.

كـــان زهوقـــا "فيقـــع الصنـــم لوجهـــه،ثـــم جـــاء المقـــام وهـــو لاصـــق بالكعبة،فصلى خلفه ركعتين ،ثم جلس ناحيةً مـــن المســـجد،وأرســـل بـــلالاً إلى "عثمان بن طلحة" أن يأتى بمفتاح الكعبـــة فجـــاء بـــه عثمـــان فقبضـــه رسول الله"ﷺ" وفتح الباب ودخـــل الكعبـــة فصلـــى ركعتيـــن،وخـــرج فـــأخذ بعضادتى الباب والمفتاح معـــه،وقـــد لبـــط بالنـــاس حـــول الكعبـــة ودعـــا "عثمان بن طلحة" فدفع إليه المفتاح وقال:خذها يا ابـــن أبـــى طلحـــة تـــالدة خالد لا ينزعها منكم أحـــد إلا ظـــالم!)[٢١].

وأمر "بلالاً" بأن يصعد الكعبة،فيؤذن للصـــلاة،ثـــم ألقـــى خطبـــةً فـــى الناس بين فيها ما "لمكة" من مكانة مرموقة،لـــدى الأديـــان الســـابقة،تلـــك التى حافظ عليها الدين الإســـلامى ؛فإنـــها بلـــد حـــرام،لـــم تحـــل لنبـــى إلا لرسول الله "ﷺ" ساعة من نهار،ثم عادت بعدهـــا حرامـــا كمـــا كـــانت،(إن الله حبس عن مكة الفيل،وسلط عليها رســـوله والمؤمنيـــن فإنـــها،لا تحـــل لأحد كان قبلى، وأنها أحلَّت لى ســـاعة مـــن نـــهار،وإنـــها لا تحـــل لأحـــد بعدى فلا ينفر صيدها ، ولا يختلى شـــوكها ولا تحـــل ســـاقطتها إلا ،ومـــن قتل له قتيل فـــهو بخـــيرالنظرين ، إمـــا أن يفـــدى،وإمـــا أن يقيـــد،فقـــال "العباس":"إلا الإذخـــر"، فإنـــا نجعلـــه لقبورنـــا وبيوتنـــا.فقـــال رســـول الله "ﷺ":إلا الإذخـــر[٢٢].

---

(٢١) الطبرى :تاريخ الرسل والملوك/جـ٣/٦١-البخارى :فتح البارى/جـ٧/٦١٢،٦١١. السهيلى.الروض الأنف /جـ٤/١٠٤- محمد الخضرى :نور اليقين/٢١١.

(٢٢) ابن الجوزى: المنتظم /جـ٢/٣٩٦. - العسقلانى:فتح البارى/جـ٧/٦١٢. -أحمـد حميد الله :الوثائق السياسية /٩١.

ثم جلس رسول الله "ﷺ" أعلى الصفا،ومن أسفله "عمر بن الخطاب" ليأخذ البيعة من رجالات مكة ثم نسائها،على أن الذى ينبغى الإشارة إليه هنا،أن رسول الله"ﷺ" لم يأخذ البيعة من النسوة مصافحة،وإنما أخذها منهم مشافهة،فكانت البيعة من الجميع رجالاً ونساءً على ألا يشركوا الله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا،ولا يقتلوا أولادهم خشيه إملاق(٢٣).

وأرسل الرسول بعد ذلك من مكة رجالاً مُسلمين ،لهدم الأصنام القريبة منها، فبعث "خالد بن سعيد بن العاص" فى ثلاثمائة ناحية" عرنه"،وبعث"خالد بن الوليد" إلى العزى فى ثلاثين فارساً،فهدمها،لخمس بقين من رمضان،وكانت بنخلة،وبعث"الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن الدوس" إلى ذى الكفين و"عمرو بن العاص" إلى "سواع" صنم هُذَيْل فهدمه، ونادى منادى رسول الله"ﷺ" من كان يؤمن الله وبرسوله،فلا يدعن فى بيته،صنما،إلا كسرة أو حرقه، وثمنه حرام(٢٤) تلك كانت بعض المواقف التى سطرها القلم للمسلمين من لدن خرجوا من المدينة حتى فتحوا "مكة المكرمة" وهى كما يرى القارئ يزاحم بعضها بعضا فى الصورة التى رسمتها قيادة سيد المرسلين ،مما جذب أقلام الباحثين إلى تأمل ما فيها من مبادئ وأخلاق سامية ،نجد أنفسنا فى أمس الحاجة إلى السير على هداها ،حتى نعالج بها كثيرا من أمراض عصرنا ،ـ ونحقق من خلالها أهدافنا.

---

(٢٣) ابن الأثير :الكامل /جـ٢/ ٢٥٢،٢٥٣–ابن كثير:البداية والنهاية/جـ٤/٣١٨.

(٢٤) المقريزى :إمتاع الأسماع /٢٩٤ – النجار: القول المبين /٣٠٣ – الخضرى:نور اليقين/٢١٦.

ولسوف نلمع إلى بعض ما قالـــه غــير واحــد مــن البــاحثين عــن العبر والنتائج المترتبة على هذا الفتح العظيم وذلـــك علـــى ســبيل المثـــال لا غيره ،فذكر أحدهم :[أنه لما تــم فتــح مكـــة ، واجتمـــع النـــاس حـــول رسول الله "ﷺ" وكان منهم من ائتمروا بــــه ليقتلـــوه . ومـــن قـــاتلوه فـــى "بدر" وفر أحد وحاصروه فى غزوة "الخنـــدق" وعذبـــوه وأصحابـــه ، نظـــر إليهم وهم جميعا فى قبضة يده،أمـــره نـــافذ فـــى رقابـــهم،وحياتـــهم رهـــن كلمة،ينطق بها،فلم يأخذه العجب والغـــرور،بمـــا وصـــل إليـــه مـــن مجـــد وسلطان،ولم يطـــف بنفســـه،مـــا يتملـــك نفـــوس النـــاس ســـاعة النصـــر والظفر،من ظلـــم وطغيـــان،بـــل وحتـــى لـــم يفكـــر فـــى الانتقـــام لنفســـه وللمسلمين عما أصابهم على أيـــدى قريـــش مـــن الأذى والعـــدوان،ولكنـــه نظـــر إليـــهم نظـــرة كلـــها،عفـــو ورحمـــة،وقـــال لـــهم:"اذهبـــوا فـــأنتم الطلقاء"،فكان مثلا كريما فى ســـمو النفـــس،والعفـــو عنـــد المقـــدرة.كمـــا ضرب المثل الأعلى فى المحافظة على الدماء،بـــإصدار الأوامـــر إلـــى قـــادة الجيوش ألا تسفك دما إذا أكرهـــت إكراهـــا،.

وقد كان من أثـــر هـــذه السياســـة أن كســـب الرســـول قلـــوب أهـــل "مكة"،فأقبل على الإسلام فتيان قريـــش وشـــيوخها،ونســـاؤها،ولـــم يحجـــم عنه إلا نفر،أكل الحقد قلوبهم،ثـــم لـــم يلبثـــوا إلا قليـــلا،حتـــى شـــرح الله صدورهم للإســـلام[٢٥].

إذا كانت هذه نظرة الباحث الكبـــير لفتـــح، "مكـــة"،فـــإن باحثـــا آخـــر وقف أمام مراحل الفتح وقفة،متأنية فأبرز لنا من خلالها كمـــا كبـــيرا مـــن النتائج والعبر نذكر منـــها:

---

[٢٥] النجار:القول المبين/٣٠٤،٣٠٥.

١- بيان عاقبة نكث العهود،وأنها وخيمـــة للغايـــة،إذ أن قريـــش نكثـــت عهدها فحلت بها الهزيمة،وخسرت كيانها الــذى كـــانت تدافـــع عنـــه وتحميـه.

٢- مشروعية التعمية على العدو حتى يباغت قبـــل أن يكـــون قـــد جمـــع قواه، فتسرع إليه الهزيمة وتقل الضحايا والأمـــوات مـــن الجـــانبين حقناً لدماء البشـــرية.

٣- مشروعية إرهاب العدو وإظهار القوة لـــه،وفـــى القـــرآن :(وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْـــلِ تُرْهِبُـونَ بِـــهِ عَـدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُـمْ).

٤- مشروعية إنزال الناس منازلهم،تجلـــى هـــذا فـــى إعطـــاء الرســـول "ﷺ"

٥- أبـــى ســـفيان" كلمـــات يقولـــهن.فيكـــون ذلـــك فخـــراً لـــــه واعتزاز،وهى من دخل دار "أبى ســـفيان"،فـــهو آمـــن، ومـــن دخـــل المسجد،فهو آمن، ومن دخل داره،وأغلق عليـــه بابـــه،فـــهو آمـــن، ينادى بها بأعلى صوتـــه.

٦- بيان تواضع الرسول "ﷺ" لربه وشكره على آلائـــه وإنعامـــه عليـــه، إذ دخل مكة وهو متطامن ، حتـــى أن لحيتـــه لتمـــس رحـــل ناقتـــه تواضعاً لله وخشوعاً،فلـــم يدخـــل وهـــو الظـــافر المنتصـــر،دخـــول الظلمة الجبارين السفاكى الدماء،البطاشـــين بالأبريـــاء والضعفـــاء.

٧- بيان العفو المحمدى الكبير،إذ عفا عـــن قريـش العـدو الألـد،ولـم يقتل منهم سوى أربعة رجال وامرأتيـن إذ رفضـوا الإسـلام[٢٦].

ونضيف إلى ما تقدم أن فتح "مكة"، قد كـان تتويجـاً لمرحلـة جـهاد طويلةً جاهد فيها المسلمون،بالكلمـة،ثـم السـيف أعـداء الله فـى صـبر ورباطة جأش، وأن الفتح قد كان كذلك، فاتحـاً للأبـواب علـى مصاريعـها أمام القبائل الضاربة،فى طـول الجزيـرة العربيـة،وعرضـها،حتـى تقبـل على الإسلام لا تخشى فى ذلك تقليداً موروثـاً،عـن الآبـاء ولا صنمـاً فـى مكة، كانوا يمكثون عنده عاكفين، ولا حلفاً أبرمـوه مـع المكيين.

وفى الفتح ما يفيـد زوال الكيانـات السياسـية التـى جعلـت المـادة منتهى أمالها فـى حياتـها،فعـزت، واعـتزت بـها، مغلقـة الأذان عـن الاستماع لدعوة الحق والتفكير فى براهينها التـى كـم أرى قريشـاً إياهـا النبى "محمد"، فلم يجد منهم إلا مستهزئين بـه،أو .معذبيـن لأتباعـه فـإذا بالمعذب بالأمس، يقودهم بعـد الفتـح ،لا إلـى سـاحة العقـاب والتنكيـل بهم، على سـبيل القصـاص منـهم،بـل إلـى عفـو غمـر بـه مُسـيئهم ومُحسـنهم،علـى حـد سـواء ،فـأقبلوا علـى اعتنـاق ديـن الله أفواجاً،متخرطين فـى الجيـش الجـرار الـذى سـار مـن بلادهـم إلـى "حنيـن"[٢٧]

غزوة حنيـن

ما كاد يطيب المقـام للمسـلمين "بمكـة" بعـد فتحـها،حتـى أخـذت أخبار الجماعات القبليـة القريبـة،منـها تـترامى إلـى آذان المسـلمين ،

---

[٢٦] الجزائرى :هذا الحبيب /٤٠٠،٤٠١.

[٢٧] هو واد قريب يقع قبل الطائف بجوار ذى المجاز.بينه وبين مكة ثلاث ليال ابـن عبـد الحق:مراصد الإطلاع /جـ١/٤٣٢.-أحمد عطية الله: القاموس الإسلامى /جـ٢/١٧٣.

حاملةً مَعها أنباء استعدادهم لمنازلة المسلمين لدحرهـــم عـــن "مكـــة" كـــى تعيد الوثنية إليها من جديـــد.

فإن "هـــوازن"، و"ثقيـــف" مشـــى أشـــرافهما ،فأشـــفقوا أن يغزوهـــم، رســـول الله "ﷺ" وقـــال:قـــد فـــرغ لنـــا فـــلا مـــانع لـــه دوننـــا،فحشـــدوا ،وبغوا،وقالوا:والله إن "محمداً" لاقى قومـــاً لا يحســـنون القتـــال.، فـــأجمعت "هوازن "أمرها"لمالِكِ بن[٢٨] عـــوف النصـــيرى"،الـــذى كـــان يبلـــغ إذ ذاك ثلاثين عاماً،فقاد قومه قيـــادة،غلبـــت عليـــها حماســـة الشـــباب ،وغـــابت عنها تجارب الرجال الذين حنكتهم الحـــروب،فإنـــه حشـــد رجـــالات قومـــه فى ميدان المعركة،وما لديـــهم مـــن مـــال وذرارى ،بقصـــد بعـــث الحميـــة فيهم والتأكد من ثباتهم فى ميدان الحرب ،ولعـــل الـــذى دعـــاه إلـــى ذلـــك رؤيته بالأمس القريب قريشـــاً وقـــد زال مجدهـــا،وآل أمرهـــا إلـــى النبـــى وأتباعه،بعد ما جبنت عن منازلته،ولاذت بجدران بيوتـــها فـــهو إذن يـــرى معركته الوشيكة،معركة مصير،بها يكـــون فيـــها قومـــه أولا يكونـــوا،فلـــم يجد سوى المال والذرية وسيلةً تجعـــل رحالـــه يستأســـدون فـــى حروبـــهم لعدوهم،هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى،فإنـــه خشـــى أن تكـــون نتيجـــة انتصار المسلمين،على المكييـــن عـــامل تســـبيط لمقاتليـــه فيبـــادروا إلـــى الفرار،عند النزول ليحموا الذرية والأموال التـــى تركوهـــا،فـــى مضاربـــهم قبل خروجـــهم.

فإذا كانت معهم والحالة هـــذه،فـــإن داعـــى الفـــرار وتوليـــة الأدبـــار يكون منتفياً ليحل محله الثبات حتى الممـــات وعلـــى الرغـــم مـــن وجاهـــة ما ذكرته،من الأسباب التى ربمـــا تكـــون راودت "مالكـــاً" وهـــو يصطحـــب

---

(٢٨) ابن الأثير الكامل: جـ٢/٢٦١- الحلبى:السيرة الحلبية /جـ٣/٦١.

المال والذرية إلى ميدان المعركة،فإن "دريد بن الصمة" لم يرتض ذلك ،وكان قد طعن فى السن إذ بلغ مائة وخمسين ونيفاً من العمر،وقد ضعف سمعه،وعمى بصره،وليس للقوم فيه مأرب إلا الاستفادة برأية،فطلب "دريد"، "مالك بن عوف" ليبثه خبرته،فلما جاءه، قال له "دريد":(يا "مالك"!إنك قد أصبحت رئيس قومك،وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام،مالى أسمع رغاء البعير،ونهاق الحمير،وبكاء الصغير وبعار الشاء ؟ قال:قد سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .قال: ولم؟.قال:أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله،ليقاتل عنهم،ثم قال:راعى ضأن والله،وهل يرد المنهزم شئ؟وإنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك[٢٩] صمّ "مالك" أذنيه، فلم يأخذ برأى "دريد" لاعتقاده،أن ذلك يعد انتقاصاً لقدره وإقلالاً لشأنه،فأبى إلا أن تكون الذرية والأموال مصاحبةً للرجال فى ميدان الحرب،فنزل برجاله فى وادى "أوطاس" وأنشأ يعد عدته لحرب المسلمين.

وإذا كانت هذه صورة المشركين "بحنين" فإن الأمر بمكة،كان حين علم من بها تأهب القوم لحربهم بمثابة نزهة حربية بالنسبة لكثير من مقاتلى المسلمين إذ ذاك ،فإنهم وجدوا أنفسهم كثرة،إذ كانوا اثنى عشر ألفاً على قول،وستة عشر على آخر.فى حين أن عدوهم بلغ أربعة آلاف،ناهيك عن انتصار أحرزوه،مازالوا يعيشون نشوته

---

[٢٩] المقريزى :إمتاع الأسماع/٢٩٦ - الحلبى:السيرة الحلبية/جـ٣/٦٢. -الصالحى :سبل الهدى والرشادجـ٥/٣١٠،٣١١.

حتى إن أحد المسلمين قال لإخوانه، وهم فى طريقـــهم للقـــاء عدوهـــم لـــن نغلب اليوم عن قلـــة.

فلما رأى النبى "محمد " أن عـــدداً مـــن رجالاتـــه،ليـــس معـــهم مـــن آلات الحرب ما يمكنهم من مجابهة عدوهم والدفـــاع عـــن أنفســـهم،أرســـل إلى "صفوان بن أمية" وكان ما يـــزال علـــى شـــركه يطلـــب منـــه ســـلاحاً ودروعاً،على ســـبيل العاريـــة يردهـــا إليـــه بعـــد عـــودة المســـلمين مـــن "حنين"فأمده"صفوان" بما طلب،وهكـــذا خـــرج المســـلمون مـــن مكـــة فـــى السابع مـــن شـــوال ســـنة ثمـــانٍ مـــن الـــهجرة يختـــالون فخـــراً بـــالعدد والعتـــاد.وصـــاروا علـــى شـــفا معركـــة يُجابـــهون فيـــها عدوهـــم عنـــد "حنيـــن"(٣٠)

نشوب المعركـــة

خرج رسول الله "ﷺ"فيمن كان معه من رجـــال،حقـــق الله لـــهم فتـــح مكة،وأضاف إليهم ألفين من المكيين الذين أســـلموا بعـــد الفتـــح.

والجدير ذكره هنا.أن رسول الله،لم يدع ظـــهره،غـــير مؤمَـــن، حيـــن أزمع الخروج من "مكة" إلى "حنين" فعهد بأمر البلـــد الأميـــن،إلـــى"عتـــاب بن(٣١)أسيد" وجعل معه عدداً من الرجـــال يســـتطيعون الضـــرب بيـــد مـــن

---

(٣٠) الطبرى :تاريخ الرسل والملوك /جـ٣/٧٣ -ابن الجوزى :المنتظم /جـ٢/٣٩٩.

(٣١) ولاه النبى أمر البلد وهو يبلغ من العمر عشرين عاماً - وقال له : (تدرى على مـــن استعملك؟إستعملتك ؟ على أهل الله عز وجل،ولو أعلم لهم خيراً منك ،اســـتعملته عليـــهم) وأقره أبو بكر على عمله بعد وفاة النبى ،وتوفى "عتاب" يوم جاء إلى مكة نعى "أبى بكـــر".
- ابن الأثير :أسد الغابة /جـ٣/٤٥١ - ابن حجر :تهذيب التهذيب /جـ٧/٨٩.

حديد،على كل مكى تسول لــه نفســه،اهتبــال فرصــة انشــغال المســلمين بأمر "هوازن" و"وثقيف"، إن ظهر منـــه غـدر،لأن القــوم لــم يمـر علــى إسلامهم سوى بضعة أيام،ذلــك الإســلام الــذى دخلــوه فــى أول أمرهــم بناء على هزيمة،نزلت بهم لا عن اقتنــاع يجعـل الإيمــان يخــالط قلوبــهم فيأمن المسلمون غدرهــم..

ولما وصل المَسلمون وجدوا "مالك بــن عــوف" قـد أسَـتعدَّ لَـهُمْ، فــأمر رجالــه بــالكمون خلـف الجبــال وفــى الشــعاب،حتــى يتوغــل المسلمون،برجالهم وخيولهم فى وادى "حنيــن"،فــإذا وجدوهــم قـد أتمــوا سيرهم،فى الوادى،وأنسوا بعض الطمأنينة فى مكانــهم جــاءوهم مــن كــل حدب،وصوب ،ضاربين إياهم بالســيوف والرمــاح والســهام.

والذى لامراء فيه،أن هذه الخطة الحربية،قـد آتـت ثمارهــا فــى أول الأمر،فقد دب الذعــر فــى المعســكر الإســلامى الكبــير،فتفرقـت جمـوع رجاله،وولى كثيراً منهم الأدبــار،يطلبــون النجــاة مــن ســيوف الأعـداء وبينما هم كذلك،نجد رسول الله،يَثْبُتْ فى عصبــة مــن رجالــه،يقبـل علــى الأعـداء بنفســه ،ويضربــهم بسـيفه. فكــان موقــف الرســول فــى "حنين"على غرار ذلك الــذى رأينــاه فــى "أحـد" وإن كــان فــى الأُولــى أشد،فإن الجيش الإسلامى الجرار فى "حنين" قد ضــم بيــن جنباتــه رجــالاً أحسوا بحلاوة الإيمان فضحوا،وما يزالون فــى ســبيل الإســلام، وآخريــن من القبائل جاءوا إلى مكة يريدون الغنيمـــة أو الشــماتة فــى قريــش.وإن أظهروا الإســلام .

وفريق ثالث لم يعرف عن الدين شيئاً يجعله يضحى فى سبيله،بل إنه أسلم ليكسب نفسه فخراً،أو لينجو من القتل.

وآية ذلك ما روى أن أحد المكيين الذين انخرطوا فى الجيش الإسلامى "بحنين" جاء"صفوان بن أمية" حين رأى الهزيمة قد حلت بالمسلمين ليقول له: أبشر"أبا وهب" هزم "محمد" وأصحابه فقال له "صفوان " إن رباً من قريش أحب إلى من رب من هوازن إن كنت مربوبا (أى محكوما)[٣٢].

كان لثبات رسول الله "ﷺ"فى ميدان المعركة الأثر العظيم فى عودة كثير من المسلمين إلى ميدان الحرب بعد الفرار.،وذلك حين نادى فيهم "العباس" يا أصحاب الشجرة يوم الحديبية،يا أصحاب سورة البقرة، ،خص سورة البقرة بالذكر لأنها أول سورة نزلت فى المدينة ولأن فيها : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله}، وفيها {أوفوا بعهدى أوف بعهدكم}.وفيها {ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله}[٣٣]. فعادت صفوف المسلمين الى الانتظار واستطاعوا تحويل هزيمتهم المباغتة إلى صمود مكنهم من مجابهة أعدائهم والمضى قدما فى معركتهم ضد المشركين [٣٤]

---

(٣٢) الطبرى:التفسير /جـ١٤/١٨٣ ، الرازى: تفسيره/جـ٢٢/١٦ - باشميل:الغزوات الكبرى/جـ٩/٧١.

(٣٢) المقريزى:إمتاع الأسماع/٣٠٠ - الحلبى :السيرة الحلبية /جـ٣/٦٦ - أبو شهبة:السيرة النبوية /جـ٢/٤٧٠.

(٣٤) ابن كثير:البداية والنهاية/جـ٤/٣٣١- الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٣١٨:٣٢٠ السهيلى ، الروض الأنف/جـ٤/١٤٤.

وكان رسول الله "ﷺ"قد تناول حفنة مـــن الأرض فرمـــى بـــها وجـــوه الأعداء وهو يقول شاهت الوجوه،ففعلـــت ذرات الـــتراب وحبـــات الحصـــى فى الأعداء فعل السلاح فيهم فأبدوا تقـــهقراً[٣٥]، فـــى الوقـــت الـــذى ازداد فيه المسلمون تجمعا،وذكر البعض أن للملائكة دخلا فيـــه ومـــن ثـــم فإننـــا نجد أنفسنا أمام قضية نزول الملائكة فى غـــزوة "حنيـــن".

قضية نزول الملائكة فى حنيـــن

لقد ســـبق لنـــا الإلمـــاع،إلـــى اختـــلاف القدامـــى والمحدثيـــن،مـــن المفسرين والمؤرخين،حول ما إذا كانت الملائكة التـــى نزلـــت يـــوم "بـــدر" قاتلت أم لا ،فرجحنـــا نزولـــها،لتثبيـــت المســـلمين وتكثـــيرهم فـــى أعيـــن عدوهـم.

فإذا نظرنا إلى غزوة "حنين" وجدنا المســـلمين فيـــها،يشـــكلون كـــثرة عددية،جعلت أعداءهم قلة،فهل يعنـــى ذلـــك اختـــلاف الغايـــة التـــى نزلـــت الملائكة من أجلها فى "حنين" عنها يـــوم "بـــدر"؟ وللجـــواب عـــن تســـاؤلنا هذا نقول:إن المصادر فى التفسير والحديـــث والتـــاريخ،حـــوت أكـــثر مـــن قول حول الغاية التى نزلت من أجلها الملائكة يـــوم "حنيـــن" فـــنرى بعـــض الأقوال تذكر لنا أنهم،نزلوا للقتال الفعلى،وبعضها الأخـــر يقـــول:إنـــهم لـــم يقاتلوا،وإنما ثبتوا وطمـــأنوا.

فمن الثانى:ما رواه سعيد بن المسيب أن رجـــلاً مـــن المشـــركين فـــى يوم "حنين" حدثه بقوله:لما كشفنا المسلمين جعلنـــا نســـوقهم،فلمـــا انتـــهينا

---

[٣٥] الطبرى :التفسير /جـ١٤ /١٨٧ ،البخارى /فتح البارى /جـ ٧ /٦٢٧ ، الســـهيلى : الروض الأنف /جـ٤ /١٤٣.

إلى صاحب البغلة الشهباء تلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا:شاهت الوجوه ارجعوا،فرجعنا فركبوا أكتافنا).

فأنت ترى الرواية المذكورة تفيد أن الملائكة:ثبتت أفئدة المسلمين حتى يشدوا على المشركين ،فيفروا أمامهم.

ومن الأول: ما روى أن رجلاً من المشركين قال:لبعض المؤمنين،بعد القتال:أين الخيل البلق والرجال الذين عليهم ثياب بيض؟،ما كنا نراهم فيكم إلا كهيئة الشامة ،وما كان قتلنا إلا بأيديهم،فأخبر بذلك رسول الله "ﷺ"فقال عليه الصلاة والسلام: (تلك الملائكة)[٣٦].

وعلى الرغم من أن هذه الرواية،تصرح بقتال الملائكة،فإن غير واحد من العلماء جزموا بضعفها،فتكون،والحالة هذه الملائكة،قد نزلت يوم "حنين" للتثبيت دون القتال،وهذا رأي الجمهور،فإنهم لم يذكروا لهم قتالاً إلا في بدر.

وعليه فإنى أكاد أجزم باختلاف الداعي إلى نزول الملائكة في الغزوتين،فالملائكة حين نزلت فى "حُنين"،إنما نزلت لتذب عن النبى "محمد" "ﷺ"،حين كان في عصبة قليلة من رجال المسلمين،إلتفوا حوله ليدافعوا عنه.

فنزول الملائكة والحالة هذه،كان لحفظ رسول الله من ناحية،وتحويل هزيمة المسلمين إلى نصر من ناحية أخرى.

---

(٣٦) الزمخشرى:الكشاف/جـ٢/٢٦٠ – الرازى:تفسيره:/جـ١٦/٢٣. – الألوسى:روح المعانى/جـ١٠/٧٥ – الحلبى:السيرة الحلبية/جـ٣/٧٥.

فى حين إنهم نزلوا فى "بدر" إبتداء"عند نشوب المعركة،أما فى "حنين" فإنهم ما نزلوا إلا بعد أن ضاقت الأرض بما رحبت على المسلمين فجاءهم الفرح من رب العالمين فى شكل ملائكة مسومين يثبتون المسلمين،ويرهبون أعداء الدين.

فكانت مُشاركة الملائكة للمسلمين فى "حنين" بمثابة تأكيد لدرس علمه الله المؤمنين فى بدر،وأنساهم الشيطان إياه حين،كانوا "بحنين"،وهو أن النصر ،ما كان أبداً بالاعتماد على الماديات وحدها،بقدر ما هو اعتماد على الله ،فقد تؤدى القلة المؤمنة،ما تعجز عن أدائه الكثرة المسلمة حين تقاتل الأعداء،فى زهو وغرور،يتكل بعضها على بعض،فكان يوم "حنين" و"بدر" وما تخللهما من مواطن [٣٧] مبرزين لحقيقة هامة،أفصح عنها القرآن الكريم،فى قوله تعالى:

---

[٣٨] ذكر الصالحى مقارنة لطيفة بين "بدر"و "حنين" جاء فيها أن الله فتح غزو العرب "ببدر" وختم غزوهم "بحنين" فهما قرينتان فى الذكر إذ فيهما الملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين،والنبى رمى وجوه المشركين بالحصا فيهما وأطفئت جمرة العرب لغزو رسول الله "ﷺ" والمسلمين،فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم، والثانية:استفرغت قواهم ،واستنفدت سهامهم،وأذلت جمعهم،حتى لم يجدوا بداً من الدخول فى دين الله تعالى وجبر الله تبارك وتعالى أهل مكة بهذه الغزوة،وفرحهم بما نالوا من النصر والمغنم،فكانت كالدواء لما نالهم من =كسرهم،وإن كان عينُ جبرهم وقهرهم تمامُ نعمته عليهم بما صرفه عنهم من شرِّ منْ كان يجاورهم من أشراف العرب من هوازن وثقيف ،بما أوقع بهم من الكسرة،وبما قيَّض لهم من دُخولهم فى الإسلام،ولولا ذلك ما كان أهل مكة يطيقون مُقاومة تلك القبائل مع شدتها -الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٣٤٧.

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[٣٨]

ولقد عبر القرآن الكريم،أكمل تعبير عن الذى حدث فى "حنين" فى قوله تعالى:(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ،وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ،وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)[٣٩].

وعلى كل حال فإن الهزيمة التى أنزلها المسلمون بالمشركين،بعد نزول الملائكة أغنمتهم غنيمة غير مسبوقة،كان للنبى وبعض المؤمنين منها مواقف سامية.

ومن ثم يحسن بنا الوقوف،أمام هذا الأمر بشىء من التفصيل.

توزيع غنائم حنين

لما وضعت معركة "حنين" أوزارها،وهزم المشركون لاذت فلول رجالهم،إلى الطائف مخلفة وراءها من السبايا ستة آلاف رأس،ومن الإبل أربعة وعشرين ألف،ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة،وأربعة آلاف أوقية فضة.

فأمر النبى "محمد" بها،فجعلت عند الجعرانة،ونصب عليها رجالاً، يحفظونها،حتى يقوم بتوزيعها،ثم أمسك بوبرة من

---

[٣٩] سورة الأنفال :آية ١٠.

[٤٠] سورة التوبة :آية (٢٥،٢٦)

بعير،وقال:يا أيها الناس،إنه لا يحل لى مما أفاء الله تعالى عليكم قدر هذه إلا الخمس،والخمس مردود عليكم،فأدوا الخيط،والمخيط وإياكم والغلول[٤٠]فإنه عار على أهله يوم القيامة.

وكان المسلمون عند حسن ظن رسول الله بهم،فها هو "عقيل بن أبى طالب"[٤١]،يدخل على زوجه وسيفه ملطخ بدم،فقالت:إنى علمت أنك قاتلت اليوم المشركين.فماذا أصبت من غنائمهم؟فقال:هذه الإبرة،تخيطين بها ثيابك،فدفعها إليها،ثم خرج فسمع منادى رسول الله "ﷺ"يقول :من أصاب شيئاً من المغنم فليرده،فرجع إلى امرأته وقال:والله ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت منك،فأخذها،فألقاها فى المغانم[٤٢].

ولقد تفردت غنيمة "حنين" بأمرين ميزاها عن الغنائم التى حصل المسلمون عليها فى بعوثهم الحربية بعد "بدر".

أولاهما:- أن رسول الله "ﷺ" أمر المسلمين ألا يقربوا المسبيات أولاتى الأحمال،والمحصنات حتى يحضن،فكان فى هذا اليوم إرساء لمبدأ عظيم،وهو الحفاظ على الأنساب مع وجود السبى الذى كان يبيح للرجال وطئ المسبية بعد وقوعها فى الأسر[٤٣]

---

[٤٠] غَلَّ يَغُلُّ غُلولا: خان وخص بعضهم به الخوت فى الفئ والمغنم ابن منظور لسان العرب مادة غلل.

[٤١] ابن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى،أسلم قبل الحديبية - شهد غزوة مؤته- روى عنه غير واحد -توفى فى خلافة معاوية ابن الأثير :أسد الغابة /جـ٣/١٠٥.

[٤٢] ابن الجوزى:المنتظم /جـ٢/٨٤٧- الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٣٣٨،٣٣٩.

[٤٣] الصالحى: سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٣٣٨.

وثاني الأمرين: أن رسول الله "ﷺ" لم يسلك في توزيعها المسلك الذى اتبعه فى توزيع الغنائم التى حصل المسلمون عليها قبلاً، فأعطى المؤلفة قلوبهم من قريش منها،الشيء الكبير،فكانوا بها مفضلين،على بقية المسلمين مثل "أبى سفيان بن حرب" الذى أخذ أربعين ومائة من الإبل – "وحكيم بن حزام"[٤٤]مائة من الإبل،فسأل النبى مائة أخرى فأعطاه،وغيرهما من كبار المؤلفة قلوبهم،ثم وزع،ما بقى من الغنائم ،على بقية المقاتلين المسلمين،مفرقاً بين الرجل والفارس فى عدد الأسهم المعطاة لكل منهم،ولم يعطِ رسول الله الأنصار منها شيئاً فأثار موقف النبى "محمد"فى أنفسهم تساؤلات،عبرت عنها ألسنتهم فجاءه "سعد بن عبادة" فقال يا رسول الله:إن هذا الحى من الأنصار،قد وجدوا عليك فى أنفسهم،لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت،قسمت فى قومك،وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب،ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار منها شئ،قال:فأين أنت من ذلك يا سعد؟فقال يا رسول الله ما أنا إلا من قومى قال ، فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة قال :فجاء رجال من المهاجرين،فتركهم،فدخلوا وجاء آخرون فردهم،فلما اجتمعوا له،أتى سعداً فقال:قد اجتمع لك،هذا الحى من الأنصار،فأتاهم رسول الله"ﷺ"،فحمد الله،وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم وجِدَة وجدتموها علىَّ فى أنفسكم؟ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ؟ وعالةً فأغناكم الله وأعداء فألف بين

---

[٤٤] ابن خويلد بن أسيد بن عبد العزى القرشى - ولد قبل الفيل بثلاث عشرة سنة - توفى سنة أربع وخمسين أيام "معاوية" عن عمر بلغ مائة وعشرين سنة على أحد الأقوال -ابن الأثير :أسد الغابة/جـ١/٥٩٧.

قلوبكم؟قالوا:بلى الله ورسوله أمنُّ وأفضل ثم قال:ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟- قالوا:بماذا نجيبك يا رسول الله،ولله ولرسوله المنُّ والفضلُ قال:أما والله لو شئتم ،لقلتم فلصَدقتم ولصُدِّقتم:أتيتنا مُكذَّباً فصدَّقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك،وعائلاً فآسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة[٤٥]من الدنيا،تألفتُ بها قوماً،ليسلموا،ووكلتكم إلى إسلامكم؟- ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير،وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟،

فو الذى ،نفسُ "محمد" بيده لولا الهجرة،لكنت امرأ من الأنصار،ولو سلك الناس شعباً،وسلكت الأنصار شعباً،لسلكت شعب الأنصار،اللهم ارحم الأنصار،وأبناء الأنصار ،وأبناء أبناء الأنصار، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم[٤٦].

ومما يجدر ذكره هنا،أن الغنيمة التي وزعها النبي "محمد"على المسلمين،المقاتلين في "حنين"،قد كانت عقب، تخيير رسول الله ﷺ"لوفد "هوازن بين الأموال أو الأحساب،فإن هؤلاء،لما دخلوا الإسلام جاءوا إلى رسول الله،يسألونه أن يرد عليهم ما غنمه المسلمون منهم،فقال لهم رسول الله"ﷺ": (معى من تَرَوْنَ،وأحب الحديث إلىَّ أصدقه،فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبى وإما

---

[٤٥] اللعاعة الخفيف،والمعنى:أغضبتم لأجل شئ يسير من الدنيا؟!- ابن منظور :لسان العرب - مادة لاغفه.

[٤٦] ابن سعد :الطبقات الكبرى/جـ٥/١١٧- ابن الجوزى:المنتظم /جـ٢/٣،٤ ،ابن سيد الناس:عيون الأثر /جـ٢/٢٦١.

المال،وقد كنت استأنيت بكم،وكان "ﷺ"غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين،قالوا:فإنا نختار سبينا،فقام رسول الله"ﷺ"فى المسلمين،فأثنى على الله بما هو أهله،ثم قال:أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين،وإنى رأيت،أن أرد إليهم سبيهم،فمن أحب منكم أن يطيب ذلك،فليفعل،ومن احب منكم أن يكون على حظه،حتى نعطيه إياه من أول ما يفى الله علينا ،فليفعل،فقال الناس:قد طيبنا ذلك يا رسول الله فقال"ﷺ"إنا لا ندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن،فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم،فرجع الناس،فكلمهم،عرفاؤهم،ثم رجعوا إلى رسول الله "ﷺ" فأخبروه انهم قد طيبوا وأذنوا)[٤٧].

وإذا كان هذا الموقف، الكريم،وقفه النبى "محمد"من "هوازن "عامة،فإن موقفاً عظيماً آخر له خصوصيته ،وقته رسول الله "ﷺ" من إخته فى الرضاعة "الشيماء" وهى إذ ذاك من المسبيات فيذكر الرواة،أن النبى محمداً كان أمر رجاله بعد انتصارهم على أعدائهم فى حنين أن يجدوا فى طلب رجل يسمى "بجاد" لما ارتكبه من عظيم الجرائم فى حق المسلمين خلال هذه الحرب،حيث أتاه رجل مسلم فأخذه فقطعه عضواً عضواً ،ثم حرقه بالنار ،وكان قد عرف جرمه،فهرب، فأخذته الخيل فضموه إلى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى "أخت رسول الله "ﷺ" من الرضاعة،إذ كان زوجاً لها،وأتعبوها فى السياق، فتعبت " الشيماء " بتعبهم ؛ فجعلت تقول ، إنى والله

---

(٤٧) الطبرى:تفسيره/جـ١٤/١٨٤ – المقريزى إمتاع الأسماع /٣١٣: ٣١٥ – البخارى:فتح البارى /جـ٧/٦٢٧،٦٢٨.

أخت صاحبكم،فلا يصدقونها،وأخذهـا طائفـةٌ مـن الأنصـار وكـانوا أشد النَّاس على "هـوازن"فـأتوا بـها إلـى رسـول الله "ﷺ" فقـالت:يـا محمد!! إنى أُختُك،فقال رسـول "ﷺ":وَمَـا عَلامَـةُ ذَلِـكِ؟!!،فأرتْـه عضَّـة بإبْهَامِهَا،وقالت:عضَّة عَضَضْتَنيهَا،وأَنَا مُتَوَرِّكَتُـكَ بـوادى السِـرَر،ونحـنُ يؤمئذٍ نرعى البَهْم؟وأبوك أبى،وأمك أُمى،وقد نـازعْتُك الثَّـدى،وتذكَّـرْ يـا رسـولَ الله حِلابَـى لـك عـنز أبيـك "أطـلان" فعـرفَ رسـولُ الله"ﷺ"العلامة،فوثب قائماً،فبَسـط رداءه،ثُـمَّ قـال "اجْلسِـى عليـه"ورحَّـبَ بها،ودمعتْ عيناه،وسألها عن أُمِّـه وأبيـه،فأخبرتـه بموتـهما فقـال :"إنْ أحْبَبْتِ فأقِيمِى عِنْدَنَا،مُحَبَّبة مُكَرَّمَـةً،وإن أحْبَبْـتِ أنْ تَرْجِعِـى إلـى قَوْمِـك وَصَلْتُكِ،ورَجَعْتِ إلى قَوْمِك"،قالت بل:أرجعُ إلـى قومـى،فأسـلمت فأعطاهـا رسولُ الله "ﷺ" ثلاثة أعبد وجاريـة،وأمـر لـها ببعـير،أو بعـيرين،وقـال لها:ارجعى إلى "الجِعْرانة"تكونين مع قومـك،فأنـا أمضـى إلـى الطـائف"، فرجعت إلـى الجعرانـه" ووافاهـا رسـول الله "ﷺ" بالجِعْرانـه،فأعطاهـا نَعماًوشاه،ولمن بقى من أهل بيتـها، وكلمتـه فـى "بَجَـاد" أن يهبـه لـها ويعفو عنه، ففعـل "ﷺ" [٤٨]

مما تقدم يرى القارئ أن النبى محمـداً،أرضـى فئتيـن وهـو بصـدد النظر فى غنيمة "حنين"،فاعطى المؤلفـة قلوبـهم ،مـا كـانوا قـد أفنـوا أنفسهم،فى سبيل الحصول عليه،وهو المـال،ذلـك الـذى جعلـهم للدعـوة

---

[٤٨] الطبرى:تاريخ الرسل والملوك /جـ٣/٨١ - ابن الأثير :أسد الغابـة /جـ٦/١٦٩ - المقريزى :امتاع الأسماع /٤٠٣ - الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٣٣٣.

مناهضين ولرسول الله مكذبين حتى يجعلهم ينظرون إلى الإسلام نظرة قد تسمح بتسلل الإيمان إلى أفئدتهم،فيصحبون دعامة صالحة تشد بها أركان الدولة الإسلامية.

ولقد ذكر أحد الباحثين ،وهو يعقب على موقف النبى من هذه الفئة،أن رسول الله ،أراد،أن يتألف بالغنيمة [أهل الطمع فى الدنيا والرغبة فى أغراضها،ووكل سادات المهاجرين والأنصار إلى ما فى قلوبهم من الإيمان وإلى ثواب الرحمن،فاختار لكل قوم،ما هو أليق بحالهم،ورغباتهم،وقد خفيف هذه الحكمة على بعض الأنصار،فقالوا:" يغفر الله لرسول الله "ﷺ"،فلما جلاها لهم اطمأنوا،لغنمهم نصيبهم،وفرحوا بحظهم،وكفاهم حظاً وشرفاً وسعادة أن النبى "ﷺ" يعود معهم إلى المدينة،يترك بلده،وبلد أجداده،وأهله وعشيرته.

أما المؤلفة قلوبهم،فقد أثر فيهم هذا العطاء،حتى قال "صفوان بن أمية":ما زال رسول الله "ﷺ" يعطينى من غنائم "حنين" وهو أبغض الخلق إلىَّ،حتى ما خلق الله شيئاً،أحب إلىَّ منه](٤٩).

وأما الفئة الثانية:فهم أهل "هوازن" فإن النبى "محمداً" تألفهم كما تألف المكيين،حين رد عليهم الذرية والنساء،وكان ذلك الموقف غير متوقع من رجل منتصر من مهزومية،فإن النسوة المسبيات كن فى هذا الوقت من نفائس المغنوم،من الأعداء فى الحروب التى كانت،تدور بين القبائل فى هذا الوقت فإذا برسول الله "ﷺ"يغير تلك

---

(٤٩) أحمد فريد :وقفات تربوية /٣٥٢.

النظرة السائدة فى العرب قاطبةً، ليستبدل بها مبــــدأ المســـامحة،لمـــا فيـــه من عموم الفـــائدة وديمومتـــها،علـــى مجتمـــع المنتصريـــن تلـــك التـــى لا تقـــارن بمتعـــة فرديـــة مـــن امـــرأة مســـبية، يمكلـــها فـــرد، أو يبيعـــــها بمال،سرعان ما يذهب بالإنفــــاق هنـــا وهنـــاك،فيضيـــع الأثـــر بعـــد زوال المؤثر فلا يبقى من هذا العرض الزائـــل شـــيئاً.

من هذا كله يستبين لنا فى جلاء،كيـــف أن رســـولَ الله حبـــب بفعلـــه الدين الإسلامى لأعدائه فـــأقبلوا عليـــه،معتنقيـــن،جـــاعلين مـــن أنفســـهم دعاة له،ومنافحين عنه ،بسيوفهم.وإذا كـــانت معركـــة "حنيـــن" ثمـــرة مـــن ثمار فتح مكة،فإن غزو الطـــائف كـــان بمثابـــة نتيجـــة طبيعيـــة لانتصـــار المسلمين،على "هوازن"،وحلفائهم من ثقيـــف فـــى وادى "حنيـــن".

الخروج إلى الطـــائف[٥٠]

لما وجد المشركون أن الدائـــرة،قـــد دارت عليـــهم فـــى "حنيـــن" لاذت فلولـــهم "بالطـــائف"حتـــى تنجـــو مـــن القتـــل،أو الأســـر علـــى أيـــدى المسلمين،فأراد رسول الله "ﷺ" أن يتتبـــع هـــؤلاء الفـــارين،فـــأمر بالســـير إليهم،حيث تحصنوا بحصـــون الطـــائف المنيعـــة،فلمـــا وصـــلا المســـلمون إليها وجدوا الثقفيين،قـــد أحســـنوا إعـــداد أنفســـهم للصمـــود،فـــى وجـــه المســـلمين فـــتزودوا بـــالمؤن وغيرهـــا مـــن الحاجيـــات اليوميـــة لمـــدى

---

[٥٠] بعد الألف همزة مكسورة،ثم فاء،بلدة بالحجاز تقع فى مشرق مكة إلى الجنوب -تبعـد عنها بنحو خمسين ميلاً. -ابن عبد الحق:مراصد الإطلاع /جـ٢/٨٧٧.
أحمد عطية الله :القاموس الإسلامى /جـ٤/٤٤٣.

طويل،يبعث اليأس فى أنفس المسـلمين،إن اجتمعـوا علـى الإقامـة حـول حصونهم لحصارهـا[٥١].

ومن ثم فإن المعركة التى كانت تدور بين الفريقيـن،فـى الفينـة بعـد الفينة،اقتصرت على الرشق بالنبال والرمـى بالسـهام،فمكـث المسـلمون على هذه الحالة ثمانية عشر يوماً.كـان الثقفيـون خلالـها يبـدون مزيـداً من الصمود فى كل صباح،يستقبلونه عن ذى قبـل،ومـن الذيـن أصابتـهم نبال ثقيف "أبو سفيان بن حرب" الذى أتـى النبـى "ﷺ" وعينـه فـى يـده، فقال:يا رسول الله،هذه عينى أصيبت فـى سـبيل الله فقـال النبـى "ﷺ"،وإن شئت دعوت فردت عينك،وإن شئت فالجنة،قال،فالجنـة ورمـى بـها مـن ـده،أما المسلمون الذيـن جعلتـهم سـهام الثقفييـن فـى عـداد الشـهداء فكانوا اثنى عشر رجلاً منهم "عبـد الله بـن أبـى أميـة:،" وعبـد الله بـن عامر بن ربيعة"،و"السائب بن الحـارث"،وغـيرهم.

ومع كثرة جند المسلمين واسـتخدامها للمنجنيـق لأول مـرة،فإنـهم لم يستطيعوا النيل مـن الثقفييـن،ولـو بقـدر أنملـة،بـل خـرج عليـهم ـعيمهم "عبد ياليل "ليقول"لخالد بن الوليـد": (لا يَـنْزِلِ إليـك أحـد،ولكـن نقيم فى حصننا،فإن به من الطعام مـا يكفينـا سـنين،فـإن أقمـت حتـى يذهب هـذا الطعـام خرجنـا إليـك بأسـيافنا جميعـاً حتـى نمـوت عـن أخرنـا)[٥٢]

---

(٥١) ابن سعد :الطبقات الكبرى /جـ٢/ ١٢٠ - ابن القيم :زاد المعاد /جـ٣/٤٩٥،٤٩٦ - الفاسى:العقد الثمين/جـ١/٤٦٢ - الخضرى:نور اليقين /٢٢١.

(٥٢) الصالحى:سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٣٨٢:٣٨٤ الحلبى :السيرة الحلبية /جـ٣/٨٠ - السهيلى:الروض الأنف /جـ٤/١٥١.

فلما يئس المسلمون من جدوى حصـــارهم "الطـائف" رحلـوا عنــها دون فتحــها.

وهنا تطالعنا روايتان فى أمر رحيل المســلمين عــن "الطـائف".

أولاهما:-تذكـر أن الرســول "ﷺ" (استشــار "نوفــل بــن معاويـــة الديلى"[٥٣] فى الذهاب أو المقام،فقال له:يــا رســول الله ثعلــب فــى جحـر ،إن أقمت أخذته،وإن تركته لم يضــرك،فــأمر رســول الله "ﷺ" "عمــر بــن الخطاب" رضى الله تعالى عنه،فأذن فــى النــاس بــالرحيل فصــاح النــاس وقالوا:نرحــل ولــم يفتــح علينــا،فقــال رســول الله "ﷺ":فــاغدوا علــى القتال،فغدوا فأصابت الناس جراحــات،فقــال رســول الله "ﷺ":إنــا قــافلون إن شاء الله،فسروا بذلك ،وأذعنوا[٥٤]فأنت ترى رســـول الله "ﷺ" لــم يتخـذ قرار الرحيل إلا بعد استشــارته "لنوفــل"، تلــك الاستشــارة التــى لامــراء وافقها وحى من السماء،وجعـــل النبــى "محمــداً" حســب مــا جــاء فــى الرواية،يأمر مناديه أن ينادى فى الجيــش الإســلامى بــالرحيل.

ولا يتعارض مع ما ذهبـــت إليــه إظــهار الصحابــة الغضــب حيــن ســمعوا منــادى الرســول يــأمرهم بــالرحيل،ولمــا يفتحــوا حصـــون "الطائف"،بعد لأن غضبهم هذا يعزى إلــى اعتقــادهم،إذ ذاك أن أمــر النبــى

---

[٥٣] ابن عروة الديلى:صحابى جليل،أول مشاهدة مع النبى يوم الفتح المبين،روى حديــث عن رسول الله توفى بالمدينة زمن "يزيــد بــن معاويــة" - ابــن الأثــير :أســد الغابــة /جــ٤/٥٧٥.

[٥٤] الحلبى :السيرة الحلبية/جــ٣/٨١،٨٢.

"محمد" بالرحيل كان إشفاقاً عليهم ،فأرادوا أن يظهروا لرسول الله استعدادهم، واستبسالهم أمام الحصن،وإن طالت مدة الحصار ،فلما ثبتت لهم الحكمة من دعوة النبى "محمد" فيهم بالرحيل،رحلوا فى اليوم التالى ممتثلين لأمر رسول الله،وهم فرحون مسرورون بالذى وعدهم به من العودة وإقبال ثقيف عليهم مسلمين.

وثانيهما:تَذْكُر أن رحيل النبى "محمد" "ﷺ" عن "الطائف" يعزى إلى رؤية رآها،فقصها على "أبى بكر الصديق "وفيها :أن الرسول رأى أنه أهديت له قعبة مملوءة زيداً فنقرها ديك فهراق ما فيها،فقال أبو بكر ما أظن ان تدرك منهم يومك هذا ما تريد (يعنى ثقيف)،فقال رسول الله "ﷺ" وأنا لا أرى ذلك،ثم إنَّ "خَوْلَة بنَتَ حَكيم بن أمية السّلمية "وهى امرأة "عثمان" قالت : يا رسول الله أعطنى إن فتح الله عليك "الطائف" حلى "بادية ابنة غيلان "،أو حلى" الفارعة بنت عقيل ،وكانتا من أحلى نساء ثقيف.

فقال رسول الله "ﷺ" :وإن كان لم يُؤْذَن لى فى ثقيف يا خولة؟.فخرجت فذكرت ذلك "لعمر بن الخطّاب "فدخل على رسول الله "ﷺ" فقال: ما حديثُ حَدَّثْتِنيه "خولة"، زعمت أنك قلته قال قد قلته،قال: أوما أُذِنَ لك فيهم يا رسول الله قال :لا. قال:أفلا أُوذن بالرحيل؟ قال بلى فأذن:عمرُ:بالرَّحيل.(٥٥)

---

(٥٦) السهيلى:الروض الأنف/جـ٤/ ١٥٠ -الصالحى سبل الهدى والرشاد جـ٥/صـ٣٨٧

إذا ما أمعنا النظـــر فـــى الروايتيـــن ســـابقتى الذكـــر،وجدنـــا أنـــهما تتفقان،حول الدور الذى لعبـــه "عمـــر بـــن الخطـّــاب" فـــى إعـــلام النـــاس بالرحيل،وإن إختلفتا فى الطريق التى علم بـــــها "عمـــر".

فالأولى تذكـــر،أن الرســـول اســـتدعاه،فأعلمـــه بذلـــك،بينمـــا تنسـب الثانية هذا إلى "خولة"زوج"عثمـــان بـــن مطعـــون" ولـــم يكـــن هـــذا هـــو الخلاف الوحيد بين الروايتين،ذلك أن الرواية الأولـــى تعـــزو بـــدء التفكـــير بالرحيل عن "الطائف" إلى "توفـــل بـــن معاويـــة"،وأن النبـــى أخـــذ برأيـــه لصوابه من ناحية وموافقة الوحى له"من ناحيـــــة أخـــرى.

بينما تذكر الثانية ان ابتداء التفكـــير فـــى الرحيـــل كـــان بنـــاء علـــى رؤية رآها رســـــول الله "ﷺ".

وعنـــدى أن لا تعـــارض بيـــن الروايتيـــن،علـــى أســـاس أن رؤيـــــا النبى،والحالة هذه وحى،يأتيه،إذ هى إحدى صـــــوره التـــى ذكرهـــا العلمـــاء وهذا يتفق مع ما سبق ذكره،وأنا أعقب على الروايـــة الأولـــى،كمـــا أنـــه لا مانع لدينا،أن يكون رسول الله "ﷺ" قد حدث "توفل" قبـــل رؤيتـــه تلـــك فـــى شأن الطـــائف.

فلمـــا رأى النبـــى "ﷺ"الوحـــى موافقـــاً لـــرأى "توفـــل بـــن معاويـــة "استدعى "عمر" حتى يؤذن فى النـــاس الرحيـــل،وعليـــه فـــإنى أرى رحيـــل المسلمين،عن الطائف،دون فتح لا يعد هزيمة لـــهم،بقـــدر مـــا هـــو تنفيـــذ لأوامر نبيهم،إذ أن فتح مكة كان بشيراً للمؤمنيـــن،بدخـــول أفـــواج العـــرب الإسلام،بدون قتال،يؤيد ذلك ما قاله "الحســـن" (لمـــا فتـــح رســـول الله "ﷺ"

"مكة"،أقبلت العــــرب بعضـــها علــى بعــض،فقــالوا أمــا إذ ظفــر بــأهل الحرم،فليس به يَدان وقد كان الله أجارهم من أصحــــاب الفيــل،وعــن كــل من أرادهم،فكانوا يدخلون فى الإسلام أفواجاً مـــن غــير قتــال[٥٦].

وصدق الله العظيـــم،إذ يقــول:[إذَا جَــاءَ نَصــرُ اللهِ والفَتــحُ،ورَأَيْــتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أفْواجا فَسبّح بِحَمدِ رَبّــكَ واسْــتَغْفِرْهُ إنَّــه كَــانَ تَوَّابــاً[٥٧]].

وبالغزوات الثلاث انتـــهت الفــترة التــى كــان يجــرد فيــها النبــى "محمـــد"الجيــوش الإســلامية الكــبرى لمجــاهدة العـــرب المـــهاجمين للمدينة،أو لشن حرب وقائيـــة علــى المــتربصين بــه منـــهم،وهــم فــى ديارهم لتبدأ مرحلة أخرى،انتقل فيها الجهاد إلى ميــــدان بعيــد عــن مكــة والمدينـــة،ومــا تاخمـــهما مـــن مواطـــن القبــائل،العربيــة فكــان غـــزو المســـلمين،بـــلاد الـــــروم،تلــــك التــــى تعــــرف عنـــــد المؤرخين بغزوة تبــوك[٥٨]

---

[٥٦] الزمخشرى:الكشاف /جـ٤/٨١١.

[٥٧] سورة النصر.

[٥٨] بالفتح ،ثم الضم،وواو ساكنة وكاف،بلده فى شمال الحجاز على طريق المدينـــة إلـــى فلسطنين ،وكانت تقع على سكة الحديد الحجازية بين الحجـــر ومدائـــن صـــالح،ومعـــان وموقعها اليوم بالقرب من العقبة - ابن عبد الحق :مراصد الاطلاع / جـ ٢٥٣/١، أحمـــد عطية الله : القاموس الاسلامى /جـ١ /٤٣٩.

غزوة تبـوك:-

لما عاد النبـى "محمـد" مـن "الطـائف" إلـى المدينـة،بعـد جـهاد حـافل،ونصـر ظـافر،اسـتكمل بـه الإسـلام سـيادته علـى القبـائل العربية،بشكل كبـير،وصـيرورة الكعبـة طـاهرة مـن الأصنـام.اسـتراح المسـلمون فـى حـاضرة الدولـة،وعاشـوا،ينعمـون بثمـرة جـهادهم الطويل،فلما انقضت ستة أشهر ،وهم على هذا الحـال،أمرهـم النبـى فـى شهر رجب لسنة تسع من الهجرة بالتجهيز،لقصـد بـلاد الـروم .

ولقد اختلف المؤرخون ،القدامـى المحدثـون،حـول الأسـباب التـى جعلت النبى "محمـداً"،يـأمر المسـلمين بالاسـتعداد والإعـداد،فـى هـذا الوقت،ولما ينقض على فتحهم لمكة سوى زمن يسـير.فمنـهم مـن ذكـر أن النبى "محمداً" ،وقف على ما أزمـع عليـه "هرقـل"عظيـم الـروم مـن إعداده للجيوش،حتى يقصـد المدينـة،فيحـارب المسـلمين،فـأراد رسـول الله،المسـير إليـه فـى عقـر دارة لمنازلتـه،ولـدرء خطـره،وليعلـم أن بالمسلمين قوة تحول بينـه وبيـن،مـا أراد تحقيقـه،لإمبراطوريتـه مـن مجد،ويضع حداً لنمو هذه القوة الناشئة،ومن ثـم ينسـى النـاس انسـحاب العرب الماهر فى مؤتة ، وينسيهم أيضاً ذكـر العـرب،سـلطان المسـلمين الزاحف من كل ناحية ليتاخم سلطان فـارس فـى الجزيـرة [٥٩].

---

[٥٩] ابن سعد الطبقات /جـ٢/١٢٥ – هيكل :حياة محمد /٤٥٨ – أبـو شـهبة :السـيرة النبوية /جـ٢/٤٩٥،٤٩٩.

ومنهم من قال:إن اليهود جاءوا النبى محمداً،فأغروه بقصد بلاد الروم لحيازتها منهم،فهى أرض المحشر،ومن ثم كان أمره -ﷺ- المسلمين بالتجهيز إلى تبوك،وزعم أصحاب هذا الرأى [٦٠]أن قول الله تعالى: (وَإِن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً)[٦١] يؤيد ما ذهب إليه أصحاب هذا الرأى .

وفريق ثالث ذكر أن السبب،فى قصد النبى "محمد" "تبوك""لمنازلة الروم بها،راجع إلى الحكم المفهوم من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللهُ مِنَ فَضْلِهِ إِنَّ شاء .إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، قَاتِلُواْ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالله ولا بِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ].[٦٢]

فقد روى عن "ابن عباس" أنه لما أمر الله تعالى بمنع المشركين من قربان المسجد الحرام فى الحج وغيره،قالت قريش:لينقطعن عنا المتاجر والأسواق ،أيام الحج وليذهبن ما كنا نصيب منها،فعوضهم الله عن ذلك الأمر،بقتال أهل الكتاب،حتى يسلموا،أو يُعطوا الجزية عن يد، وهم صاغرون.فعزم رسول الله -ﷺ-على قتال الروم لأنهم،أقرب

---

[٦٠] الزمخشرى:الكشاف /جـ٢/٦٨٥ - الصابونى:مختصر تفسير بن كثير/جـ٢/٣٩١.

[٦١] سورة "الإسراء" آية (٧٦)

[٦٢] سورة التوبة:آيات (٢٨،٢٩).

الناس إليه،وأولـــى النـــاس بـــالدعوة إلـــى الحـــق لقربـــهم إلـــى الإســـلام وأهله،وقد قال الله تعالى : (يَا أيُّها الّذِينَ أمَنُوُا قَـــاتِلُوا الّذِيـــنَ يَلُونَكُـــم مِـــنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوُا فِيكُم غِلظَةً واعْلمُـــوا أنَّ اللهَ مـــع المتقيَـــن[٦٣].)

والذى أراه بعد عرض هـــذه الأســـباب،أن العـــرب المُتَنَـــصِّرَة الذيـــن أقروا لسيادة الروم عليهم لعبوا دوراً كبـــيراً فـــى إثـــارة "هرقـــل" ورجالـــه ضد المسلمين ،فإنهم كانوا قبل بعثه النبـــى "محمـــد" يشـــعرون بســـلطانهم الزائد على إخوانهم،فـــى القبـــائل الأخـــرى،الأمـــر الـــذى أكســـبهم مكانـــةً مرموقةً،فوجدوا هـــذه المكانـــة،تتلاشـــى أمـــام ســـلطان المســـلمين ،فـــإن الرســـول بعـــد فتـــح مكـــة، أخـــذ يبـــث رســـله لجمـــع الصدقـــات مـــن الجماعات،التى أسلمت والجزية مـــن غيرهـــا.

وأصبح المسلمون أصحاب كلمة عليـــا فـــى أرجـــاء شـــبة الجزيـــرة العربية.وهذا بلا ريب بشكل خطراً علـــى تبعيتـــهم "لـــهرقل" تلـــك التبعيـــة التى كانت تجلب لهم أعطيات ومنـــح،مـــن قيصـــر رومـــا،فـــزوال ســـيادته عنهم والحالة هذه وخنوعـــهم للمســـلمين،ســـيجعلهم،يدفعـــون الجزيـــة،إن لم يسلموا،والصدقـــة أو الزكـــاة إن أســـلموا،وهـــذا يلحـــق بـــهم ضـــرراً اقتصاديا،على حد زعمـــهم.ومـــن هنـــا كـــان مـــن الضـــرورى،أن يقصـــد المســـلمون،هـــؤلاء العـــرب المتنصـــرة والـــروم،ليجعلـــوا الأُوَل عـــــبرةً لإخوانهم فلا يفكر عربى،فـــى الانتقـــاض،علـــى الســـيادة الإســـلامية مـــن جديد،هذا من ناحيـــة،وليجعلـــوا "هرقـــل"،يفكـــر غـــير مـــرة،قبـــل تجريـــد

---

[٦٣] سورة التوبة :آية (١٢٣) ابن كثير البداية والنهاية جـــ٥/صـــ٢.

الجيوش إلى المسلمين من ناحية أخرى ولقد تفردت هذه الغزوة عن سابقتها بأن رسول الله -ﷺ-بين للمسلمين الوجهة التى يقصدونها قبل الخروج من المدينة[٦٤]،وقد كان يخفى حقيقة وجهته من قبل ،حتى لا يأخذ أعداء المسلمين حذرهم فيصعب والحالة هذه على المؤمنين،مباغتتهم وإحراز الانتصار عليهم ولعل ذلك راجع إلى أن المسافة التى تفصل "تبوك "عن المدينة كبيرة،ومثل هذا يحتاج من المقاتلين استعداداً خاصاً، حتى يتحملوا وعثاء السفر،وينتقوا الجيد من الإبل ناقلات الجند والأحمال.

ويضاف إلى ما تقدم سبب آخر،جعل النبى ،يكشف النقاب عن وجهته،هذه المرة،هو أن العرب بعد فتح مكة،أقبلوا على دين الله أفواجاً،فأصبح المسلمون والحالة هذه لا يخشون خطراً،يأتيهم من إخوانهم العرب المجاورين لهم فتعيين المكان المقصود،سيشعر العرب الذين دخلوا الإسلام حديثاً،بقوة أتباع الدين الجديد من ناحية،ومن ناحية أخرى،يكون بمثابة اختبار لهم،حتى يقف المسلمون على أمرهم.

أيسرعون إلى الانخراط،فى جيش المجاهدين.أم يكونون من المعتذرين عن الخروج والمخذّلين لغيرهم عن المضى قدماً فى مرافقة نبيهم إلى تبوك؟

وأمر ثالث:لا سبيل إلى إغفاله،جعل النبى "محمداً"، يصرح بقصد الروم وهو الزمن الذى خرجت فيه غزوة "العسرة" كما يرى القارئ

---

[٦٤] ابن هشام : سيرة النبى ج٤ /١٦٩ ، الزمخشرى : الكشاف / ج٢ /٢٧١.

من مفهوم أحد مسمياتها قد كان زمن جدب ندرت فيه الثمار،وعزت فيه الأقوات.

ولا ندرى أكان ذلك لقلة الأمطار، فى العام الماضى. فيكون الكساد الاقتصادى بسبب ذلك ،أم أن هذا الجدب طبيعى نظرا لنفاذ مخزونهم من الثمار المتنوعة ، بسبب قرب حصاد الجديد منها ؟.

وعلى كل حال ،فالمصادر التاريخية،لم تكشف لنا النقاب عن ماهية أسباب الجدب،ذلك الذى رأى النبى معه،أنه من الضرورى إعلام المقاتلين بوجهتهم،حتى يجهدوا أنفسهم فى إحضار،الزاد لهذه الرحلة الطويلة من جهة،ومن جهة أخرى يتركون لذويهم ما يقيمون به أودهم ، ويحفظون به حياتهم[٦٥].

فأنت ترى أن الظروف التى واكبت،خروج هذا الجيش الجرار،كانت مختلفة عن ظروف السرايا والغزوات السابقة،مما هيأ الجو للمنافقين، حتى يظهروا حقدهم المقيت على الإسلام والمسلمين

(دور المنافقين فى غزوة تبوك):-

اهتبل المنافقون فرصة الضائقة الاقتصادية ،التى يعيشها المسلمون وقسوة المناخ فى وقت الخروج فأنشأ بعضهم يثبط بعضا على عدم الخروج مع رسول الله إلى "تبوك"،فلما أتى هذا التثبيط ثماره فى صد أفئدة رجال منافقين،عن رسول الله -ﷺ-

---

[٦٥] ابن هشام سيرة النبى/جـ٤/١٦٩،١٧٠ -أبو شهبة :السيرة النبوية /جـ٢/٤٩٦،٤٩٧.

راحوا،ينشطون فى تثبيط المؤمنين عن الخروج ،مــع النبــى،حتــى يطيــب المناخ ويجنوا الثمار،ولقد حكى القرآن الكريم ذلـــك عنــهم،بقولــه تعــالى : (وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فى الحَــرِّ قُــلْ نَــارُ جَــهَنَّمَ أَشَــدُّ حَــرًّا لَّــو كَــانُوا يَفْقَــهُون)[٦٦].

والحق أن هــؤلاء المنــافقين،التمسـوا أعـذاراً، جعلـت المؤمنيـن متثــاقلين فــى أول أمرهــم،عــن تلبيــة دعــوة النبــى والخــروج معــه لوجهتــه،غــير أن الإيمــان القــوى الــذى ملــك علــى معظمــهم أفئدتهم،استعلى بهم على المــبررات الواهيــة (التــى قــد تثبــط العزيمــة ،فتنافسوا فى الإنفاق على تجهيز الجيش وتلبيــة نــداء الجــهاد[٦٧]

قال تعالى : (يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُــوا مَــالَكُم إِذَا قِيــلَ لَكُــمُ انْفِــرُوا فِــي سَبِيل الله أثَّا قَلْتُمْ إِلىَ الأَرْض.أَرَضِيتُــم بِالحَيَــاةِ الدُّنيــا مِــنَ الآخِــرَةِ فَمَــا متاعُ الحَيَاة الدُّنيا فِى الآخِــرَةِ إِلاَّ قَلِيــلٌ [٦٨]).

وإذا كــانت هــذه ،هــى حالــة المؤمنيــن الذيــن تصــدوا بإيمانــهم لدعاوى المنافقين ،فـــإن بعضــاً مــن رجــالات المســلمين ،ركنــوا إلــى الراحة أخذاً بمـــبررات النفــاق،فــى عــدم الخــروج ملتمســين لأنفســهم أعذاراً،ظنوها، تنطلى على رسول الله، فلا يعاقبــهم علــى تخلفــهم ،ومــن ثم يبقى نفاقهم مستوراً عن المؤمنين ، ومـــن هــؤلاء "الجـد بــن قيــس"

---

(٦٦) سورة التوبة: آية (٨١).

(٦٧) الزمخشرى الكشاف جـ٤/٢٧٠/٢٧١/٢٩٦

(٦٨) سور ة التوبة :آية (٣٨).

الذى قال له رسول -ﷺ-:[يا "جد" هل لك فـى جـلاد بنـى الأصفـر،قـال :يا رسول الله أو تأذن لـى (أى فـى التخلـف ولا تفتنـى) فـو الله ، لقـد عرف قومى أنه ما مان رجل أشد عجبـا بالنسـاء منـى ،وغنـى أخشـى إن رأيت نساء بنى الأصفـر أن لا أصـبر ،فـأعرض عنـه رسـول الله -ﷺ-وقال :قد أذنت لك [٦٩]فأنزل الله تعالى: (وَمِنْهُم مَّـنْ يَقُـولُ ائْـذَن لّـى وَلاَ تَفْتِنّىَ ألاَ فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وإن جَـهَنَّمَ لمُحيَطـةٌ بالْكَـافِرِيْن[٧٠]).

وحين وجد المنافقون ،الإخفاق قد "ألم" بمسـاعهم،فـى تثبيـط عزائـم المؤمنينَ على الخروج،أحدثوا أمراً آخر ،أرادوا بـه شـقاقاً بيـن رسـول الله -ﷺ-،وابن عمه "على بـن أبـى طـالب " ليـس هـذا فحسـب،بـل أرادوا به ،إظهار رسول الله،بمظهر الضنيـن بـابن عمـه علـىّ الخـروج مع القوم فى الحر الشديد والمقصـد البعيـد.

ذلك أنهم لما رأوا،النبى عند خروجه،خلـف "عليـاً بـن أبـى طـالب "على أهله،فأرجف به المنافقون،وقـالوا:مـا خلفـه إلا إسـتثقالاً وتخففـا منه فأخذ "على" رضى الله عنه سلاحه، ثم خـرج ،حتـى أتـى رسـول الله -ﷺ-وهو نازل بالجرف ،فقال يا نبـى الله .زعـم المنـافقون أنـك إنمـا خلفتنى لأنك استثقلتنى،وتخففت منـى،فقـال :كذبـوا،ولكنـى خلفتـك لمـا تركت ورائى فارجع ،فاخلفنى فى أهلـى وأهلـك،أفـلا ترضـى أن تكـون

[٦٩] الحلبى السيرة الحلبية /جـ٣/١٠٣ -السهيلى :الروض الأنف جـ٤/١٧٣،١٧٤

[٧٠] سورة التوبة :آية (٤٩).

منى بمنزلة "هارون" من "موسى"؟إلا أنـــه لا نبـــى يعـــدى ،فرجـــع "علـــى "إلى المدينـــة[٧١].

ومما يجدر ذكره هنا،أن عدداً من المنـــافقين ،خرجـــوا فـــى الجيـــش الإسلامى المتوجه إلى تبوك لبث ســـموم نفاقـــهم ،فـــى المســـلمين ،حتـــى تفتر عزيمتهم،وتقل حماستهم ،حين يلقـــون عدوهـــم.

والذى يدلنـــا علـــى وجـــود عـــدد مـــن المنـــافقين مـــع المســـلمين الخارجين ، أن ناقة النبى محمد -ﷺ-حين غـــابت عـــن أعيـــن المســـلمين الذين أنشأو ا ، يبحثون عنها فلم يجدوهـــا ، فاهتبلـــها " زيـــد بـــن لَصيّـــتِ المنافق فرصة ، فقال إن " محمداً " يخـــبركم الخـــبر مـــن الســـماء ، وهـــو لا يدرى أين ناقته ، فلما وقف النبى " محمـــد " علـــى مقولـــة المنـــافقين ، قال : (أنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله عز وجـــل وهـــى فـــى الـــوادى فى شعب كذا ، قد حسبتها شجرة بزمامها) فـــانطلقوا فـــأتوه بـــها ، فلمـــا رجع " عمارة بن حزم " إلى أصحابه علم أن أول مـــن ذكـــر تلـــك المقولـــة فى حق النبى "محمد " -ﷺ- هو زيـــد بـــن لُصَيْـــت القينقـــاعى " المنـــافق وكان فى رحل " عمارة " فابتدره بســـيفه فضـــرب عنقـــه ، وهـــو / يقـــول فى رحلى داهيـــة ولا أدرى [٧٢]

مما تقدم يرى القارئ الكريـــم أن المنـــافقين ، لـــم يدعـــوا فرصـــةً ، تتيح لهم النيل مـــن المســـلمين إلا واســـتغلوها لتحقيـــق مأربـــهم ، إلا أن

---

[٧١] ابن كثير :البداية والنهاية /جـ٥/٧ - المقريزى:إمتاع الأسماع/جـ١/٣٢٨.

[٧٢] ابن الأثير : الكامل / جـ٢/ ٢٧٩ -ابن القيم : زاد المعاد / جـ٣/ ٥٣٣

أقوالهم ذهبت أدراج الرياح، فلــم تــترك أثــراً واحــداً يتمنــاه المنــافقون على أفئدة المســلمين .

وإذا كنا قد تتبعنا موقف المنافقين ، منــذ أن أعلــم النبــى المؤمنيــن بالخروج ، حتى وصلوا " تبوك " فإنه يحســن بنــا ، إلقــاء الضــوء علــى الآيات والصور التى كانت من النبـــى ومــن المؤمنيــن ، مــن لــدن بــدأ استعدادهم ، حتى وصولهم إلى لقاء عدوهم ، لنتبيــن مــن خلالــها الفشــل الذريع الذى ألـــم بمســعى المنــافقين، فــى النيــل مــن النبــى وتخذيــل المؤمنين عن اتباعه فى سيره إلـــى الــروم .

خروج المؤمنين من المدينة إلـــى تبــوك

إن من يمعــن النظــر فيمــا ، كــان مــن أمــر المؤمنيــن ، عندمــا أخبرهم النبى " محمد " بخروجهم للقاء " الــروم " عنــد " تبــوك " يجــد أن لجند الله مواقف رائعـــة.

فهاهم صحابـــة رســول الله -ﷺ- يتنافســون فيمــا بينـــهم ، علــى تجهيز جيش " العســـرة " بــالرغم مــن الأزمــة الإقتصاديــة التــى كــان المجتمع الإسلامى يعيشـــها.

فها هو ذا "أبو بكر الصديق " يــأتى النبــى " محمــداً " بمالــه كلــه ، وهو أربعة آلاف درهـــم ، فقــال رســول الله -ﷺ- "هــل أبقيــت لأهلــك شيئاً؟ " فقال : أبقيت لهم الله ورســوله .وجــاء " عمــر بــن الخطــاب "- رضى الله عنه بنصف ماله ، فقـــال لـــه رســول الله -ﷺ- :" هــل أبقيــت لأهلك شيئاً ؟ ، قال نعــم ، مثــل مــا جئــت بــه ، وحمــل " العبــاس " ،

و"طلحة بن عبيد الله " و" سعد بن عبادة " ،وحمل " عبد الرحمن بن عوف " - رضى الله عنهم - مائتى أوقيه إلى رسول الله -ﷺ- ، وتصدق " عاصم بن عدى " - رضى الله عنه - بسبعين وسقا من تمر (٧٣)

أما " عثمان بن عفان " ، فانه كان اكثر الصحابة إنفاقاً على تجهيز جيش : العسرة " إذ جاء بألف دينار فى ثوبه ، فصبها فى حجر الرسول -ﷺ-، فجعل النبى -ﷺ- يقلبها بيده ويقول : (مَاضَرَّ ابن عفان ما عَمَل بعد اليوم) بالإضافة إلى ثلاثمائة بعير ، بأحلاسها وأقتابها جعلها " عثمان " لجمل الجيش الإسلامى (٧٤) .

ولقد شاركت النسوة فى تجهيز جيش المؤمنين ، فكن يجئن إلى رسول الله بكل ما يقدرون عليه ويلقين فى ثوب مبسوط بين يدى النبى -ﷺ- كالمسك، والمعاضد والخلاخل ، والأقرطة، والخواتيم (٧٥) ، الخدمات (٧٦) .

وعلى الجملة فان المسلمين الذين يملكون الحدود الدنيا ، من المال ، فقد اقبلوا على رسول الله لاعطاء ما يجهز به جيش المسلمين ، بغض النظر عن مقدار عطائهم .

---

(٧٣) ابن سيد الناس : عيون الاثر / جـ٢/ ٢٩٢ الصالحى : سبل الهدى والرشاد / جـ٥/ ٤٣٥ السيوطى : تاريخ الخلفاء / ٤٠ - الحلبى : السيرة الحلبية / جـ٣/ ١٠٠

(٧٤) ابن كثير : البداية والنهاية / جـ٥/ ٤

(٧٥) الصالحى : سبل الهدى والرشاد جـ٥/ صـ٤٣٦ - الحلبى السيرة الحلبية / جـ٣/ ١٠٠، ١٠١

(٧٦) أحد أنواع الخلاخيل - ابن منظور :لسان العرب - مادة خدم

أما أولئك الذين ، لا يملكون المال ، ويريدون الجهاد ، فانهم جعلوا أنفسهم فى خدمة دينهم ، فجاءوا رسول الله -ﷺ- ، يطلبون منه أن يوفر لهم ، ما يحملهم عليه ، حتى تُتاح لهم فرصة الجهاد فى سبيل الله ، فلما لم يجد النبى ما يحملهم عليه ، وأعادوهم إلى ديارهم ، ألمَّ الحزن بهم وفاضت أعينهم بالدموع المنهمرة على وجناتهم لضيق ذات اليد : وقد عرف هؤلاء بالبكائين وهم " أبو ليلى المازنى " و" سلمة بن صخر " و" ثعلبه بن عتمه السلمى " و" علبه بن زيد الحارثى " " رباص بن سارية السلمى "، و" هرمى بن عمرو المزنى " ،و" سالم بن عمير " [٧٧]

ولقد سجل القرآن الكريم مواقف ، هؤلاء فى قوله تعالى :

(وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ وَتَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ)[٧٨]

وعلى الرغم من اعتذار بعض الإعراب لرسوله عن عدم الخروج معه والتماسهم العلل التى لم يقبلها منهم النبى " محمد " فان الرسول خرج من المدينة فى ثلاثين ألفاً تاركاً وراءه سباع بن عرفطة " ليقوم بأمر أهلها مدة غياب النبى عنها .

---

[٧٧] ابن ثابت ابن النعمان بن أمين بن عوف ، شهد العقبة وبدر وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله -ﷺ- وتوفى فى خلافة معاوية. ابن الأثير : أسد الغابة جـ٢ صـ١٧٤

[٧٨] سورة التوبة : آيه (٩٢) الطبرى : تفسير ٥ / جـ١٤ / ٤٢١ الزمخشرى : الكشاف جـ٢/ ١٠٣صـ

ويذكر المؤرخون موقفا عظيمـــا لصحـــابى ، تمكـــن منـــه الشـــيطان لبعض الوقت جاعلاً إياه يتخلف عـــن رســـول الله ، هــو أبــو خيثمـــة " الذى رجع إلى بيته فى يـــوم شـــديد الحـــرارة فتذكـــر خـــروج رســـول الله ومن معه إلى تبوك وبينما هو كذلك إذ بنظرة يقع علـــى امرأتيـــن لـــه فـــى عر يشين لهما فى حائط، قد رشت كل واحـــدة منـــهما عريشـــها ، وبـــرَّدت له فيها ماء ، وهيّأت له فيه طعاماً فلما دخل قـــام علـــى بـــاب العريشـــين ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، قال: رســـــول الله فـــى الضـــح والريـــح ، وأبو خثيمة فى ظلال باردة وماء بـــارد، وطعـــام مـــهيأ ، وامـــرأة حســـناء وفى ماله مقيم ! ما هـــذا بـــالنَّصَف !!.ثـــمُ قـــال : والله لا ادخـــل عريـــس واحده منكما ، حتى الحق برســـول الله ، وفـــهيئَا لـــى زاداً ؛ ففعلتـــا . ثـــم قدم ناضحة فارتحله ، ثـــم خـــرج فـــى طلـــب رســـول الله -ﷺ-حتـــى أدركه حين نزل : تبوك " ، وقد أدرك " أبا خيثمـــة " ، " عمـــيرُ بـــن وهـــب الجمحى ' فـــى الطريـــق ، بطلـــب رســـول الله -ﷺ- فترافقـــا ، حتـــى إذا دنوا من " تبوك " قال " أبو خيثمة " " لعمير مـــن وهـــب " : إن لـــى ذنبـــاً ،فلا عليك أن تخلف،عنى،حتى آتى رســـول الله -ﷺ- ،ففعـــل ،ثـــم ســـار حتى إذا دنا من رسول الله -ﷺ- وهـــو نـــازل "بتبـــوك"،قـــال النـــاس:يـــا رسول الله هذا راكب علـــى الطريـــق مقبـــل فقـــال رســـول الله :كُـــن أبـــا خيثمة! فقالوا:يا رسول الله هو والله أبو خيثمـــة فلمـــا أنـــاخ،أقبـــل فســـلم على رسول الله -ﷺ- ،فقال له رسول الله :أولـــى لـــك يـــا أبـــا خيثمـــة!،

ثم أخبر رسول الله الخبر،فقــال لــه رســول الله -ﷺ- خــيراً ودعــا لــه بخــير[٧٩].

فأنت ترى الصحابى الجليل يقبــل علــى طلــب الجــهاد،غــير مبــال بشهوات الدنيا نابذاً الراحة ومجالسة أزواجــه،لأن هــذا وغــيره،وإن طــال فإنّه عرض زائــل .

ومن كانوا مثل "أبى خيثمة" علــى إيمــان قــوى،غرســه رســول الله فى أفئدتهم فإنهم لا يرضون إلا بــالنعيم البــاقى،إذ كــان هــذا غايــة كــل واحد منهم، كلما همَّ النبى بالخروج للقــاء الأعــداء.

وعلى كل حال فإن رسول الله -ﷺ- لما وصــل إلــى "تبــوك" أقــام بها إحدى عشرة ليلة على قول ،.وعشرين على آخــر،بــث منــها الســرايا إلى الجماعات المتاخمة لها ،وأباح لجنــده البيــع والشــراء والصيــد،ولــم يلق عدواً حتى رحل عنــها [٨٠] .

وهنا نجد أحد الباحثين المحدثين،يتــف موقــف المحلــل للاحتمــالات التى جعلت رسول الله -ﷺ-لا يلقى عدوه عنــد "تبــوك".

فقال متسائلاً: لماذا لــم تكــن الحشــود الرومانيــة موجــودة علــى حدود الجزيرة العربية،كما جــاء فــى الإخباريــة التــى بلغــت الرســول -ﷺ-،وهو بالمدينة،فتحرك على أثرهــا بجيشــه فــى تلــك الظــروف التــى يمكن تسميتها بأنها ظروف استثنائية،نظراً لشدة الحــر فــى ذلــك الفصــل والضائقة المالية التى عليها عامــة المســلمين.

---

[٧٩] الطبرى :تاريخ الرسل والملوك/جـ٣/١٠٤،١٠٥ -ابن الأثير :أسد الغابة /جـ٥/٩٣.

[٨٠] ابن هشام :سيرة النبى/جـ٤/١٨٠،١٨١ - ابن سيد الناس:عيون الأثر /جـ٢/٢٩٨.

هل نكل الرومان عن الحرب التى كـــانوا يعـدون لـــها،وهـل نتيجـة هذا النكول تــأكد الرومـــان مـــن جديـــة التحركـات العسـكرية الإسـلامية الضخمــة،أم أن الإخباريـــة عـــن تحشـدات الرومــــان كـــانت غـــير صحيحة،وإنما أوعز الرومـــان ،إلـــى وكــلاء اســتخباراتهم مـــن العــرب الموالين،لهم بإشـــاعاتها ، لإرهـــاب المســلمين، و إختبـــار مـــدى قوتـــهم الحربية،ومقدرتهم القتالية فحســـب؟.

إلى هذا الرأى الأخير،يميـــل ابـــن "برهـــان الديـــن" حيــث قـــال.فـــى السيرة الحلبية ،ولم يكن ذلك (أى الحشد الرومــــانى) حقيقـــة ،وإنمـــا ذلــك شىء،قيل لمن يبلغ ذلك المسلمين،ليرجف به،وكان ذلـــك فـــى عســـرة فـــى الناس وجدب فى البـــلاد[٨١]

ونحن نرى أن غزوة تبوك،قد حققـــت أهدافـــها،وإن لـــم يلـــق فيـــها المسلمون عدوهـــم.

فإن غير واحد من العرب المتنصرة الخـــاضعين للـــروم،خلعـــوا مـــن أعناقهم ربقة الطاعة لهم وأذعنوا للمسلمين،وأقـــروا بالجزيـــة لـــهم،مثلمـــا كان من "أكيدر بن عبد الملـــك "صـــاحب دومـــة الجنـــدل،فـــإن رســـول الله أشخص إليه "خالد بن الوليد" على رأس أربعمائـــة مـــن المســـلمين ،وقـــال له إنك ستجده بصيد البقر،فخرج خالد حتى إذا كـــان مـــن حصنـــه بمنظـــر العين ،فى ليلة مقمره صافية،وهو على ســـطح لـــه ومعـــه امرأتـــه،فـــأتت البقرة تحك بقرونها باب القصر،فقالت له امرأته.هل رأيـــت مثـــل هـــذا قـــط

---

(٨١) باشميل :الغزوات الكبرى /جـ١٠/١٠٧.

؟قال:لا والله،قالت فمن يترك هذه؟قال لا أحد فنزل،فأمر بفرسه،فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخ يقال له "حسان"،فركب وخرجوا معه بمطاردهم،فلما خرجوا تلقفتهم خيل رسول الله -ﷺ- فأخذته،وقتلوا أخاه،وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب ،فاستلبه "خالد "فبعث به إلى رسول الله -ﷺ- قبل قدومه عليه، وفيه قال عليه الصلاة والسلام : (لمناديل "سعد بن معاذ" فى الجنة أحسن من هذا)،ثم إن خالد قدم "بأكيدر" على رسول الله -ﷺ-،فحقن له دمه،وصالحه على الجزية،ثم خلى سبيله،فخرج إلى قريته.[٨٢]

على أن غزوة "تبوك" لامراء،جعلت القيادة السياسية فى دولة الروم،تعيد حساباتها فى نظرتها إلى العرب،فلا يستطيع قائل الزعم،أن قيصر الروم،لم يقف على خبر الجيش الجرار الذى جاءه به رسول الله-ﷺ- فإن ذلك لا يتفق مع نظام دولة الروم،تلك التى كانت تبث عيونها هنا وهناك حتى توقف أولى الأمر فيهم على أخبار أعدائهم، فمكوث النبى هذا الوقت بتبوك،وإحجام القيصر عن منازلة المسلمين ليس له من مبرر سوى أنه رأى الوقت غير مناسب لمنازلتهم،لماله من سابق تجربة معهم يوم "مؤته" وقد كانوا إذ ذاك قلة،فما بالهم ،وهم الآن كثرة فأيقن أنه حتى يحفظ لإمبراطوريته هيبتها،ويديم على رعيته نشوتها،بإحرازها الانتصار على الفرس إرجاء منازلة المسلمين،إلى حين يكون فيه الروم أصحاب اليد العليا،فى تحديد

---

[٨٢] ابن سعد: الطبقات الكبرى /جـ٢/١٢٦. -ابن هشام :سيرة النبى /جـ٤/١٨١،١٨٢.

الزمان والمكان لتلك المواجهة بينهم،وبيـــن قـــوة المســلمين الفتيــة،تلــك التى ظهرت علـــى مســرح الأحــداث فنازعتــهم الســيادة علــى العــرب الموالين لهم،وقد كان الــروم جعلــوا منـــهم خــط دفــاع يقيــهم الأخطــار الوافدة من القبائل الكائنة بشبة الجزيـــرة العربيــة.

ومن الأمور التى أفادت بها غزوة "تبــوك" المجتمــع الإســلامى أنـــها فضحت المنافقين وكانت بمثابة إيذان بحــدوث المواجهــة بيــن المســلمين وبينـــهم،بعــد أمــد كــان رســول الله -ﷺ-والمســلمون يفضلــون فيــه مهادنتهم،رجاء هدايتهم،وإصلاح شأنهم،فكــان موقفــه -ﷺ-بعــد عودتــه إلى المدينة مـــن المســجد الــذى أنشــأهُ المنــافقون حلقــة مــن حلقــات الصراع المعلن بين المســلمين والمنــافقين.

مسجد الضـــرار:-

يرجع تأسيس هذا المسجد إلى اتفاقية أبرمـــها "أبــو عــامر الفاســق" -الذى ألمعت إلى موقفه من رسول الله فيمــا أســلفناه -مــع اثنــى عشــر رجلاً من أهل المدينة،فإن "أبا عامر" أعلمـــهم بأنـــه ذاهــب إلــى حــاضرة قيصر رومـــا، ليســتمده،حتــى يــأتى النبــى "محمــداً" بــالروم فيحاربــه بالمدينة ويخرجه منـــها.

فلما تم هؤلاء النفر بنـــاء ذلــك المســجد أرادوا،أن يضفــوا علــى وجوده شرعية ،فأتوا رسول الله، وهو يتوجه إلى "تبــوك"،فقــالوا لــه :يــا رسول الله إنا بنينا مسجداً لذى العلــة والحاجــة والليلــة المطــيرة ، وإنــا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيــه ،قــال: (إنــى علــى جنــاح ســفر وحــال شغل،وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا لكــم فيــه).

فلما رجع رسول الله -ﷺ- من غزوة تبوك" ونزل" بذى أوان "مكان بينه وبين المدينة ساعة،أنزل الله سبحانه وتعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنَ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)[٨٣]

فلما نزل الوحى بهذه الآية ،أرسل رسول الله -ﷺ- ثلةٌ من رجاله لإحراق ذلك المسجد بالنيران،ليخفق المنافقون فى مسعاهم الجديد الذى ابتغوا منه إحداث فرقة بين جماعة المؤمنين،وتذهب مساعى "أبى عامر الفاسق" أدراج الرياح،فقد مات طريداً بالشام دون أن يصيب النبى أذى منه[٨٤].

وهكذا نرى الله عصم نبيه "محمداً" من الصلاة فى هذا المسجد الذى ما أراد المنافقون من إنشائه إلا بذر بذور الشقاق،لتحل محل الوفاق فى المجتمع المدنى،فإنه على فرض إتمام أمر هذا المسجد كان سيؤدى إلى وجود عصبيات أماتها الإسلام،كل منها يتعصب للصلاة فى مسجدها فتكثر القالة وتظهر الشحناء بين أفراد المجتمع.

ومن ثم كان أمر الله لنبيه بعدم الصلاة فيه (لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمسجِدُ أُسِسَ عَلَى التَّقْوَى مِنَ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيَه فِيْه رِجَالٌ

---

[٨٣] سورة التوبة : آية ١٠٧.

[٨٤] الطبرى :التفسير /جـ١٤/٤٧١ -الألوسى٨ :روح المعانى /جـ١/١٨/١٩ - الصالحى :سبل الهدى والرشاد /جـ٥/٤٧١.

يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ،أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[٨٥] .

ولما فرغ الرسول من أمر مسجد الضرار،دخل مسجده بالمدينة،فصلى ركعتين،وجاء المعتذرون يسلمون عليه،ويحلفون له ، أنه ما حال بينهم وبين الخروج إلا أمور أكرهتم على الجلوس،فصدقهم الرسول،وأوكل أمرهم إلى ربهم يجزيهم على نياتهم،باستثناء ثلاثة رجال،منهم كان لهم من النبى والمسلمين موقف ذكرته المصادر القديمة.

ونظراً لأهمية هذا الوقف،وعظم الصبر التى تستفاد منه،يحسن بنا إلقاء الضوء على قصة الرجال المؤمنين الذين تخلفوا عن الخروج إلى "تبوك" مع النبى محمد -ﷺ-.

موقف النبى والمسلمين من الثلاثة المخلفين :

تخلف عن الخروج مع الرسول الله ثلاثة رجال من المؤمنين الذين لم تعرف أفئدتهم مثقال ذرة من نفاق،وكلهم أحب رسول الله حُباً شديداً،فاق حبهم لأنفسهم،إلا أنهم غابوا عن غزوة العسرة،مع يسارهم واستطاعتهم الإنخراط فى الجيش الإسلامى،لتكون فى قصتهم مع النبى والمسلمين واقعاً يعتبر به المعتبرون فى كل زمان،وهم يقرأون سيرة سيد الأنام والثلاثة الذين تخلفوا هم هلال بن أمية

---

[٨٥] سورة التوبة :آيات (١٠٨،١٠٩).

الواقفى، "ومرارة بن الربيع العمرى".و"كعب بـــن مـــالك بـــن أبـــى كعـــب" ولسوف نفسح المجال للأخير ليحدثنا عن قصـــــة فخلفـــه ومـــا كـــان مـــن أمره،وأمر أخويه بعد قفول النبى "محمد" -ﷺ- مـــن تبـــوك ،حتـــى يقـــف القارئ الكريم على ما هية السياسية النبوية التـــى عـــالج بـــها رســـول الله -ﷺ-أمر الثلاثة المؤمنيـــن.

يقول "كعب" غزل رسول الله -ﷺ- تلك الغـــزوة حيـــن طـــابت الثمـــار والظلال،وتجهز رسول الله -ﷺ- والمســـلمون معـــه،فطفقـــت أغـــدو لكـــى أتجهز معهم،فأرجع،ولم أقض شيئاً،فأقول فى نفسى:أنـــا قـــادر عليـــه،فلـــم يزل يتمادى بـــى،حتـــى اشـــتد بالنـــاس الجـــد،فـــأصبح رســـول الله -ﷺ- والمسلمون معه ،ولم أقض من جهازى شـــيئاً،فقلـــت أتجـــهز بعـــده بيـــوم أو بيومين،ثم ألحقهم،فغدوت بعد أن ،فصلوا لأتجـــهز،فرجعـــت،ولـــم أقـــض شيئاً، ،ثم غدوت، ثم رجعـــت ولـــم أقـــض شـــيئاً ،فلـــم يـــزل بـــى حتـــى أسرعوا،وتفارط؟؟ الغزو،وهممت أن أرتحل فأدركـــها،،وليتنـــى فعلـــت،فلـــم يقدر لى ذلك فكنت إذا خرجت فـــى النـــاس،بعـــد خـــروج رســـول الله-ﷺ- فطفت فلم يقدر لى ذلك،فكنت إذا خرجت فى النـــاس،بعـــد خـــروج رســـول الله -ﷺ-فطفـــت فيـــهم،أحزننـــى أنـــى لا أوى إلا رجـــلاً مغموصـــاً عليـــه النفاق،أو رجلاً ممن عذر الله مـــن الضعفـــاء،ولـــم يذكرنـــى رســـول الله - ﷺ-حتى بلغ "تبوك"،فقال وهـــو جـــالس فـــى القـــوم "بتبـــوك" :مـــا فعـــل "كعب"؟ فقال رجل من نبى سلمه:يا رسول الله حبســـه يـــرداه ،ونظـــره فـــى

عطفه،فقال "معاذ بن جبل " [٨٨] .. بئـس مـا قلـت ،والله يـا رسـول الله ما علمنا عليه إلا خيراً،فسكت رسـول الله -ﷺ- قـال "كعـب بـن مـالك": فلمـا بلغنـى أنـه،توجـه قـافلاً حضرنـى همـى،وطفقـت أتذكـر الكذب،وأقول:بماذا أخرج من سخطه غـداً؟، واسـتعنت علـى ذلـك بكـل ذى رأى من أهلى فلمـا قيـل :إن رسـول الله -ﷺ-قـد أظـل قادمـاً،زاح عنى الباطل،وعرفت أنى لن خرج معه أبـداً بشـىء فيـه كـذب،فـاجتمعت صدقة وأصبح رسول الله -ﷺ- قادمـاً، وكـان إذا قـدم مـن سـفر بـدأ بالمسجد فيكع فيـه ركعتيـن،ثـم جلـس للنـاي،فلمـا فعـل ذلـك جـاءه المخلفون،فطفقوا،يعتذرون إليـه ويحلفـون لـه،كـانوا بضعـة وثمـانين رجلاً،فقبـل منـهم رسـول الله -ﷺ-علانيتـهم،وبايعـهم،واسـتغفر لـهم ،ووكل سـرائرهم إلـى الله ،فجئتـه،فلمـا سـلمت عليـه تبسـم،بتبسـم المغضب ثم قال،تعال،فجئت أمشى حتى جلست بين يديـه، فقـال لـى: مـا خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟فقلت: بلى وإنى لـو جلسـت عنـد غـيرك من أهل الدنيا ،لرأيت أن سأخرج من سخطه بعـذر ولقـد أعطيـت جـدلاً، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم، حديـث كـذب ترضـى بـه عنـى ليوشكن الله أن يسخطك علىَّ،ولئن حدثتك حديـث صـدق تجـد علـى فيـه إنى لأرجو فيه عفو الله ،لا والله ما كان لى من عـذر،والله مـا كنـت قـط

---

[٨٨] ابن عمرو بن أوس الخزرجى،شهد "بدرا" ،وأحد"،،والمشاهد كلها مع رسول الله،آخـى النبى بينه وبين "عبد الله بن مسعود،عندما أسلم كان عمره ثمانى عشرة سنةً ،توفى فـى طاعون عموس سنةً ثمانى عشرة للهجرة،عن عمر بلغ ثمانيا وثلاثين سنةً علـى أرجـح الأقوال.-ابن الأثير :أسد الغابة/جـ٤/٤٠٣:٤٠٠.

أقوى،ولا أيسر منى حين تخلفت عنــك،فقــال رســـول الله -ﷺ-:أمــا هــذا فقد صدق،فقم حتى يقضى الله الله فيـــك،فقمــت، وثــار رجــال مــن بنــى سلمة فاتبعونى،فقــالوا لــى:والله مــا علمنــاك كنــت أذنبــت ذنبــاً قبــل هذا،ولقد عجزت أن تكون اعتذرت إلى رســول الله -ﷺ-بمــا اعتــذر إليــه المتخلفون،قد كان كافيك ذنبك استغفار رســول الله -ﷺ- لــك فــو الله مــا زالوا يؤنبونى،حتى أردت ،أن أرجع فــأكذب نفســى،ثــم قلــت لــهم:هلــى لقى معى قد ؟قالوا :نعم،رجلان فالأمثل ما قلت،فقيــل لــهم مثــل مــا قيــل لك فقلت:من هما؟قالوا:مرارة بــن الربيــع العمــرى"،"وهــلال بــن أميــة الواقفى"،فذكروا لى رجلين قد شهدا "بــدراً فيــهما أســوة،فمضيــت حتــى ذكروهما لى،ونهى رسول الله -ﷺ- المسلمين عن كــلا منــا أيــها الثلاثــة من بين من تخلف عنه،فاجتنبنا النــاس،وتغــيروا لنــا،حتــى تنكــرت فــى نفسى الأرض فما هى التى أعرف ،فلبثنا على ذلــك خمســين ليلــة ،فأمــا صاحباى،فاستكانا،وقعدا فى بيوتهما،يبكيان،واما أنــا فكنــت أشــب القــوم وأجلدهم،فكنــت أخــرج فأشــهد الصــلاة مــع المســلمين،وأطــوف فــى لأسواق،ولا يكلمنى أحد،وآتى رســول الله -ﷺ-فأســلم عليــه وهــو فــى مجلسه بعد الصلاة،فأقول فى نفسى: هل حرك شــفتيه بــرد الســلام علــىَّ أم لا؟ ثــم أصلــى قريبــاً منــه ،فأســارقه النظــر ،فــإذا أقبلــت علــى صلاتى،أقبل إلىّ،وإذا التفَتَ نحوه أعرض عنى،حتــى إذا طــال علــىّ ذلــك من جفوة الناس،مشيت حتى تسورت جدار حائط "أبــى قتــادة" وهــو ابــن عمى ،واحب الناس إلىَّ،فسلمت عليه،فو الله مــارد علــىَّ الســلام،فقلــت:

يا "أبا قتادة"، أنشدك الله،هل تعلمنى أحـــبُّ الله ورســوله؟ فســكت ،فعــدت له فنشدته،فسكت ،فعدت له فنشدته،فقــال:الله ورســوله أعلــم.

ففاضت عيناى؟ وتوليــت حتــى تســورت الجــدار،قــال:فبينمـــا أنـــا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهــل الشــام ممــن قــدم بالطعــام يبيعهة بالمدينة يقول:من يــدل علــى "كعــب بــن مــالك"؟ فطفــق النــاس يشيرون له حتى إذا جاءنى،دفع إلى كتابـــاً مــن ملــك "غســان"فــإذا فيــه ،أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك،ولـــم يجعلــك الله بــدار هــوان ولا مضيعة،فالحق بنا نواسيك،فقلت لما قرأتها: وهـــذا أيضــاً مــن البــلاء فتيممت بها التنور فســـجرته بــها،حتــى إذا مضــت أربعــون ليلــة مــن الخمسين إذا رسول الله -ﷺ-يـــأتينى فقــال:إن رســول الله -ﷺ- يــأمرك أن تعتزل امرأتك،فقلت:أطلقها أم ماذا أفعــل؟ قــال :لا بــل اعــتز لــها،ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبى مثــل ذلــك.

فقلت لا مرأتى :الحقى بأهلك فكونى عندهــم "حتـــى يقضـــى الله فـــى هذا الأمــو.

قال كعب : فجاءت امرأة "هلال بـــن أميــة" رســول الله -ﷺ-فقــالت :يا رسول الله ،زوجـــى شــيخ ضــائع ليــس لــه خــادم،فــهل تكــره أن أخدمه؟قال: لا ،ولكـــن لا يقربــك قــالت:إنـــه والله مــا بــه حركــة إلــى شىء،والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلـــى يومـــه هـــذا.

فقيل لى:لو استأذنت رسول الله -ﷺ-فـــى امراتــك كمــا أذن لا مــرأة "هلال بن أمية" أن تخدمه،فقلــت:والله لا أســتأذن فيـــها رســول الله -ﷺ-

وما يدرينى ما يقـــول رســـول الله -ﷺ- إذا اســـتأذنته فيـــها وانـــا رجـــل شــاب.

فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمســـون ليلـــة ،مـــن حيـــن نهى رسول الله -ﷺ-عـــن كلامنـــا ،فلمـــا صليـــت صـــلاة الفجـــر صبـــح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيـــت مـــن بيوتنـــا،فبينمـــا أنـــا جـــالس علـــى الحال التى ذكر الله! قد ضاقت علـــىَّ نفســـى،وضـــاقت علـــىَّ الأرض بمـــا رحبت ،سمعت صوت صارخ أوفى على "جبـــل ســـلع" بـــأعلى صوتـــه:"يـــا كعب بن مال أبشر،قال:فخررت ساجداً وعرفت أنه قـــد جـــاء فـــرج،فســـار "كعب" حتى ،دخل المســـجد،فـــإذا رســـول الله -ﷺ-جـــالس حولـــه النـــاس ،فقام إلى "طلحة بن عبيد الله"يـــهرول حتـــى صـــافحنى وهنـــأنى،والله مـــا قام إلى رجل من المهاجرين غيره،ولا أنســـاها "لطلحـــة"،قـــال كعـــب:فلمـــا سلمت على رسول الله -ﷺ-وهو يبرق وجهه مـــن الســـرور:أبشـــر بخـــير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك،قال:قلت أمن عنـــدك يـــا رســـول الله أم مـــن عند الله؟قال :لا بـــل عنـــد الله وكـــان رســـول الله -ﷺ- إذا ســـر اســـتنار وجهه،حتى كانه قطعة قمر،وكنا نعرف ذلـــك منـــه.

فلما جلست بين يديه،قلت:يـــا رســـول الله إن مـــن توبتـــى أن أنخلـــع من مالى صدقة إلى الله ورســـوله قـــال رســـول الله -ﷺ-:أمســـك عليـــك بعض مالك ،فهو خير ذلـــك.

قلت :فإنى أمسك سهمى الـــذى بخيـــبر فقلـــت:يـــا رســـول الله إن الله إنما نجانى بالصدق،وإن من توبتى أن لا أحـــدث إلا صدقـــا مـــا بقيـــت فـــو

الله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله فـى صـدق الحديث منـذ ذكـرت ذلك لرسول الله -ﷺ- أحسن مما أبلانى، ما تعمـدت منـذ ذكـرت ذلـك[٩٠] لرسول الله -ﷺ- وفى ذلك يقـول الله تعـالى (لقـد تـاب الله علـى النبـى والمهاجرين -إلى قوله -وكونوا مـع الصـادقين)[٩٠] .

ولقد عقب "ابن القيم" على قصـة المخلفيـن الثلاثـة تعقيبـا أو قـف فيه قارئيه على العبر والأحكام التى يمكـن لكـل ذى لـب جعلـها نبراسـا له فى دنياه وأخراه،فنذكر بعضا مما قاله ومنـه يجـوز للإمـام والحـاكم ترك رد السلام،على من أحدث حدثا تأديبا لـه،وزجـرا لغـيره،فإنـه -ﷺ- لم ينقل أنه رد على "كعب" بل قابل سـلامه بتبسـم المغضـب،ومنـه قـول "كعب": هل لقى هذا معى أحد؟ فقالوا :نعـم،"مـرارة بـن الربيـع"،"وهـلال بن أمية" فيه أن الرجل ينبغى له أن يـرد حـر المصيبـة ،بـروح التأسـى بمن لقى مثل ما لقـى،

وقد أرشد سبحانه إلى ذلك بقولـه تعـالى: (ولا تـهنوا فـى ابتغـاء القوم ،إن تكونوا تألمون فإنهم يـألمون كمـا تـألمون وترجـون مـن الله مالا يرجـون)[٩١].

ومنه نهى النبى -ﷺ- عن كلام هؤلاء الثلاثة،مـن بيـن سـائر مـن تخلـف عنـه،دليـل علـى صدقـهم وكـذب البـاقين،فـأراد هجـر

---

[٩٠] الطبرى:التفسير/جـ١٤ /٥٤٨: ٥٥٥ -ابن هشام: سيرة النبى/جـ٤/١٨٧: ١٩٣ البخارى :فتح البارى /جـ٧/٧١٧: ٧١٩.

[٩٠] سورة التوبة :آيات (١١٦ -١١٩).

[٩١] سورة النساء: آية (١٠٤...

الصادقين،وتأديبهم على هـذا لمـرض لا يعمـل فـي مرضـي النفـاق،ولا فائدة فيه،وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده فـي مرضـي النفـاق،ولا فـائدة فيه،وهكذا يفعل الرب سـبحانه بعبـادة فـي عقوبـات جرائمـهم فيـؤدب عبده المؤمن الذى يحبه،وهو كريم عنده بـأدنى زلـة وهفـوة،فـلا يـزال مستيقظا حذراً،واما من سقط من عينه وهـان عليـه،فإنـه يخلـى بينـه وبين معاصيه،وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمـة،والمغـرور يظـن ان ذلـك من كرامته عليه،ولا يعلم أن ذلك عين الإهانـة، وأنـه يريـد بـه العـذاب الشديد ،والعقوبة التى لا عافيه معها](٩١)،ويضاف إلـى مـا تقـدم ان فـي قصة "كعب بن مالك"،ما يؤكـد للقـارئ أن مـا كـان يقـع فـي المدينـة بالمسلمين لم يكن غائباً عن العداء المـتربصين بـهم،ليسـتغلوا منـه،مـا يحقق لهم مأربهم من الكيد لأتباع هذا فـهاهو ملـك غسـن أحـد العـرب المتنصرين الخاضعين "للروم"،يريـد اسـتغلال "كعـب بـن مـالك" بسـبب الضائقة التى ألمت به،فيغريه،ويمنيـه حتـى يقبـل عليـه،ويجعـل منـه معول هدم يهدم به الدين الإسـلامى .

الأمر الذى يؤيـد مـا سـبق تقريـره مـن وقـوف قيصـر "رومـا" والعرب الخاضعين له على أخبـار المسـلمين ،بشـكل يجعلـهم لـو أرادوا منازلتهم،لفعلوا دون أدنى عائق،يحول بينـهم وبيـن ذلـك وفـي القصـة حرص الصحابة على تنفيذ اوامر النبى "محمد" فـي السـر،مثلمـا حرصـوا عليها فى العلانية فهذا هو كعب بن مالك "يـأتى أن يسـتأذن الرسـول فـي

(٩١) ابن القيم :زاد المعاد /جـ٣/٥٧٥،٥٧٧،٥٨٧.

زوجه،حتى تخدمه خشية أن تدفعه شهوته إليها فيواقعها،فيخالف أمرا أمره به النبى -ﷺ-،ويرفض أن يجعل من قرينة فى الموقف "هلال بن أمية"،قدرة له لما بين الرجلين من تفاوت كبير فى السن ومن ثم الرغبة فى النساء.

ولم تكن هذه الطاعة إلا ن بقيس بأن الله الذى خلقهم،يعلم يسرون وما يعلنون فيها سادوا وبها أعزهم الله بإعزازهم دينه،وتفانيهم فى سبيل نشره، فحبب المسلمون بطاعتهم لنبيهم ووحدتهم الإسلام إلى الجماعات التى لم تكن قد دخلت الدين بعد .

فجاءت وفود العرب إلى المدينة بكثرة فى سنة واحدة عرفت عند المؤرخين بعام الوفود.

عام الوفود:-

شهدت المدينة بعد مقدم النبى إليها من "تبوك"،مجىء وفود القبائل والعشائر إلى رسول الله -ﷺ- لتعلن .خولها فى الإسلام،ولعل الذى دفعها إلى ذلك بعدما كانت تعارض هذا الدين،ما رأته من سيادة المسلمين على الجزيرة العربية،وكيف أنهم استطاعوا بإيمانهم إنهاء سيادة "قريش" عليهم، و"هوازن"،وإحجام الروم عن منازلتهم فى "تبوك" فاعتقدوا جازمين إنه لابقاء لهم فى منازلهم، ولا ديمومة لهم فى سلطانهم إلا بالدخول فى هذا الدين ليس هذا فحسب،بل انهم سمعوا كذلك عن حسن المعاملة التى عامل بها النبى أصحابه،وكيف انه يكرمهم .ويحسن إلى من أساء إليه.

فكان هذا كله بمثابة عامل تشجيع لـــهم علـــى القـــدوم إلـــى المدينـــة ليلتقوا رسول الله -ﷺ- ومن أشـــهر الوفـــود التـــى جـــاءت المدينـــة وقـــد "ثقيف" تلك القبيلة التى كانت بالأمس القريـــب "بالطـــائف" متحصنـــه، فـــإذا بوفدهم،يأتى إلى المدينة مذعنـــاً إلـــى رســـول الله -ﷺ-،ويعـــزى مجـــىء وفدهم إلى ما كان من أمر "عروة بن مســـعود الثقفـــى "معـــهم،فقـــد كـــان حين حاصر النبـــى "محمـــد" "الطـــائف" ،أيقـــن أن لا حـــائل،يحـــول بيـــن الإسلام وبين انتشاره فى بلاد "ثقيف" فعجـــل الســـير للقـــاء رســـول الله -ﷺ-،وكان قد خابره،وحادثة عند "الحديبية" قبـــل "فتـــح مكـــة" كمـــا ذكرنـــا آنفاً فأعلن إسلامه بيـــن يـــدى رســـول الله -ﷺ-،وســـأله أن يرجـــع إلـــى قومه بالإسلام،فقال له رســـول الله-ﷺ-:إنـــهم قـــاتلوك،وعـــرف،أن يرجـــع إلى قومه بالإسلام،فقال لـــه رســـول الله -ﷺ-:إنـــهم قـــاتلوك،وعـــرف ،أن فيهم نخوة الإمتناع الذى كان منـــهم،فقـــال "عـــروة" يـــا رســـول الله، أنـــا أحبُ إليهم من أبكارهم ،وكان فيهم،كذلـــك محببـــاً مطاعـــاً، فخـــرج يدعـــو له وقد دعاهم إلى الإســـلام وأظـــهر لـــهم دينـــه،رمـــوه بـــالنبل مـــن كـــل وجه،فأصابه سهم فقتله،فقيل "لعروة" ما ترى فـــى دمـــك؟ قـــال :" كرامـــة أكرمنى الله بها ،وشهادة ساقها الله إلىَّ فليـــس فـــىّ إلا مـــا فـــى الشـــهداء الذيـــن قتلـــوا مـــع رســـول الله -ﷺ-قبـــل أن يرتحـــل عنكـــم،فـــادفنونى معهم"[٩٣]أدركت "ثقيف" ،بعـــد الـــذى فعلتـــه" بعـــروة بـــن مســـعود"،أنـــها تواجه موقفا صعباً،فالإسلام قد فشى فى القبـــائل المحيطـــة بـــها،فصـــارت

---

[٩٣] ابن الأثير : الكامل /جـ٢/صـ٢٨٣،٢٨٤ - ابن القيم :زاد المعاد /جـ٣/٥٩٥ /٥٩٦

لا تأمن على نجارها فى غدوهم ورواحهم مـن تعـرض القبـائل المسـلمة لهم فأنشأ وجهاؤها ،يقلبون الأمـور،حتـى توصلـوا إلـى أن الخـير كـل الخير،فى إرسال رجال من قبلهم إلـى رسـول الله،لمفاوضتـه،فأشـخصوا ستة رجال منهم، وجعلـوا "عبـد يـاليل" رئيساً عليـهم، فلمـا وصلـوا المدينة تلقاهم "المغيرة بن شـعبه" فأسـرع ،ليبشـر النبـى بقـدوم ،وفـد "ثقيف" إليه مذعنين، فالتقى "بأبى بكر" وهو فـى الطريـق فرجـا "المغـيرة بن شعبة"، أن يجعل إليه بشـارة النبـى محمـد -ﷺ-،بقـدوم هـذا الوفـد الذى يمثل قبيلة،خشتها أقوى القبـائل العربيـة، وحرصـت علـى خطـب ودها،فلما دخلوا المسجد،أقام لهم المسـلمون قُبـةً، راقبـوا منـها أفعـال المسلمين وصلاتهم،وحديثهم مـع نبيـهم وبعـد مفاوضـات شـاقة،أقبـل الثقفيون على ديـن الـه، بعدمـا أبـى الرسـول أن يـترك لـهم "الـلات" يعبدونه ثلاث سنوات أو شهرا، حتى يتعلمـوا الإسـلام.

وهكذا دخل الثقفيون الديـن الجديـد،وكـان اختيـار رسـول الله-ﷺ عامله على الثقفيين على أساس واقعة،يرويها لنـا الرجـل الـذى اختـاره النبى ليكون أول أمـير مسـلم علـى ثقيـف ،فيقـول "عثمـان بـن أبـى العاص": [قدمت فى وفد ثقيف حين قدموا علـى رسـول الله،فلمـا حللنـا بباب النبى -ﷺ- قالوا :من يمسك رواحلنـا؟ فكـل القـوم أحـب الدخـول على رسول الله -ﷺ- وكـره التخلـف عنـه،وكنـت أصغرهـم، فقلـت إن شئتم،أمسكت لكم،علـى أن عليكـم عـهد الله لتمسـكن لـى ،إذا خرجتـم قالوا :فذلك لك،فدخلوا عليه، ثم خرجوا،فقالوا انطلق بنـا قلـت إلـى أيـن؟

إلى أهلك:فقلت:ضربت من أهلى حتـــى إذا حللــت ببـــاب رســـول الله -ﷺ- ،أرجع ولا أدخل عليـــه؟

وقد أعطيتمونى ما علتم،قالوا،فاعجل،فإنا قـــد كفينـــاك المســـألة، لـــم ندع شيئاً إلا سألناه فدخلـــت،فقلـــت: يـــا رســـول الله ،ادع الـــه،تعـــالى، أن يفقهنى فى الدين ويعلمنى،قال: (ماذا قلــت فــأعدت عليـــه القـــول: (لقـــد سألتنى عن شيء، ما سألنى عنه أحد من أصحـــابك،اذهـــب، فـــأنت أمـــير عليهم،وعلى من تقدم عليه مـــن قومـــك"[٩٤] .

مما تقدم يـــرى القـــارئ الكريـــم رســـول الله -ﷺ- يـــأبى مســـاومة الثقفيين ، له على أمر جوهـــرى،قـــامت عليـــه العقيـــدة الإســـلامية،وهـــو إفراد المعبود بالعبوديـــة،ويختـــار لـــهم أمـــيراً واعـــى فيـــه حبـــه،لطلـــب العلم،فالإمارة الناجحة على القوم ،لا تكـــون كذلـــك إلا إذا أســـندت لأولـــى علم. يقيمون على أساسه سياستهم فـــى الرعيـــة.

ومن الوفود التى قدمـــت إلـــى رســـول الله -ﷺ- وفـــد "بنـــى تميـــد" ويرجع سبب قـــدوم هـــؤلاء إلـــى المدينـــة،أنـــهم وقفـــوا علـــى ظـــاهرة جديدة،لم يكن لهم بها عهد من قبـــــل.

فإن القبائل التى دخلت الإسلام بعد "فتح مكـــة"،أصبحـــت تدافـــع عـــن دينها الجديد حريصة على إنجاز المهام التى يكلفـــها بـــها رســـول الله،ذلـــك أن بنى تميم اعتدوا على جماعات من خزاعة فســـير اليـــهم النبـــى محمـــد " عينية بن حصن الغزازى " فى خمســـين رجـــلا ، ليـــس فيـــهم انصـــارى

---

[٩٤] ابن كثير :البداية والنهاية /جـ٥/٣٠،٣١.

ولا مهاجرى .. فاسر منهم احد عشر رجلا واحدى عشرة امراه . وثلاثين صبيا. فقدم رؤساؤهم واشرافهم .. بسبب اسراهم فى وفد عظيم ، منهم " عطارد بن حاجب بن زراره ، والاقرع بن حابس " ، والزيرقان بن بدر وغيرهم . فلما وصلوا المسجد النبوى ، نادوا بصوت عال يا محمد اخرج الينا ، وكان الرسول بحجراته . فخرج النبى اليهم . فحاورهم . واذن لهم ، بالمفاخرة كعادة العرب وجعل " قيس بن ثابت "[٩٤] يجيبهم على مفاخرتهم ، وحسان بن ثابت على اشعارهم وانتهى الامر منهم هو " سيرة بن عمرو " فقضى للنصف ، واعطاء النبى لهم النصف الاخر بدون فداء[٩٥]

ولم تكن جميع الوفود التى امت المدينه ، تريد دخول الاسلام . فان من بينها وفودا ، جاءت المدينه لتفاوض النبى " محمدا " ﷺ على مقاسمته النفوذ الذين يقلبون مفاوضتهم على مثل هذه الاشياء الدنيويه ومن هذه الوفود : وفد بنى عامر بن صعصعة الذى قدم رسول الله ﷺ فى اثنين من رجالات قومه ، " اريد بن قيس ، وحيان بن سليم ، وهؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وقد كان قال نعمر قومه . اسلم فان الناس ، قد اسلموا ، قال : والله لقد كنت اليت ان لا انتهى حتى تتبع العرب عقبى . فانا اتبع عقب هذا الفتى ، ثم قال "

---

[٩٤] ابن شماس الانصارى الخزرجى - روى عن ابيه - قتل يوم اليمامة ابن حجر : تهذيب التهذيب / جـ٨/ ٣٨٥.

[٩٥] ابن هشام : سيره النبى / جـ٤/ ٢٢٢: ٢٢٥ المقريز امتاع الاسماع / جـ١/ ٣٢٠:٣٢٢ ابو شهبة : السيرة النبوية / جـ٢/ ٥٤٣.

لأريد " اذا قدمنا على الرجل ، فانا اشغل وجهـــه عنــك ، فاعلــه بالســيف ، فلما قدموا ، جعل " عامر " يكلــم رســول الله "ﷺ" وينتظــر مــن " اربــد" ما امره به ، فلم يفعل اربد شيئا ، فقـــال لـــه والله لاملانـــها عليــك جــردا ورجالا مردا ، فلما ولى ، قال رســـول الله "ﷺ" اللـــهم اكفنـــى " عـــامر بـــن الطفيل " ، فقال " عامر لاربد" اين مـــا اوصيتـــك بـــه ؟ ، قـــال : والله مـــا هممت بالذى امرتنى الا دخلت بينى وبين الرجـــل ، حتـــى مـــا ارى غـــيرك ، افـــاضربك بالســـيف ؟ وخرجـــوا راجعيـــن الـــى بلادهـــم ، فبعـــث الله الطاعون على " عامر " فى بعض طريقهم فقتله الله فـــى بيـــت امـــراة مـــن سلول ، فجعل يقول : اغـــدة كغـــدة البعـــير ، وارســـل الله علـــى " اريـــد " صاعقة ، فاحرقتـــه (٩٦)

ولقد امت المدينة وفود اخرى ، غـــير تلـــك التـــى ذكرنـــا ، مواقفـــها مع النبى محمد ، لا يتسع المقام لبســـط الحديـــث عنـــها (٩٧)

فالذى يعنينا هنا ، هو انه ما كاد هلال القعـــدة لســـنه عشـــر للـــهجرة يطلع على الناس الا وصار الاســـــلام شـــائعا بيـــن عـــرب شـــبه الجزيـــرة العربية ومن ثم حجة الوداع التى خرج فيـــها رســـول الله بالنـــاس قـــاصدا " مكـــة " .

---

(٩٦) ابن الجوزى : المنتظم / جــ٢/ ٤٧٧ ، ٤٤٨ - ابن الاثير : الكامل / جـــــ٢/ ٢٩٩ محمد ابو زهرة : خاتم النبين / جــ٢/ ١١٠٩

(٩٧) للوقوف على التفاصيل الدقيقة لاخبار الوفود ، وما كان من اخبارها مع رســـول الله بالمدينة راجع - الصالحى : سبل الهدى والرشاد / جــ٦/ ٢٥٤ "٤٤٠ .

حجة الـوداع

ذكر علماء السـيرة ،مسـميات لـهذا الحـدث العظيـم،فمنـهم مـن سماها حجــة البـلاغ، أو حجــة الإسـلام ،ومنــهم مـن سـماها حجـة الوداع،لأنه "ﷺ"ودع الناس فيها،ولم يحج بعدها حتــى لحــق بريــه[٨٩]

ولقد اختلف العلماء،حول السنة التـى فـرض فيـها الله الحـج علـى من استطاع إليه سبيلاً،من المسلمين ،فمنهم مـن قـال:إن ذلـك قـد كـان فى العام السادس للهجرة،ومنهم مـن ذكـر سـنة تسـع للـهجرة تاريخـاً لفريضة الحج على المسلمين ،ومنهم من قـال :إنـها كـانت سـنة عشـر للـهجرة .

وأيما كـان ،فـإن رسـول الله "ﷺ"خـرج فـى القعـدة سـنة عشـر للهجرة،من المدينة فى جم غفـير مـن المسـلمين،يريـدون مكـة ليـؤدوا بها مناسك الحـج.

وتبدو للقارئ أهمية هذه الحجة من .حيـث إن النبـى "محمـداً" لـم يسبق له أن قاد المسلمين فى حج قبل ذلـك ،فقيادتـه لـهم هـذه المـرة، ستجعلهم ،يقفون على الأداء الصحيح لنسـك حجـهم حيـن يـرون نبيـهم يؤديها الأداء الذى علمه إياه المولى جلا علاه،ليـس هـذا فحسـب،بـل إن أهميتها التشريعية فى مختلـف المجـالات الحياتيـة،تـبرز للمتـأمل،مـن خلال استقرائه للخطبة التى ألقاهـا النبـى فـى المسـلمين ،يـوم حجـهم الأكبر، فقد بدأها بحمد الله والثناء عليه بما هـو أهلـه، وأعلمـهم أن لكـل

---

[٨٩] الحلبى :السيرة الحلبية /جـ٣/٣٠٧.

أجل كتاب،فلا يدرى أيلقاهم فى عامـــهم القـــابل أم لا، وحـــرم عليـــهم أخــذ أموال بعضهم من بعض إلا بحق شرعه الله ،ووضـــع الربــا عنـــهم،ودعــا إلى تناسى ما كان بينهم من ثأر وأحقـــاد، قبـــل دخولـــهم الإســـلام ،فإنـــه يَجُبُ ما قبلــه، ودعـــاهم إلـــى اســـتبدال ذلـــك كلـــه بـــأخوة تبعـــث فـــى أفئدتهم،الود والمحبة، "أيها النـــاس اســـمعوا قولـــى،فـــإنى لا أدرى لعلـــى ألقاكم بعد عـــامى هـــذا،بـــهذا الموقـــف أبـــداً ،أيـــها النـــاس، إن دمـــاءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكـــم،كحرمـــة يومكـــم هـــذا ،وحرمـــة شهركم هذا ،وستلقون ربكم،فيســـألكم عـــن أعمـــالكم وقـــد بلغـــت ،فمـــن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها،وإن كـــل ربـــاً موضـــع،لكـــم رؤوس أموالكم ،لا تَظْلمون، قضى الله أنه لا ربـــاً وإن ربـــا "العبـــاس بـــن عبد المطلب" موضوع كله،وإن كل دم كـــان فـــى الجاهليـــة موضـــوع،وإن أول دمٍ أضعُ دم "ابـــن ربيعـــة بـــن الحـــارث بـــن عبـــد المطلـــب" وكـــان مسترضعاً فى "بنى ليث"، فقتله "بنـــو هذيـــل"،فـــهو أول دم أبـــدأ بـــه مـــن دماء الجاهلية ثم بين لهم، فيمـــا بيـــن مـــا للمـــرأة مـــن واجبـــات علـــى زوجها ،وماله من حقـــوق عندهـــا ، فحـــذر الرجـــال مـــن الإســـاءة إلـــى النساء ،وحثهم على الإحسان إليهن ،فإنـــهن عـــوان عنـــد الرجـــال،وحـــذر المرأة من انتهاك حرمة فراش زوجـــها،فتـــأتى عليـــه مـــا يكـــره الـــزوج إتيانها به،وأعلمهم أن كتاب الله وســـنة رســـوله فيـــهما،مـــا يصلـــح مـــن شئونهما الدنيوية والأخروية إلى أن تقوم الساعة (أيـــها النـــاس،فـــإن لكـــم على نسائكم حقاً ولهن عليكـــم حقـــاً ، ولكـــم عليـــهن ألا يوطئـــن فرشـــكم

أحد تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينـــة ،فـــإن فعلـــن فـــإن الله أذن لكم أن تهجروهن المضاجع، وتضربوهن ضرباً غـــير مـــبرح،فـــإن انتـــهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واســـتوصوا بالنســـاء خـــيراً،فإنـــهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً،وإنكـــم إنمـــا أخذتموهـــن بأمانـــة الله ،واستحللتم فروجهن بكلمـــة الله،فـــاعقلوا أيـــها النـــاس،واســـمعوا قولـــي ،فإنى قد بلغت ،وتركت فيكم، ما إن إعتصمتم به،فلـــن تضلـــوا بعـــدى أبـــداً ،كتاب الله وسنة نبيـــه][٩٠] .

وفى هذا الموقف العظيم ،نزل علـــى النبـــى العظيـــم قولـــه تعـــالى:- [اليـــوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكـــم نعمتـــى ورضيـــت لكـــم الإســـلام دينـــا][٩١] .

ففى هذا القـــول الكريـــم يبيـــن فيـــه المولـــى للمســـلمين ،أن نبيـــهم بحجة بهم،وتعليمهم دين الله من لـــدن دعوتـــه فيـــهم،حتـــى يومـــهم هـــذا يكون ،قد أتم رسالته ،وأدى أمانته ،ولذلـــك فـــهم بعـــض المســـلمين تلـــك الآية على أهنا مؤذنة بقرب وفاة النبـــــى [٩٢] محمـــد "ﷺ" .

---

[٩٠] الطبرى: تاريخ الرسل والملوك /جـ٣/١٥٠ ،١٥١ -ابن سيد الناس :عيـــون الأثـــر /جـــ٢/٣٥٩،٣٦٨ -الحلبـــى :الســـيرة الحلبيـــة /جـــــ ٣/٣٢٢-هيكـــل :حيـــاة محمد/٤٩١،٤٩٢.

[٩١] سورة المائدة:آية رقم ٣.

[٩٢] الزمخشرى :الكشاف /جـ١/٦٥٥.

وفاة النبـــى "ﷺ":-

من الأمور المقطوع بها نصـــاً،أن رســـول الله "ﷺ"بشـــر،يعـــرض لـــه ما يعرض للآدميين من أمراض ،وإن مـــيزه الله علـــى غـــيره ،مـــن بنـــى آدم ببنية قوية،يقوى على احتمال المرض ومقابلته بعـــبر وســـعة صـــدر.

والذى يدكك علـــى أن المـــرض،كـــان يـــأتى النبـــى محمـــد"ﷺ"،بعـــد هجرته إلى المدينة وقبلها ما راوه "ابن جزير" وابـــن ســـعد" عـــن الســـيدة "عائشة "و"العباس" "رضوان الله عليـــهما"قـــالا:"كـــانت تـــأخذ رســـول الـــه "ﷺ"الخاصرة[٩٣] فاشتدت به ،فـــأغمى عليـــه حتـــى ظننـــا أنـــه قـــد مـــات ،فلددناه فجعل يشـــير إلينـــا أن لا تلدونـــى[٩٤]،"فقلنـــا :كراهيـــة المريـــض للدواء،فلما أفاق قـــال:"ألـــم أنـــهكم أن تلدونـــى" "فـــإنكم ،لددتمونـــى وأنـــا صائم " "أكنتم ترون أن الله بسلط علـــى ذات الجنـــب،مـــا كـــان الله،ليجعـــل علىّ سلطاناً،إن ذات الجنب من الشـــيطان ،والله لا يبقـــى فـــى البيـــت أحـــد إلا لد،وأنا أنظر ،إلا "العباس"،فإنه لم يشـــــهدكم ،والله لا يبقـــى فـــى البيـــت أحد إلا لد ،وأنا أنظر، إلا "العباس"،فإنه لم يشهدكم ، فمـــا بقـــى أحـــد فـــى البيت إلا لدّ ولددنا مُيمونة" وهـــى صائمـــة"[٩٥].

---

[٩٣] وجع فى الوسط وقيل وجع فى الكليتين ابن منظور :لسان العرب مادة خصر.

[٩٤] أن يأخذ بلسان الصبى فيمد إلى أحد شفتيه،ويوجر فى الأخر الدواء فى الصدق بيـــن اللسان وبين الشدق -ابن منظور :لسان العرب -مادة لدد.

[٩٥] ابـــن الجـــوزى :المنتظـــم /جـــ٢/٩١٢ - الصـــالحى :ســـبل الـــهدى والرشـــــاد /جـــ٢٢٧/١٢، ٢٢٨ -الحلبى :السيرة الحلبية /جـــ٣/٤٧١.

فلما كانت سنة وفاته،نعـــى النبـــى نفســـه،إلى أصحابـــة ،وذلـــك مـــن خلال زيادة فى أعمال ألفوه يقـــوم بـــها،.

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنـــــه ، قـــال : كـــان رســـول الله "ﷺ" يعتكف فى كل شهر رمضان عشرة ايام ، فلمـــا كـــان العـــام االـــذى توفـــى فيه ، اعتكف عشرين يوما ، وكان جبريل يقـــرأ عليـــه القـــران مـــرة كـــل رمضان ، فلما كن العام الذى توفى فيه ، عرضـــه عليـــه مرتيـــن [٩٦]

مكث رسول الله "ﷺ" بعـــد عودتـــه مـــن مكـــة الـــى المدينـــة فـــترة يسيرة حتى نزل به مـــرض المـــوت ، فاســـتأذن الرســـول "ﷺ" ازواجـــه ان يمرض ببيت الســـيدة "عائشـــة" فـــاذن لـــه .فتقـــول الســـيدة "عائشـــة ان رسول الله ، مات وهو بيـــن حاقنتيـــها ، وذا قنيتـــها ، وقـــالت ، لا أكـــراه شدة الموت ، لأحـــد بعـــد النبـــى "ﷺ" [٩٧] غيـــر ان المصـــادر ، اختلـــف ، فيما بينها فى اليـــوم الـــذى توفـــى فيـــه صلـــوات الله وســـلامة عليـــه ، فيروى الطبرى ، عن فقهاء الحجـــاز ، انـــهم قـــالوا : قبـــض رســـول الله "ﷺ" نصف النهار يوم الاثنين لليلتين، مضتا مـــن شـــهر ربيـــع الأول ســـنة إحدى عشرة من الهجرة ، بينمـــا يذكـــر الواقـــدى ، إن النبـــى قـــد لحـــق بالرفيق الأعلى ، فى يوم الاثنين لاثنتـــى عشـــرة ليلـــة خلـــت مـــن ربيـــع الأول ، ووافقه على هذا السواد الأعظم مـــن رواة التـــاريخ فـــى المصـــادر

---

[٩٦] الصالحى : سبل الهدى والرشاد / جـ١٢/ ٢٣٢ .
[٩٧] ابن كثير : البداية والنهاية / جـ٥/ ٢٣٧.

القديمة [٩٨] ، وتطالعنا روايات أخرى . تجعل الوفاه فى شهر ربيع الأول ، دون ذكر يوم معين لحدوثها . فقد روى أبو جعفر عن ابن عمر " أن النبى "ﷺ" ، استعمل " أبا بكر " على الحج سنة تسع فأراهم مناسكهم ، فلما كان العام المقبل حج رسول الله "ﷺ" حجة الوداع سنة عشر للهجرة وصدر إلى المدينة ، وقبض فى ربيع الأول[٩٩] ومهما يكن من أمر ، فان الذى نسكن إليه النفس ، هو جعل الثانى عشر من ربيع الأول يوما لوفاه الرسول "ﷺ" والذى يدعم ما ذهبت اليه . ما جزم " ابن كثير " بان أخر صلاة رسول "ﷺ" كانت صلاة صبح الاثنين . الثانى عشر من ربيع الأول وان ذلك فى بيته بعيدا عن الجماعة كما أسلفت [١٠٠] .

وإماما رواه فقهاء الحجاز عن تاريخ وفاة النبى "ﷺ" فهو مردود بروايات الصحابة المقيمين بالمدينة الى جوار النبى "ﷺ" ونسر قال قائل : ان الصحابة بالمدينة قد روى ان النبى توفى فى ربيع الأول ، دون تحديد يوم ، فكيف بتوافق ذلك مع ما قررته بالنسبة للقرب من النى محمد "ﷺ" قلت لعل هذا الصحابى . كان بعيدا عن المدينة ، وقتذك ، او لأنه ، شغل عن تدوين . تاريخ الوفاة حين حدوثها ، لعظم المصيبة التى حلت بالمسلمين ، وقد جعله ، هذا يذكر

---

(٩٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ٣/ ٢٠٠ .

(٩٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ٣/ ٢١٧.

(١٠٠) ابن كثير : البداية والنهاية / جـ٥/ ٢٣٤.

، ما هو متاكد منه ، اعنى به كون الوفـاة قـد وقعـت فـى ربيـع الأول ، تاركا ما فيه غير مستيقن منــه .

وسواء اصح هذا ، ام يصــح ؟ فـان الـذى لامـراء فيـه ان وفـاة الرسول قد كانت على المسلمين بمثابــة صاعقــة ، نزلـت عليـهم ، دون توقع لها ، ذلك ان مرض رسول الله "ﷺ" وان اسـتغرق ايامـا ، لـم يكـن كفيلا ، يجعل الكثيرين منهم يتـاكدون انـه ، سـينتهى بوفاتـه " صلـوات الله عليه وسلامة " والذى يدل علـى ذلـك ، مـا كـان مـن " عمـر بـن الخطاب " حين علم ان النبى محمداً " قد لحـق بـالرفيق الأعلـى .

فقد روى "ابن حميد " عن ابـى هريـرة " رضـى الله عنـه " - انـه قال : " لما توفى رسول "ﷺ" قام: عمـر بـن الخطـاب " فقـال : ان رجـالا من المنـافقين ، يرغمـون ان رسـول الله "ﷺ" توفـى وان رسـول الله "ﷺ" ما مات ولكنه ذهب الى ربه ، كما ذهـب " موسـى بـن عمـران " فغـاب عن قومه اربعين ليلة ، ثم رجع ، بعـد ان قيـل ، قدمـات ، والله لـيرجعن رسول الله فليقطعن ايـدى رجـال وارجلـهم ، يزعمـون ان رسـول الله ، مات ، واقبل " ابو بكر ، حتـى نـزل علـى بـاب المسـجد ، حيـن بلغـه الخبر "وعمر " يكلم الناس ، فلـم يلتفـت الـى شـئ ،حتـى دخـل علـى رسول الله "ﷺ" ، فى بيت " عائشة " والرسول مسـجى فـى ناحيـة البيـت عليه ، برد حيرة [١٠١] فاقبل حتى كشف عن وجهــه ، ثـم اقبـل عليـه ، فقبله ثم قال : بأبى أنت وأمى ! اما الموتة التـى كتـب الله عليـك ، فقـد

---

[١٠١] من الحسن والبهاء - ابن منظور - لسان العرب - مادة حبر .

ذقتها ، ثم لن يصيبك بعدها موته ابدا ،ثم رد الثـــوب علـــى وجهــه ، ثــم خرج و"عمر" يكلم الناس فقال علـــى رســلك يــا عمــر فــأنصت فــأبى الا يتكلم ، فلما راه " ابو بكــر " لا ينصــت اقبــل علــى النـــاس فلمــا ســمع الناس كلامه اقبلوا عليه ، وتركوا " عمر " فحمـــد الله واثنـــى عليــه ، ثــم قال : ايها الناس ، انه من كان يعبد محمدا ، فان محمـــدا قــد مــات ومــن كان يعبد الله ، فان الله حى لا يموت ، ثم تــلا هــذه الآيــه :

بسم الله الرحمن الرحيـــم

(وما محمدا الا رسول قد خلت مـــن قبلـــه الرســل افــاين مــات او قتل انقلبيتم على اعقابكم ومن ينقلب علـــى عقبيـــة فلــن يضــر الله شـــينا وسيجزى الله الشاكرين)[١٠٢] ، فو الله لكان النـــاس لــم يعلمــوا ان هـــذه الايه ، نزلت على رسول الله "ﷺ" حتى تلاهـــا" ابــو بكــر " يومئــذ قــال : واخذها الناس عن ابى " ابى بكر " فانما هـــى فـــى افواهــم [١٠٣].

ومن المؤرخين القدامى، من يــبرز موقــف "عمــر بــن الخطــاب "، من وفاة النبى "محمد " "ﷺ" ، نقلاً عن "عمر" نفســـه ، فيقــول : إنــه ظــن أن رســـول الله "ﷺ"ســيبقى فــى أمتــه ، حتــى يشــهد عليـــــها آخــــر أعمالها،وأن الذى دفعه لهذا التفكير ،تعلق قوله تعـــالى فــى ذهنــه[١٠٤]،

---

[١٠٢] سورة ال عمران : ايه (١٤٤).

[١٠٣] الطبرى : تاريخ الرسل والملوك / جـ٣ / ٢٠٠،٢٠١

[١٠٤] ابن هشام :سيرة النبى /جـ٤/٣٤٤.

بسم الله الرحمن الرحيـــم

(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونـــوا شــهداء علـــى النـــاس ويكـــون الرسول عليكم شهيداً")[١٠٥]، وقـــد امتثـــل المســلمون لوصيـــة النبـــى "ﷺ" فى تغسيله والصلاة عليه، فيروى "ابـــن الأثـــير"،عـــن "الفضـــل مـــن بـــن عباس" أن رسول الله "ﷺ" خرج إلـــى المســـجد وهـــو فـــى بدايـــة مرضـــه ،وألقى فى صحابته خطبة، ذكرهم فيها بـــالأجل،وطالبـــهم بالإنصـــاف منـــه إن كان لأحدهم حقوق لدية، وان ذلك لا يغضبه،وإنمـــا يســـره،ثـــم قـــال:"إن عبداً خيره الله، بين الدينا،وبين ما عنده،فاختار مـــا عنـــده"، ففـــهم بعـــض الصحابة [١٠٦]أن رسول قد دنا أجلـــه،فطفـــق هـــذا البعـــض ،يســـأله عـــدة أســـئلة وهـــو يجيـــب عليـــها ،فمـــا قـــالوا:متـــى أجلـــك ؟قـــــال:دنـــا

---

[١٠٥] سورة البقرة: آية (١٤٣).

[١٠٦] عن أبى رافع مولد رسول الله "ﷺ" واللفظ "لأبى مويهبة" قال :أمر رســـول الله "ﷺ"أن يصلى على أهل البقيع - فصلى عليهم ثلاث مرات،فلما كان فى الثانية هبتى مـــن جـــوف الليل ،فقال: فركب ومشيت حتى إنتهى إليهم،فنزل عن دابته،وأمسكت الدابة،فلما وقف بين أظهرهم ،قال:"السلام عليكم أهل المقابر،ليهن لكم ما أصبحتم فيه ،مما أصبح فيه الناس،لو تعلمون ما نجاكم الله منه،أقبلت الفتن، كمقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً،يتبع آخرهـــم وأولها،الآخرة شر "من الأولى" ،ثم أقبـــل علـــىَّ وقـــال: " يـــا أبـــا موبهيـــة" إنـــى قـــد أتيت،مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ،ثم الجنة -فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجـــنة قال :قلت:بأبى أنت وأمى ،فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها،ثم الجنـــة ،قـــال"لا والله يـــا أبـــا موبهية،لقد اخترت لقاء ربى والجنة" ثم استغفر لأهل البقيع،ثم انصـــرف، فبـــدأ رســـول الله"ﷺ" فى وجعه الذى قبضه الله عز وجل فيه حين أصبح الصالحى :سبل الهدى والرشـــاد /جـــ١٢/٢٣٣.

الفراق،والمنقلب إلى الله وسدرة المنتهى ،والرفيق الأعلى وجنة المأوى،فقلنا: من يغسلك؟قال:أهلى،قلنا فيمَ تكفنك؟قال :فى ثيابى ،أو فى بياض:قلنا:فمَن يصلى عليك؟قال:مهلاً،غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً،فبكينا،وبكى،ثم قال:ضعونى على سريرى،على شفير قبرى،ثم اخرجوا عنى ساعة ليصلى علىَّ جبرائيل،وإسرافيل ،وميكائيل، وملك الموت مع الملائكة ،ثم ادخلوا علىَّ فوجاً فوجا،فصلوا علىَّ،ولا تؤذوننى بتزكية [١٠٧]،ولا رنة أقرئوا أنفسكم منى السلام ،ون غاب من أصحابى،فاقرئوه منى السلام،ومن تابعكم على دينى فأقرئوه السلام.

فلما توفى صلوات الله وسلامه عليه،قام بتغسيله "علىّ بن أبى طالب"،"والعباس بن عبد المطلب"، "والفضل بن العباس"وقثم بن العباس"[١٠٨]"وأسامة بن زيد " "وشقران" .ولى رسول الله"ﷺ"،فأسند "على بن أبى طالب " الرسول إلى صدره ،وكان "العباس" "والفضل"،وقثم" هم الذين يقبلونه معه ،وكان "أسامة بن زيد "وشقران" مولياه هما اللذين يصبان الماء[١٠٩].

---

[١٠٧] ابن الجوزى : المنتظم /جـ٢/٩١٦،٩١٧ - ابن الأثير: الكامل/جـ٢/٣٢٠.

[١٠٨] ابن عبد المطلب الهاشمى:أدرك صدر الإسلام فى طفولته،ومر به النبى "ﷺ"وهو يلعب فحمله رسول الله"ﷺ" استشهد فى موقعه سمرقند ،ودفن فيها وكان فى جيش سعيد بن عثمان يشبه رسول الله "ﷺ"وليس له عقب.

ابن الأثير : أسد الغابة/جـ٤/٨٥،٨٦ - الذركلى الإعلام /جـ٦/٢٩.

[١٠٩] الطبرى :تاريخ الرسل والملك جـ٣/٢١٢.

ولما فرغــت الجماعــة التــى غسـلت الرســول "ﷺ"وضعـوه علــى سريره،بين المسلمين خلاف حول المكان الــذى يدفـن فيــه ،صلــوات الله وسلامه عليه نفمن قائل،بدفنــه فــى مســجده،وآخــر يقــول بدفــن مــع أصحابه، فبينماهم ذلــك إذا بــالصديق،يبــادر إلــى حســم الأمــر،فيقــول :سمعت رسول لله "ﷺ"قال (ما قبض بنى إلا دفــن حيــث قبــض)،ومــن ثم استقر رأى الجميع على دفنه بنت "عائشــة"-رضــوان الله عليــها،وســمح نلســلمين بإلقــاء نظــرة وداع علــى النبــى محمــد "ﷺ" قبــل أن يــوارى قبره،فدخل الناس أرســالا،يصلــون علــى رســول الله "ﷺ" حتــى إذا فــرغ الرجال،أدْخِلَت النساء،ثم الصبية، فالعبيد ،ولم يــؤم النــاس علــى رســول الله"ﷺ" أحــد][١١٠].

واما عن وقت نزوله إلى قــبره "صلــوات الله وســلامه عليــه "فــإن الرواة اختلوفا فيما بينهم حول اليوم الــذى قــبر فيــه "صلــوات الله عليــه وسلامه"،فيروى الواقــدى:"أن النبــى محمــد "ﷺ"،دفــن فــى الغــد مــن وفاته،حين زاغت شمس الثلاثاء بينما تذكــر "عائشــة"رضــوان الله عليــها رواية غير هذه .فتقول "ما علمنــا بدفــن النبــى "ﷺ"حتــى ســمعنا صــوت المساحى فى جوف ليلة الأربعاء"، ثــم روايــة ثالثــة ،نلمــع فيــها ، أنــه "صلوات الله وسلامه عليه" لم يدفن إلا بعــد ثلاثــة أيــام فقــد روى ابــن حميد قال : (لما قبض "ﷺ"،كان أبو بكــر" غائبــاً،فجــاء بعــد ثــلاث ولــم يجترئ احد ان يكشف عن وجهه، وقبل بين عينيــه، ثــم قــال:بــأبى أنــت

---

[١١٠] الطبرى :تاريخ الرسل الملوك/جـ٣/٢١٣ - السهيلى:الروض الأنف /جـ٤/٢٧٣.

وأمى ،طبت حياً،وطبــت ميتــاً](١١١) ، والــذى يمعــن النظــر ،فــى هــذه الروايات ،يجد أن روايـــة الواقــدى أكــثر الروايــات قبــولا، ذلــك انــها تتوافق مع الإجماع الــذى انعقــد علــى أن الأنصــار،اجتمعــوا بســقيفتهم عقب الوفاة يوم الإثنين ،وأن "الصديـــق" قــد بويــع البيعــة العامــة فــى الويم التالى لإجتماعهم ،وان الجميــع تواجــهوا، عقــب ذلــك إلــى إتمــام تجهيز النبـــى "ﷺ" ودفنــه، فــالمعقول إذن يكــون وقــت غــروب شــمس الثلاثاء، هو الوقت الذى جُعل فيه الجسد الشريف فــى قــبره وامــا روايــة ابن حميد فإنها أضعف الروايات التى أسلفناها فـــى هــذا الصــدر ، حيــث إن العقل لا يستسيغ كون الصديق ،قد غاب عن المدينـــة فــى هــذا الوقــت العصيب أياماً ثلاثة ،وهو يعلم أن النبـــى محمــداً،فــى مــرض شــديد،لمــا بينهما من حب عظيـــم .

يضاف إلى هــذا كلــه، أن الرســول"ﷺ" قــد عــهد إلــى "أبــى بكــر الصديق" بأمر الصلاة،فكيف يتأتى له القيام بهذا مــع غيابــه، نــاهيك عــن كون المصادر القديمة للتاريخ الإســلامى ، قــد أجمعــت علــى أن "الديـق" "وعمر"،و"أبا عبيدة"،قد ذهبوا إلى "سقيفة بنى ســاعدة، فــى اليــوم الــذى توفى فيه النبى محمد "ﷺ"ومِنْ ثَمَ فإنى، أجزم بطــرح هــذه الروايــة وعــدم الأخذ بما فيها بالنسبة لتحديد وقــت الدفــن.

وهكذا ترك الرسول امته،بعدما تمــم لــها أمــر دينــها ،وأدى امانتــه التى حمله إياها العزة لتبقى الرســـالة التـــى جـــاهد الرســول فــى ســبيل

---

(١١١) الطبرى :تاريخ الرسل والملوك /جـ٣/٢٠٠،٢٠١.

،إرســـاء مبادئـــها الســـامية وبيـــان مراميـــها ،العظيمـــة التـــى ارتقـــت بالمجتمع العربى خاصة ثم الناس عامة،خالدة،تقـــود النـــاس فـــى حياتـــهم من حسن إلى أحسن ،إذا اقتـــدوا بنـــهج نبيـــهم، وامتثلـــوا أوامـــر ربـــهم وصدق اله العظيم القائل فى كتابه العزيز ، (إنـــا نحـــن نزلنـــا الذكـــر وإنـــا له لحـــافظون).

تم بحمد الله وتوفيقه الجزء الثانى

ويعقبه الجزء الثالث

الذى يتناول الرسول فى بيته

الخاتمــــــة

الحمد لله الذى وفقنى لإنجاز هذا الكتاب الذى تنــاول فــترة ،مــن أعظم فترات التاريخ الإسلامى،حيث تأسست الدولة الإسلامية،فبدأ فــى الظهور ،على مسرح الأحداث رويداً رويداً ،يتعاظم تأثيرها عليها إلــى أن صارت ،بعد فترة وجيزة انقضت على تأسيسها ،صاحبة الكلمة العليا على بلاد العرب،ومهابة الجانب عند غيرهم من القوى غير العربية المتاخمــة لحدود بلادهم .

وهذا يبعث على الإنبهار، وخاصة ،وأنت تقرأ ،فى بطون المصــادر الأصيلة،ولن تجد ما يخفف انبهارك،إلا إيمانك بالحقيقة الواضحة وضـــح الشمس فى رائعة النهار،والتى ذكرت فى القرآن الكريم كلام الله :

"إنْ يَنصُرْكم اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ" حقا فما كان لبشر أن يؤلــف بيــن قلوب قبيلتى الأوس والخزرج المتناحرتين المتنافرتين ،والجماعات التــى هاجرت إليهما إلا إذا كان مؤيداً من الله ناصراً لدينه،وصدق الله العظيم إذ يقول :"لَو أنفَقْتَ ما فِى الأَرْضِ جَمِيْعَاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ،ولَكِنَّ اللهَ أَلَّــفَ بَيْنَهُم" ومن ثَمَّ أقول إن الدولة الإسلامية التى عزت واعـــتزت قــد تأسست بأمر الله من خلال خطوات رسمها جبريل الأمين،لسيد المرســلين

،حتى استطاع حمل عبء نشر هذا الدين الذى جعله الله ،خاتمـا لجميـع الأديان وجعل رسالة محمدٍ "ﷺ" خاتمة للرسالات .

ولقد رأى القارئ من خلال مطالعته لصفحات الكتاب الجديـد،الـذى أبرزته الدراسة حين قرأ تحليلنا للملابسات التى جعلـت "عبـد الله بـن جحش"،يقدم على ما أقدمت عليه سريته من قتال المشركين فى الأشـهر الحرم، ومن ذلك -أيضا- الأسباب التى جعلت الأنصـار،ينضمـون إلـى المهاجرين حين خرجوا من المدينة لاعتراض عير قريش التى تسببت فى غزوة "بدر" مع أن خروج النبى،قد كان للعير،وليس للنفير،ولم يسبق لهم أن انضموا إلى سريةٍ من السرايا التى أخرجها الرسول"ﷺ"لتلك الغاية قبل بدر.

ومن الجديد ،أنى تساءلت من خلال دراسة مقارنة عن السبب الـذى لم يجعل الرسول"ﷺ" يطبق تقسيم غنائم سرية "ابن جحش" علـى غنـائم بدر،لما اختلف المسلمون ،حول كيفية توزيعها قبل نزول الوحى، يجعـل أمرها إلى رسول الله "ﷺ" يـرى فيـها رأيـه، بـأمر مـن الله ،ومنـه أيضاً،التوفيق الذى وفقنا به بين القائلين،بقتال الملائكة فى يوم بدر،وبين الذين نفوا ذلك.

ومن الجديد أيضاً،ما طرحناه، ونحن نتحدث عن بنى قريظــة مــن تساؤلات القت الضوء على موقف "أبى لبابة" حين أوعز إليهم من خـــلال الإشارة بالحكم الذى حكم به عليهم "سعد بن معاذ " فتساءلت ،كمـــا رأى القارئ عمّا إذا كان النبى محمد "ﷺ" قد سبق "سعداً"" فى حكمه ومن ثـــم علمه أبو لبابه فقال له ما قاله لصحابته،أم أنّ ذلك قد كان من "أبى لبابة" على سبيل الإجتهاد .

فكان رأينا الذى طالعه القارئ الكريم فى هذا الباب مضيفاً جديـــداً، وعلى شاكلته،كان تحليلنا لمفاوضة النبى محمد "ﷺ"لقبيلة غطفان فى يـوم الأحزاب،حتى ترحل عن المدينة،ولا تستمر فى مؤازرتها لقريش والقبائل الأخرى،فى تضييق الخناق على المسلمين فى المدينة.

والجدير بالذكر هنا أنى وقفت موقف المناقش،لبعــض الأراء التـــى قالها أحد الباحثين عن التاريخ الذى تم فيه إجلاء بنى قينقاع ،عن المدينة فإن هذا الباحث أنكر أن يكون جلاء هذه الطائفة قد تم فى التاريخ الـــذى شاع ذكره فى مصادر السيرة ليس هذا فحسب بل إنه أنكر أن تكون هـذه الطائفة من الطوائف التى وقعّت المعاهدة التى عقدها النبى مع اليهود بعد هجرته من مكة إلى المدينة،ففندت كثيراً من الأدلة التى ســاقها البــاحث ليبرهن بها على صحة رأيه سالف الذكر.

وإن أنسى فلا أنسى وأنا بصدد بيان بعض الجديد الذى تضمنته الدراسة الإشارة إلى الرأى الذى ارتضيته لنفسى بعد مناقشة الروايات التى اختلفت حول السبب الذى جعل النبى محمد "ﷺ"، يضرب الحصار على بنى النضير.

وغير هذا كثير من الجديد فى مواضع الكتاب،فلو أردت حصرها،لطال بى المقام فما من غزوة غزاها رسول الله "ﷺ"، وما من بعثة عسكرية بعث بها إلا وقفت أمامها محللاً دواعى الخروج والعبر والنتائج المترتبة عليها، وعلى كل حال فإن ما طالعه القارئ لا يعدو عن كونه، محاولة للوصول إلى الحقيقة،التى ينشدها كل مؤرخ منصف من كل موضوع يتصدى لكتابته.

ومن ثم تبدو لى أهمية تلك الغاية، وعظمها ،حين يكون موضوع دراستنا أفضل الرسل والأنبياء محمد "ﷺ" فإن سيرته - تعرضت ،وما تزال لاتهامات أعداء الدين بُغية النيل من دينه الحنيف،أو شخصه الكريم ،فلا عجب إذن ،إن اعتبرت العمل الذى بين يدى القارئ جهاداً فكرياً،كان سلاحى فيه القلم، الذى نقل مفهومى المتواضع لمواقف النبى من المسلمين وأعداء هذا الدين،خلال الحقبة المدنية ،إلى كل من يطالع صفحات هذا الكتاب.

فالله أسأل ، أن يجعل التوفيق حليفى،فيما كتبته و أن يجزينى عنـه خير الجزاء ،ليكون شفيعاً لى معبراً عن شدة حبى لنبينـــا ،محمـد -"ﷺ" حتى أحشر معه فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ،إلا من أتى الله بقلــب سليم.

أ . د/ محسن سعد عبد الله

أستاذ و رئيس قسم التاريخ و الحضارة الإسلامية

بكلية اللغة العربية بالمنصورة

ثبت المصـــادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم والأحاديث النبوية

إبراهيم حسن :على إبراهيم حسن

١- التاريخ الإسلامى العام

الناشر :- مكتبة النهضة المصرية

ط/٥٩٨٦

ابن الأثير:عز الدين أبو الحسن على بن سعد محمد بن أبى الكرم بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى ت ٦٣٠ هـ

٢- أسد الغابة فى معرفة الصحابة عدد الأجزاء (ستة أجزاء)

طبعة مجددة بإشراف مكتب البحوث والدراسات.

الناشر :دار الفكر بيروت لبنان

ط (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)

٣- الكامل فى التاريخ عدد الأجزاء (ثلاث عشر جزءا)

الناشر دار صادر/بيروت.

ط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

الاستانبولى: محمود مهدى الاستانبولى ومصطفى أبو النصر الشلبى

٤- نساء حول الرسول والرد على مفتريات المستشرقين

الناشر مكتبة السوادى للتوزيع

الطبعة الرابعة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الأعظمى:-محمد مصطفى الأعظمى

٥- كُتاب النبى -ﷺ- الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م الرياض

الألوسى:-أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد (ت/١٢٧٠هـ).
٦- روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى
الناشر:دار إحياء التراث العربى – بيروت.
بركات :بركات أحمد (كاتب ألمانى)
٧- محمد واليهود /نظرة جديدة ترجمة محمود على مراد/الناشر:الهيئة المصرية العامة للكتاب ط – ١٩٩٦م
باشميل :محمد أحمد
٨- الغزوات الكبرى (بدر الكبرى – أحُد) عدد الأجزاء (عشرة أجزاء)
الناشر :مكتبة ابن تيمية
ط (٨) – ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م
البلاذرى:- أحمد بن يحيى بن جابر
٩- فتوح البلدان
البوطى :- د/محمد سعيد رمضان
١٠- فقة السيرة
ط (٧) (بدون)
البيهقى :- أبى بكر بن الحسينى ت (٣٨٤،٤٥٨)هـ
١١- دلائل النبوة
تعليق: د/عبد المعطى هلعجى
الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان
ط الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

التاجى :د/أحمد

١٢- سيرة النبى العربى:محمد رسول الله -ﷺ- مكتبة مصطفى البابى

الطبعة الأولى:- ١٣٩٨ -١٩٧٨م.

الترميانى:- د/عبد السلام

تحقيق د/شاكر مصطفى ، د/أحمد مختار العيادى

١٣- أزمنة التاريخ الإسلامى.

ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - الكويت.

الجزائرى :أبو بكر جابر

١٤- هذا الحبيب محمد يا محب

الناشر :مكتبة لينة

الطبعة الثانية: -١٤١١هـ١٩٩١م.

ابن حجر : شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على العسقلانى/ت ٨٥٢هـ

١٥- الإصابة فى تمييز الصحابة - عدد الأجزاء ستة أجزاء

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

الناشر :دار إحياء التراث العربى - بيروت لبنان

ابن الجوزى:-جمال الدين أبى الفرح عبد الرحمن بن على

١٦- المنتظم فى تواريخ الملوك والأمم/عدد الأجزاء عشرة أجزاء.

تحقيق:- أ.د/سهيل ركاز

الناشر - دار الفكر

ط/١٤١٥هـ/١٩٩٥م - بيروت - لبنان.

١٧- تهذيب التهذيب عدد الأجزاء ١٢ جزء

الناشر :دار الكتاب الإسلامى.

١٨- فتح البارى شرح صحيح البخارى

قام بترقيمة وكتابته صححه وأخرجه

محمد فؤاد عبد الباقى محب الدين الخطيب

راجعة :قصى محب الدين الخطيب

الناشر :دار الريان للتراث

الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ -١٩٨٧م)

ابن جزم :- ابن حزم الأندلسى (ت -٤٥٦هـ)

١٩- حوار مع السيرة النبوية

الناشر :مكتبة التراث الإسلامى

ط ١٩٨٢

الحلبى:- على برهان الدين /ت ٩٧٥- ١٠٤٤هـ.

٢٠- السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون إنسان العيون.

عدد الأجزاء :- ثلاثة أجزاء

الخضرى :- محمد بك

٢١- نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين

الناشر:- دار إحياء التراث العربى -بيروت لبنان

خياط:خليفة (ت/٢٤٠هـ)

٢٢- تاريخ خليفة بن خياط

تحقيق:- د/أكرم ضياء العمرى

الناشر:دار طيبة

الطبعة الثانية:١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

الذهبى:- الحافظ المؤرخ - محمد أحمد بن عثمان (ت/٧٤٨هـ)

٢٣- السيرة النبوية

تحقيق:- حسام الدين القدسى

الناشر:- دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

الطبعة الثانية - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

الرازى:- محمد فخر الدين بن العلامة ضياء الدين

٢٤- تفسير الفخر الرزازى - المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب.

الناشر:- دار الفكر - بيروت - لبنان

الطبعة الثانية :- ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م

رضا :- محمد رضا

٢٥- محمد رسول الله

دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

ط - ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م

الزمخشرى:- الإمام محمود بن عُمر ت (٥٢٨هـ)

٢٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزسايل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل.

عدد الأجزاء:- أربعة أجزاء/صححه:- مصطفى حسين أحمد

الناشر:- دار الكتاب العربى ط ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

أبوزهرة :- الإمام محمد

٢٧- خاتم النبيين -ﷺ-

الناشر:- دار الفكر العربى

ابن سعد :- محمد بن سعد بن منبع الهاشمى البصرى

٢٨- الطبقات الكبرى عدد الأجزاء ثمانية

تحقيق:محمد عبد القادر/ عطا

الناشر:-دار الكتب العلمية - بيروت لبنان

الطبعة الأولى - ١٤١٠هـ-١٩٩٠م

أبو سعده:-د.محمد جبرود/عبد الشافى عبد اللطيف.

٢٩- التاريخ الإسلامى من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية ١٣٢هـ/ط ١٩٨٦.

السمهودى:- نور الدين على بن أحمد

٣٠- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى عدد الأجزاء أربعة.٠

تحقيق: محمد محى الدين عبد المجيد.

الناشر:- دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ٠ (بدون)

السهيلى:- أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد

٣١- الروض الأنف

تعليق:- طه عبد الرؤف سعد

الناشر :- مكتبة الكليات الأزهرية

طبعة :- ١٧٣١ - ١٩٧٣م

ابن سيد الناس:- الحافظ أبى الفتح محمد بن محمد بن محمد اليعمرى (ت-٧٣٤هـ)

٣٢- عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير

تحقيق: محمد العيد الخطراوى - محى الدين مستو

الناشر:- دار التراث - دار المعوفة.

الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

مطبعة بيروت - لبنان.

السيوطى: - جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت٩١١هـ)

٣٣- تاريخ الحلفاء

تحقيق :- محمد محى الدين عبد المجيد

الطبعة الأولى ١٣٧١هـ-١٩٥٢م

الناشر :- مطبعة السعادة. شاكر: محمود شاكر

شاكر : محمود شاكر

٣٤- التاريخ الإسلامى قبل البعثة والسيرة -عدد الأجزاء تسعة أجزاء.

الطبعة السابعة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

شاكر :- مصطفى

٣٥- التاريخ العربى والمؤرخون

الناشر:- دار العلم للملايين بيروت - لبنان

الطبعة الثالثة ١٩٨٣

ابن شهبة: أبو زيد عمر بن شهبة التميرى البصرى (ت ١٧٣هـ - ٢٦٢م)

٣٦- تاريخ المدينة المنورة (أخبار المدينة المنورة)عدد الأجزاء أربعة.

تحقيق :- فهيم محمد شلتوت.

الناشر :- دار التراث

الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م بيروت - لبنان

شراب :- محمد محمد حسن شراب

٣٧- المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (جزءان)

الناشر : دار القلم دمشق /دار الشامية بيروت

الطبعة الأولى ١٤١٥ -١٩٩٤

شلبى :- أبو زيد شلبى

٣٨- خالد بن الوليد البطل الفاتح

الناشر : دار الفرجانى

الشناوى :- عبد العزيز الشناوى

٣٩- نساء الصحابة

الناشر: مكتبة التراث الإسلامى

ط/٢٩٠٨ - ١٩٨٨م

الصابونى:- محمد على الصابونى (ت....)

٤٠- مختصر تفسير ابن كثير

الناشر :دار القرآن الكريم - بيروت

الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ- ١٩٨١م

الصالحى :- الإمام :محمد بن يوسف الصالحى الشامى (ت /٩٤٢هـ)

٤١- سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد

عدد الجزاء ١٢ جزء

تحقيق: الشيخ:عادل أحمد عبد الموجود/الشيخ على محمد معوض

الناشر :دار الكتب العلمية – بيروت لبنان

الطبعة الأولى:١٤١٤هـ – ١٩٩٣م

٤٢- السيرة النبوية الصحيحة (جزءان)

الناشر :- مكتبة العلوم والحكم

الطبرى:- أبى جعفر محمد جرير الطبرى (ت/٢٢٤ – ٣١٠هـ)

٤٣- تاريخ الرسل والملوك عدد الأجزاء (عشرة)

تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم

الناشر :دار المعارف بمصر

طبعة: ١٩٥٨م

الطهطاوى:- السيد رفاعه رافع الطهطاوى(ت......)

٤٤- تفسير الطبرى – جامع البيان – تحت تأويل القرآن

تحقيق محمد محمود شاكر

الناشر : دار المعارف بمصر

طبعة ١٩٥٨

٤٥- نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز -ﷺ-.

تحقيق :عبد الرحمن حسن محمود وفاروق حامد

الناشر : مكتبة الآداب -- بدون -

ابن عبد البر:الحافظ يوسف بن عبد البر النمرى (ت/٣٦٨ - ٤٦٣هـ)

٤٦- الدور في اختصار المغازى والسير

تحقيق :د/شوقى ضيف،

الناشر :دار المعارف

الطبعة الثانية/٣٦٣٠ - ١٩٨٣

ابن عبد الحق:- صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى (ت ٧٣٩هـ)

٤٧- مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع

عدد الأجزاء (ثلاثة أجزاء)

تحقيق:- على محمد البجاوى.

الناشر:دار إحياء الكتب العربية

الطبعة الأولى [١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م]

عبد الرحمن:سامح عبد الرحمن فهمى

٤٨- المكاييل

الناشر :- مكتبة الفيصلية - مكة المكرمة.

عبد الوهاب :الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت /١٢٤٢هـ)

٤٩- مختصر سيرة الرسول -ﷺ-
نشر:قص محب الدين الخطيب
(الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ)
العمرى:- أكرم ضياء العمرى
عطية الله :- أحمد عطية الله (ت.....)
٥٠- القاموس الإسلامى - عدد الأجزاء (خمسة)
الناشر :مكتبة النهضة المصرية.
طبعة:-١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م
غنيم: د/عبد العزيز غنيم
٥١- فلسفة السيرة
الناشر: دار الوفاء للطباعة
ط/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م
الفاسى :- الإمام تقى الدين محمد بن أحمد الحسينى الفاس المكى
(ت/٧٧٥- ٨٣٢هـ)
٥٢- العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين عدد الأجزاء (ثمانية)
تحقيق: محمد حامد الفقى
الناشر: مؤسسة الرسالة.
الطبعة الثانية - ١٤٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
فريد :أحمد فريد (ت.....)
٥٣- وقفات تربوية مع السيرة النبوية

الناشر :- دار ابن القيم

الطبعة الأولى :- ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

ابن القيم:- الإمام شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى (ت٦٩١ -٧٥١هـ)

٥٤- زاد المعاد فى هدى خير العباد عدد الأجزاء أربعة

تحقيق:

شعيب الأرنؤط وعبد القادر الأرنؤوط

الناشر :- مؤسسة الرسالة/مكتبة المنار الإسلامية

الطبعة الثالثة عشر ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

ابن كثير:- الإمام الجليل عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى. (ت/٧٧٤هـ)

٥٥- البداية والنهاية عدد الأجزاء (أربعة عشر جزءاً)

الناشر :دار الفكر -بيروت

ط ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

المباركفورى:- صفى الرحمن المباركفورى

٥٦- الرحيق المختوم

الناشر: - دار النشر للثقافة والعلوم الإسلامية

الطبعة الولى :- ١٤١٨هـ - ١٩٨٧م

محفوظ :- محمد جمال الدين

٥٧- مقال بمجلة المجاهد /رجب

العدد /١٩٥١ رجب /١٤١٧هـ

المقريزى :- تقى الدين أحمد على (ت /٨٤٥هـ)

٥٨- إمتاع الأسماع بما للنبى -ﷺ-من الأنبياء والأموال والحفدة والمتاع

تحقيق:- محمد عبد الحميد النميس

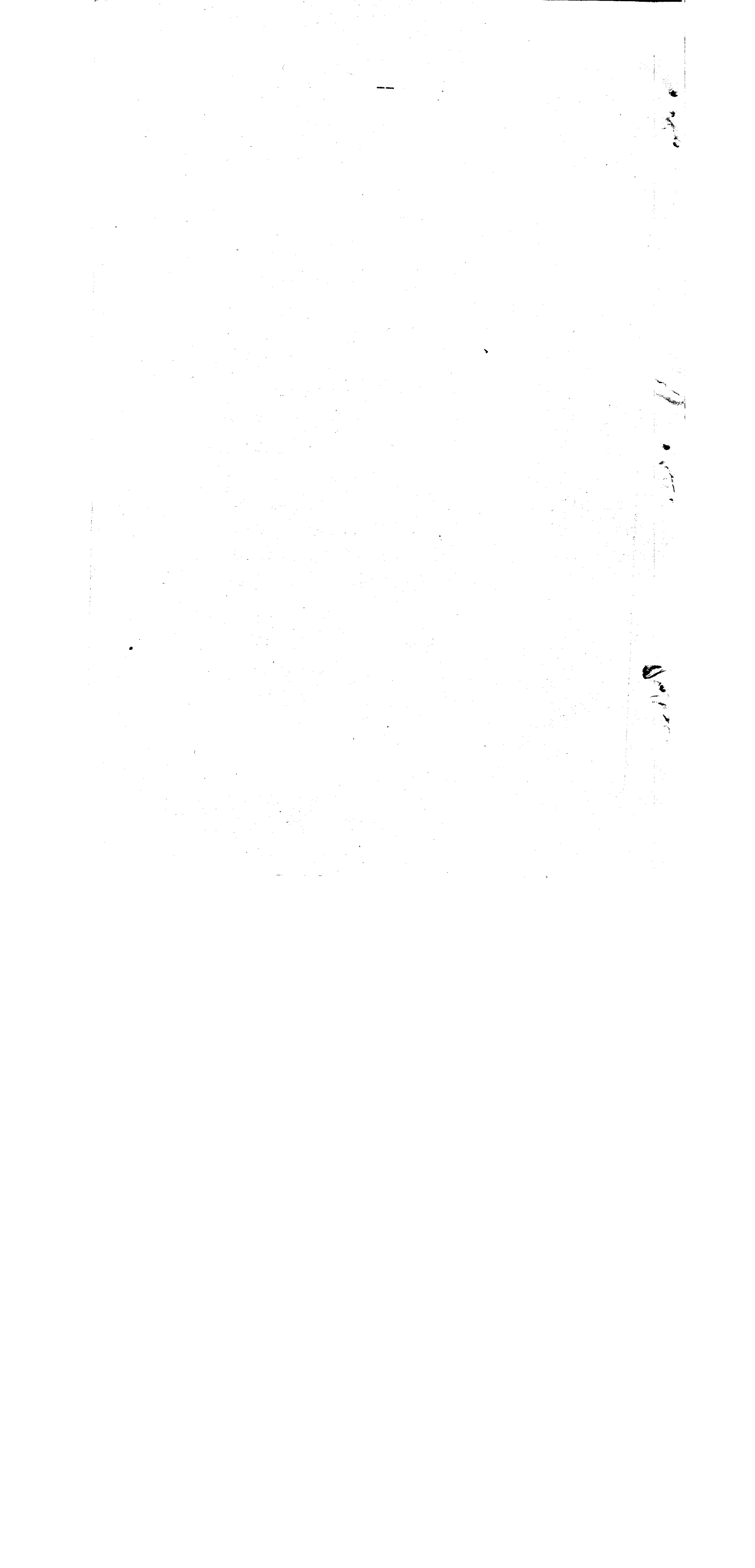
مراجعة:د/محمد جميل غازى

الناشر:- دار الأنصار -القاهرة

الطبعة الأولى:- ١٤٠١هـ-١٩٨١م

الملطاوى: حسن كامل الملطاوى(ت......)

رسول الله فى القرآن الكريم



الفهرس

المقدمة	أ-هـ
الفصل الأول	١
-مقدمات الهجرة	١
-الرسول يلتمس النصير فى القبائل	٥
-بيعتا العقبة الأولى والثانية	٧
-المؤامرة القريشية فى دار الندوة	١٧
الفصل الثانى	٢٥
-الهجرة إلى المدينة	٢٥
-فى الطريق إلى المدينة	٢٥
الفصل الثالث	٣٦
-أسس الدولة الإسلامية	٣٦
-بناء المسجد	٣٦
-المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	٤٢
-المعاهدة مع اليهود	٤٨
-تحويل القبلة	٦٠
الفصل الرابع	٦٦
-جهاد النبى والذين آمنوا معه ضد المشركين	٦٦
-مشروعية القتال	٦٧
-السرايا قبل بدر	٧٨

الفصل الخامس ٨٩
-من بدر إلى الأحزاب ٨٩
-غزوة بدر الكبرى ٨٩
-صور من البطولات فى بدر ١٠٨
-نزول الملائكة فى بدر ١١٤
-أضواء على مواقف سيد الأنام من توابع معركة الفرقان ١٢٧
-موقف النبى من قتلى المشركين ١٢٧
-موقف النبى من غنائم المشركين ١٢٩
-موقف النبى من أسرى بدر ١٣٤
-أسباب الإنتصار فى بدر ١٤٨
-بين بدر وأحد ١٥٢
-سرية الكدر ١٥٣
-غزوة غطفان أو ذوى أمر ١٥٤
-غزوة بنى قينقاع ١٥٦
-سرية كعب بن الأشرف ١٦٥
-غزوة أحد ١٦٨
-المؤمنون فى الطريق إلى أحد ١٧٤
-نشوب المعركة ١٧٧
-دور النسوة المسلمات فى معركة أحد ١٨٥
-المسلون ينظرون شهداء أحد ١٨٩
-صدى غزوة أحد على المدنيين ١٩١
-معركة أحد فى الميزان ١٩٤
-غزوة حمراء الأسد ١٩٨

-غزوة الرجيع ٢٠٦
-يوم بئر معونة ٢١١
-إجلاء بنى النضير ٢١٤
-غزوة بدر الموعد ٢٢٢
الفصل السادس ٢٢٥
-غزوة الأحزاب ٢٢٥
-موقف المسلمين بالمدينة بعد وصول المشركين ٢٣٢
-هزيمة الأحزاب ٢٤٠
-غزوة بنى قريظة ٢٤٤
-بنو قريظة يتشاورون ٢٤٧
-حكم الله فى بنى قريظة ٢٥٢
-سرية بنى لحيان ٢٥٧
-غزوة بنى المصطلق ٢٥٩
-صلح الحديبية ٢٧٦
-السفارات بين قريش والنبى فى الحديبيه ٢٧٩
-عقد الصلح ٢٨٣
-قدوم أبى بصير إلى المدينة ٢٩٣
-غزوة خيبر ٢٩٧
-غزوة مؤته ٣١١
الفصل السابع ٣١٧
-من فتح المبين لوفاة سيد المرسلين ٣١٧
-فتح مكة ٣١٧

-زلة صحابى وموقف نبى ٣٢٣
-خروج النبى لفتح مكة ٣٢٦
-دخول المسلمين مكة ٣٢١
-غزوة حنين ٣٣٨
-نشوب المعركة ٣٤١
-قضية نزول الملائكة فى حنين ٣٤٤
-توزيع غنائم حنين ٣٤٧
-الخروج إلى الطائف ٣٥٤
-غزوة تبوك ٣٦٠
-دور المنافقين فى غزة تبوك ٣٦٤
-خروج المؤمنين من المدينة إلى تبوك ٣٦٨
-مسجد الضرار ٣٧٥
-موقف النبى والمسلمين من الثلاثة المخلفين ٣٧٧
-عام الوفود ٣٨٥
-حجة الوداع ٣٩١
-وفاة النبى -ﷺ- ٣٩٤
الخاتمة ٤٠٥
المصادر والمراجع ٤١٠
الفهرس ٤٢٤